كلمة الوزارة

الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

أكـــثر الآداب رواجـــــاً

لا توجد قصة بوليسية في الأدب من دون ضحية وقاتل. لذلك تعتبر أقدم قصة بوليسية في التاريخ هي قتل قابيل لأخيه هابيل. في جميع القصص البوليسية، ثمة دافع، فالجرائم -مهما كانت غرابتها- لا ترتكب عبثاً. ولكن أقدم تأليف أدبي لقصة بوليسية جاء مع الإغريق، ففي «الأورستية» لأسخيلوس، يقتل أجستوس

وكليتمنسترا الملك آغاممنون ويرثان عرشه، ثم تحرض ابنة القتيل الكترا أخاها أورست للانتقام، فيجهز على أمهما وعشيقها المجرم، قبل أن تطاردهما أشباح الانتقام لاقترافهما جريمة قتل أحد المحارم. أيضاً، نجد دافع السلطة والجنس، ثم دافع الثأر، محرضاً لفعل القتل. لكن أروع تخيل بوليسي جاء مع مسرحية «أوديب ملكاً» لسوفوكليس، لأن فيها عنصراً فريداً ورائداً في الأدب البوليسي، هو أن المحقق والمجرم هما شخص واحد، وذلك حين يكتشف أوديب -وهو يحقق فيمن قتل سلفه ملك البلاد- أدلة قاطعة تؤكد له أنه القاتل الذي أجهز عليه من دون معرفة لهويته، وأن الملك القتيل ليس إلا أباه الذي نفاه طفلاً، وأن زوجة الملك القتيل جوكاستا التي تزوجها ليست سوى أمه، وأن ابنتيه أنتيغون وإيسمين هما أختاه في الوقت نفسه. عندئذ، يقتلع عينيه بيديه عقاباً لنفسه على ما اقترف من آثام.

ننتقل إلى عصر شكسبير، فنجده كتب بعض أروع القصص البوليسية في شكل مسرحيات تراجيدية، نذكر منها على سبيل المثال: «ريتشارد الثالث»، «ماكبث»، و«هاملت»، ونعتقد أن بطل الأخيرة مستلهم من مزيج من «الكترا وأورست». بل يمكننا اعتبار العنصر البوليسي غالباً حتى على مسرحية «عطيل»، التي يقود فيها ضابط الصف ياغو قائده عطيل، المغربي الأسود، إلى الشك بزوجته البيضاء النبيلة دزدمونه، وخنقها، تاركاً عدة ضحايا في سبيل تنفيذ غايته الآثمة الشريرة. وعلى الرغم من أن ياغو يرفض الإفصاح عن دافع لشره في ختام المسرحية، إلا أن النقاد تباروا في تفسيرات دوافعه، كما تباروا في تفسير دوافع الليدي ماكبث وزوجها ماكبث لارتكاب جرائمهما.

لا غرابة أن الأدب البوليسي هو الأكثر رواجاً في العالم بأسره، فهو يجمع ما بين سمتي التشويق والإتقان عندما ينال النجاح، وهو يتضمن لعبة ذكاء يشرك المؤلف فيها القارئ. ولا يجهل أحد اسم أغاثا كريستي كواحدة من أنجح مؤلفات القصص البوليسية على مرّ العصور، وأكثرهن رواجاً، خاصة عبر بطليها هركول بوارو أو مس ماربل، وإن كانت إحدى أشهر رواياتها «عشر هنود حمر»، التي قمت باقتباسها تلفزيونياً في مسلسلي «المجهول»، تخلو من كليهما، بينما نجدهما يتصدران روايتيها اللتين تجري أحداثهما المثيرة في مصر والعراق.

كما نجد أن اسم المحقق البارع شرلوك هولمز قد طغى على اسم مؤلفه سير آرثر كونان دويل، الذي صور شخصيته في تلك الروايات باسم الدكتور واطسن، رفيق هولمز في مغامراته ذائعة الصيت. يزج المؤلف البوليسي الناجح قارئه في سباق محموم معه أحياناً إما لاكتشاف هوية القاتل قبل نهاية القصة، أو لمجاراة عبقرية محققها في اكتشاف الأدلة والإيقاع بالفاعل. وهناك أدباء اشتهروا بكتابة الأدب البوليسي، مثل داشيل هاميت، إدغار والاس، موريس لوبلان (مبتدع شخصية اللص الظريف أرسين لوبين الشهيرة التي نجحت أدبياً، وأخفقت سينمائياً،) جورج سيمنون (مبتدع شخصية المفتش ميغريه) ميكي سبيلين (مبتدع شخصية المحقق الخاص مايك هامر التي اقتبست للسينما والتلفزيون،) ولسلي تشارتريس (مبتدع شخصية «القديس»)، ولا ننسى ألستر ماكلين كأحد أبرز نماذج كتاب قصص التشويق. أما أحدث نجوم التأليف البوليسي المشوق فهو بلا شك دان براون، الذي كتب روايته ذائعة الصيت، والتي حولت إلى فيلم سينمائي، «شيفرة دافنشي» أخرجه رون هوارد، ولعب بطولته توم هانكس وأودري توتو. كما كتب براون رواية

أخرى قبلها لبطله الأستاذ الجامعي روبرت لانغدون هي «ملائكة وشياطين» يجري الآن تصويرها سينمائياً، فضلاً عن روايتين أخريين لأبطال مختلفين، هما «القلعة الرقمية» و«حقيقة الخديعة».

تسلل الأدب البوليسي إلى الأدب العادي، وترك بعض بصماته عليه، كما هو الحال مع فيودور دوستويفسكي في روايته الشهيرة «الجريمة والعقاب»، وهي رواية نفسية عميقة، أو في روايته الأخرى الفلسفية/ النفسية الشهيرة أيضاً «الإخوة كرامازوف». ومن أشهر نماذج الأدب البوليسي الذي ألهم السينمائيين، وأصبح محوراً لكثير من أفلام الإثارة والتشويق، نموذج جرائم القتل المتسلسلة، حيث يحير قاتل غامض الشرطة بارتكابه سلسلة جرائم قتل تبدو من الظاهر اعتباطية، إلى أن يجد المحقق أو المحققة رابطاً منطقياً بينها يقود إلى اكتشاف الفاعل. ومن أشهر نماذج هذا النمط فيلم «صمت الحملان» للمخرج جاك ديمي، وسلسلة الأفلام التي تلته وتمحورت حول شخصية هانيبال، التي أداها سير أنتوني هوبكنز، وهو طبيب نفسي أدين بقتل ضحاياه والتهام لحمها، لكنه يساعد على الكشف عن مجرمين مشابهين له. لكن أقدم مجرم غامض روع الناس بجرائمه المتسلسلة هو «جاك السفاح»، الذي دأب على قتل العاهرات في لندن بطرائق دموية بشعة، وألهمت قصته الغامضة الغريبة كثيراً من مخرجي السينما والتلفزيون في أكثر من إنتاج، لعل أفضلها العمل الذي لعب دور المحقق فيه النجم مايكل كين. وعلى ذكر هذا الممثل، فقد شارك سير لورنس أوليفييه بطولة عمل بوليسي ممتاز هو «سلوث» (أو المحقق) من تأليف أنتوني شيفر، وهو عبارة عن لعبة ذكاء بين شخصين.

على وجه العموم، يمكن القول إن ثمة نموذجين لبناء القصة البوليسية: الأول هو أن يبحث محقق عن حل سر جريمة واكتشاف الفاعل، كما في روايات أغاثا كريستي من بطولة هركول بوارو أو مس ماربل. أما النموذج الثاني، فهو الذي نتعرف فيه على الجريمة وفاعلها، ولكن الإثارة تكمن في فن الإيقاع بالمجرم، وحصار المحقق له بالأدلة القاطعة، وهو نموذج مسلسل «كولومبو» التلفزيوني الشهير. هناك أعمال أدبية وسينمائية وتلفزيونية كثيرة انضوت تحت هذا النموذج أو ذاك، نذكر منها مسلسل «الكاتبة المحققة» المشابه لأعمال أغاثا كريستي من النموذج الأول، كما نذكر «ماكميلان وزوجته» للنجم الراحل روك هدسون من النموذج الثاني. وسيذكر كل قارئ عشرات النماذج من الروايات أو الأفلام التي تصب جميعاً في أحد هذين النموذجين، أو التيارين الرئيسيين. ولكن من بين أنجح الشخصيات البوليسية التلفزيونية «كوجاك» الذي أداه تيلي سافالاس. أما سينمائياً، فيطلق على طراز شائع من الأفلام البوليسية الصارمة وزهيدة التكلفة اسم «الفيلم الأسود». وظلت هذه التسمية تستخدم حتى مع أفلام أحدث صورت بالألوان.

لكن المؤكد أن أروع القصص البوليسية هي تلك التي تمتلك انحرافات مفاجئة في مسار حبكتها، مما يحير القارئ، ويقضي على توقعاته. لدى أغاثا كريستي، كما لدى دان براون، تلك الموهبة الفذة. فالقاتل الخبيث الماهر هو الذي يسبق المحقق بخطوة، إلى أن يتمكن المحقق خلسة من مجاراته وسبقه. ولكن المشوق والمثير -كما في أفلام عبقري السينما الفريد هتشكوك- هو أن يوجه المبدع شبهتنا نحو شخص أو أكثر، ثم نكتشف أنهم براء، وأن الفاعل الحقيقي هو أبعد

الأشخاص في أذهاننا عن الجريمة. ومرة أخرى، نركز على مسألة الدافع، لأنه غالباً ما لا يكون المشتبه الظاهري الذي تشير إليه الشبهات هو الفاعل الحقيقي، لأن القصص البوليسية مركبة، والمجرم فيها ذكي جداً. ولكن، لا بد أن يرتكب المجرم هفوةً، وهذه الهفوة تقود للإيقاع به في آخر الأمر، مهما طال الزمن، وبرع في الحيلة والمكر. وفي بعض القصص البوليسية البارعة، نكتشف أن المجرم هو آخر من يخطر على البال. وأختم بطرفة دأب والدي على روايتها لي، ويعود عهدها إلى أربعينات القرن العشرين، إذ أقامت إحدى المجلات المصرية واسعة الانتشار مسابقة لأفضل قصة بوليسية غير منتهية، على أن يرسل الكاتب المشارك اسم القاتل في مغلف منفصل، فكان أن وصلتهم بين عشرات القصص قصة غريبة مشوقة نافست على الصدارة، ولكن المحكمين عجزوا عن اكتشاف القاتل فيها، فلما فتحوا المغلف الآخر وجدوا أن الكاتب حدد أن يكون «القارئ» هو القاتل! وكان أن نشروا القصة كطرفة مضحكة لكاتب مجنون!

كلمة العدد



احتفاليّة المعرفة

د. علي القيّم
رئيس التحرير

خمسون عاماً، مرّت على صدور العدد الأول من مجلة المعرفة، التي كانت، ومازالت المحطة الأكثر رسوخاً وثباتاً وحيويّة وإشراقاً في حياتنا الثقافية، وفي احتضان المعطى الثقافي والإبداعي في سورية والوطن العربي..

لقد لعبت «المعرفة» دوراً كبيراً في تفصيل الحياة الثقافية، ورصد الإبداع العربي (شعراً وقصة ومقالات ودراسات ومتابعات)، فكانت

الحاضنة لنتاجات الكبار من أدباء ومثقفي الوطن العربي خلال نصف قرن، أمثال: فؤاد الشايب- سليمان العيسى- حنا مينه- زكريا تامر- عبد السلام العجيلي- محمد الماغوط- وليد إخلاصي- جورج سالم- محي الدين صبحي- وعبد الكريم الأشتر- الطيب تيزيني- عبد الله عبد- حسام الخطيب- ممدوح عدوان- أنطون مقدسي- عفيف بهنسي وغيرهم من الأعلام الكبار.. وكانت المبشرة بعطاءات كثير من المبدعين الشباب الذين رفدوا المجلة بكثير من إبداعاتهم الجديدة التي أصبحت روافد لحياتنا الثقافية، المتجددة، وشكلت حضوراً مميزاً، وتفاعلاً حيوياً بين المثقف والناس.

احتفالية «المعرفة» بمناسبة مرور خمسين عاماً على صدورها، في زمن التردي الثقافي، وانحسار ما هو عميق وجاد ومواصل للمفاهيم الثقافية والفكرية التي تتصل براهن ومستقبل العرب.. يعني استمرارية التحدي ومواصلة المسير والطموح والعمل من أجل ثقافة عربية شاملة واستقطاب المفكرين والأدباء والباحثين للمساهمة والعمل من أجل نهوض ثقافي وفكري، نحن أحوج ما نكون إليه في عالم اليوم.. عالم الاستلاب والتغريب و«العولمة» التي لا تعترف إلا بذاتها..

لقد كانت «المعرفة» في سنواتها الماضية، تبحث عن الثقافة العربية في مضمونها الشامل، الواسع الأطياف، المنفتحة على الآخر، وعلى الإبداعات والأفكار والتراث بجوانبه المتعددة، في إطار علاقته مع العصر، وعوامل التجديد والتطوير والبحث عن آفاق واعدة تخدم قضايا أمتنا العربية وسبل النهوض بها وتأكيد ذاتها في عالم لا يعترف إلا بالأقوياء، وكان الحرص الدائم على أن يكون توجه «المعرفة» إلى الشريحة الأوسع من عشاق ومحبي الثقافة، على قاعدة الرغبة في تعميم الثقافة لأوسع قطاع ممكن من الناس، وبسعر رمزي لا يذكر، وخلال السنوات الماضية،

كانت مجلة «المعرفة» تنهض وتتعثر، ولكنها تعود إلى النهوض من جديد، وتتابع اكتمال ملامح دوريتها الشهرية من خلال العمل الدؤوب، والحرص على استمرار رسالتها وانتظام صدورها، والبحث عن القارئ المثقف الذي يتابع صدورها وينتظر إطلالتها مطلع كل شهر بكثير من الشوق والترقّب، وسط كمٍ هائل من الإصدارات التي تطل علينا من شتى أرجاء العالم، وأعتقد أن «المعرفة» استطاعت أن تستقطب القارئ العربي، لأنها عرفت كيف تفصل بين الغث والثمين، وتجيد النظر في أمر الفكر وتجلياته وتنوعه، والبحث في التجديد وآفاقه، مما ميّزها عن المجلات الثقافية الأخرى، التي تصدر في الوطن العربي..

* * *

عندما تسلمت رئاسة تحرير «المعرفة» في بداية عام ٢٠٠٤، أصبحت أستشعر مدى التحدي المطلوب لاستمرار صدورها، والحفاظ على توازنها وأهميتها لدى القارئ العربي، وقد عملت بكل إصرار وجهد على انتظام صدورها، ونجحت في ذلك بفضل تعاون أسرة تحريرها، وعمال مطبعة وزارة الثقافة الأكفاء، ونجحت باستقطاب مجموعة من الأدباء والمفكرين والباحثين والمترجمين، المشهود لهم بالخبرة والمعرفة والرصانة، ليكونوا معنا، بكتاباتهم وإبداعاتهم، وكانت مرحلة، ذهبنا فيها عميقاً نحو التحليل والكشف والحوار والدراسة، والتحليل الجمالي والنقدي والتراثي، المفعم بروح التواصل والتماذج وإقامة المعنى في زمن متحرك ومتسارع..

في البداية، طلبت من الباحث المؤرخ والفنان «أحمد المفتي» أن يضع «ماكيت» جديد للمجلة، يتناسب مع أهميتها وعراقتها، وقد استمد من أبجدية «أوغاريت» التي تمثل أقدم أبجدية معروفة في العالم، «وثورة» في عالم الفكر والمعرفة وتطور

الكتابة، لأنها اختصرت الإشارات الكتابية من /٦٠٠/ إشارة إلى /٣٠/ حرفاً، في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد.. وطلبت من مجموعة من الفنانين التشكيليين في سورية، موافاة «المجلة» بإنتاجاتهم من الرسوم «الموتيفات» لتعطي المقالة أو الدراسة «حركية» فنية، ورشاقة بعيدة عن الثوابت، والأسلوب الواحد، كما قمت بالعناية بالغلاف (الداخلي والخارجي) وكانت ولادة لصفحة «من كنوزنا الأثرية» و«من كروم الجمال» للإطلالة على عالم الآثار وجمالية القطع الأثرية المكتشفة في بلادنا، وجمالية الفن التشكيلي السوري المعاصر من خلال التعريف بأعمال رائعة ولوحات شهيرة تركت أثرها في الذائقة الجمالية، وتمّ ذلك ضمن تناغم شامل، ورؤية عميقة، وآفاق واعدة..

شهرة مجلة «المعرفة» لم تنبع من فراغ، وهي لم تتخلَّ عن رسالتها التي وجدت من أجلها منذ العدد الأول، وحتى اليوم.. وقد آلت على نفسها أن تأخذ صفة الشمولية الثقافية والمعرفية، وقد اكتسبت هذه الصفة بقوة وجدارة، لأنها كانت منبراً حرّاً للحوار وتلاقح الأفكار والبحث عن الجديد في مجالات التراث والشعر والقصة والمسرح والنقد الأدبي والترجمة والصحة النفسية والتعليم والتربية والفن التشكيلي والآثار وغير ذلك.

وبذلك تمكّنت «المعرفة» من تثبيت وجودها وتكريس ذاتها بقوة على الساحة العربية، كمنارة ثقافية، واسعة الأطياف، قادرة على عكس المشهد الثقافي في سورية والوطن العربي، من خلال رؤية واعية وعميقة لأهمية الثقافة، ودورها في عمليّة التنميّة المستدامة، وحركة التطور والازدهار التي نرجوها ونتمنّى القيام بها في شتى أرجاء الوطن العربي..

متغيّرات «العولمة» جعلت من رسالة «المعرفة» حاجة ملحّة أكثر من أي وقت

مضى، حيث اختلط الثقافي بالاقتصادي والسياسي بالاستراتيجي، مما جعلنا نهتم بنشر مقالات ودراسات وإبداعات ذات صبغة إنسانية شاملة، تقيم حوارات بين الثقافات والحضارات والشعوب، وتقوم بالتثقيف بكيفيّة معرفة الآخر، من منطلق أن الثقافة داخلة في كل ما يتصل بالإنسان فكرياً وأخلاقياً ونفسياً وسياسياً واقتصادياً، وأنه خير لنا أن ننظر طامحين آملين إلى ثقافة آتية، من أن نقف على أمجاد ثقافة ماضية..

* * *

منطلق نشر واختيار الموضوعات والدراسات التي نشرت في «المعرفة» كان يعتمد على مقولة: «الأجيال القادمة يجب ألا تكون أسيرة نمط معيّن من المعلومات والدراسات.. علينا أن ننتقل من الأقوال إلى الأفعال، وعلينا الاستفادة من الإرث الحضاري والتاريخي الذي يجمعنا منذ العصور القديمة، حتى يومنا هذا» وهذا يحتّم علينا وضع الأحداث والفعاليات في إطارها التاريخي، على قاعدة أن حلول الماضي لاتحل إلا إشكاليات الماضي، ويحتم أيضاً العمل على تقويض جدران الفصل بين الحضارات، وتقوية تيار الثقافة المستنيرة، أو ما يطلق عليه تيار الثقافة العربية المنفتحة، بعيداً عن المنهج السلبي، السائد في عالم «العولمة»، هذا العالم الذي يميل إلى أيديولوجيا «صراع الحضارات» ورسم الحدود بين الثقافات..

لقد حرصنا على نشر مقالات ودراسات تثير الأسئلة والحوار في عالم المعرفة والفكر والأدب والفنون والتراث المادي واللامادي، وما فيها من خواص وإشكالات وتداخلات ووظائف.. وكان الهدف تفصيل الكامن الحضاري والتراثي والعصري عامة، في خطابنا الثقافي والإبداعي المستقبلي، والخوض في غمار التساؤلات المتجددة، من دون إهدار للقيم الثقافية العربية التي مازالت رغم مرور الزمن تحمل في كثير من جوانبها مشروعية راهنة، وقيمة مستقبلية..

لقد شكّلت «المعرفة» خلال عقودها الزمنية الخمسة، منبراً أدبياً وثقافياً وفكرياً على امتداد الوطن العربي، وازداد هذا المنبر اتساعاً وانتشاراً بعد أن أصبح بإمكان كل قارئ في شتى أرجاء العالم، أن يطل على صفحاتها ومحتوياتها من خلال موقعي وزارة الثقافة، والهيئة العامة السورية للكتاب، مما خلق تواصلاً ثقافياً جديداً بين القارئ والمجلة، والإبداع المتميّز الذي تنشره، وتحافظ على مستواه بفضل كتّاب كبار يتواصلون معها، ويواكبون المستجدات الثقافية والأدبية والتراثية والنقدية.. «المعرفة» بفضلهم أصبحت مرجعاً ثقافياً وأدبياً وتراثياً للحركة الثقافية في سورية والوطن العربي، وكانت منذ بداياتها الأولى في قلب التحدي، تواكب المستجدات والتحولات الثقافية والفكرية والفنية والإبداعية وتعيش داخل الزمن، مع الإقرار بحتمية التغيير في جوهر الأشياء لا سطحها، من منطلق أن الثقافة يمكن أن تكون رأس الحربة في التمهيد للتطور والأكثر حساسية وتأثيراً في الوعي العام لبلوغ أمانينا وأحلامنا الكبيرة..

السؤال الذي يطرح نفسه: ماذا يمكن أن تفعله «المعرفة» مع انحسار دور الثقافة والمثقفين في المجتمع العربي، وانخفاض النتاج الثقافي العربي إلى أدنى مستوياته عالمياً، وتراجع القراءة إلى آخر قائمة اهتمامات الشباب العربي.. نقول: هذا الواقع لا ننكره، وهذا يتطلب تكثيف الجهود لإعادة الثقة بالمثقفين وبدور الثقافة التي أصبحت -في عالم اليوم- من أبرز حقول الصراع المعاصرة، وتكاد تفوق بأهميتها الصراعات العسكرية والاقتصادية رغم أنها لا تنفصل عنها..

العيب ليس في الثقافة ودورها الريادي، بل في تطبيقها، وعدم العمل على تفعيل دورها في المجتمع.. في وقت نجد أنفسنا معنيين، أكثر من أي وقت مضى، بمواصلة دورنا، في شق الطرق وإثارة الأسئلة الثقافية، والعمل على مشاركة

المثقفين في حياة الناس، والبحث عن «المعنى» والرؤى المنهجيّة، وإعادة الاعتبار للقيمة الفنيّة والإبداعية، والوقوف في وجه الانحطاط والتقهقر، وفقدان الثقة بالثقافة والمثقفين، ورواج الأعمال السطحية من فنون وآداب..

* * *

لقد وجدت من خلال عملي في «المعرفة» وحقولها الغنية المتنوعة، إن وعي الذات، هو السبيل الوحيد لمعرفة طريق المستقبل، واكتشاف آفاق التطور والخلاص من المأزق الراهن الذي نعيش حالته وظلمة احتمالاته، وعدم قدرتنا على ضبطها..

ليس لدينا مقترحات محددة، فالمآزق والحالات متعددة ومتشابكة، وما يهمّنا قوله أن لا خروج من أي أزمة ثقافية أو فكرية أو إبداعية، من دون مواجهة الواقع وتفكيك عناصره وتحطيم مراياه، ومن دون التفكير الحي، وكسر السقوف الغيبيّة، والخروج باستمرار من الذات نحو الانفتاح، والعمل من أجل صون قيمنا وثقافتنا وهويتنا -كما نريد- لا كما يريد صنّاع «العولمة» والقتل والدمار و«صراع الثقافات» و«صدام الحضارات».

عبر التاريخ كانت الجسور ممتدة بين ثقافتنا والعالم، وهذا ما تحاول ثقافتنا، أن تقوم به، بعيداً عن ثقافة الاستلاب والتغريب والترهيب.. نحن لا نريدها مطلقاً ثقافة تكتفي بنقد الذات، ونقد ما فات من دون اقتراح معاني جديدة، وآفاقاً واعدة، ومعطيات مستنيرة، تقف بقوة وجزم أمام الاستسلام ورهاب الفكر و«صراع الأيديولوجيا».

الثقافة العربية في وقتنا الراهن، تحتاج إلى مشروع نهضوي متجدد، يطرح فيه بقوة، دور المثقفين وموقعهم الذي يفترض أن يحتلوه داخل المشروع، لأنه

يستحيل التطور والتحديث من دون دور فاعل وحيوي للثقافة والمثقفين، وقد طرح هذا الموضوع في دورات عديدة لمؤتمرات الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي، وفي الخطة الشاملة للثقافة العربية، التي أقرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في عام ١٩٨٥، وحدثتها في خريف عام ٢٠١٠، وكان الهدف منها تحقيق انطلاقة حضارية عربية تستند إلى عملية انتقاء بروح نقدية مثقفة ومسؤولة، من ماضي الأمة العربية العريقة بتجلياتها المشرقة، لتزاوجها مع أفضل ما أفرزته الحداثة في هذا العصر من قيم الحرية والعدالة واحترام حقوق الإنسان والمساواة بين البشر وتشجيع الإبداع وتبجيل العلم وتأكيد قيمة العمل، والإنسان هو الهدف والمنطلق والغاية، وفي «المعرفة» حاولنا أن نتواصل مع هذه الخطة، بكل أبعادها وآفاقها وغاياتها، فكانت منبراً للقول الحر، وميداناً لاحتضان المبدعين، وأداة لإحياء الذاكرة، وقاطرة نحو مستقبل أفضل، من منطلق أن الثقافة هي الرابط بين جذورنا وتراثنا، وبين إلحاحنا على مواكبة العصر، فنكون في صنعه مؤثرين فعلاً، لا مجرد متلقين.. وكانت رحلة بحث ودراسة وتقصي ومعرفة أدخلتنا في حوار مع الذات والآخر، في محاولة لصنع الغد الذي نحلم به، مثلما يفعل الملاح الذي يحاول استباق الريح التي أخذت تهب، وأن يسرع بالرجوع إلى الميناء سالماً.

شهادات

بمناسبة مرور خمسين عاماً
على إصدار مجلة المعرفة

المعرفة

المعرفة

«مجلة المعرفة» ومشروع ثقافي، إلى أين؟

✪
د. طيب تيزيني

بعد عودتي من أوروبة قبل أعوام كثيرة ونيف وجدتني مندفعاً بحماسة حذرة. باتجاه إنجاز ملف للصحافة الفكرية في سورية، وخصوصاً في مدينة دمشق فقد لفتت نظري ظاهرة كانت قد تمثلت في حضورٍ كثيف للصحافة الفكرية اللبنانية في سورية، في حين كانت موازيتها في هذه الأخيرة ضئيلة. وبدأ الأمر وكأن هنالك تقسيم عمل في كلا البلدَين قائماً على أن يكون لبناء موطن الفكر نتاجاً وترجمة، في حين كان الأمر بسورية يفصح عن نفسه -عموماً وإجمالاً- في نتاج نمط محدد من الفكر هو السياسي. من جانب آخر، لوحظ في سورية ازدياد مضطرد للنشاط السياسي الأيديولوجي والحزبي، مُلتحماً بقدر أو بآخر بنشاط ثقافي

✪ فيلسوف عربي وأستاذ جامعي.

وفي أنساق متعددة، على حين كان النشاط السياسي في لبنان أكثر ظهوراً وفاعلية في الحياة العامة، ومعروف أن انقلابات عسكرية تعاقبت في سورية، إلى أنْ استقرت الأوضاع فيها مع الوحدة بينها وبين مصر. وسوف تعود السياسة العادية إلى الواجهة من جديد، وتستمر فترة قصيرة، ولكنْ لتتواتر بعدها بين الخط الفاعل والغياب والنّوسان. ونضيف إلى ذلك إن النتاج الثقافي المصري كان حاضراً بكثافة في سورية.

كانت تلك ملاحظات أولية أردت منها الإشارة إلى موقع الثقافة والحياة الثقافية في سياق تلك التغيرات والمنعرجات، التي مرت بها سورية في مرحلة هامة من تاريخها الحديث، وخاصة ما اتصل منها بذيول مرحلة ما بعد الاستقلال الوطني وما اقترن بها من إرهاصات ثقافية قد نعرّفها بأنها استشراقات لمشروع ثقافي قادم، قد يعوَّل عليه في البناء السياسي والثقافي الجديد.

في إطار تلك المعطيات ظهرت مجلة «المعرفة» في بداية ستينيات القرن المنصرم وكان عليها أن تكافح من أجل استمرارها، خصوصاً أنه لم يكن يوجد لها منافس، إضافة إلى أنها بسبب صدورها باسم وزارة الثقافة، فإنه لم يكن هنالك ما يؤرق مسيرتها، من الناحية المادية. فثمة جهة رسمية تؤمّن لها استمراريتها بكيفية منتظمة، في حين كانت الصحافة الثقافية الخاصة ـــ الحرة معرضة لانقطاعات وأزمات، ممّا وفرّ لجيل من الكتّاب والباحثين والمثقفين والشعراء والقاصين وغيرهم أن يجدوا أمامهم دورية يلجؤون إليها وفق واقع الحال آنئذ. وفي سبيل إيضاح هذا الأخير، في أهم اتجاهاته، يمكن القول بأن ذلك توافق مع النظام الدولي المهيمن، في حينه، وهو ذلك الذي تكرّس -من حيث الأساس- بهيمنة الثنائية الدولية بصيغة العالم الرأسمالي والآخر المناوئ الاشتراكي، مع الإشارة إلى أن ما اعُتبر ضمن العالم الثالث مثّل -باعتبار ماهو أساسي- حليفاً عضوياً لهذا العالم الأخير، في حين اندرجت تحت مظلة العالم الأول دول هُيمن عليها من قبله، إضافة إلى أنها رفضت الدخول في منظومة حلف باندونغ بين «دول عدم الانحياز». وعلى عكس ذلك، كان العالم الاشتراكي متضامناً مع الوطن العربي، وقدّم له مساعدات هامة في زمن السلم كما في زمن الحرب.

وثمة حالة ظهرت في مواقف كثيرة من المجموعات السياسية، وخصوصاً في موقفيّ اثنتين منها، هما المجموعة القومية العربية، والأخرى الاشتراكية الماركسية. فهذان الفريقان كانا يدركان أن وجود الواحد

منهما بالنسبة إلى الآخر ضرورة مبدئية في الحقلين النظريين كما في الآخرين العمليّين. وقد راح ذلك يُفصح عن نفسه في سياق التطورات السياسية المتلاحقة، التي راحت تمر بالبلد بحالة من التقدم الثقافي والسياسي تحديداً وإضافة إلى هذين الفريقين، راحت تتبلور علاقات أخرى بين فريقين اثنين آخرين تحدّرا من منطلقات دينية أو ليبرالية أو من كليهما.

كانت مجلة المعرفة قد اتخذت، غالباً، خطاً عاماً يتحرك، سياسياً، في حقل وطني وقومي واشتراكي وليبرالي منفتح عموماً، وإذا كان التوجه الديني، كذلك، حاضراً، إلا أنه أفصح عن نفسه - في العموم والإجمال- عبّر محاور متعددة انطلق منها كتّاب وشعراء ومترجمون ومثقفون في ضوء تناول محاور معينة: منها مثلاً محور التراث العربي الإسلامي، ومحور الحضارة العربية الإسلامية، ودراسات تاريخية دينية ولغوية عربية مقارنة. وليس دائماً كانت السياسة المباشرة تظهر في معالجات دينية مباشرة أو ذات خصوصية مباشرة. أي إن موضوعة علي عبد الرازق حول الإسلام غير السياسي، كان يجري تداولها وقد تجلت الأحداث الكبرى آنذاك في حالات كثيرة ضمن اهتمام أعداد متوالية من الكتّاب والباحثين وكان ذلك قد تجلّى في مثل حرب الجزائر والحرب الثلاثية الاستعمارية على مصر عام ١٩٥٨، وحرب فيتنام إلخ. فكانت «المعرفة» مجالاً أثيراً وخاصاً، أخذت تتحلق فيه وحوله مجموعات من الكتّاب المتنوعي الانتماءات السياسية والثقافية، إضافة إلى قدرة المجلة، برئاسة تحريرها وهيئة تحريرها ومستشاريها، على الدخول في أوساط جامعة دمشق، وعلى جذب بعض هؤلاء إليها كتّاباً ومراسلين وغيره.

ولم تخل المجلة السائرة قُدماً نحو صيغة من التقدم بالاعتبار الإعلامي والسوسيوثقافي، من الانعطاف نحو تيار فكري أو سياسي أيديولوجي أو أدبي أكثر من التيارات الأخرى. وكان ذلك من معطيات الواقع الثقافي في سورية وفي بلد عربي أو آخر، خصوصاً أن تلك الأولى (سورية) كانت في مرحلة (هي أوائل الستينيات فصاعداً) تمر بمنحنيات متعددة وأحياناً متصارعة، بين أحلاف استعمارية خارجية وتيارات سوسيو ثقافية تتواتر بين الدعوة إلى الاستبداد السياسي والمشاريع الانقلابية من طرف، وبين الديمقراطية البرلمانية من طرف آخر، وكذلك بين الديمقراطية الشعبية والدعوة إلى الليبرالية أو إلى التنظيمات السياسية الشعبوية، وكذلك

الأمر على صعيد التنظيمات المجتمعية، مثل رابطة الكتّاب السوريين وتنظيمات خاصة بالمرأة وبالطلبة وبالشبيبة وغيرها.

لم تكن مجلة المعرفة بعيداً عن ذلك الحراك السوسيو ثقافي والنقابي، وإنّ كانت غالباً حريصةً على البقاء خارج التيارات والحركة السياسية السورية المباشرة. ولكنّ في حالات معينة كانت إدارة التحرير تناط بأشخاص معينين بهويات سياسية حزبية محددة. وقد أصبح ذلك هو الأسلوب الأساس، الذي حكم معظم رؤساء التحرير، الذين تعاقبوا عليها. ولعلي أستعيد بعض المواقف المتحدرة عموماً من فترة السبعينيات، ممّا يسهم في إضاءة خصوصية العمل الثقافي، فكان على رأس المجلة ثلة من المثقفين الطلاب في جامعة دمشق. وكانوا من المقدرة أنهم استطاعوا إدارة العمل فيها على نحو جنّبها التوقف أو التلكؤ. ولكن ذلك ساعد على ظهور أفكار طريفة محفزة على تطوير العمل.

وثمة أمر كان وجوده في المجلة وغيابه عنها حالتين اقترنتا بنشاط من اهتم بها ورعاها، وبنشاط من لم يمنحها أهمية منهجية وسوسيو ثقافية استراتيجية. لم يظهر السؤال التالي عيناً ومباشرة، ولكنه كان يطرح نفسه في سياق مسائل أخرى يمكن أن تدلّ عليه، ذلك هو التالي: هل ثمة ما يدعو إلى التفكير في مجلة «المعرفة» بمثابتها أداة إعلامية يمكن تحويلها إلى قاعدة منصة ينطلق منها مشروع جديد يستدرك ما كان عليه أن يتأسس على الصعيد الثقافي بل على الصعيد السياسي الثقافي الوطني والقومي؟ إنه سؤال جدير بالأهمية التاريخية والمنهجية التأسيسية. فمن موقع عدد من الناشطين والباحثين في الثقافة والحائزين على مواقع في السلطة - وهذه حالة كلما ظهرت في الوضعيتين الكبريين في سورية، السياسة والثقافة، لم يتبلور حال خاص يمكن أن يكون بمثابة انطلاقة ثقافية باتجاه مثل ذلك المشروع الجديد.

وإذا تابعنا هذا الأمر بحيثياته وذيوله، لعلنا نستطيع القول بأن مجموعة من المرجعيات السياسية السورية وصلت إلى مفهوم «القيادة» بوصفها منتمية إلى الحقل الثقافي، ويمكن أن تتأسس على بعد استراتيجي، كما هو الحال في الحقل السياسي. ولكن ذلك لم تُتح له فرصة التحول إلى منظومة ثقافية سياسية تناط بها وظائف التأسيس للمشروع الثقافي النهضوي التنويري في سورية كما على صعيد الوطن العمومي. وظل الأمر يراوح في حالات كثيرة بين النظر إلى المشروع المذكور بمثابته عملاً

ثقافياً في أساسه، وبين العمل عليه من موقع الثقافة والسياسة كلتيهما معاً.

في هـذا وذاك، كانـت «المعرفـة» تثبت حضـورها لدى جميع الفرقـاء تقريباً، مع اقترابها -بصـيغة وبأخرى- مـن المشروع المعني هنـا لكننا إذا أخذنـا بعين الاعتبار صـعوبات الاسـتمرارية الماديـة للمجلـة، واختلاف وجهات النظر حول طبيعة المجلة ووظائفهـا فإنه يبقى صـحيحاً القول بأن ذلـك وغيره من عثرات مرت بها، فإنه يبقى صـحيحاً أن نقول، إن المعرفة ظلت قاسماً مشـتركاً بين الجميع، الذين حرصـوا على استمرارها.

إن التفريط بمشروع ثقافي سياسي فرط بفرصـة تاريخية هائلة كان يمكن الانطلاق منها، في سـبيل إعـادة النظـر، في الواقع السوري تجديداً وتطويراً.

فمجلة المعرفة، تمثل، حقاً، حالة ريادية تدعو من يعرفها إلى إيقاد ألف شمعة وشمعة بمناسبة مرور خمسين عاماً على ولادتها.

والشـيء الجميل الذي رافق (المعرفة) يتمثـل في تلك الكواكب، التي أسـهمت في إظهـاره بمـا يقترب من ظاهرة «سـوق عكاظ أدبية وفكرية» ويعود فضـل بارز في ذلك لمن قدم من جهده ونور عينيه الكثير.

إذ نحتفي بهـا الآن في عمرها المديد، فإنما نعني ضـرورة تطويرها وإعادة بنائها عمقاً وسـطحاً، خصوصـاً باتجـاه ثلاثة مناح: الحرية غير المنقوصة عمقاً وسطحاً، وتحويلهـا إلى مجلة ذات بعد عربي وعالمي، والعمل المكثف باتجاه تطويرها إلى واحدة من مرجعيات التأسـيس لمشروع عربي نهضوي تنويري ببعد تنويري وعقلاني وديموقراطي. ولعلّ هذا الأمر أن يكون تكريسـاً لخمسين عاماً من حضور مجلة المعرفة وجعلها لولباً في الفعل الثقافي السوري والعربي.

أما هذا العمل الكبير فسوف يُتوّج بإكليل الوهج الثقافي الحضـاري، حين توجد إلى جانب «المعرفة» مجلّات أخرى، تكون بمثابة افتتاح مرحلة جديدة من التعددية في المشروع الثقافي النهضـوي التنويري، الذي يسـهم في إنتاجه كل الفئات السـورية و(العربية)، إضافة إلى إعادة النظر في الإعلام السوري بكل مـا يجعل منه انطلاقة إلى عهد جديد مـن الحراك الكبير، الـذي تحتل «المعرفة» وغيرها فيه ركناً كبيراً وحاسماً.

أنا والمعرفة

سليمان العيسى ⊙

كَرْمٌ.. عناقيدُهُ شتى.. مُلَوَّنةٌ
بِكلِّ ما يَشْتهي الإبداعُ والترفُ
رَافَقْتُها منذُ أن كانت، فمقتطفٌ
من كَرْمِها المُشْتَهى حيناً ومُقْتَطَفُ

تلك هي المعرفة.. مجلة الثقافة الأولى، في هذا البلد العربي العزيز سورية، التي تقف الآن على شرفة عامها الخمسين. لتقول لنا أنا ما أزال الأرصنَ، والأغنى. والأبهى. ونقف نحن، روَّادها الأول، الذين رافقناها منذ ولادتها، لنقول لها: نحن سعداء، بل وفخورون بكل ما

⊙ شاعر العروبة والطفولة الكبير.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.



قدمتِ، وما ستقدمين من عطاء لكل الأجيال العربية حيثما وجدت على هذا الكوكب.

كَـرْم عنـاقيدُه شتـى.. تَمُـدُّ يـدا
إلى الجديـد، وتُرسي في التراثِ يدا
تَضُمُّ في صدرِها الأجيـالَ تاركـةً
في كل وادٍ من الفكرِ الرصينِ صَدَى

تلك هي المعرفة..

صديقتي القديمة..

لو جمعتُ ما نشرتُ فيها من قصائد حتى هذا العدد لكان لي ديوان من الشعر، يُسعدني أن أسميه: ديوان المعرفة.

هـذا ما أكَّده لي أخي وصديقي رئيس التحرير الدكتور علي القيم الذي يُصر على أن يكون لي في كل عدد من الأعداد أثر جديد.. ولا يجديني اعتذاري بالشيخوخة والعجز عن الكتابة. أمري لله!

في عيـدكِ الذَّهبـي حسبي
أن أزفَّ لكِ التحيَّةْ
أنـا مُتْعَبٌ حتى العَيَاء
وأنتِ روضَتُنا الوفيَّةْ
فإذا ترنَّحتِ الحروفُ بريشتي
وطَوَت أعِنَّتَها عَييَّةْ
فَلْتَعذِري، إنْ أسقطتْ
قلمي عن السَّرْجِ السنونْ
بِيَديكِ من فرسانِنا
من ينثرون وينظمون ويُبدعونْ

شهادة في (المعرفة)

د. عبد الكريم الأشتر ⊙

ينبغي أن نذكر، في البدء، أن (المعرفة) هي أوَّل مجلة ثقافية رسمية تصدر في سورية، بعد الاستقلال، وتجمع من حولها الكتَّاب والمثقفين. وكانت الساحة الثقافية قبلها تشغلها «تكتلات» متفرقة، تتخذ لنفسها صفةً تجتمع من حولها، مثل «عصبة الساخرين»، و«رابطة الكتّاب السوريين» ذات الأساس الأيديولوجي «الطامح إلى التغيير» وتستعين بالصحيفة اليومية حيناً وبصحيفة «النقّاد» الثقافية الأسبوعية التي كنّا نقرؤها ونحن طلاب في الجامعة، أغلب الأحيان.

⊙ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

تولّى رئاسة تحرير (المعرفة)، في أعوام التأسيس الخمس الأولى الأستاذ فؤاد الشايب، فبدا، في الافتتاحية التي كتبها لعددها الأول (آذار ١٩٦٢)، مشدود العزم: «حشدْنا كل وسائل النجاح، واستنفرنا شتى الطاقات». وربط بين سعيها إلى المعرفة، بصفته سبباً من أسباب البقاء «معرفة الإنسان لذاته ولكونه وللعالم من حوله» وبين «التطور الداعم للبقاء». فأولى، منذ العدد الأول، قضية التحرر القومي العربي اهتماماً بالغاً جعله يقف فيه على أحوال الثورة الجزائرية، في سنتها التحريرية الخامسة. واستمرّت رعاية البحث في الفكر القومي ونهوضه، من بعد، على مدى نصف القرن من حياة المجلة، إلى اليوم.

على أنها رسمت لنفسها، منذ أعدادها الأولى، تقاليد في التوزيع والتخطيط والنشر جعلت منها اليوم موسوعة ضخمة لمعارف التنوع الثقافي، على كل صعيد، وعلى الساحة العربية قاطبة، الاجتماعية والسياسية والفكرية العامة، وإن أولت جانب التخطيط الاشتراكي في الاقتصاد رعاية خاصة، لصلته بسياسة سورية الاجتماعية والاقتصادية، والجانب الفني الصاعد على يد الشباب المختارين من أبنائها.

ومن تقاليد المجلة المستمرّة أن يتولى وزير الثقافة كتابة الافتتاحية من كل عدد يصدر أيّامه. وهو تقليد حيّ يوحي بثقة الدولة واستمرار رعايتها الرسمية للمجلة. وقد بيَّن وزير الثقافة آنذاك، في العدد الأول حاجة سورية إلى مجلة ثقافية «تجمع أقلام أبنائها المغتربين خارج أرضها». وأشار هنا إلى قدرة المجلة الرسمية على الاستمرار، في حين تتقطع المبادرات الفردية، لإصدار المجلات الخاصة. وأشار، من ناحية أخرى، إلى اجتماع الأدب والفن في بحوثها. ورافقت القارئ في كل عدد من أعدادها، إلى اليوم، لوحة فنية لأحد فناني القطر، مرفقة بتحليل فني سريع، ينمّي حاسة التذوق الفني في القارئ.

تصفحتُ، في هذه المناسبة، أكثر أعداد المجلة، فاتضح لي، نجاحها في إمكان استخلاص صورة لتضاريس الحياة الأدبية والفكرية في القطر، منذ منتصف القرن الماضي إلى اليوم، وسد بعض الثغرات فيها: أصوات بعض من رحلوا ولم يتركوا أثراً غير

ما كتبوه في المجلة. وأسماء بعض من اختفت أسماؤهم من الساحة، الأدبية أو الفكرية، أو غابت عنها مدة طويلة، إضافة إلى أعداد خُصِّصت لقضايا بعينها، مثل قضية «اللغة العربية والعصر» (العدد ١٧٨)، أو لمفكرين وأدباء مختارين طبعوا بطابعهم بعض وجوهها. وقوَّمتْ، من جهة أخرى، ما يصدر عن وزارة الثقافة في سورية من هذه الكتب في شتى جوانب الفكر، مما نفتقد أثره، للأسف، في السنوات الأخيرة، ونتمنى لو أعادوا النظر فيه.

دافعتْ عن الحداثة والتحديث، واهتمتْ بالترجمة عن أعلام الغربيين من الأدباء والمفكرين، ورعتْ أدب المغرب العربي ونقلتْ أطرافاً من نشاطه المسرحي، في مواسمه المختلفة (العدد ٤٨) وتتبَّعتْ مهرجاناته. وعنيت بأخبار المراكز الثقافية الدولية. وعرضت للصادر الجديد من الكتب، واحتفلت بأعياد المجلات العربية وببعض معارض التصوير. وأجرت، منذ الأعداد الأولى، حوارات فكرية ومقابلات مع بعض أعلام الفكر. وبدا التفاتها إلى موضوع «العربية في لغة العلوم ومصطلحاتها» ممتداً على أعدادٍ مختلفة. ولم تُغفل الموسيقى ومهرجاناتها وتِقْنياتها. وبدت حماستها في نصرة قضايا محددة تمس جوانب الحياة الاجتماعية، قوية جداً بلغت حدّ الإهابة بنُخَب المثقفين «أن يدفعوا لها زكاة ثقافتهم» (العدد ٦٠)، ويستضيئوا فيها بتجارب الأمم الأخرى (هولاندة مثلاً والصين). ولم تُخفِ المجلة اهتمامها بالجانب الاجتماعي ولو وقع على حساب الجانب الأدبي (العدد نفسه ٦٠).

وللأدب العربي في المهجر صفحات طويلةٌ. وللقضية الفلسطينية وأدبها صفحاتٌ لا تُحصى فيها، وقفتُ، في عددٍ من أعدادها، على وقائع الندوة التي أقامتها لها، في أيامها الثلاثة، ونقلتْ فيها وثائق ومعلومات أساسية (العدد ٧١).

وخصصتْ عدداً للقصة القصيرة، وعدداً للمسرح والثقافة المسرحية (العدد ٣٤)، بما يشبه أن يكون رصداً علمياً موضوعياً لنشوء الحركة النقدية للشعر وللأجناس الأدبية النثرية.

وعُنيتْ بالمرأة أديبةً وشاعرةً وصحفيةً وباحثةً، وبالثقافة العلمية، وبآخر

مستجداتها. وأقامتْ ندوة لإعادة كتابة تاريخنا القومي، واشتركتْ في تكريم بعض رجالنا (تكريم الشاعر الجواهري العدد ٣٨٥).

أغرتْ أفراد الناس بالقراءة، وقدمتْ لهم بعض كتب الوزارة لتدفعهم إلى قراءتها والاشتراك فيها.

حملتْ بعض رياح العاصفة التي هبَّتْ إثر هزيمة سنة ١٩٦٧، في صورة من الإصرار والقهر. ودافعتْ بوعي عن التراث، إذ لا يمكن نهضة أن تتقدم على فراغٍ حضاري (التراث والفلكلور - العدد ١٨٠).

تاريخ حافل لا تسعه الصفحات، وقد لا تكفي الإشارة إليه.

(المعرفة)..
نحتاجُ إلى هذه الكلمة السُنبلية

⊙
د. بغداد عبد المنعم

حملتني (المعرفة).. ومنحتني جذوةَ الكتابة..
فاكتشفتُ أنها جذوةُ العشق الذي لا يخرجُ الإبداعُ إلا به! ..

حَمَلَتْ الشـامُ ومنذ القرن التاسـع عشر وهجَ البث الثقافي العربي عبر إصدار كان جديداً في ذلك الوقت هـو (المجلة).. وعلى امتداد هذه الفترة عرف تاريخُ المطبوعات العربية مئاتِ المجلات.. لم تكن بتأثير متسـاوٍ ولا باستمرارية متصاعدة أو ثابتة.. ويصعب أن تحمل (مجلة) الاسـتمرارية الزمنية والثبات في سـوية الموضـوعات وزخمها وتبقى مع ذلك حاملةً بوضوح ومباشـرة لهوية ثقافة عربية لا تقبل التراجع إلى أي خطٍ خلفي أو إلى أي خطٍ مناوئ للثقافة

⊙ باحثة في التراث العربي (سورية).

العربيــة.. هي إذاً (مجلــة المعرفة) العربية الســورية.. اســمُها هو أداؤها وهدفُها معاً منذ خمســين ســنة وحتى الآن، واسمُها هو التعبئةُ المعرفيةُ العميقة الهادئة.. تخطيطُ موضــوعاتها الشهرية يتشــكل من الملفات الفكرية الثقافية والبحوث التاريخية والأدبية والاجتماعيــة والتراث والفنــون وجانباً من الآثار والفن التشــكيلي والموسيقى.. والملف الإبداعي الدائم من الشعر والقصة..

انطلقــتْ أولى أعدادها بعيد منتصــف القرن العشريــن وما زالت تحمــل كلماتِها وأهدافَها إلى القرن الجديد بظروفه الصعبة التي أولــدتْ حركات ثقافية عالمية غاية في الخطورة ما لبثتْ أنْ أطلقتْ مصــطلحاتها في كل العالم لتبدأ ظاهرة سلبية هي العولمة وأخطرها العولمة الثقافية..

قدَّمَــتْ (المعرفــةُ) المجــالات الفكرية بإخراجات رصــينة ومتوازنــة حفظت بها الهيكلية الأساســية للثقافــة العربية ومنها سَلَّتْ خيوطَ الحداثة والتجديد، فظهر على صــفحاتها كبارُ الكُتَّــاب والمفكرين حاملين أبحاثهــم ونتائجهــا وحواراتهــا التي كانت تســتمر، وكانت أســماءٌ وكلمات لا تُنســى، الدكتــورة نجاح العطار، وأســاتذة الأجيال شــاكر الفحام وفاخر عاقل وحزمةٌ ضوئية واسعة كثيرة الاتجاهات والأبعاد.. وظهرتْ بحــوثٌ نوعية في علم الاجتماع والفلســفة والإعــلام.. وأبحاثٌ نوعيــة في الآثار وفي تاريخ العلم وفي التراث. واســتمر القاصون والشــعراء في التوقيع على صــفحاتها، فما زالت صفحاتُ المجلة تزدانُ بقصائد شاعر الطفولة والوطن الشــاعر الكبير ســليمان العيسى..

منــذُ شــهور وبينما كنتُ أقــوم بترتيب مكتبتــي البيتية، عثرتُ علــى أعداد قديمة من مجلة المعرفة، كان أقدمها العدد السادس وتاريخــه /آب- ١٩٦٢/ أي أن هذا العدد ولد قبــل ولادتي.. قَلَّبْــتُ أوراقَهُ.. نســجَ اللونُ الأصــفرُ فيها تعباً وتقشراً، وخرجتْ مــن عتقها رائحــةُ الزمن غــير أنها رائحةٌ مشــبعة بالــروح.. قلَّبْتُ الكلمــاتِ في هذا العدد التاريخــي: كان رئيس التحرير فؤاد الشايب، وكان المحور الرئيس للعدد (العلوم الاجتماعيــة) وحَمَلَتْ موضــوعاتُهُ عناوين مهمــة، منها هذا العنــوان الثوري الحداثي (ثورة علــى التأريخ العربــي) للدكتور عزة النصــ. ودراســةٌ كان عنوانها (كيف تعرب الإسبان وتفرنج المسلمون) لمحمد جميل بيهم و(المجتمع العربي) لأحمد شوكت الشطي.. وموضوعات أخرى.

ومما لفت انتباهي أن هذا العدد القديم ضمَّ مقتطفات شــعرية لشاعر الهند الكبير

رابندرانات طاغـور بعنوان (اليراعات) قام بتعريبهـا الدكتور بديع حقي.. والمصـادفة المثيرة في وقـوع هـذا العـدد بيـدي أن (المعرفـة) في عددهـا الممتـاز الافتتاحي للعام الجديـد /٢٠١١/ وهـو العام الذي بلغت فيه الخمسـين،حملتْ كلمةُ العدد فيه عنوانَ (طاغور من أجل عالمٍ يسـودهُ الوئام) لرئيس التحرير الدكتـور علي القيم عابراً بقلمٍ وحِذْقِ المثقف لرسالةِ طاغور الشعرية الإنسانية. وأمَّا في ذاك العدد القديم فمما سجلتْهُ المجلةُ لشاعر العالم لعام ٢٠١١ نبضاً شديدَ الرهافة لتجربة شـديدة الواقعية.. من تلـك اليراعات (إن الشـعاعَ الذي يملأُ السماءَ يبحث عن حدوده في قطرة الندى).. أليسـتْ كلمـات عابرة للجغرافيـا وللزمن قدمتها (المعرفة) على ضـفتي قرنيَن لتقول عبر كلمات طاغور الغامرة المنغمرة أنَّ هناك في قطرة الندى مدى للإنسـان لن يُدركَ في إفرازات العولمة ومصطلحاتها المُريبة..؟؟

كان ذاك هـو العدد الـذي ولد قبلي.. لكنني ولدتُ في العدد/٤٩٢ أيلول- ٢٠٠٤/ حين نشرتْ لي المعرفة للمرة الأولى بحثاً تراثياً بعنوان (نحو تأصـيل عربـي لتاريخ العلوم العربية) ومنذ ذلك التاريخ زرعتني (المعرفةُ) في سـطورها وجدلتني في حبرها وورقها.. وما لبثتْ أن أعطتني المدى والجدية والتنوع عبر شخصـية رئيس تحريرها الدكتور علي القيم بحاسـته الثقافية الحادة وشخصيته النشطة الحيوية التي تحمل المبادرة والتأثير والاستقطاب وتلك شروطٌ مُهمة في نجاح أية (مجلة) فلا يكفي في القائمين عليها امتلاك بعد فكري أو أدبي أو حتى بعد إداري بحت.. بل تحتاج المجلة كحامل ثقافي استـراتيجي لمثل هذه الشخصية الصانعة بهدوئها وثقة الآخرين بها..

حملتنـي (المعرفة).. ومنحتنـي جذوةَ الكتابة.. فاكتشفتُ أنها جذوةُ العشق الذي لايخرجُ الإبداعُ إلا بـه!.. منحتني الكلماتِ وصورةَ الكلمات واحتمالاتها..

ومنـذ المقال الأول وحتـى الآن تكاثفتُ في (المعرفـة).. وتمـدَّدتُ بتلاتي في تربتها الواثقـة، كان منهـا الدراسـاتُ والمقالات الفكريـة الثقافيـة والمعماريـة وفي تاريخ المدينـة، والمقـالات الحلبية والدمشـقية والفلسطينية والأدبية والإعلامية.. ولطالما احتضَنَتْ (المعرفةُ) ذلك الشيءَ الأثيرَ الذي أخاف عليه: الأدب.. لتمنحني ثقةً متزايدة بما أنا مؤمنة به وبما أحبهُ.

لقـد مَثَّلَتْ (المعرفةُ) عبر خمسـين من السـنين حاملاً ثقافيـاً ومُنتجـاً معرفياً.. فالثقافةُ ليست حيادية، إنها تترُكُ ذلك الأثرَ الدائـم.. النكهةَ الآسـرة.. الإيقاعات اللا

متناهية تلك التي هطلت من آخر الكلام إلى أوله..ننتفضُ مع قلب طائر الفينيق.. نخرجُ من الرماد إلى طين الحب لنصنعَ اللغةَ الجديدة لمستقبل نشهدُ ضوءَهُ.. خمسون سنة تُوِّجَتْ بالذهب:

أنتم كونوا شاهدين أني قد أديتُ واجبي

كالكيميائي المتمكن كالروح السامية

قد استخرجتُ من كل الأشياء جوهرها

وصنعتُ منها ذهباً

أحياناً نقرأ كتاباً طويلاً عريضاً فلا نجدُ الروح.. أحياناً نحتاج إلى هذي الكلمة السنبلية.. كأنها (الروح).. نحتاجُ هارمونيها.. وأن نستخرجَ ذهبَها.. الذهب الذي تكاثفَ إلى درجة الإشعاع..

زرعتْ (المعرفةُ) الكلماتِ السنبلية وتَنَبَّأتْ بمواسمها الإيجابية والتغيّرية.. وتَلَقَّتْ حصادَ الكبار وتنبَّأتْ بمرجعيته فأعطتهُ التأصيلَ وفرصةَ التأريخ.. وعلى صفحاتها الكثيرة عبر السنين سُجِّلَتْ التجاربُ الثقافية الكبرى في سورية وكانت جسراً باتجاهين إلى التجارب الأخرى في العالم تلك التي حاورتْ الثقافة العربية، وكانت كذلك جسراً لوصول التجارب الفكرية والأدبية ذات المحتوى الإنساني العميق.

المعرفة

نصف قرن من أوراق تبحث عن المعرفة

شهادة: وليد إخلاصي ◎

سابقاً كانت لي أمنية وقد تحققت. تطلعت إلى أن تظهر لي قصة في مجلة (المعرفة) التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة في بداية الستينيات من القرن الماضي، وخاصة أن رئيس تحريرها آنذاك هو (فؤاد الشايب). ونمت تلك الأمنية لأطمح أن يكون لي أكثر من نص في تلك المجلة التي كنّا نتطلع إليها بإعجاب واحترام.

وتبين لرجال الثقافة والأدب أن المجلة هي الأكثر عمقاً وجدية بين المطبوعات السورية، كما أنها بدت تساهم في إعلاء شأن المجلات العربية. ويبدو أن فؤاد الشايب رجل الفكر والإبداع كان يعود إليه فضل كبير.

◎ أديب وناقد ومسرحي سوري.

وقد غمرني فرح الكاتب المستجد يوم نشرت مجلة المعرفة قصة (الديك) التي غامرت بإرسالها إلى إدارة المجلة. وكان قد خيل لي أن ظهور القصة الأول في (البرنامج الثاني) الذي كان يعده (جورج طرابيشي) لإذاعة دمشق، يمهد لإرسالها إلى (المعرفة).

نشرت القصة فسعيت إلى إدارة المجلة. وكان استقبال فؤاد الشايب لي في مكتبه حدثاً في إثارة مشاعري، وهكذا تدفق الشكر من لساني على استقباله لقصتي ولوجوده على رأس مشروع ثقافي أجده لائقاً. إلا أن الرجل ما لبث أن دعاني إلى جولة في غرفة أخرى من المبنى، فتبعته.

الغرفة المعتمة التي قصدناها أضيء النور فيها فإذا هي خالية من الأثاث ولا تحتوي إلا على أكياس عديدة تستند إلى الجدران، وكأنها في مخزن لم أدرك محتوياتها. قال لي فؤاد الشايب أن أكشف عن أي واحد من تلك الأكياس ففعلت. وجعلت أقلب في أوراق الكيس لأعثر على دراسات وقصص وأشعار وخواطر لكتاب من أنحاء الوطن العربي، ولأحس بأن الكثير من خلاصة الفكر والإبداع قد تجمع في غرفة المونة الثقافية هذه.

وإذا ما عدنا إلى المكتب فاجأني رئيس التحرير بقوله إن السنوات القليلة من عمر المجلة قد جعلت الكتاب من داخل سورية وخارجها يقبلون عليها، ونحن نقوم بكل الجهد للبحث عن أفضل ما عندهم ليكون بين دفتي المجلة، وأضاف بأن قصتك (الديك) خضعت لهذا الجهد.

وفي سنوات لاحقة، كانت لي أسفار خارجية فبت أشاهد مجلة المعرفة في مكتبات وأرصفة بائعي الصحف في بلدان كتونس والمغرب ومصر، وأحس بالفخر أننا في سورية قد استقطبنا اهتماماً ثقافياً شاركنا مجلات به كانت تصدر في أقطار أخرى. كانت مجلة المعرفة كما نراها ويراها مثقفو العرب صوتاً متميزاً، لنا فديمومتها على مدى نصف القرن قد ابتدأ بتأسيس جيد لها.

وفاة فؤاد الشايب كان حدثاً أشعلت مأساته الحسرة في قلوب المثقفين، ولكن المجلة لم تتوقف، وتعاقب عليها رجال من أهل الفكر والإبداع. ومازلت أذكر محاولة (خلدون الشمعة) سكرتير التحرير في فترة ما وهو يحاول الخروج من إطار المجلة الوقور، مشتركاً مع (زكريا تامر) رئيس التحرير إن صحت ذكرياتي، في إحداث تغيير في الشكل قد يسايره تطوير في المضمون، إلاّ أن العدد الجديد قد بقي ملازماً جدران

غرفة الإدارة، وأجهضت تجربة التجديد فأتلف العدد وعادت المجلة إلى شكلها التقليدي الذي حرصت الوزارة عليه منذ ظهور المجلة.

لقد غاب عني اسم مَنْ أطلق على المجلة اسم المعرفة، فهل يظهر لي أحدهم سبب تلك التسمية التي نكن لها الاحترام المطلق، فالمعرفة عنوان يدل على طموح في استقطاب نشاطات العقل النظري والإبداعي، ولا أظن أن استمرار صدور المجلة على مدى نصف القرن إلاّ دلالة على ثبات نوع من التقاليد التي نحن بحاجة إليها. وكانت المجلات التي أصدرتها وزارة الثقافة مثل (أسامة) و(الحياة المسرحية) و(الحياة التشكيلية) و(الحياة الموسيقية)، وذلك بتواتر مع (المعرفة) بما يجعل الوزارة أماً ترضع من ثدييها أنواعاً مختلفة من الحليب الثقافي الجيد.

أتمنى في نهاية شهادتي أن تصدر لائحة بأسماء رؤساء وأمناء التحرير لمجلة المعرفة منذ بداية صدورها وحتى يومنا هذا، ويبين تاريخ التزامهم العمل وفترة استمرارهم، وذلك لحاجتنا إلى إيقاظ ذاكرة الأحياء منا.

المعرفة

تجربتي في وسيلة تثقيف رائعة: (المعرفة)

عادل أبو شنب ©

-١-

كنت لصيقاً بـ«المعرفة»، منذ أنشئت، قبل نصف قرن، وشهدت مراحل تأسيسها، مرحلة مرحلة، منذ سمي الأديب الكبير المرحوم فؤاد الشايب رئيساً لتحريرها، فكان أول رئيس تحرير لها، مروراً بالأديب الكبير أديب اللجمي، ثم الأستاذ صفوان قدسي، ثم الصديق زكريا تامر، مدَّ الله في أعمارهم، حتى تسلمها الدكتور علي القيم، فأينعت، وزادت صفحاتها التي تضم فكراً وأدباً وشعراً وآفاقاً، أغنتها، وجعلتها في طليعة المجلات العربية، صاحبة الاختصاص نفسه.

© أديب وقاص سوري.

وأشكر الظروف التي مكنتني من الإسهام في تحريرها في مختلف أدوارها، منذ تأسيسها وحتى اليوم في مقالات وقصص وحواريات كانت دافعاً لي، لأتشبث بهذه المجلة التي تعاقبت عليها الأجيال ترتوي من غذائها المعرفي، وتدفع لقاء ذلك ثمناً قليلاً، لأنها أرادت وتريد، أبداً، أن تجعل المعرفة خدمة جليلة تقدمها وزارة الثقافة، بنفقات بسيطة، فلا عجب إن فقدت أعدادها بمجرد نزولها إلى السوق، وهي ميزة تحسب لوزارة الثقافة ولرئيس تحريرها الصديق الدكتور علي القيم، الذي لا يدخر جهداً في تغذيتها دائماً بأغنى آفاق المعرفة.

-٢-

نشرت في «المعرفة» على دفعات المادة الأولى من كتابي «صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية» وبالطريقة نفسها، مادة كتابي «بواكير التأليف المسرحي في سوريا»، وفصولاً أولى من كتابي «مسرح عربي قديم» وقصصاً كثيرة ونبذاً من كتب قرأتها، وغيرها، فكنت كمن يعتقد أنها مجلته الخاصة، ومما لا شك فيه أن الكتاب والأدباء والمفكرين والباحثين الآخرين، يشعرون الشعور نفسه، فالمجلة هي مجلتهم الأثيرة التي ضمت نتاجاتهم التي صارت كتباً ووسائل تثقيف يتلقاها القراء المتلهفون إلى المعرفة، بإحساس التلميذ الذي يغرف من المعرفة ليزداد تمكناً من الثقافة العامة.

-٣-

لقد مضى على اللقاءات التي أجريتها مع كبار الأدباء والمفكرين والباحثين، نساءً ورجالاً أكثر من سبع سنوات متواصلة، مستمداً في استمراري، بهذه المهمة التي ليست سهلة، حماسة للعمل فيها، من حماسة العاملين فيها، الذين أصروا على استمراريتها وتطويرها من حسن إلى أحسن، ولست أبالغ إن قلت أن أعداد مجلة «المعرفة» تشكل كتباً متنوعة، مملوءة بالجيد والجديد، وها هي تطالع قرّاءها في مطلع كل شهر بأكثر من ثلاثمئة صفحة تضم أسماء مشهورة وأبحاثاً فكرية وآفاقاً من المعرفة، بحيث تكون هي نفسها البذرة النادرة لتأسيس مكتبة هامة تليق بكل قارئ مثقف.

المعرفة

مع المعرفة في عيدها الذهبي

أ.د. ملكة أبيض ⊙

أن تنتظر صدور مجلة من شهر إلى شهر، يعني أنها تلبي حاجة لديك، بصفتك قارئاً أو كاتباً.

والمعرفة تُنتظر..

ينتظرها القارئ ليطلع على الجديد في طيف واسع من مجالات المعرفة، ومن الأحداث الثقافية... وينتظرها الكاتب ليرى اسمه على صفحاتها، فيطمئن إلى وصول صوته إلى القراء، لا في سورية فحسب بل في أرجاء الوطن العربي، وربما فيما وراءه أيضاً.

فما الذي تفعله المعرفة لتستحق هذه المكانة الفريدة في عالم الثقافة؟

⊙ باحثة ومترجمة وأستاذة في جامعتي دمشق وصنعاء سابقاً.

يلاحظ بادئ ذي بدء:

أن المعرفة منتظمة تصدر في مطلع كل شهر، فيعرف القارئ متى يبحث عنها، ويعرف الكاتب كيف يستعد لإيصال إنتاجه إليها. وهي مستمرة منذ صدورها الأول قبل ما يقرب من نصف قرن، على ما أعلم، وتضم أبواباً ثابتة. شأنها شأن معظم الدوريات. وهي: افتتاحية العدد لوزير الثقافة، وكلمة العدد لرئيس التحرير، والدراسات والبحوث، والإبداع، وآفاق المعرفة، وحوار العدد، ومتابعات للأحداث الثقافية، وكتاب الشهر. إلا أن هنالك باباً إضافياً بعنوان آخر الكلام، واهتماماً خاصاً بالغلاف.

وما يهم هنا، على كل حال، ليس العناوين بل المضمون.

وفي سبيل تكوين فكرة معمقة بعض الشيء عن الرؤية التي تقف وراء المجلة وتُوَجِّهها، جمعتُ الأعداد العائدة للعام ٢٠٠٩ وتفحصتها بقدر من الدقة. فلفتت انتباهي نقاط عدة أوجزها فيما يلي:

تصدر «المعرفة» عن رؤية عربية تقدمية شاملة، عميقة الجذور في التراث، ومنفتحة على العالم في أحسن أحواله. وهذه الرؤية تطالع القارئ بمجرد أن يضع العدد بين يديه.

ولنبدأ **بالغلاف**:

إن الغلاف ليس مجرد رسوم أو صور تزيينية، بل عرض مختار بدقة لجانب هام من جوانب المعرفة، وهو الفن التشكيلي. إنه يتكوّن في صفحاته الخارجية والداخلية من النتاج الفني المتميز لفنانين محليين وعالميين في الماضي والحاضر، ومن الكنوز الثقافية المكتشفة، التي تصل القارئ بتراث وطنه، وبالتراث العالمي.

ذلك أن المعرفة تعدّ الفن جزءاً لا يتجزأ من عالمها ومسؤوليتها، **وتجعل غلافها مرآة** لما تضم صفحاتها.

إن الغلاف يعرّفنا بأسماء مثل سعد يكن، ونذير فرحات، وممدوح قشلان، وخلود السباعي، وهالة الوعري... ويرينا صورة «قلعة الحصن» التي تعود إلى القرن الثامن عشر، و«نُصباً سيراميكية تزيّن شواطئ تونس»، ولوحة «تدمر وزنوبيا» بريشة فنان أوكراني، و«مقبرة الفرسان الصلصالية» في الصين.. كما يرينا صفحتين من مخطوط «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، ومنحوتات عاجية مصرية من أوغاريت... إنه بحق، معرض للفنون التشكيلية والكنوز الأثرية، تضعه المعرفة بين يدي القارئ لتنمية معرفته وذائقته في هذا المجال. وحين تجمع الأغلفة بعضاً إلى

بعض، تصبح لدى القارئ موسوعة فنية لا تقدر بثمن.

ولننتقل إلى الكلمات الرسمية (**كلمة الوزارة وكلمة العدد**):

صحيح أن هذه الكلمات تتأثر بالقضايا والأحداث العامة التي تأتي في سياقها، ولكنها تبادر إلى الإفصاح عن هذه الرؤية الشاملة كلما سنحت لها سانحة.

فحين نتابع «**كلمة وزير الثقافة**» خلال العام ٢٠٠٩ نجد بالفعل موضوعات تتصل بالأحداث الجارية مثل:

العدد (٥٥٢) العرب والهند.. جسور الثقافة؛

(العدد ٥٥٣) آفاق التغيير المرتقب.. مع تسلم أوباما الحكم في الولايات المتحدة؛

(العدد ٥٥٤) القدس واحتفاليتها الثقافية؛

(العدد ٥٥٥) حوار الحضارات في استانبول.

ولكننا نرى أيضاً موضوعات ذات صلة بالتراث مثل:

(العدد ٥٥٦) الجزري كبير المهندسين (١١٣٦-١٢٠٦م/ القرن السادس الهجري).

ولهذا العالم من منطقة الجزيرة السورية كتاب شهير هو «الجامع بين العلم والعمل النافع» الذي أجمع الباحثون على أنه كتاب مؤسس في علم الميكانيك، وله اختراعات علمية واسعة. وتقول الكلمة: إن الغرض من تأمل التراث العلمي العربي العظيم، استعادة الثقة بالعقل العربي والإسلامي وقدرته على الاكتشاف والاختراع، ورد المقولات التي تزعم أن الفكر العربي أو الإسلامي كان فكراً غيبياً مذعناً ومستسلماً لا يسأل ولا يحاور ولا يكتشف.

وهناك عناوين أخرى لا تقل أهمية عن هذا، مثل (العدد ٥٤٧) اللغات في سورية القديمة،

والعدد (٥٥٠) البعد الكوني لتراثنا العربي.

والقضية نفسها، نصادفها في **كلمة رئيس التحرير**. فالطابع الغالب عليها هو تغطية أحداث عامة، مثل:

العدد (٥٤٦) كيمياء الحوار على ضفاف المتوسط؛

والعدد (٥٥٠) مؤتمر العلاقات السورية . اللبنانية؛

والعدد (٥٥١) الحوار بين الحضارتين العربية والصينية.. إلخ.

إلا أن د. علي القيم يغتنم مناسبات خاصة أيضاً للتعريف بأعلام الثقافة ومنجزاتهم مثال ذلك: (العدد ٥٤٧) «سقراط» الموسيقا العربية، الذي يتحدث عن منصور الرحباني

بمناسـبة رحيله؛ والعـدد (٥٥٣) البارودي والمعري والموسـيقا، الـذي يتحدث فيه عن الدور السياسـي والثقافي للشاعر والمناضل الدكتور فخري البارودي؛

والعـدد (٥٥٤) بودلـير العـرب (علي الجنـدي) بمناسـبة رحيله. وتعـود أهمية هذا المقال بشـكل خاص، إلى أن الشـاعر علي الجندي لم يحتل المكانة التي يسـتحقها في السـاحة الأدبية على الرغم من شـعره المتميز.

كمـا أن رئيسـ التحرير يفتح لنفسـه مسـاحة أخرى في نهاية المجلة بعنوان «آخر الكلام» لإغناء المعرفة بجوانب ثمينة لم تتسع لها كلمة العدد، أو كتابـات الباحثين. ومن أمثلة ذلك:

العـدد ٥٤٨. ثقافة الحـوار مع الذات. وفيه نقد لثقافتنا العربية في وضعها الراهن، بأنهـا «يغلب عليهـا الطابع الاسـتهلاكي، وتفتقد الإحساس العميق بالهوية»؛

والعدد ٥٥٠. الثقافة مصدر القوة. ينتقد فيها النقل الثقافي السطحي، ويؤكد ضرورة الأخذ بمقولـة أن الجديد ينمو في سـياق الموروث من أجل تجـاوز الواقع وتحدياته، والمبدأ المطروح هنا هو التوفيق بين الأصالة والمعاصرة.

والعدد ٥٥٢. جوهر الموسيقا. يقول فيه:

من يتابع دراسة عالم الموسيقا الرحب يدرك جيداً أن بين الموسيقا والأدب وسائر الفنون روابـط وثيقـة. فقد تأثرت عبر مسـيرتها الأزليـة بالشـعر وفـن العمـارة والنحت والتصوير والرقص والتمثيل والفنون الآلية، إلى جانـب تأثيرها في هذه الفنون. كما أنها موضـع اهتمام الفلسـفة والديـن والعلوم الأخرى.

هذه الرؤية الشمولية من حيث الموضوع والزمان والمكان، والتـي تحرص على ربط حاضـر الثقافـة العربية بماضـيها لتوكيد هويتها وصنع مستقبلها. هذه الرؤية حاضرة في جميـع أبواب المجلـة ومنها «الدراسات والبحوث» و«آفاق المعرفة».

فالمعرفة تسـتقطب في هذيـن البابين الكبيريـن أهل الفكـر والأدب والفن، لا في سـورية فحسب بل في الوطن العربي أيضاً. وقلما يخلو عدد من أعدادها من مشـارك أو أكـثر من الجزائر، أو العـراق، أو لبنان، أو فلسطين، أو غيرها من الأقطار العربية. وأسـماء مثل د. حفنـاوي بعلي، ود. محمد زيوش، ود. فطومة الحمادي، ود. إسماعيل بـن صـفية، ود. سـليمة بو زيـد وغيرها (الجزائر)، وشـوقي بزيع (لبنان) وحسـن موسـى النمـيري، ومهند معروف صـالح، وعصـام ترشحاني (فلسـطين)، ود. طلال

سـعيد الجنيبي (الإمارات)، ود. طه النعمة (العراق)، هذه الأسماء وغيرها نتعرف إليها وإلى نتاجها من المعرفة.

وقلما يخلو عدد من مقال مترجم أو أكثر من الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الروسية، أو الألمانية، أو الإسبانية، وغيرها.. مما يجعل القارئ يتصـل بالعالم في الموضـوعات التي تهمه وتهم بلده.

كما أن طيف هذه الدراسـات والبحوث يتسـع لجميع العلوم الإنسـانية تقريباً من تربية، وعلم نفس، واجتماع، وإدارة، وسياسة، وتاريخ، وآثار، ودين، وتصـوف.. إضافة إلى اللغة والأدب (شعراً، ونثراً، وقصة، ومسرحاً، ونقداً...) والفكر الفلسـفي. وهناك بحوث علميـة عامـة تتنـاول العلـوم والتقنيات الحديثة ومنها الحاسوب الذي غدا جزءاً لا يتجزأ من تكوين المثقف المعاصر.

وأود أن أشـير هنا إلى أنني لم أجد فارقاً كبـيراً بين باب الدراسـات والبحوث، وباب آفاق المعرفة، لا من حيث الموضـوعات، ولا من حيـث المنهج. وقد يكون المقصـود من تقسـيم المواد إلى بابين كسر الرتابة بإدخال باب الإبداع بين هذين البابين الكبيرين.

كمـا أود أن أنوه ببعض العناوين الواردة فيهما على سبيل المثال لا الحصر:

في مجال التأليف:

العـدد ٥٤٦ . سـليمان العيسـى: في بودابست... زمردة أوروبا؛

العدد ٥٤٧ . د. حفناوي بعلي: خطاب ما بعد الاستشراق؛

العـدد ٥٤٩ . د. طيـب تيزيني: الغرب أمام إشكالية متجددة؛

العـدد ٥٥٠ . تامر سـفر: مكانة العقل لدى رواد النهضة العربية؛

العدد ٥٥٢ . د. أحمد زياد محبك: وحدة الثقافة العربية؛

العدد ٥٥٤ . موسـى ديب الخوري: هل هناك فيزياء جديدة في الكون؟

العدد ٥٥٦ . د. بغداد عبد المنعم: التاريخ المعماري للمدينة السورية بعد معركة حطين (دمشق مثالاً):

العـدد ٥٥٦ . أحمـد عمـران الزاوي: القومية العربية بالمفهوم العلمي والثوري؛

العدد ٥٥٧ . د. خير الدين عبد الرحمن: الحاجة إلى الأسـطورة بين الأعمال الأدبية والتضليل الإعلامي؛

وفي مجال الترجمة:

العدد ٥٤٧ . أسـس النظريـة المعاصرة للحضـارات، تأليـف البروفيسـور يـوري ياكوفيتش، والبروفيسـور بوريس كوزيك، ترجمة: د. ثائر زين الدين، ود. فريد حاتم الشحف.

العدد ٥٤٨-٥٤٩ . المعلوماتية وتشكيل الثقافة، تأليف: د. جوزيف سليد، ترجمة: د. حسام الخطيب؛

العدد ٥٤٩ . كيف تم اختراع الشعب اليهودي: عرض نشرته جريدة «لوموند ديبلوماتيك» لكتاب بهذا العنوان، تأليف شلومو ساند، المدرس في جامعة تل أبيب، ترجمة: توفيق حمد الفقيه.

العدد ٥٥١ . اكتشاف كوننا، تأليف: سيرجي بلينيكوف، وهو فيزيائي فلكي، ترجمة: عياد عيد.

وفي باب الإبداع هناك تنوع لافت أيضاً من حيث الجنس الأدبي (الشعر، القصة، الأقصوصة...)، والانتماء القطري (سورية، المغرب، فلسطين، العراق...)، والتأليف والترجمة. ولا بأس من ذكر بعض الأسماء:

في مجال الشعر:

العدد ٥٤٦ . محمود علي السعيد (فلسطين): جمرة الحنين . إلى زهرة المدائن (القدس).

العدد ٥٤٧ . ساجدة الموسوي (العراق): أخي هل سمعتَ النداء؟

العدد ٥٤٨ . يوسف الخطيب (فلسطين): رأيت الله في غزة.

العدد ٥٤٩ . خالد أبو خالد (فلسطين): معلقة غزة على أسوار القدس.

العدد ٥٥٧ . سليمان العيسى: جندي إسرائيلي يسأل.

وأود هنا أن أقتطف عدة أبيات من هذه القصيدة، لأني أرى فيها صوتاً إنسانياً يسمو على صوت العدو الذي نسمعه دوماً.

أنا لا أعرفُ ماذا جاء بي
من آخرِ الدنيا.. لكي أنسفَ بيتاً في رَفَحْ؟
قيل لي من آخرِ الدنيا:
«هنا أرضُكَ..»
أرضي ضفّةُ الفولغا..
وروسيٌّ أنا.. ماذا أتى بي لرَفَحْ؟
أمتطي طائرةً.. أنسفُ حيّاً وادعاً..
يملؤه الأطفالُ
تهوي تحتيَ الأنقاضُ..
أذرو بصواريخي رماداً كلَّ ما ألقاهُ في وجهي
اسمه رفحٌ.. أو يسمّى لي غزّةْ..
وسؤالي يحرقُ النومَ بعينيَّ سؤالي:
لِمَ أقتُلُ؟ لِمَ أُقتَلُ؟
لِمَ تلدُني ضفةُ «الفولغا» لتُلقيني هنا
أنا في هذي الأساطيرِ التي تُغرقني لستُ أنا
أنا يا غَزّةُ، يا أطفالَها، لستُ أنا.

وفي مجال القصة:

العدد ٥٥٢ . نجيب كيالي: قصص قصيرة جداً.

العدد ٥٥٢ . عبد النبي حجازي: خراب الذاكرة.

العدد ٥٥٣ . م. آثار طاهر (الباكستان): مفتش المدارس، ترجمة: د.رياض عصمت.

العدد ٥٥٦ . ريم جميل حسن: الضحكة الأولى.

وباب **حوار العدد** متميز أيضاً، فهو يعرِّف بشخصيات بارزة في مختلف مجالات الفكر والأدب. وهي تمثل الجنسين (الرجال والنساء)، وإن كان عدد الرجال يفوق عدد النساء، وهذا طبيعي حتى الآن في مجتمعاتنا النامية. كما تمثل الأنشطة المختلفة، وقد تكون من خارج سورية، إذا تصادفَ وجودُها فيها في إحدى المناسبات الثقافية. ولا يخفى ما للتعريف بالأعلام من أهمية في إعطاء القارئ صورة محسوسة عما يدور في بلده من نشاط، وعمن ينهضون به.

والأسماء التي يعرِّفها هذا الباب خلال العام ٢٠٠٩ هي:

العدد ٥٤٦ . الناقد والفنان التشكيلي د. محمود شاهين؛

العدد ٥٤٧ . الأديب والناقد صميم الشريف؛

العدد ٥٤٨ . الأديب نصر الدين البحرة؛

العدد ٥٤٩ . الروائية لينا هويان الحسن؛

العدد ٥٥٠ . الشاعر إلياس الفاضل؛

العدد ٥٥١ . الروائي خيري الذهبي؛

العدد ٥٥٢ . الباحث محمود الأرناؤوط؛

العدد ٥٥٣ . الأديبة نادية خوست؛

العدد ٥٥٤ . الأديبة قمر كيلاني؛

العدد ٥٥٥ . الباحث الدكتور إحسان الهندي؛

العدد ٥٥٦ . الباحث محمود العظم؛

العدد ٥٥٧ . الباحث اللبناني عبد المجيد زراقط.

أما مضمون هذا التعريف فهو يتكوّن من معلومات عن ولادة العَلَم ونشأته، ثم عن سيرته العلمية والمهنية، وعن إنجازاته وتطلُّعاته. وسأمثِّلُ له بموجز سريع عن تعريف محمود الأرناؤوط، فهذا المقال يمتد على عشر صفحات، وعنوانه: صيد الجواهر من كتب التراث.

محمود الأرناؤوط، من أسرة ألبانية الأصل قدمت من إقليم كوسوفا إلى دمشق. والده العلاّمة الشيخ عبد القادر الأرناؤوط. بعد التعليم الابتدائي والإعدادي، التحق بمعهد التوجيه الإسلامي، ثم تابع تحصيله في مجالس والده العلمية، ومجالس زميله الشيخ شعيب الأرناؤوط سنوات طويلة. بدأ في تحقيق كتب التراث مع والده، وعندما توفي والده حلَّ محلّه في شؤون الحديث النبوي وما يتصل به. انصرف إلى تحقيق كتب التراث منذ بداية عام ١٩٨٠. زار ما

يزيد على مئة مكتبة دولية وخاصة في بلدان عدة عربية وإسلامية وأوروبية. أسس مكتب ابن عساكر لتحقيق كتب التراث بدمشق من ١٩٩١-١٩٩٥ وأنجز فيه إخراج كتب تراثية مختلفة.

عمل أميناً لتحرير مجلة التراث العربي التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب من ١٩٩٧ إلى نهاية عام ٢٠٠٠.

جمع وأخرج مجمل آثاره في كتاب أسماه «القطوف الدانية»، ونشرته وزارة الثقافة بدمشق في خمسة أجزاء عام ٢٠٠٨.

يُعدّ ابنه ليخلفه في خدمة كتب التراث.

ومما ينبغي ذكره باب «صفحات من النشاط الثقافي» الذي يتابع هذا النشاط في مختلف مجالاته عبر مواقع وكالات الأنباء العربية والأجنبية، ويقدم جديده مبوَّباً تحت عناوين عديدة مثل: اكتشافات أثرية، ومتاحف، ومعارض، وإصدارات، ومؤتمرات، وندوات علمية، ومهرجانات، ومؤسسات ثقافية، ومشاريع وخطط، ودراسات، وجوائز... إلخ.

إنه جهد فذّ لمسح النشاط الثقافي في الوطن العربي خاصة، وفي العالم عامة، واختيار ما يهم القارئ العربي منه، وتقديمه بأسلوب جذاب، ولغة متينة. من هنا فإنه لا يقل أهمية عن الأبواب الأخرى.

ولابد لي من وقفة عند **كتاب الشهر** فهو يتمتع بمستوى لا يقل عن الأبواب الأخرى، من حيث الجدّة، والتنوع، وحسن الاختيار، وجمال العرض. وسأكتفي هنا بتسجيل عدد من العناوين التي قدّمها في العام ٢٠٠٩:

العدد ٥٤٦. سميراميس ملكة آشور وبابل، تأليف: جيوفاني بتيناتو، ترجمة د. عيد مرعي.

العدد ٥٤٧. العولمة والإمبريالية، تأليف مجموعة من الباحثين الأوروبيين، ترجمة رنده بعث.

العدد ٥٤٨. جرأة الأمل، تأليف: باراك أوباما. عرض وترجمة فصل «القيم»، للدكتورة ملكة أبيض.

العدد ٥٤٩. الهجرة إلى المجتمع الرقمي، تأليف المهندس محمود عنبر، عرض وتقديم محمد سليمان حسن.

العدد ٥٥٠. الجنس والمرأة عبر العصور، تأليف د. عبد اللطيف ياسين قصاب، عرض وتقديم: محمد سليمان حسن.

العدد ٥٥١. تاريخ كنعان. كنعانيا بين الأسفار التوراتية والسرديات الصهيونية، عرض وتقديم محمد سليمان حسن.

إنها باقة غنية من الكتب، حسنة التأليف والترجمة، تغري القارئ لا بالاطلاع على

العرض فحسب، بل بالبحث عنها، واقتنائها إذا استطاع ذلك.

تبقى لي وقفة أخيرة عند **علاقتي بالمعرفة.**

وعلاقتي بالمعرفة ليست قديمة، ولكنها غنية متنوعة.

ذلك أنه لم تُتِح لي الظروف التعامل معها في فترة مبكرة. فأنا من النساء اللواتي جمعن بين متطلبات الدراسة والعمل والحياة الأسرية. لذلك كانت دراستي العليا وعملي في التدريس والبحث يفرضان عليّ التعامل مع مراجع محددة، أخذاً وعطاءً.

فاختصاصي الواسع هو «العلوم التربوية والنفسية»، واختصاصي الضيق «تاريخ التربية»، والأضيق «تاريخ التربية العربية الإسلامية». من هنا كانت مطالعاتي موزعة بين الموسوعات والكتب والمجلات المتخصصة، وعملي مكرساً للكتب الجامعية، والبحوث في مجلات «التربية» و«البحث التربوي» و«جامعة دمشق». فهذه المجلات أكاديمية ومتخصصة، ومحكّمة، وهي تمتن صلة الأستاذ الباحث بجوه الأكاديمي.

وخلال ذلك بدأ عملي في الترجمة: الترجمة العلمية لصالح اختصاصي، والترجمة الأدبية مع زوجي سليمان العيسى؛ إسهاماً منا في عملية الاستقلال الثقافي للجزائر، ثم في إغناء أدب الطفل العربي، ولا سيما في مجال القصة.

لقد بدأ إسهامي في مجلة المعرفة عام ٢٠٠٦، مع تقاعدي من العمل الرسمي، وعودتي إلى دمشق بعد خمسة عشر عاماً من التدريس في جامعة صنعاء. وتوزع إسهامي فيها على أربعة محاور:

١- المقالات العامة، التي لخصت وجهة نظري وخبرتي تحت العناوين التالية: التربية في تاريخ دمشق لابن عساكر، الثقافة العربية بين الوحدة والتنوع، القصص والتربية، أزمة الجامعة، الجامعة الحديثة بين البحث والتدريس والتدريب، التربية والاتصال.

٢- الخلاصات التي قدمتها عن الترجمات التي كلفتني بها وزارة الثقافة بمناسبة إعلان حلب عاصمة للثقافة الإسلامية (٢٠٠٦)، ودمشق عاصمة للثقافة العربية (٢٠٠٨) وعناوين هذه الكتب:

- المدينة العربية حلب في العصر العثماني لأندره ريمون، ٢٠٠٧.

الاقتصاد السياسي لدمشق في القرن التاسع عشر لزهير غزال، ٢٠٠٨.

والإبداع الروائي في سوريا لإليزابيت فوتييه، ٢٠٠٨.

- بالإضافة إلى ترجمة فصل من كتاب باراك أوباما: جرأة الأمل، وعرضه.

٣- لمحات عن حياتنا، أنا وزوجي سليمان العيسى، بعنوان: شيء من حياتنا ١، ٢، ٣.

٤- دراسات عن نتاج زوجي سليمان العيسى: سليمان العيسى وأدب الأطفال، سليمان العيسى في نبرته الهادئة، سليمان العيسى والطبيعة، سليمان العيسى والعروبة، سليمان العيسى والكلمة، دمشق في حياة سليمان العيسى وفي شعره، سليمان العيسى ومصر العربية...

هذا ما ذكرته، وطالعتُه في أعداد المعرفة التي استطعت الوصول إليها حالياً. وهو كاف ليجعلني أؤكد أن المعرفة ملأت حياتي خلال هذه الفترة، أخذاً وعطاءً؛

وأرجو أن تتيح لي الظروف مصاحبتها. أخذاً وعطاءً. أيضاً، خلال السنوات القادمة.

وتظل المعرفة. في رأيي. مجلتنا الثقافية الأولى في سورية.

المعرفة

التراث والحداثة في مجلة المعرفة

(بمناسبة مرور نصف قرن على إصدار مجلة المعرفة)

د. أحمد فوزي الهيّب ⊙

شـــــهـــادة

كثيرة هي المجلّات العربية التي تُعنى بقضية الحداثة، ولكنها قليلة جدًّا هي المجلات التي عُنيت بقضـيـة التراث والحداثة معاً عناية واعية مستنيرة اتسمت بالدقة والموضوعية والحياد والانفتاح والسماحة، لا تبغي من وراء ذلك إلا تنوير المثقف العربي، ليقوم بدور إيجابي متوازن منفتح في بناء حاضر الأمة العربية ومستقبلها.

من هذه المجلات القليلة مجلة المعرفة التي تصـدرها وزارة الثقافة في دمشـق منذ نصف قرن بلا انقطاع، وذلك لأن مجلة المعرفة نظرت إلى التراث نظرة واعية، فرأت أنه جملة الآثار

⊙ أستاذ جامعي وباحث عربي سوري.

الفكريـة والأدبية والعلمية التي ورثناها من الآباء وما فيها مــن قيم وإبداعات ومناهج وطرائــق وغيرهــا ممــا يدخــل في تكوين أجيال الأمة العربية ويؤكد هويتهم القومية، ونجد ذلك في كثير مــن الأعمال الإبداعية والأبحاث والمقالات التي تحدثت عن أعلام الأمــة العربية وما أنتجتــه عبقرياتهم من شــعر وأدب وفكر وثقافــة وإبداع في جميع المجالات المعرفية المتنوعة.

وإلى جانب هذه العناية الواعية الإيجابية بالتراث نجد عناية تماثلها وتوازيها بالحداثة الحقيقيــة في جميع ميادينها شــعرًا وأدبًا وفلســفة وفكرًا وفنًّا. إننــا نجد هذه وتلك في كثير مــن الأبحاث والمقــالات والأعمال الإبداعية التي ضمتها صفحات هذه المجلة الغــرّاء بين جوانحها في أعدادها الســتمئة التي كانت ولمّا تزل تصدر كل شهر، ونترقبها بشــوق ويقرؤها الكثيرون مــن الغلاف إلى الغلاف.

ومما ســاعد مجلة المعرفة في ذلك أنها انطلقــت من فهم مســتنير واع للتراث بعيد عــن الإفــراط والتفريط، وعن التعصــب والاستهانة، كما أنها انطلقت أيضًا من فهم دقيق مســتنير للحداثة التي رأت أنها تعني -فيما تعنيــه- الانفتاح من غــير الذوبان، ومعايشــة العصــر دون نســيان الجــذور، والقــدرة على فهم ما فيه من مســتجدات في جميــع مناحي الحيــاة الفكرية والأدبية والفلســفية والفنية من غير انبهــار، فهمًا دقيقًا متوازنًا لا ينســينا هويتنا الحضارية العربية الأصيلة.

وقد انطلقت مجلة المعرفة في هذا لأنها رأت أن الإنسان لا يمكن أن يكون تراثيًّا حقًّا إذا تعصّب وتقوقع وتحجّر على التراث وأدار ظهره عما ســواه، وكذلك لا يمكن أن يكون حداثيًّا حقيقة إذا اغترب عن نفسه وانقطع عن جذوره وضاع في متاهات تيارات العصر يخبط خبط عشواء على غير هدى.

لذلك فــإن مجلة المعرفــة -فيما نرى- عُنيــت فيما نشرتــه من بحــوث ومقالات وإبداعات بتحديث التراث وتأصيل الحداثة، وكيــف نفيد من التراث في العصر الحديث، وكيف نفيد أيضًــا من الحداثة من غير أن نتنكر للجذور، واســتطاعت أن توصــل إلى قرّائها عامةً الفروق الجوهرية بين الحداثة والغربة من جهة، وبين التأصــيل والتقوقع على الماضــي مــن جهة أخــرى، وكذلك أن توضّح أن الحداثة الحقيقية لا يستطيعها إلا التراثيون الحقيقيون، وأن الإفادة الحقيقية مــن الــتراث لا يســتطيعها إلا مــن فهموا الحداثة فهمًا حقيقيًّا بعيــدًا عن الإفراط والتفريط، فهمًا يجعلهم يستحسنون الحسن

ويستقبحون القبيح، ويرتبون الأولويّات بناءً على أهميتها في كلٍّ من التراث والحداثة على حدٍّ سواء، وبناء الجسور القوية التي تربط الماضي بالحاضر، وفتح النوافذ لتدخلها الرياح من الجهات الأربع من غير أن تقتلع أهلها من جذورهم، وذلك لأن ثمة إيجابيات كثيرة لا يمكن الاستغناء عنها في كلٍّ من التراث والحداثة المتلازمين أبدًا، ولا يجوز في هذه الحقبة من تاريخ الأمة العربية خاصة وفي جميع مراحل تاريخها أن نهملها أو ألا نضعها في الحسبان.

وفضلا عن ذلك حاولت مجلة المعرفة ومن خلال بعض المواد المنشورة فيها أن تربط الحداثة بالأخلاق والقيم الإنسانية، وهذه واحدة من لفتات المعرفة الكريمة الكثيرة المهمة.

إن ما تقدم جعل مجلة المعرفة تقف موقفًا إيجابيًّا مسؤولًا من اللغة العربية والحرص عليها وتمكينها إدراكًا منها للدور الخطير الذي تؤديه اللغة العربية في جميع حيواتنا، ذلك لأنها ليست وسيلة للتفاهم فقط يمكن أن تؤديها أية لغة، وإنما هي المكوّن والممثل الرئيس لهوية الأمة وحصنها المنيع ضد الغزو الثقافي وأداتها المتميزة في التعامل مع كلٍّ من التراث والحداثة على حدٍّ سواء، وهذا أوجب علينا أن نعمل على إثراء اللغة العربية بوساطة التعريب والترجمة واستخراج ما فيها من كنوز وإمكانات لتعايش العصر وتطوراته ومستجداته.

وهكذا نجد أن مجلة المعرفة من المجلات العريقة النادرة التي وقفت من التراث والحداثة موقفًا منطلقًا من فهم عميق دقيق موضوعي إيجابي متوازن لكل منهما، ورأت أنه لا صراع بينهما البتة، وإنما تعاون وتآزر وتكامل لفهم ماضي الأمة العربية وبناء حاضرها والتخطيط لمستقبلها وللنهوض بها والتصدي لتحديات ومؤامرات أعدائها الذين لا يرضون ولا يهدأ لهم بالٌ إلا بإخراجها كليًّا من التاريخ. وإنه لموقف طيب من المعرفة يستحق التنويه والشكر والثناء والتقدير.

الدراسات والبحوث

الدراسات والبحوث



الأنثروبولوجيا والتاريخ

د. أحمد أوراغي ◎

تعد الأنثروبولوجيا حقولاً دراسية اجتماعية، تاريخية وثقافية، تمثل كل التماثلات المعاشـية الفعلية منها والمرجوة لدى الجماعات، والتي يعبر عنها بطريقة شـفوية أو سلوكية، والدراسة الأنثروبولوجية لأي شعب من الشعوب لا تعـد قفزة في فراغ متقطع، ولا جرياً وراء سراب معرفي يشـكل تصـوراً عشـوائياً يرتطم بجدران معارف أخرى محيطة به أحياناً وبنفسـه وتركيبته أحايين أخرى، لينطوي بذلك على رؤية أحادية غير مؤسسة على أي نوع من المرجعيات المعرفية/ العلمية.

◎ جامعة تلمسان.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

فعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا تعتبر عادة -وبحق- علما اجتماعيا تربطه علاقات أولية مع العلوم الأخرى، فإنه مع ذلك ليس منعزلا بأي حال من الأحوال عن العلوم البيولوجية والدراسات الأدبية والفنية. «ولعلنا قد أدركنا صلة الأنثروبولوجيا من خلال الأنثروبولوجيا البيولوجية مع بعض كعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة وعلم الوراثة. ذلك أن الأنثروبولوجي البيولوجي يعتبر إلى حد ما عالما بيولوجيا يركز اهتمامه على الإنسان. إلا أن هناك صلة مع نفس القدر من الأهمية بين الأنثروبولوجيا من ناحية وبعض الدراسات الإنسانية من ناحية أخرى كعلم التاريخ ودراسة الأدب ودراسة الفنون ودراسة الموسيقى. ذلك أن هذه العلوم الإنسانية شأنها شأن علوم الإثنولوجيا والأركيولوجيا واللغويات تهتم بفهم وتذوق الثقافات الإنسانية».[1]

بيد أن تاريخ هذا العلم لم يخل من مساجلات بين مريديه ومنتهجيه، خصوصا فيما يتعلق بتقاطعه المعرفي مع بعض العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى، ومنها علاقة الأنثروبولوجيا بالتاريخ. وقد انقسم الدارسون في معالجة القضية إلى طائفتين اثنتين، طائفة ترى أن التاريخ والأنثروبولوجيا صنوان لا يمكن فك أحدهما عن الآخر، وطائفة أخرى ترفض الفكرة رفضا قاطعا وترى أن التاريخ والأنثروبولوجيا لا تربطهما علاقة معرفية وطيدة الوشائج خصوصا لدى من كان يرى أن التاريخ «مجرد تسجيل للأحداث الإنسانية، وبذلك لن يعلمنا التاريخ شيئا ما، فالوقائع التاريخية قائمة بذاتها، فلا يمكن أن نتنبأ بالمستقبل من الماضي».[2]

١- الأنثروبولوجيا والتاريخ: تعاضد أم تعارض:

لقد ظهرت كتابات كثيرة تفحص العلاقة بين التاريخ والأنثروبولوجيا، حيث يشترك العلمان في كثير من النقاط، كما يلتقيان في أكثر من موقع، سواء من حيث المنهج أو من حيث الهدف. إن عملية تجميع الحقائق التي يقوم بها الأنثروبولوجي تشبه عمل المؤرخ، وقد أثار ذلك عددا من التساؤلات مثل: ما هي الأنثروبولوجيا إن لم تكن تاريخا؟ إن التاريخ يشير إلى أشياء مختلفة، فهو يعني كل ما يستطيع الأنثروبولوجي أن يكشفه عن ماضي الشعوب التي يدرسها، وكذلك كل ما يتعلمه من كتابات المؤرخين الذين عاصروا تلك الأحداث حول النظم الاجتماعية. فالأنثروبولوجي يهتم بوصف الأحداث والتعرف على الأسباب والعوامل التاريخية

التي أسهمت في نشأة الظاهرة الحضارية وتكوينها، وهو بذلك إنما يستخدم مناهج البحوث التاريخية في المجتمعات التي يدرسها، والتي ليس لديها سجلات مكتوبة. وعلى ذلك فإن مناهج الأنثروبولوجيا والتاريخ تكاد تكون متكاملة[٣].

واحتدم السجال بين الدارسين في طبيعة هذه العلاقة، واعتبر البعض أن الفصل بين الأنثروبولوجيا والتاريخ غير ممكن البتة، وقد كتب ميتلند F. W. Maitland عام ١٨٩٩ يقول: «يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون تاريخا أو لا تصبح شيئا على الإطلاق». وكان ميتلند من المهتمين بالمراحل التتابعية التي يمر بها المجتمع البشري. وقد كرر ميشيل أوكيشوت Michael Oukeshoutt هذا القول.[٤]

كما فصل بعضهم بين العلمين في طبيعة التعامل مع المادة أو الظاهرة المراد دراستها، من دون الفصل التام بينهما، باعتبار أن ذلك لا يرتكز إلى معايير معرفية أكيدة، «فهو ينتج عن المصادفة التاريخية التي تنطوي عليها التقاليد الأكاديمية، وكذلك عن الضرورة النظرية. في الواقع ولدت الأنثروبولوجيا من اكتشاف أوروبة للبشر الغرباء، ومن المحاولات التي جرت في عصر الأنوار لتأسيس الانقطاعات الثقافية بطريقة عقلانية. مهما كانت الشروحات المقدمة متباعدة، فإن قاسمها المشترك هو ترتيب تنوع المجتمعات البشرية بالمقابلة مع العالم المتحضر للمؤرخ والعالم الهمجي المسلم للفضول الإثنولوجي».[٥]

وبذلك فإن الاختلاف بين الأنثروبولوجيا والتاريخ يجد أصله في فكرة وجود نمطين من البشر يجب أن يقابلهما نوعان من المعارف متمايزان، هذا الاختلاف كامن، إذاً، بالجوهر في ميدان المعرفة.[٦]

وقد رأى كثير من الدارسين أن علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا هي علاقة ضدية يحكمها التناقض، خصوصا بعد سيطرة النظرة المثالية الوضعية على علمي التاريخ والسوسيولوجيا (علم الاجتماع)، وذلك ما دفع البعض إلى اعتبار أن التعارض المقبول بين الأنثروبولوجيا والتاريخ يكمن في أن التاريخ يعكف على اعتبار الأفراد كالعوامل الحقيقية الوحيدة للصيرورة الإنسانية، على إحصاء ما يرتبط باعتباطيتهم ويحقق في وقائع فريدة، وبذلك يكتفي التاريخ بالوقائع والحوادث كدليل على حياة الأمم، بيد أن الأنثروبولوجيا تدأب على عرض الأشكال الواسعة للحياة الجماعية، وبالتالي تتخذ الأنثروبولوجيا موقفاً ضد التاريخ باعتبار نفسها علماً مقارناً وتعميماً على مثال

العلوم الطبيعية، وزيادة على ذلك فهي تسند هذا الادعاء على مبدأ نشـوئي الملامح: قد يسـهل كشـف القوانين التي تحكم الحالة الاجتماعية عبر استكشاف الأشكال البدائية للرابط الاجتماعي (دوركايم ١٩١٢). (٧)

كما اعتـبر البعضـ أن الأنثروبولوجيا تختلف عن التاريـخ لا من حيث الهدف أو المنهج وإنما من حيث التأكيدات التكتيكية، وقـد حـدّد «نـادل» (S.E Nadel) هذا الاختـلاف في عبارة يقول فيها «حين ننظر إلى العلاقـة بين الأنثروبولوجيـا والتاريخ، فإننا نرى أن العالم الأنثروبولوجي الاجتماعي ليس مؤرخا، فالمؤرخون يدرسـون الأحداث والوقائـع التـي مضـت وانقضـت، ولكن الأنثروبولوجي إنما يدرس ويصنف ما يوجد هنا والآن». أما التاريخ والمؤرخ فلا دخل له بالحاضر، وإنما يدرس الأحداث والظاهرات السـابقة، لذلك فإن أهداف الأنثروبولوجيا تكون أكثر وضوحاً من أهداف التاريخ خاصة فيما يتعلق بالمقارنة والتعميم.(٨)

كما اعتمد أنصـار نظرية التعارض بين التاريخ والأنثروبولوجيا على أن المواد الخام للعلم الأول هي المواد الكتابية التي يؤسـس وفقها أحكامه، بينما يعنى العلم الثاني بالمواد الشفهية كمصـدر لطروحاته ونظرياته، إذ يعتـبر هذا الفريـق أن هنـاك اعتبار آخر أيضا للتناقض بين الطابع الكتابي والشفهي لمصادر المعلومات. «يبدو أن المظاهر المنهجية لم تعـد تهـم فيما بعد بقدر مـا يهم توجيه المنظار، إذ فضـل التاريـخ الوثائق المكتوبة والأنثروبولوجيا المواد الشـفهية والنظرية، فـلأن الأول يسـتمر وضـوحاً، بينما توجه الثانية أبحاثها نحو أساسـاتها اللاشعورية (ليفي ستروس ١٩٥٨)».(٩)

في الوقت عينه الذي شكك فيه بالأخص الفيلسـوف الفرنسـي جاك دريـدا بوجود انقطـاع جـذري بـين المجتمعـات بكتابة والمجتمعات من دون كتابة ومن هنا بالذات، بالقيمة المؤسسـة معرفيا لاختلاف الوثائق والمسـتندات (غودي)، بدأت الأنثروبولوجيا تتسـاءل، لاسـيما في الولايات المتحدة عن ظـروف إنتاج النصـ الإثنوغـرافي: «أولا تنقـل ظروف وحـالات الكتابة على البحث الإثنوغـرافي كمـا على الروايـة التاريخية أيضاً».(١٠)

وبذلك اعتبرت الأنثروبولوجيا متعارضة مع علم التاريخ خصوصا في طبيعة المعرفة التي يقدمها كل علم، فـالأول يقدم معرفة ذات طبيعـة سرديـة، أما الثـاني فمعرفته تعتمد في الأسـاس على الملاحظة والمعاينة، «ولا شك أن المفاهيم التي يستعملها الاثنان تملـك البنيـة المنطقيـة ذاتهـا (إ. جلنر)،

لكن ليس البعد المنهجي ذاته. في الواقع لم تعدل الأنثروبولوجيا عن الطموح الذي كان دوركايم يخصص به الشأن الاجتماعي، أن تكون مقارنة وتعميمية».[11]

ويذهب دوركهايم إلى أننا لا نستطيع أن ندرس الثقافة دراسة تاريخية، كما لا يمكننا أن نتوصل إلى تلك التعميمات أو إطلاق القوانين العامة، كتلك القوانين الفيزيائية التي تحاول مختلف العلوم الاستقرائية اكتشافها والبحث عنها في العلم الطبيعي. وذلك من حيث أن كل العناصر الجزئية للثقافة لا يمكن تفسيرها عن طريق إطلاق القانون أو التعميم. ولكنها تفسر وتحلل فقط عن طريق محاولة الرجوع إلى أجزاء أو عناصر أخرى للثقافة، أي إن كل عنصر ثقافي جزئي إنما يفسر عن طريق محاولة البحث عن أصوله الجذرية وتتبعها في باطن البناء التاريخي لماضي الثقافة برمتها.[12]

بيد أن الفريق الآخر اعتبر أن علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا علاقة وطيدة - معرفيا- خصوصا، وأن التاريخ وابتداء من القرن التاسع عشر خطا خطوات هامة، «حيث ظهرت مقاصد وتصورات وطرائق جديدة للتاريخ، وبرز تأثير العلوم الطبيعية وفكرة النشوء والارتقاء، وظهرت مصادر جديدة للتاريخ. وأعلام كبار للتاريخ الحديث واكبوا القرن ١٩م بكل أحداثه وتطوراته، ومطلع القرن العشرين بإرهاصاته المعاصرة وأحدثوا ثورة كبرى في البحوث التاريخية والإنسانية، وظهرت علوم أخرى أصبحت صنوة للتاريخ في إطار العلوم الاجتماعية مثل الاقتصاد والجغرافية والآثار وعلم الإنسان والفلسفة والسياسة والإعلام...».[13]

وبالعودة إلى تاريخ نشوء علم الأنثروبولوجيا نجد أنه انطلق رأسا من الدراسات التاريخية التي تناولت الشعوب التي كانت مجهولة لدى الإنسان الأوروبي، خصوصاً خلال القرن التاسع عشر، وقد اهتم الأنثروبولوجيون كثيراً بعلم التاريخ. بيد أن ذلك لا يعني أن توظيف المنهج التاريخي والمقاربات التاريخية في الدراسات الأنثروبولوجية يعد انحرافا عن المسار المعرفي للأنثروبولوجيا، أو انصهارا في أفق التاريخ وتغييباً لتقنيات البحث والدراسة الأنثروبولوجية المتعارف عليها دراسياً. فالأنثروبولوجي «ليس مؤرخاً بحتاً، بعيداً البعد كله عن أن يكون مؤرخا محترفا، فهو لا يؤرخ للظاهرة الاجتماعية أو الثقافية تأريخاً دقيقاً قائماً على الحسابات والتواريخ الدقيقة».[14]

إن عمل الأنثروبولوجي هو غير عمل المؤرخ[15]، فإذا كان الثاني يتناول الظاهرة



بالانطلاق من تحديد معالمها الزمنية وكذا انطلاقا من نشوئها ومراحل تطورها واستمرارها إلى غاية نهايتها أو زوالها، فإن الباحث الأنثروبولوجي، وإن لامس الطروحات التاريخية، إنما هدفه هو الإلمام قدر الإمكان بموضوعه من حيث الحركة والتفاعل الاجتماعي والثقافي من جهة، ومن جهة أخرى محاولة وصف طبيعة التغيرات والتطورات التي خضع لها هذا الموضوع ضمن البناء الاجتماعي الشامل، فالباحث الأنثروبولوجي في تبنيه للمنهج التاريخي لايقف عند حدود الوحدة الزمنية التاريخية بل يسعى إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة وليس مجرد معالجة التتابع الزمني، ولكي يعطي وصفا متكاملا لموضوع الدراسة، فعليه أن يعنى بكل تلك الظواهر التي تقع في نفس الزمن في مجتمع معين أو ثقافة معنية محددة.(١٦)

وينظر ليفي ستروس إلى التاريخ والأنثروبولوجيا على أنهما يشتركان في أصل واحد، فهو يذهب مع المؤرخين إلى أن معرفة الماضي تعتبر ضرورية لفهم أية ظواهر اجتماعية، كما أنه يقرر مع الأنثروبولوجيين بأن تتبع تاريخ المجتمع يمكننا من تحديد ماهو دائم في البناء الاجتماعي، أي يجعلنا نتعرف على تلك العناصر التي يكتب لها

الاستمرار والبقاء، بغض النظر عن التغيرات الراجعة إلى الأحداث مثل الحروب أو الهجرات، ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ليفي ستروس يعترف بضرورة التعاون بين المؤرخين وعلماء الأنثروبولوجيا، ذلك أن التوصل إلى تعميمات يحتاج منا إلى فحص عديد من الصور والأشكال الاجتماعية في أمكنة وأزمنة مختلفة، حتى نستطيع أن نكشف المبادئ الأساسية للبناء الاجتماعي.(١٧)

فالأنثروبولوجيا والتاريخ صنوان لعملية بحثية معقدة في كنه الوجود الإنساني عبر ماضيه وحاضره وحتى مستقبله. والمعرفة الأنثروبولوجية والمعرفة التاريخية تلهمان الباحث الاجتماعي قدرة مساءلة العناصر الثقافية والاجتماعية واستنطاق حاضرها وماضيها وما أفرزته من بنى مادية ومعنوية وسلوكية، كما تؤهل المعرفتان الباحث الاجتماعي إلى كتابة تاريخ الشعوب وتاريخ ثقافتها كتابة حية تختلف عن كتابة المؤرخ المحترف الذي قلما ينزل إلى الميدان الاجتماعي والثقافي الشعبي الذي يؤرخ له، حيث تقف مرجعيته عند حدود الوثائق والكتب - إن توفرت له- فيكتب تاريخ الشعوب من بعيد، ويبقى يلامس موضوعه من مكتبه الخاص. وقد يصادفه أحيانا غياب الوثائق والكتب، فيعتمد وقتئذ على تخميناته وتأويلاته الخاصة والشخصية والتي قد تكون صحيحة كما قد تكون خاطئة الأمر الذي ينتج عنه مواقف خطيرة في حق ثقافات الشعوب وفي حق تاريخ الشعوب».(١٨)

ومنه يمكن القول إن الأنثروبولوجيا والتاريخ معرفتان متكاملتان، قد تختلفان لكن لا تتخالفان، كما لا يمكن للباحث الأنثروبولوجي إلغاء المناهج التاريخية أثناء دراسته للظواهر الاجتماعية والثقافية والأنماط السلوكية والتعبيرية لشعب من الشعوب، ذلك أن لا يمكن دراسة ظاهرة ما بمعزل عن تطورها الزمني والمرحلي الذي عرفته عبر سيرورتها ضمن الفعاليات الوجودية للشعب.

إذ إنه لا يمكن إنكار الكتابات التاريخية التي تعد مدخلاً رئيسياً وفي غاية الأهمية للدرس الأنثروبولوجي، وذلك أنها تقدم آليات التحليل والدروس في البنى الاجتماعية والثقافية للشعوب، وتوضح الرؤية حول مختلف التغيرات الحاصلة ضمن سياق السيرورة التاريخية للإنسان.

فالعمل الأنثروبولوجي لا يمكنه أن يكون غفلا من المصادر التاريخية في محاولته الوقوف على الاتجاهات العامة لتطور الشعوب وسيرورة الحضارات وتأثيرات عملية الانتقال الحضاري في الإنسان.

٢- الخلفية التاريخية للأنثروبولوجيا:

سبقت الإشارة إلى أن علم الأنثروبولوجيا ليس مقطوع الأوشاج والروابط مع غيره من العلوم التي اتخذت من الإنسان مادة دراسية لها، بل تتقاطع معها وتأخذ منها وتقدم لها مادة معرفية مهمة، بيد أن الخلفية التاريخية لعلم الأنثروبولوجيا تبدو بجلاء من خلال العودة إلى البدايات الأولى لهذا العلم، أو بعبارة أخرى إلى المحاولات الأولى التي قام بها المؤرخون والرحالة الذين قدموا دراسات، وإن كانت غير ناضجة أنثروبولوجيا، إلا أنها كانت بمثابة إرهاصات أولية لدراسات وصفية للسلوك الإنساني.

إذ تقدم الدراسات التاريخية مادة الأنثروبولوجية مهمة لحياة الشعوب البدائية ونظمها الاجتماعية والسياسية /السلطوية والاقتصادية/ المعاشية وكذا معتقداتها الدينية وسلوكاتها الطقسية وغيرها من الممارسات التي تتخذ منها الأنثروبولوجيا مادتها المعرفية لدراسة حياة الشعوب.

فقد خلفت لنا شعوب العالم القديم المتعلمة تراثا شعبيا كالقصص الإغريقية عن أصل النار وأصل الزراعة وغيرها، كما خلف بعض مفكريهم دراسات وصفية لبعض الشعوب المجاورة، فوصف لنا هيرودوت- الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد - عددا من الشعوب، على رأسها السيكيثيون (scythions) والمصريون القدماء، وقدم بعض الفروض حول اللغة الأصلية للإنسان، وتمثل مؤلفات هيرودوت- إضافة إلى غيرها من المؤلفات التي وضعت بعد ذلك، محاولات أولية وساذجة على طريق إنشاء علم الأنثروبولوجيا، وترجع سذاجتها إلى نقص المعلومات وقصورها، فعالم الإغريق القدماء كان أصغر من أن يتيح معلومات عن الإنسان والثقافات بالقدر اللازم لقيام علم الأنثروبولوجيا.[١٩]

فالدراسات أو الكتابات التاريخية والوصفية للمؤرخين والرحالة القدماء تعد وثيقة دراسية أولية، تفيد بالبدايات الأولى لفكر أنثروبولوجي، وإن بدا قاصرا وغير مكتمل الأسس والملامح فهي تقدم مادة معرفية هامة للأنثروبولوجيا.

وتظهر الخلفية التاريخية للأنثروبولوجيا بجلاء في البدايات الأولى لتنظير الأنثروبولوجي، إذ منذ القرن الخامس عشر ميلادي «بدأت تتراكم كمية من المعلومات الأنثروبولوجية وتجمعت هذه المعلومات على يد الرحالة والمبشرين والجنود، وجمعت تجميعا ضخما للمادة امتزج فيها الوصف الدقيق الحاذق بالتراث الشعبي وحكايات

العجائز، إذ تعرض جانب منها للتشويه، ذلك أن الملاحظين كانوا يميلون -بسبب تأثرهم كامل التأثر بميولهم الثقافية المتميزة- إلى أن ينظروا إلى كل الشعوب والثقافات الأجنبية من خلال منظار ميولهم الثقافية المتعصبة، وعلى الرغم من ذلك فإن المادة التي جمعوها -على هذا النحو- مدتنا لأول مرة بركيزة يمكن أن ينهض عليها علم الأنثروبولوجيا».[20]

وبعد ذلك وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بدأ عدد من الدارسين الأوروبيين دراسة أدوات إشعال النار (عن طريق الاحتكاك) والبقايا العظمية التي عثر عليها في كثير من الأماكن في القارة الأوروبية. وقد اعتمدت مثل هذه الدراسات على التقدم الذي أحرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الحفريات القديمة، وهي الدراسات التي كشفت عن العمر الكبير للأرض، وقدرت أن الحياة على الأرض لابد وأنها ترجع إلى فترات أقدم بكثير مما كان يعتقد من قبل. وكان بوشيه دي بيرت boucher de parthes))، وهو عالم فرنسي، أول من قرر وجود الإنسان في أوروبة خلال العصر الجليدي. وقد عثر في عام ١٨٣٠ على أدوات حجرية في وادي سوم (somme)، ونشر نتائج دراساته واكتشافاته في مجموعة من الدراسات التي ظهرت في الفترة من عام ١٨٤٧. وفي عام ١٨٦٥ نشر السير جون ليبوك (john lubock) دراسة لخص فيها كل المادة وكل المعلومات الموجودة عن ثقافات العصر الحجري الحديث.[21]

وفي الفترة نفسها تقريبا تم اكتشاف بعض البقايا العظمية للإنسان القديم وتصادف أن عثر عليها مع بعض عناصر الثقافة المادية. وقد عثر على أول دليل مباشر على وجود الإنسان القديم في ألمانية سنة ١٨٦٥، وهو الاكتشاف الذي عرف باسم إنسان نيادركال، نسبة إلى القرية التي عثر عليها فيها. وسرعان ما أثبتت هذه المواد التي عثر عليها، الثقافية والعظمية على السواء، وجود الإنسان منذ عصر سحيق، كما كانت بمثابة ركيزة أخرى لعلم الأنثروبولوجيا، إلا أنها كانت بداية بحوث علمي الآثار والأنثروبولوجيا الفيزيقية.[22]

ولقد أثمر هذا التراكم التدريجي للمعلومات من الإنسان وثقافاته نتائج مهمة، إذ قادت إلى بذل جهود علمية لتصنيف الإنسان، ووصف وتحديد موقعه في المملكة الحيوانية وتحديد أنواعه أو سلالات المختلفة وبيان تاريخ تطوره، وكذلك إلى قيام علم مقارن لدراسة الثقافات الإنسانية.[23]

ثم حدثت في خلال الفترة من ١٨٦٠

إلى ١٨٩٠ دفعات قوية في ميدان الدراسة المقارنة للثقافات بسبب تزايد المعلومات التي جمعت من مختلف شعوب العالم الأمية، وكذلك بسبب النمو السريع للمعلومات الأركيولوجية، وقد كان من أبرز علماء تلك الفترة السير إدوارد تايلور في بريطانيا الذي نشر مؤلفه الهام «الثقافة البدائية» لأول مرة في ١٨٧١، وكذلك لويس مورجان –Morgan– (في الولايات المتحدة) الذي نشر كتابه «المجتمع القديم» في عام ١٨٧٧، والسير هنري مين– Maine– وباخوفين– Bachofen– (في انجلترا وألمانيا على التوالي)، اللذان كتبا عن تطور النظم السياسية والقانون، وقد عرف هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء تلك الفترة علم الأنثروبولوجيا كأنه علم طبيعي يهتم أساسا بدراسة شعوب ما قبل التاريخ وثقافاتها، ودراسة الشعوب الأمية المعاصرة، والأفواج العديدة من الثقافات غير الأوروبية، وكانت الأهداف التي يطمحون في تحقيقها من وراء تلك الدراسات كما يبدو ذلك من كتاب تايلور «الثقافة البدائية» وكتاب «المجتمع القديم» لمورجان هي اكتشاف القوانين السيكولوجية التي ينطوي عليها التاريخ البشري والتي تحدد مساره.[٢٤]

وقد بدأت الأنثروبولوجيا الحديثة، الفيزيقية على السواء مع القرن العشرين تقريبا، فمنذ ذلك التاريخ أصبحت الأنثروبولوجيا الثقافية والفيزيقية على السواء تجمع بوساطة باحثين ميدانيين تدريبا شاقا على تلك البحوث، وقد اتسع ميدان الأنثروبولوجيا اليوم اتساعا كبيرا بحيث يشمل أوجه النشاط العديدة للإنسان، وقد أسهمت العلوم الأنثروبولوجية في إثراء العلوم الاجتماعية بعامة من خلال توضيح مفهوم السلالة أو العنصر وتقنية هذا المفهوم مما كان يشوبه من اضطراب وخلط بين مفهوم اللغة والقومية والثقافة في الماضي، وكذلك توضيح مفهوم الثقافة.[٢٥]

كما شكلت النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا خلفية تاريخية بينة لهذا العلم، إذ تقدم هذه النظرية صورا عن نظم القرابة والنظم الاجتماعية والسياسية للشعوب التي نعتت بالبدائية وقد نجح أحد أعمدة النظرية التطورية في الأنثروبولوجيا، لويس هنري مورغان (١٨١٨–١٨٨١)، في البرهنة على أن علاقات القرابة تسيطر على تاريخ الإنسان البدائي، وعلى أن لهذه العلاقات تاريخا ومنطقا، وذلك من خلال دراسته لنظم القرابة ولأشكال الأسرة والعشيرة لدى شعوب/ قبائل الإيروكيز، وافترض مورغان عددا من المراحل

التطورية الاجتماعية، وربط كل مرحلة من تلك المراحل بنمط معين طبقا لمراحل التطور الثقافي، أي إن كل مرحلة تميزها علاقات ثقافية تتمظهر في أشكال من النظم بحيث تتوافق مع المراحل الفرعية، وافترض مورغان أن جميع المجتمعات الإنسانية تخضع في تطورها لقانون واحد طالما أن تاريخ الجنس البشري واحد.[٢٦]

فالاتجاه التطوري في الأنثروبولوجيا يقرر عدم إمكانية فهم العقل الإنساني إلا من خلال ربطه بالعقل التاريخي، وفهم الممارسة النظرية ممكن فقط من خلال التاريخ، وذلك باعتباره تسجيلا لحياة أمم (مجموعة من البشر) متجانسة تحتويهم دائرة عامة واحدة، وما الاختلاف الحاصل بين البشر وتمايزهم إلا ثمرة ظروف تاريخية محددة. فالمجتمعات الإنسانية بعامة تشكل حسب الاتجاه التطوري تواصلا طبقيا تطوريا ودرجات هذا التطور التاريخي تشكل المجال العام للحياة البشرية (اجتماعية- ثقافية - دينية - اقتصادية...).

ويمكن تلخيص آراء أنصار الاتجاه التطوري أن تاريخ الإنسانية يمثل خطا متصاعدا من العادات والتقاليد والعقائد والتنظيمات والأدوات والآلات والأفكار، وأن البشرية قد سلكت مراحل تتدرج من البسيط إلى المعقد إلى الأكثر تعقيدا.

كما يمكننا رصد الخلفية التاريخية للأنثروبولوجيا من خلال الاتجاه الأنثروبولوجي الانتشاري[٢٧]، وذلك باعتبار أن الانتشارية مبدأ هام في الدراسات الإثنولوجية ودراسات ما قبل التاريخ، كما أنه يمكن اعتبار الدراسات الانتشارية جزءا من العملية التاريخية للمجتمعات التي تنقص حولها الوثائق المكتوبة، فالنماذج الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر كما «تنتقل من جيل إلى آخر، أي من جيل المبدع إلى جيل المقلد، لذا فإن تشابه الأنماط الثقافية... لا ينشأ من النحو التلقائي الناتج عن تشابه الإمكانيات الاجتماعية والطبيعية الإنسانية أو بوجود ما يسمى بالتشابه العقلي للإنسان أو الوحدة النفسية، لكنه ينشأ بسبب وجود وظهور الحضارة الإنسانية في مركز واحد، ثم بعد ذلك انتقالها لبقية المجتمعات الأخرى».[٢٨]

كما ظهرت مصطلحات أنثروبولوجية لها امتدادات معرفية في علم التاريخ، ومن ذلك مصطلح التاريخ الإثني «الذي ظهر مع أنثروبولوجيين شمال أمريكا» الذين كانوا يعملون على إعادة تشكيل ماضي المجتمعات التي يدرسونها. إن التاريخ الإثني هو في الأصل تاريخ المجتمعات المدعوة «بلا تاريخ»،

ولقد أصبح أيضا تاريخ المجتمعات «بدون كتابة» التي لم يحفظ تاريخها إلا بتراث شفهي، أو ببساطة أكثر تاريخ المجتمعات التي درسها الإثنولوجيون الذين قاموا بذلك انطلاقاً من البحث الميداني».[٢٩]

لقد ارتكز التاريخ الإثني على فكرة أنه يعالج مسائل مجتمعات مغلقة، سواء أكان بصدد معالجة وثائق شفهية أو إعداد جداول زمنية، بيد أن هذا الارتكاز لم يعد له ما يبرره اليوم، إذ نادرا ما يكون التقليد الشفهي المادة الوحيدة للتاريخ، وأبرز الإشكالات التي يطرحها استخدامه هو ربط مضمونه بمحتوى المصادر التاريخية الأخرى في مناطق العالم حيث يعمل الأنثروبولوجيون بشكل ووسائل تقليدية.

ومنه فلا يمكن مواجهة التاريخ الشفهي والتاريخ الكتابي، ذلك أن «كل طائفة وكل فئة وكل فرد يملكون ذاكرة تنقل خطيا وشفهيا، بتفاعل دائم بين هاتين الوسيلتين. إن أعمالا عديدة جدا عن المجتمعات الغربية (عن المحاربين الكالفينيين، جوتار ١٩٧٧، عن الذاكرة اليهودية، مثلا: فالنسي وواشتيل ١٩٨٦، عن ذاكرة النساء والعمال، إلخ) قد أعطت أبعاداً جديدة للمشافهة والوثائق المختصة بالسير الذاتية، وقد بينت أن التاريخ الإثني غير متعارضين في الواقع، لكون كل منها يتكامل مع الآخر».[٣٠]

كما نشأت إحدى توجهات الأنثروبولوجيا ذات الخلفية التاريخية المحضة، وذلك في الأنثروبولوجيا التاريخية، ذلك أن الأنثروبولوجيين أدركوا بشكل أوضح وبالتدريج البعد التاريخي للمجتمعات التي يدرسونها، فكانت الأنثروبولوجيا التاريخية «ترمي كذلك إلى تصور أدق لمواضيعها تقدم عنه الأنثروبولوجيا الاجتماعية مثلا للمؤرخين، وكذلك تعلم المؤرخون من الأنثروبولوجيا التفكير بالتزامن وتحليل البنى، دون العدول عن التساؤل حول التحولات التعاقبية وحول خصوصية المجتمعات المعقدة. لقد اكتشف المؤرخون أخيرا فضائل «الميدان»: سمح لهم «التاريخ المصغر» بتجاوز حالة خاصة... إلى تعميم قضية ما، هكذا غير المؤرخ دراسة بعض من مواضيعه التقليدية واتخذ لنفسه، مواضيع الدراسة المألوفة أكثر لدى الأنثروبولوجي. إن ما قد أتى به التاريخ يظهر بشكل خاص في مجال تاريخ العائلة والقرابة وتقنيات ورمزية الجسد والميثولوجيا والبنية الفلكلورية وتصورات السلطة».[٣١]

الخلاصة:

لو أجملنا ما تقدم عن علاقة التاريخ بالأنثروبولوجيا وخلفية الثانية التاريخية لأمكننا القول إن التاريخ يحمل بين ثناياه

صيغة الدراسة الأنثروبولوجية باعتبار أنه يهتم في دراسته للمراحل الزمنية للشعوب بنظمها الاجتماعية وتشريعاتها ودياناتها وطقوسها وغير ذلك مما يتقاطع فيه التاريخ بالمسارات المعرفية للأنثروبولوجيا، كما أن الأنثروبولوجيا لا يمكنها تقديم نماذج معرفية لدراسة الشعوب من دون الاستعانة بعلم التاريخ ومناهجه.

وكما يمكن اعتبار التاريخ مرجعا مهما للدراسة الأنثروبولوجية، فإن البحوث الأنثروبولوجية تشكل مادة معرفية وصورا حية عن حياة الشعوب مما يحيل إلى استفادة المؤرخين منها بغية تقديم نماذج لحياة وتطور الشعوب في مختلف مراحل سيرورتها الزمنية والثقافية وغيرها، فالتاريخ والأنثروبولوجيا نمطان معرفيان يتقاطعان في عدة نقاط منهجية، كما أنهما يتكاملان بحثيا، ولايمكن إقصاء أحدهما في الدرس البحثي للآخر.

المراجع

١- محمد محمود الجوهري: الأنثروبولوجيا، أسس نظرية وتطبيقات عملية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،١٩٩٦، ص٤٩.
وكذلك: رالف ل بيلز، هاري هويجز: مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة، ترجمة محمد محمود الجوهري، دار النهضة مصر للطبع والنشر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك ديسمبر ١٩٨٨: ص٣٠.
٢- محمد علي أبو ريان: العلوم الإنسانية وأزمة مناهجها المعاصرة مع دراسة نقدية لأسسها وبنيتها اللاهوتية، مجلة الثقافة (وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر)، س١٦،ع٩٦، ربيع الأول، ربيع الثاني ١٤٠٧هـ/ نوفمبر-ديسمبر ١٩٨٦م، ص٦٣.
٣- حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص٩٣.
٤- المرجع نفسه، ص٩٣.
٥- ج. لنكلود: تاريخ وأنثروبولوجيا، معجما الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تحت إشراف: بيار بونت، ميشال إيزار، ترجمة: مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر (مجد)، بيروت، لبنان، د.ط.د.ت،ص٢٣٦.
٦- المرجع نفسه، ص٢٣٦.
٧- المرجع نفسه، ص٢٣٧.
٨- حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص٩٤.
٩- معجم الإثنولوجيا، ص٢٣٧.
١٠- معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ص٢٣٧.
١١- المرجع نفسه، ص٢٣٧.
١٢- راجع حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص٢٠.
١٣- يحيى بوعزيز: علم التاريخ بين المسلمين وغيرهم، مجلة الحضارة الإسلامية، المعهد الوطني للتعليم العالي

للحضارة الإسلامية، وهران،ع٣، رجب ١٤١٨هـ/نوفمبر ١٩٩٧م، ص١٦٦.

١٤- محمد سعيدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية بالجزائر، أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجيا (مخطوط)، جامعة بو بكر بلقايد، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص٢٩.

١٥- راجع: غي توبليه- جان تولار: مهنة المؤرخ، تعريب: عادل العوا، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١.

١٦- محمد سعيدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص٢٩.

- محمد عبده محجوب: مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية (منهج وتطبيق)، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٤، ص٩٨.

١٧- حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا في المجالين النظري والتطبيقي، ص٩٤.

١٨- محمد سعيدي: الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص٣٠.

١٩- محمد محمود الجوهري: الأنثروبولوجيا، ص٤٦.

٢٠- المرجع نفسه، ص٤٦.

٢١-المرجع نفسه، ص٤٦- ٤٧.

٢٢- المرجع نفسه، ص٤٧.

٢٣- المرجع نفسه، ص٤٧ (بتصرف).

٢٤- المرجع نفسه، ص٤٨.

٢٥- المرجع نفسه، ص٤٨-٤٩ (بتصرف).

٢٦- راجع:

Claude Riviere: Introduction a l'anthropologie, edition, paris, sans date, p30

٢٧- الاتجاه الانتشاري: اتجاه نظري في الأنثروبولوجيا، ويعود أصل هذه التسمية «إلى طبيعة موضوعه ومقاصده المعرفية والمنهجية والأيديولوجية، فهو اتجاه أنثروبولوجي يعنى بمتابعة النماذج والظواهر الثقافية والاجتماعية التي ظهرت في منطقة جغرافية وثقافية واجتماعية ومن إبداع شعب بعينه ثم انتشرت وشاعت متعدية حدود فضاء نشأتها الأولى، وذلك نتيجة تفاعل عدد من الأسباب الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية». محمد سعيدي الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص٦٠، وكان من روّاد الاتجاه الأنثروبولوجي الانتشاري فريدريك راتزل، هاينرينج شورته، ليو فروبنيوس فلهام شميدث، فلهلم كوبرز في أوروبة، وفرنس بواز في أمريكة.

٢٨- محمد سعيدي الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، ص٦١.

- وسام عثمان: المدخل إلى الأنثروبولوجيا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠٠٢، ص٤٦.

٢٩- إيزان ون.اشتيل: التاريخ الإثني، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ص٣٢٩.

٣٠- المرجع نفسه، ص٣٤١.

٣١- ج.ك سميث: الأنثروبولوجيا التاريخية في معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ص٣٤٢.



الدراسات والبحوث



الشـاعر والناقــد
الحوار - والامتداد...

د. صلاح الدين يونس ⊛

في تاريــخ العرب الثقافي ســياق عام يمكــن لنا أن نطلق عليه الســياق السلطوي وهو حاضر في أبنية العربية وتشكيلاتها، وقد يتخذ لنفسه أشكالاً ومظاهر قد تلتبس على «العادي» و«العام»، تلك المظاهر: أغلبها مخاتل يقفز - داخلياً - من عصر إلى عصــر.. فيتسرب المعنى ويتوارى المبنى، فيتشربها المعارض المخالف من دون وعي ومن دون إذن..، فإذا ما اطمأن المتسرب إلى أنه توضع في داخلية المتشرب، أفصح عن نفسه ليعلن عن تناقض البنية..

⊛ أستاذ النقد الأدبي- جامعة تشرين.
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ومـــن هنا وجب – من وجهـــة نظرنا – تفحّصــ المتن من دون الاطمئنان إليه، ومن دون الشـــك الكلي المدمّر لـــه.. إنما.. نحن ناظـــرون من خارجـــه إلى «تمرحلاته» عبر المتون أولاً... ومـــن معاينة الهوامش ثانياً.. وكثيراً ما يتبادل المتن مع الهامش المواقع،... فيغريـــه ليتوارى...ثم ليفعل باســـم غيره.. فيضلل، ثم يبني.. فإذا ما نظرنا إلى البناء وحده.. أغرانا المتن المركزي بالوقوف عنده وحده.. وهنا تحدث القطيعة..

و حتـــى لا تكـــون القطيعـــة قطيعـــة مكتملـــة ناجزة.. رأينا المغامرة مع الهوامش والمقصـــيات حالاً مـــن المواجهـــة مع المتن المخاتـــل.. لنراه مـــن مواقعنـــا الجديدة.. هـــذه المواقع... لن تكون من «التاريخية» إن اتخذت لنفسها ذاتاً أو متناً جديدين.. إنما هي مواقع حركيـــة تتقبل النظر وإعادته... والمداورة.. والالتفاف.. في سعي منها لقراءة المـــتن من الداخـــل والخـــارج.. نقف خارج الظاهرة.. بأدوات بعضـــها مألوف لديها.. وبعضـــها مغاير، فـــإن تأبّت علـــى أي منها أعدنا النظـــر في الأدوات... بالمنهج.. الذي أخلصنا القول: «إني خارج العصمة».. وإني أحتـــاج إلى غـــيري.. وإن غيري وافر الحظ عنـــدي.. ومـــن المواقف التـــي أغرتني بأن تكون لي مُدخل نصـ ومُخرج رأي ما قرأته في «البصائر والذخائر» للتوحيدي...

فقـــد روي عن أبي الـــدرداء الخزرجي الأنصـــاري ت ٦٥٢م وهو حجة في تفســـير الرؤيا، أنه قال يوماً: «أحبُّ ثلاثةً لا يحبهن غيري، أحب المرض تكفيراً لخطيئتي، وأحب الفقر تواضـــعاً لربي، وأحب الموت اشتياقاً لربي» ويقول ابن ســـيرين محمد الأنصاري ت ٧٢٨م «لكنني لا أحب واحدة من الثلاثة، أمـــا الفقر فـــو الله. الغنى أحـــبّ إليّ منه، لأن الغنى به يوصـــل الرحـــم، ويحج البيت، وتُعتق الرقاب، وتبســـط اليد إلى الصدقة.. أما المرض فو الله لأن أعاف فأشـــكر أحب إليّ من أبتلى وأصـــبر. وأما الموت فما ينفعنا من حبه إلا ما قدمناه وســـلف من أعمالنا، فنستغفر الله عز وجل»

يقول أبو حيـــان التوحيدي ت ٤٠٢هـ – بعد أن عاين النصين «أنظر بالله إلى خروج ابن سيرين من كل ما دخل فيه أبو الدرداء.. حتى لكأن الصدق فيه أبين وأقرب، ولولا أن الطرق إلى الله مختلفة ما عرض هذا الرأي الأول، ولا عارضه هذا الثاني..»(١) وقد عزّز التوحيدي تفضيله لابن سيرين بمقولة لأبي حامد القاضـــي: «الزهدُ في الدنيا لا يصحُّ، لأن الإنسان خُلق منها وعمّرها، وسكن فيها،

فلا سـبيل إلى انســلاخه منها على ما يرى جُفاة الصوفية».[٢]

لقــد فتح –كما نرى– موقف التوحيدي أفقاً آخر لقــراءة الأدب، بل لقراءة الحياة، وقد ميــز بعقل ناقد يتجاوز سـلطة النحو ومركزيـــة البلاغــة المرتبطـــين –وظيفياً– بسـلطة الخلافة التي –بدورهـــا– جعلت منهما ثقافة توســع من خلالها النصــوص المغلقـــة، كلما احتاج الخليفـــة المركزي لمتن مرن، يســوغ له انفتاح السلطة على الأبعاد الحياتية، في الوقت الذي يحتفظ للنصوص الدينيـــة بحقها لا على أنها مســـتقلة، إنما على أنها مستملكة في صالحه، وهو حاميها وعامل بها عندما تفرض الواقعة السياسية ذلك.

يشـــير التوحيدي إلى الوعي الجمعي في نص أبـــي الدرداء، وكأنه يـــرى الآخرة تقع غداً، وكأن الحياة تفر من أبنائها، ومثل هذا الموقف لا يُرضـــي التوحيدي، إنما لا يفصح عن موقفه، إلا بإيراد نص مضاد وهو نص ابن ســـيرين.. الذي فتح اللغة على الحياة، والحيـــاة إن انتظمـــت بما يجعـــل الأفراد ســـعداء.. كانت الآخرة على صورة الدنيا.. والدنيـــا قائمة على الفصـــل بـــين الأنواع، وعلى التواصل بين الشـــبيه والمختلف وبين اللاحق والســـابق.. وبين النظير والأصـــيل

هكذا.. أفصـــح التوحيدي عـــن موقفه من خلال مناظرته بين نصـــين.. جمعي «كمّي» لأبي الدرداء، وفردي «نوعي» لأبن سـيرين..

لقد توافـــق التوحيدي مع ابن ســـيرين توافق المصـــارحة مع الـــذات والآخر، وفي ضـــمينه كل منهما رفض للخصوصية التي خصّ بها أبو الدرداء نفسه، على أنه طالب آخـــرة لا دنيا، فجاءت لغتـــه متواطئة معه، في حين جاءت لغة أبي الدرداء متوافقة مع رؤياه للحياة التي هي أولاً من دون أن يخسر الآخرة..

الفارق الفاصل بين النصين يضعنا أمام إشـــكالية الرفض والتقبل، أو أمام مشـــكلة البحث عن التوافق النســـبي لا المطلق، فإن كان المطلـــق هـــو الغاية داخلنا الســـديم.. وأحلنا الفردي إلى الجمعي، وســـقنا المعرفة باتجـــاه الكتلة، وأزحنا الفكـــر النقدي أمام الفكـــر التســـليمي.. هذا ما فعلـــه المتوكل بتواطؤ الشاعر «البحتري» الشاعر كان يعمم والفقيه يسوغ، يبرر، يســـتنبط من الأصول فروعاً تحمي الخلفية المتخلّف.

لقـــد حاول «نورثروب فـــراي» أن يربط وهو يؤسس في النقد الحديث لفكرة النماذج البدئية والأبنية الكلية في المخيلة الشعرية، بـــين مخيلة الكليـــة وتعبيراتها الأســـطورية المتمثلـــة في الأصـــناف الأساســـية للآداب

القوميــة في الغــرب - في أوروبــة - منذ تأسيســاتها اليونانية بل الأسطورية الثابتة عليها.

وقد حاول لوسـيان غولدمان الماركسي البنيـوي ومؤسـس علم اجتمـاع الأدب أن يربط مفهوم رؤية العالم بشروطها التوليدية الدقيقــة في التعبـير المتبلور عن الضــمير الجمعي.

أما الشعرية الألسنية. فتعمل على توحيد القــدرة البصريــة في المحسوســات المرئية المتشــكلة عبر لقاء «اللّغوي» مع «التخييلي»، ومن هنــا كانت تنزع نحو تطــور «العقلي» فخلقت مجموعــة من التقانـــات التعبيرية لتشكل تلك التقانات «استراتيجية دلالية».

حاول د.صلاح فضل في كتابه الأساليب الشــعرية.(٣) أن يميز بــين الرؤية بمعنى الباصــرة في اليقظــة، وبين الرؤيــا كفعل التخييــل في الحلــم، ثم عرض لمســوغات محاولتــه مــن الآداب الغربيــة، ومن بعض نقادهــا بعضــ الآراء ليعزز مســاره فنقل عن «كوليدرج» الذي عمل على الرومانســية النقدية على تأسيس المصــطلح النقدي إذ أطلقه على «الاستبصار الفني» الذي تقوده الملــكات العليا بحيث يُفضــي إلى الشــهود ويعبر عن الواقع بالغيبيات التخييلية.

وإن أجرينا المسألة على «البنى» وافترضنا



أن الوصــول إلى الغاية كما فعل ابن سيرين، فنحن أمام مســؤولية الاعتراف، الاعتراف بحضور الأنســاق المتخالفة، حضوراً تحفل به دنيانا.. العميقة.. الوسيطة.. الممتدة ...

لكن إشــارة ابن سيرين لصــورة الآخرة إشــارة مبكـــرة «ت٧٢٨» مــن «الفقيــه» لرســم الصـــورة الأخروية على أســاس من «الســـلوكية» لدنيوية، «الدنيوي» لا يتعارض مع «الأخروي»، إن كان «الفردي» في صــالح «الجمعي» وتأتي أهمية ابن ســيرين في أنه من الطبقة الثانيــة من أهل الحديث، ومنه خــرج خروج الفرد من الكتلــة لدى الآخرة المنتظرة رؤية فردية.

وإنه لمن الأسئلة التي تبدو على غاية من الأهمية..سؤال قديم..مستمر...كيف ينشأ الاختلاف؟ فالذكر الحكيم أشار إلى اختلاف الكون في الحركة وفي الغاية منها، أشار إلى صــورة الخلق الطبيعي كيــف – باختلافها – يحدث الانســجام بل تتولــد الحياة «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» آل عمران ١٩٠-١٩١» .

والاختــلاف مــن الطبيعــة إلى المعتقد مســيرة من الخلق إلى الاختلاق... فالخلق في الطبيعــة فعل الله وعنــد غيرنا هو فعل القانون قانــون الطبيعة، وفي الفكر اعتماد علــى رأي، إقصــاء فكر مســتهلك وإقامة البديــل، على ما يزعم المختلق «**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**» الروم ٢٢ .

ومن الاختـــلاف في الخلق الطبيعي إلى الاختلاف في الخلق اللغــوي.. دالاً به على شأنه الفاعل القادر الغائي.. والاختلاف في اللغة اختــلاف في الأداء العقلي والتمرحل مع تاريخ الطبيعة، وإنشاء تاريخ الإنسان.

والاختلاف في الشــعر – عند العرب – يقود إلى الهجاء كما هو كائن في مراحل تاريخ الأدب، ولكن النقائض الشــعرية في العصر الأموي ابتعــدت عن الاختلاف الشــعري، لتؤصــل الاختلافات السياسية والمذهبية.. فالعصر الأموي عصر الاختلاف على الرغم من الخليفــة المركزي، فلقد أظهر الشــعر المختلف المتخالف صورة العصر الذي لم يقو فيه الخليفة على إسكات أصوات الخصوم.. ومن هنا كان الشعر الأموي أهم من التاريخ الأمــوي، ولــولا «الكميت» لمــا علمنا كثيراً مما علمنــاه عن النقيضــ المذهبي للدولة «الخليفــة» ولولا مهيار الديلمي لما ســمعنا للآخر العرقي (الفارسي) صوتاً غير أليف، إن توافق مع السائد القومي – المذهبي – أو تخالف – ولم يكن الكميت بن زيد إلا صــوتاً لرأي أفصح عن نفسه شعراً.. وهنا «الشعر» موقف وتاريخ.... وللسلطة شعراؤها.. وهم – على تبعيتهــم العمياء الموظفــة – تاريخ أيضــاً، والتاريخ هو هذا وذاك.. هو الممكن وهو المســكوت عليه.. وما المسكوت عليه..؟ سؤال انتزعه مفكر محمد أركون.. وهو يقرأ تاريخية الفكر الإسلامي ويُقرئه، من لحظة سؤال أركيولوجي.. التأسيس المعرفي للظاهرة من العمق.. إذاً الطبقات متوضــعة قائمة..

وجهــة النظــر الواحدة لا تشــق الطبقات كلهــا.. كل طبقة تتخير منهج البحث عنها.. لأنها تكونت تحت الشرط المختلف، ولو كان المختلف مع نقيضـــه متشـــابهاً.. فالمسكوت عليه... بني عليه تاريخ من الفكر والمجتمع والشعر.. وحتى الدولة فماذا لو أعيد النظر به.. سـيعاد بما بني عليــه.. لكنه لا يلغي، فالافتراض المثالي يقطع المعرفة عن جذرها الواقعي.. وحتى لو أن المسكوت عليه كان كماً بناه التاريخ لنفسه، وهذا ضرب من الافتراض أيضـــاً، فلن يغير في المســألة جوهرها، إنما قد ينحرف المعيار القيمي عن مســيرته مع الفكر والسلطة.

واللامفكر به، منطــق جديد هو الآخر في أبنيــة الفكــر الناقد للفلســفة العربية الإســلامية، وهو «اللامفكر به» صار أو أنه كذلك لنفكر به، ليكون مثار سؤال وتساؤل؟ ! لمــاذا أُخرج من ســاحة المعرفة؟ ولماذا تم التسليم بإقصائه؟ .

لقــد بات لزامــاً علينــا أن نعاين المتن النظري النقــدي القديم معاينة مباشرة، ثم لا بد أن يقودنا الســؤال الضمني والصريح إلى الهوامشــ التي نــرى حضــورها متناً ضرورياً هو الآخر.. فهذه الهوامش – نعني به الشعر – الشعر المتناثر على يمين السلطة المركزية وعلى يسار المسار «الفني» والثقافي والإبداعي، ذات حضور سايكولوجي مكثف، لكنهــا غائبــة بفعل الطــرد المركزي للمتن الســلطوي نحو الأطــراف.. ومن هنا كانت قراءتنــا – نحن المعاصريــن –للمقطوعات الشعرية تقع خارج المألوف المدون في تاريخ الأدب.. وقــد اعتمدنا في هذه القراءة على معاناتنا المضــنية الشــائقة، مع الفلســفة العربيــة الإســلامية وما أفضــت به.. وما أُفضــي به روادها المعاصــرون وفي مقدمة هؤلاء أستاذي المفكر الدكتور: طيب تيزيني، الذي أفدت من منهجيته أكثر مما أفدته من الجامعات التي تخرجت فيها...وعلى الأخص في مصــنفه الإســلام المحمدي الباكر نشأةً وتأسيســاً، كما أعترف بأنني أفدت – على الطرف الآخر – من منهجية المفكر «محمد أركون» ولا ســيما في كتابيه «تاريخية الفكر العربي الإسلامي والإســلام قراءةً علمية» وأدون اعترافــاً آخر مزدوجــاً، الأول لزكي نجيب محمود، والثاني: لســمير أمين، على الرغــم من تباعد المنهجيــة بينهما إلا أنني أدركت أهمية التأســيس عند الأول، وأهمية القــراءة الكلية عند الثاني، وأما إفادتي من تراكمات النقد الحديث الأكاديمي، ولاسيما السلفي منه فكانت إفادة الإثارة، بمعنى آخر كنت أسير بعكس الاتجاه، وقد أعفيت نفسي من نتائجه ومناهجه وآرائه، فوجدتني أتجه

اتجاهاً آخر «إلى الخارج» إلى علمي التاريخ والفلسـفة، لكي أعود إلى «الداخل» بأدوات تقوى على تفكيك الظاهرة وإخراج الكامن، وإعادة الشـارد وكشـف المضـمر.... فإذا قادني العمل هذا إلى الارتياح أحسست بأنني فعلت شـيئاً يدفع إلى الرضـا – كما أزعم – وحتى لا يبقى الكلام هنا وهناك.. أشـير إلى اتجاهين عملت على التقابل بينهما:

بين يـدي ديـوان «الشـافعي» ت ٢٠٤ هـ، وهو صـغير الحجم وضـعيف الشعرية، لكنـه ذو كثافة سـيكولوجية عالية، اعتمد المقطوعـات الشـعرية لا المطـولات ويبدو – فيما يبدو لنا – أنه وظف الشـعر للوعظ لا لشـيء آخر، وإن رسالته الفقهية أهم من أن تختصر في شعره... وقد أفصح عن نفسه بهذه المقطوعة:[٤]

إن الفقيه هو الفقيه بفعله
ليس الفقيه بنطقه ومقاله
وكذا الرئيس هو الرئيس بخلقه
ليس الرئيس بقومه ورجاله
وكذا الغني هو الغني بحاله
ليس الغني بملكه وبماله

لقد حدد الشـافعي مفهوم «الغنى» بأنه قائم على المعرفة الدينية والقناعة والتماثل، بين السلوك الفردي والقول.. وتبدو أهمية هـذه التحديات في إفصـاحها عن مرحلة تجاـ فيها السـلوك عن المبـدأ.. وما كان للشـافعي أن يـرى تحولات القـرن الثاني الهجـري إلا تحولاً فردياً.. عن المبدأ العام، ومن هنا حرم نفسه من قراءة الحدث الأهم وهو تضـخم القاموس الفكـري والحياتي لمجتمع دولة الخلافة، هذا القاموس فرض سـياقات من خـارج النظم الإسـلامية، لم يستطع الفقهاء تلمسـه من تاريخيته، إنما تلمسـوه في معيارية السـياق الديني.. وقد صرح بهذا شعراً:

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها
يمسي ويصبح في دنيا سفارا
هلا تركت لذا الدنيا معانقة
حتى تعانق في الفردوس أبكارا[٥]

حدد الشـافعي هنا المسار.. فإمّا الدنيا وإمّـا الآخرة.. ولكنّ الآخـرة تفترض تهيؤاً وإعداداً يقومـان على إقالة الدنيا.. وإقالة الدنيـا يعنـي أن تتركها لطالبيهـا «اترك السـلطة» لمن آلت إليه.. لم يقل هذا صراحةً لكن النتائج كانت هنا، لقد خدم الشـافعي السـلطة العباسـية من دون دراية منه، في وقت كان فيه أبو حنيفة ت١٥٠هـ يواجه تلك السلطة «مع المنصور»..

ولم يكتف الشافعي بإقالة الدنيا بل عزز

ذلك بإقالة الشعر، ولكن على طريقة أخرى وهي اتحاد العلم بالفقه..

ولــولا الشعـر بـالعـلـمـاء يـزرى
لـكـنـت الـيــوم أشـعـر مــن لـبـيـد
وأشـجـع في الـــورى مــن كــل ليث
وآل مــهـلَّـب وبـنـــي يــزيـــد
ولـــولا خـشـيـة الـرحـمــن ربـي
حسـبـت الـنـاس كـلهـم عـبـيـدي[٦]

مــا الذي جعله يســتحضر «لبيد» – آل المهلب– بنــي يزيد».. إنه موقف الفقيه من الشعر والشــاعر، إذ يراه وســيلة غيره من الشــعر.. بل إنه الموقف الأيديولوجي الذي جعل الشعر في جبهةٍ غير جبهته، لقد تشرب الشــافعي – وهو من هـــو – في عالم الفقه واللغة. تشرب شعرية الشعراء فأصبح يفكر وهو شاعرٌ بعقلية مســتعارة... إنّه الانعتاق من المواجهة مـــع القاموس الدنيوي والفكر الجديــد الـــذي أشرنا إليـــه.. وعلى الرغم مـــن تقدم أبي حنيفة النعمان ١٥٠هـ زمانياً على الشــافعي ٢٠٤، وعلـــى الرغم من أن السلطة العباســية كانت أقوى وأعنف.. إلا أن «الحنفـــي» كان أقوى علـــى إظهار الرأي الفردي المواجه للســلطة ممن جاء بعده من الفقهــاء وفي مقدمتهـــم الشــافعي، ويروي «الزمخشري»كان أبو حنيفة يفتي سراً لوجوب نصرة زيد بـــن علي.. وحمـــل الأموال إليه والخروج معه، على اللص المتغلب المتســـمي بالإمام والخليفة[٧]

ومن هنا جاء الفقه الحنفي فقه «المدن» المتواصـــل مع ثقافة التركيب العرقي لدولة الخلافـــة، بينما شـــاع الفقه الشـــافعي في البـــوادي والأطراف والهوامشـــ التي ألفت الخضـــوع للمتون.. ولا سيما بعد أن أجرى الشـــافعي المصـــالحة مع الرشيد، فقد ولي الحكم في نجران، فوصـــل الرشيد أنه يؤلب الناس عليه، فاقتاده علـــى بغل إلى بغداد، واتهمه بأنه يروم الخلافة، ثم تشفع له محمد بن الحســـن، ثم بُرئ مما نسب إليه، فاختار مصر ومات فيها، ولم تشـــفع له سكونيته مع السلطة، ورغم هذا ظل محايداً لم ينتقل إلى حقل «المعارضة».[٨]

وبين يدي أيضاً بعض ما كتبه الفيلسوف الأمريكـــي هنري ديفيد ثـــورو Thoreau «١٨١٧–١٨٦٢» وكمـــا يقـــول د.زكي نجيب محمـــود عنـــه «نضـجت في رأســـه فكـــرة الفردية المطلقة» لكن هذه «الفردية» جاءت ضـــمن ســـياق تاريخي يـــرد علـــى التبعية ويؤسس للاســـتقلالية... فقد اعترض على أمته الأمريكية في وحشـــيتها «آنذاك» ضد المكســـيك، وضـــد العبيد، وكذلك في إبادة

الهنود الحمر السـكان الأصلاء.. لقد واجه الدولة واحتما بالقانون الأمريكي «إن للفرد الحق في الاعتراضـ على الدولة الأمريكية حينها لتقبل بهذا.. فوضــع داخل السجن، وعندما زاره صـديقه الشاعر المفكر «رالف والدو إمرسون» سأله: هنري: ماذا تفعل هنا داخل القضبان؟ وكان هذا السؤال مهماً من إمرســون لأنه يحمل اعتراضاً على الدولة، ويرى أن ثــورو ليس من حقــه ولا من حق الدولة أن يكون وراء القضــبان، لكن جواب ثــورو كان أهم «والدو.... ماذا تصــنع أنت خارج القضبان؟

إنهــا الإشــكالية، وإنــه الســؤال الذي لايحتمل إلا جواباً واحداً.. لنكن معاً ضــد اســتبداد الدولة.. فوالدو امرســون شاعر ومفكــر، وثــورو مفكــر، وثورو فيلســوف، وكلاهما ســاهم في انفصال أمريكا حقوقياً عــن بريطانيا.. وكلاهما دعــا إلى «أمركة أمريكا» ولكنهما أرادا أمريكا كما تصوراها، أمريكا الحقوقية.. وفي غدٍ لاحق ينفصــل الشــاعر إمرســون عن الفيلســوف ثورو.. ليس انفصــالاً في المفاهيم إنما انفصال في الطريقة والمنهج.

هنري ثــورو في مقولته الأهم: «لن تقوم دولة حرة مســتنيرة بالمعنى الصحيح إلا إذا اعترفت الدولة بأن الفرد قوة عليا مســتقلة في ذاتهــا، تســتمد منه كل ما لهــا من قوةٍ وسلطان».

وانظر إلى تراث عربي إسـلامي، أسس له أحمد بن حنبل ت «٢٤١هـ» ونظَّر له ابن تيمية ت «٧٢٨هـ-١٣٢٢م» (لا يجوز الخروج على الحاكم طالما أنه يقيم الصــلاة)، وقد اعتمد في هذا على حديث نبوي كان مساره مختلفا، لكن الاشــتقاق السياســي من قبل رجال الفقه قد جعل الحديث ذاك في صالح رجل الدولة، والحديث هو: سمعت عوف بن مالك الأشــجعي يقول: «سمعت رسول الله (ص) يقول: «خيــار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرارا أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا:

قل لنا يا رســول الله أفلا ننابذهم غير ذلــك. قال: لا. ما أقاموا فيكم الصــلاة - ثم كــرر مؤكداً - ما أقاموا فيكم الصــلاة إلا مــن ولي عليه والٍ فرآه يأتي شــيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولاينفعن يداً من طاعة»[1].

وقد ســوغ فقهاء الأمس وســدنة الشعر اليــوم تلك النصــوص والآراء بــأن الحاكم الفاســد خيرٌ من الفراغ السياســي، بشرط أن يحافظ الحاكم السياسي على الفرائض

«الصــلاة »، ولكن لم يقو واحــدٌ منهم على تفسير مفهوم الفساد، ولم يقو أي منهم على تعليل خروج السـيدة عائشـة على الخليفة الرابـع، وخــروج معاويــة علــى الخلافة الراشدية وعلى مفهوم الشورى، ثم تأسيسه لإسـلام عائلــي يمتد إلى الصـراع الأموي الهاشـمي السـابق على الوحــي . بل يعيد قريشــاً إلى سابق عهدها لتنتقل من القبيلة في الجزيرة إلى الدولة في الشـام ففي هذا التأسيس.. فسحة كبيرة لتعاظم «السلطوي» على «الفردي» ولكن بغطاء أيديولوجي.

الفــرد أولاً.. هذا ما قالــه ثورو.. لأنه بنية الدولة الأساسـية، فهو مقياس الحق، «وإن كان القانــون يقول غير هذا، فالقانون فرضه الأقوى لا الأحق» لا ينبغي أن نعلموا الناشـئة احترام القانون بقــدر ما تعلموهم احترام الحق [١٠].

و يعتقــد باريتــو pareto الإيطــالي الأصــل الأمريكــي الثقافــة أن «القائد أو الحاكم الصالح هو ذاك الذي اطلع أو عمل بمضــمون مقولة باكون bacon الشــهيرة: «لا يمكن التحكم في الطبيعة وسـبل النجاة هو طاعتها »، ويمكــن القياس على القول: «الطبيعة البشرية لا يمكن التحكم بها، وسبل النجاة يكون بإطاعتها» لكن برينتون أضاف إلى مقولة باريتو نزعة الأمركيين التجريبية فأفضــى بما هــو آت: «إن كثيرين من ذوي المذهب الحديث.. على اعتقاد مؤداه: على الإنسان إذا ما أراد أن يمضي قدماً في هذا العــالم أن يجرب مهارتــه في معالجة الناس والتعامل معهم، فإنك تسـيطر على الناس بالفن والمهارة وليس بالمنطق»[١١].

المنطق الأمريكي منطق براغماتي يشبه إلى حــد كبير منطــق النحــاة والبلاغيين والفقهــاء، فلقد سـوغ هــؤلاء لاسـتبداد سياسي مشخصاً بالمرحلة القرشية الأموية، ثم استمر ليؤسـس -من دون وعي مسبق- للمرحلة العثمانية، التي وجدت مسـوغات الاحتلال والاستمرار في النصـوص التي اشـتقها الفقهاء وامتطوهــا لتكون الغطاء الأيديولوجي لأي سلطوي قادم .

وفي المنطــق الشرقي نجد الفيلســوف الهندي أوشو يطرح تساؤله متى يصبح العقل البشري شريراً؟ ويجيب نفسه قائلاً: عندما يخالف طبيعته، ويتبع الكهنة والسياسـيين، يبدأ الانحراف لحظة تعمل ضــد طبيعتك المتجذرة في داخلك.. بدأ الانحراف يحيط بالإنســان مذ بدأ اللاهوت يسـيطر عليه، منذ أن بدا مبــادئ للناس من دون أن يفهم الطبيعة الإنسانية أو يعرف سايكولوجيتها، إذاً ينشأ الانحراف من موقف اللاهوت ضد

الطبيعــة البشرية، ومن يرغــب في اختفاء كل أشــكال الانحراف عليــه أن يعلن موت اللاهوت واختفاء كل الأديان وترك الإنسان حراً في أن يعيش وفقاً للطبيعة[١٢].

علــى الرغم من جرأة أوشــو على عوالم اللاهوت والأديان، وعلى الرغم من انتصاره لقانون الفطرة الطبيعية، إلا أنه رأي شرقي يقــع خلف العالم المعاصر الذي لم يعد يعترف علــى تلك الفطرة ولا على الطبيعة البشرية الأولى، ومن هنا يتقــدم العقل الغربي على الشرقــي في تقدم الفيلســوف ثــورو على الشافعي وأوشو.

بين الشــافعي وثورو مســافة ضوئية.. حياديــة الشــافعي لم تكن لتعنينــا لولا أن وجــوده - بالــرأي- حاضر ماثــل في المتن الدينــي والحقوقي إلى اليــوم، ومن يدري؟ فربما لغد طويل وطويــل.. فردانية ثورو.. تعنينــا لأنهــا أيضــاً معمول بهــا، وكذلك كفاحيتــه وصــداميته مع الدولــة، لتغادر جبروتها الداخلــي والخارجي نحو الحقوق لا نحو القوانين..

لكن الســؤال الذي يقفز إلى هذا المتن.. لماذا اخترت الشــافعي؟ ولماذا لم تذكر شعراء في تراثنا كانوا كما ثورو وإمرسون؟؟

إن الشــافعي كغيره من الفقهاء اتسعت مســاحات تأثــيره في البنيــة العامــة، أما الشعراء فكان مجال تأصيلهم للأشياء رافداً أو ثانوياً، فأبو تمــام - على أنه - رائد في التوجــه الفــردي العقلي لم ينظــر إليه إلى الآن كما يجب، وأما الفيلســوف ابن رشــد ت ١١٩٨- فــكان مضــطهداً في عصــره وفيما يلــي عصره.. وليس حاضراً اليوم إلا عند النخب.. فأما الشــافعي فهو الحاضر في القانــون والمجتمع والدولــة.. وما انتفع المعاصرون بما يجب أن ينتفعوا من الشافعي ولا ســيما في الجانب المثالي من شخصيته، أو التوفيقي.

وما نزال عنــد الآخر.. الأمريكي «وليم جيمــس» إذ يجعل النتائــج مرهونة بالفرد الواحد «هــذا الإلحاح علــى العالم الفردي له ما يبرره في ســياق عصره، ويبدو أن ذاك السياق له ما يسوغه اليوم، فعالم الأفراد عالم مبهر من «أرسطو» إلى «عيسى ومحمد» إلى فرنســيس بيكون ونيوتن وسبينوزا وداروين وفرويــد وكولومبوســ إلى هيجــل وانجلز وماركس إلى.. و» إلى «مســتمرة مفتوحة».. صنعوا التاريخ العقلي لإنسان يزداد ارتقاء، وهو في جدل مع نفســه والعالم، فالفيلسوف المربي جــون ديوي يرى في «الطبيعة كالحق متغيرة الحوادث، والفيلســوف عنده إذا ما تنكــر للحوادث في تغيرهــا الدائب انتظاراً منــه للحق الثابت فإنما يقطع الصــلة بينه وبين الكون»[١٣].

لم تكـن القناعـات الفرديـة على اتفاق مطلـق في شرق الأطلسـي وغربه ، ولم تكن في تناقض أيضاً، فالعالم منذ القرن السادس عشر مشـغول بأمريـن: ترتيب الطبيعة من خلال اكتشـافها لتنتظم في وظيفية إنسانية لا تخبـو، والثاني ترتيـب الفكر البشري في صـورته المثاليـة... والاختلاف في المسـير والمنهـج لا يعني القطيعة بـين هذا وذاك، فقد يخالـف المفكـر نفسـه وينقلب على آرائـه، وهذا ما عززه «وليم جيمس » «ليس هنـاك قيم ثابتـة على الزمـن، إنما القيم ملازمة للحياة في تغيرها، فكلما تغيرت تبعاً لها تلك.. ماذا عسـى أن تكـون هذه القيم في الأخـلاق أو السياسـة إن لم تكن أدوات تستخدم في السلوك»[١٤].

من ديوي يقفز الخيـال إلى الخلف إلى أبي تمام، الذي عزز الموقف الفردي في وجه الكتلة الصماء التي مثلها البحتري والمتوكل ت٨٤٧ الخليفة العباسي العاشر.... ولم يكن لأبي تمـام خليفة يحالفـه، ولا هو بحاجة إليه، وعندما أجاب على السـؤال المعروف لمـاذا تقول مـا لا يفهم «وقد أجـاب: لماذا لاتفهمون ما يقال» حـدد حين ذاك أهمية الجذب من الكتلـة إلى الفرد وكان يعلم كم هي المهمة شاقة....:–

أعـاذلـتـي مـا أخـشـن الـلـيـل مـركـبـاً
وأخـشـن مـنـه في الملـمـات راكـبـه
ذريـنـي وأهــوال الـزمــان أفـانـهـا
فـأهـوالـه الـعـظـمـى تـلـيـهـا رغـائـبـه

مـا ميز أبـا تمام أشـياء كثـيرة، منها غزارة الشعر، وبطبيعة الحال جودته ومنها نباهته الفردية، ومنها حسـن تخلصه.. كل هذا ضـمن سـياق معهود.. وبالنسبة إلينا نرى أهمية الشـاعر – هنا – توحد التفكير العقلاني مع اللغة الشعرية الجديدة.. ورغم إيمانه الواضح بالتوحيد إلا أنه جعل للشعر حـالاً وجودية.. بـل وجودية مسـتقلة، ولم يكن باليسـير أو السـهل إدراك الفصل بين تأسيسـاته العقلية وبين إجراءاتها اللغوية، فليست علاقة الشـعر عنده بمقطوعة عن أفـكاره النظريـة، ولم تدر في نفسـه دورة داخلية وحسب، بل سعى إلى التركيب المحتوم المصـنوع بين أفـكار في «الداخل» وحوادث طبيعية في «الخارج».

ولقـد حدد وظيفـة الشـعر بعيداً عن النقـاد الذين اسـتهلكوا الزمـن في اللفظ والمعنى والتشبيه والاسـتعارة، والمستعار له ومنه، والإصابة في التشبيه واللفظ والمعنى، نقل أبو تمام الشعر من الوضعية «الحرفية» إلى الوضعية «القيمية»:

ولـولا خـلال سنّـها الشعـر مـا درى
بـغـاة الـنـدى مـن أيـن تـؤتـى المكـارم

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه
مغارم في الأقوام وهي مغانم
ولا كالعلى ما لم ير الشعر بينها
فكما الأرض عقلاً ليس فيها معالم
وما هو إلا القول يغدو فيغتدي
له غرر في أوجه، ومياتم[15].

أدرك أبو تمام بخياله السوسيولوجي أهمية أن يغني خبراته الشخصية، بل أن ينقل هذه الخبرات إلى مجال إطار السياق الاجتماعي التاريخي الواسع الذي عاش فيه، لكن خياله امتد إلينا في عصر العلوم الدقيقة.... هذا العصر - على أهميته وامتداداته - داهم العلوم الاجتماعية ومنها علوم اللغة ونظرية الشعر والنقد... وقد توقفت عند أطروحة ميلز «المجتمع الجمعي» ويرى في أميركة نموذجه، فالإنسان الأمريكي -في رأيه - خضع للترشيد الفني بعد أن أجبر على التخلي عن البصيرة الإنسانية..» ويقدم شاهداً هو القنبلة الذرية على اليابان، إذ لم يهتم المجتمع الأمريكي الجمعي لما حدث ».

إن ما ذهب إليه رايت ميلز كعالم اجتماع مهم للغاية، ولكن ليس في سياقنا هذا، إنما المهم أن نرى أطروحات «ثورو» في القرن التاسع عشر تتشخص بعد الحرب الثانية في المجتمع الجمعي الأمريكي، إذ يرى «الاغتراب» كأهم المشكلات في العالم الحديث وأقساها، وقد عزا الاغتراب إلى النزعة الإمبريقية المجردة السائدة في العلوم كما في الحياة.

وقد تحولت - برأيه - «الأدوات المنهجية إلى أهداف» قصوى، وأصبحت القضايا المهمة مقصورة على تلك التي تتلاءم مع القياس الكمي.[16]

ويبدو كلام ميلز مهماً على الصعد الفكرية كلها، إذ نقل مركز النقد الموجه من رجالات القرن العشرين إلى رجالات القرن التاسع عشر - على المستوى التجريبي - إلى النقد الموجه إلى القرن العشرين نفسه، ويرى مشكلة قائمة في تحول الوسائل إلى قضايا «برفض هؤلاء الأمبريقيون ذكر أي شيء عن المجتمع الحديث ما لم يستكملوا طقوسهم المنهجية الشكلية التي لا تسهم في تحقيق الفهم بقدر ما تسهم في تسطيح المعرفة».[17].

يحيلنا هذا الرأي الناقد للفكر السوسيولوجي في الغرب إلى ما توضع في النقد العربي القديم من مقولات سكولاستيكية صار الحفاظ عليها أهم من عملية النقد نفسها، كمقولة «عمود الشعر» و«اللفظ والمعنى» وكذلك «مناسبة المستعار له للمستعار منه» ثم «قضية السرقات

الأدبية» هذه المقــولات ما تزال حاضرة في أبنيتنــا النقدية على أنها مرجعيات لا تقبل المراجعة، فاستحالت من مسائل قابلة للنقاش إلى أقنومات شبه مقدسة لابد من «السعي» إليها، وأهم مجال تجلّت فيه هذه الأقنومات كان في مجــالي «النحــو» و«البلاغــة» على أنهما «مجالات ماترك المتقدم فيها للمتأخر شيئاً».

في حــين استشــعر الإنجليــزي «رامان سلدن» هجوماً عميقاً منسقاً لمفكري القرن العشرين على ما يعرف «باليقين الموضوعي» للعلم في القرن التاسـع عشر، فقد شــككت نســبية آينشــتاين فيما كان مســلماً به أن المعرفة ليست ســوى تراكم صارم متصاعد من الحقائق... وأكد علم النفس الجشطالتي أن الفعــل الإنســاني لا يــدرك الأشــياء بوصــفها أجزاءً، بل بوصفها تشكلاً لعناصر وموضوعات أو كليات منتظمة ذات معنى»

وهكذا لا يهدأ الفكر الغربي ولا يطمئن لشــكل أو لصــيغة، ولا يعترف على الناجز والكامــل والمرجعية، إنما يعيش تجاه الآخر كما يعيش تجــاه الذات... لقــاء، مغامرة، مجافاة، انســجاماً أو اختلافاً، ثم يؤســس لاتجاه ينبثق من عمق المســألة.. والتأسيس غايته أبــداً.. رفع وتيرة الأنســنة، بصرف النظر عن السياســات المخالفــة والمخاتلة.

ولم نكن بطبيعة الحال نسعى إلى استخلاص نتائج يقينية من محاولاتنا كتلك التي يتوصل إليها الباحثون في العلوم الدقيقة، أو العلوم المادية...أو أن نجري تحليلاتنا على النصوص الشــعرية والنقدية، كما يجريها أصــحاب الرياضة العقلية فتتوصل إلى أحكام تحليلية أولية قد تكون بلا مضمون واقعي، وفي هذه الحال نتمكن من تقدير درجة الصحة فيها من دون أن نعود إلى الوقائع. ولم نكن نسعى أيضاً للتوصل إلى أحكام تأليفية ما ورائية، تلك التي تحفل بهــا العلوم المادية، وتلك لا تقبل الحكم على صــلاحيتها أو فسادها إلا بالعودة إلى «الوقائع».

ولا يــكاد - على حد ما نــرى - ينعتق باحــث في مجال مــن مجــالات المعرفة من إشكالية قائمة في هذا المجال بتساؤل أساسه: هل أحكام القيمة من النمط التحليلي الذي يعفينــا مــن الاحتكام إلى الوقائــع؟ أم هي من النمط الــذي ينتج عن وقائع تكون تلك الوقائع مصدر صوابه أم مصدر خللها؟

وفي عــالم الفــن عمومــاً وعالم الشــعر خصوصــاً.. كثير ما يلجأ الناقد أو الباحث إلى إصــدار الحكم بل الأحكام، من دون أن تكون عملية الاستقصــاء شــاملة أو دقيقة، ومــن دون الرجوع إلى العينــات الأعم التي يمكن أن تكون شــاهداً على صــحة حكمه

بالتقريري «وعلى الرغم من أن ذاك الحكم «التقريري» معتمد أصلاً على تطبيق المنهج العلمي، آخذاً بعين الحسبان «الوقائع» التي اعتمدها مادةً دراسية تطبيقية..

وأمـا الحكم بالاتجاه الآخر، ونفي حكم «القيمـة» فهو الحكم الذي لا يعتمد منهجاً علمياً بالمعنى المـادي العلمـي الدقيق في إصـداره. وثمة مسـألة لا بد من المواجهة معها، تكمن أساسـاً في العلاقة الضـمنية - وأحيانـاً - الصريحة - بين سـلم القيم ومناهـج العلم.. وعلـى الأخص.. الأخص «المشكل» لحظة تغادر أروقة العلوم الدقيقة «المادية» إلى فضـاءات العلـوم الاجتماعية الإنسانية.

ومـن هنا كان علـى أي باحث صـنّف بحثه ضـمن «فلسفة العلم» أن يواجه سؤالاً إشكالياً مؤداه: إلى أي حد يقوى على إقصاء العلوم الإنسـانية عن القيمة»؟ ولا سيما أن ما هو متصـور، وأن ما هـو مبتغى، وأن ما هو محلوم به.. هو مجال العلوم الإنسـانية.. وباختصار.. هذه العلوم قائمة على ما يجب أن يكون.. وهنا تنفصـل علوم الإنسان عن العلوم المادية أو علوم الطبيعة.. والانفصال لا بد حاصل، والأحكام القيمية لا بد قائمة .. لكن قيامها مختلف بين علوم المادة وعلوم الإنسان، ومهما يكن من دقة في علوم المادة، فإنها خضـعت لأحكام القيمـة مع التطور التاريخـي.. للبشـر وهم يصـنفون الخير والنافع والجميل، وكذلـك الشرير والمؤذي والقبيـح.. وهذا ما يسـمح لنـا بالاعتقاد أن حكـم القيمة لا ينافي المنهـج العلمي أو يجافيه بشكل مطلق..

فبعد أن فرغ «العلم التجريبي» من دراسة الظواهـر الطبيعيـة واسـتخلاص النتائج اليقينية منها، تم اسـتقراؤها في جملة من القوانين المجـرّدة.. أمكن له أن يمد خبرته إلى العلوم الإنسـانية كي يجد مسـوغاً في إخضاعها -قدر المستطاع- للرقابة العلمية، أو ضـبط مسارها وهي تغتني من نجاحات التجريب.

ومـن المشـكلات التي واجهـت أحكام القيمة.. هي تزايـد النجاحات العلمية في الغرب ولا سيما في العلوم البيولوجية، فقد أفضت تلك النجاحات إلى خلع أحكام على شـعوب وحلها عن شعوب، كما فعل جوليان هكسـلي J-huxley الـذي رأى في نظرية التطـور معيـاراً لاختبار قدرات الشـعوب الأنجلوساكسونية، وفيها يحدد التقدم العام بالتقدم البيولوجي، وبمعنى أوضـح استثمر هكسـلي التقدم البيولوجي ليرى الشـعوب الأنجلوسكسونية متقدمة من خلال قدراتها العرقيـة القابلة للتطور أكـثر من غيرها..

فهـذه النظرية تـرى أن الطبيعـة منحت الكائنـات الحية الفرص المتسـاوية للتقدم والارتقـاء لكن الأقوى تقـدم أكثر والتاريخ منـح الشـعوب – بدوره – فرصـ التقدم، لكن الشـعوب الضـعيفة لم تقو على التقدم كالشعوب ذات الأصل الأقوى.

مثـل هذه الآراء هي أحـكام القيم التي فارقت مسوّغ وجودها كعينة قد تصدق على بعض من الشـعوب، وقد لا يصدق بعضها على بعضـ آخر، وبعد فراقها مسـوغاتها العلمية تفك ارتباطها – كحكم قيمة – بعلم الأخـلاق.. أولاً وبالاحتمالات المسـتقبلية لنتائج العلم ثانياً.

ومـن هنا لم يكن حكم القيمة – وحده – مرضياً، فقد يكون حلماً، وقد يكون حافزاً، إذا ارتبط بمشروع علمي غير مسـبق النية

الهوامش

١- البصائر والذخائر، ص٢٠٢- دار صادر ١٩٨٧م، ج١،ط١-١٩٨٨-١٤٠٨هـ، تحقيق وداد القاضي- رقم الحكاية ٢٦٧.
٢- المصدر نفسه- ص ٢٠٤.
٣- د. صلاح فضل- الأساليب الشعرية- دار الآداب- بيروت ١٩٨٨- ص:١٤١-١٤٤.
٤- ديوان الشافعي- تحقيق محمد عامر- دار الحسين الإسلامية، مصر ٢٠٠١،ص٣٠.
٥- المصدر السابق- ص ٢٥.
٦- المصدر السابق- ص٤٧.
٧- الزمخشري- الكشاف- ج١- ص٦٤.
٨- كتاب المحن- لأبي يعرب التميمي- ت ٣٣٣هـ- تحقيق يحيى الجبوري- دار الغرب الإسلامي- ١٩٨٨- ص ٢٧٤
٩- صـحيح البخاري- رقم الحديث ١٨٥٥- ج٣- ص: ١٤٨٢- تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.
للاطلاع الموسع . راجع السياسة الشرعية لابن تيمية والفتاوى الكبرى، دار الكتب الحديثة القاهرة
١٠- نقلنـا الشـاهد من ترجمة د. زكي نجيـب محمود في «حياة الفكر في العالم الجديـد- دار الشروق ١٩٨٧- ص ٤٠ وما بعدها .
١١- برينتون- كرين، منشأ الفكر الحديث- ترجمة عبد الرجمن مراد، دمشق- دار الفن الحديث العالمي- ص ٢٥٤.
١٢- أوشو، من العلاج إلى التأمل، ترجمة محمد حبيب ،دار الخيال- بيروت- ٢٠٠٦- ص: ٢٧٦-٢٧٧.
١٣- مصدر السابق- حياة الفكر في العالم الجديد- ص ١٥٩ وما بعدها .
١٤- المصدر السابق.
١٥- الديوان- ص ١٧٤-١٨٢.
١٦- د. السيد حسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة، بيروت، ص١٨٣-١٨٥، ١٩٨٥.
١٧- سلدن رامان، النظرية النقدية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قبا القاهرة، ١٩٩٨.



الدراسات والبحوث



الاقتصاد والثقافة في عصر العولمة

د. هزوان الوز ⊙

التحديات الاقتصادية:

يشـهد العالم بأسره تحديات اقتصادية عاصـفة تتمثّل في ارتفاع أسعار النفط وأسـعار الغذاء ومعدلات التضخّم، ويُمكن التعبير عن هذه التحديات بمثلـث الرعب. وعلـى الرغم من تحمّل السياسـيين الكثير من الضـغوط الشـعبية للتخفيف من وطأة هذا المثلث على الرفاهيـة الاجتماعية، إلا أنَّ حقيقة الأمر توضـح عجز هؤلاء السياسيين بمفردهم عن إيجاد حلول لهذه

⊙ شاعر وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

التحديات الاقتصادية، فما يحدث اليوم في الاقتصاد العالمي ليس وليد اللحظة وإنما هو نتائج لمرحلة العولمة.

إنَّ أبرز مظاهر العولمة التي ظهرت إلى السطح هو ما يسمى «تحرير الأسواق المالية والنقدية»، وهذا يعني التحرر من الضوابط التقليدية للعمل المصرفي والاستثمار المالي وعدم خضوعها للسلطات المحلية. فدخول الأموال وخروجها يتم بسرعة هائلة، ما جعل السلطات النقدية المحلية عاجزة عن السيطرة على أسعار الصرف وأسعار الفائدة وأسعار الأسهم. فما يحدث في الأسواق هو سيطرة عدد من المضاربين الكبار على الأسواق بحيث أصبح لديهم القدرة على التحكم في الأسعار، ومن ثم إحداث الأزمات الاقتصادية بطريقة تجارية بحتة لا يشوبها «سوء النية» أو التخطيط المسبق. فالذي يحدث من وجهة نظرهم لا يعدو كونه تحقيق أرباح من نشاط تجاري روتيني، إلا أنَّ المشكلة من الجانب الآخر هي عدم القدرة على الحد من أضرار تصرفاتهم على المستوى الشعبي.

إنَّ ما يحدث في العالم من أزمات اقتصادية هو في واقع الأمر نتيجة سياسات العولمة التي نادى بها العالم الغربي ودعم سياساتها في العالم الثالث من دون مراعاة الاختلافات الثقافية والبيئية والاقتصادية. فما يصلح لأوروبا ذات النُظم الاقتصادية الرأسمالية والنُظم الاجتماعية المرنة لا يصلح لدول ذات طبيعة سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة تماماً. وما يحدث في العالم الثالث هو محصلة للتركيز على الأرباح «غير المحققة» من التعامل في الأسواق المالية والنقدية من دون إضافة للاقتصاد Value Added ومن دون إنتاج ملموس، وهذا بدوره زاد وسيزيد من مستويات البطالة، بل الأدهى من ذلك ستقضي العولمة بالتدريج على الطبقة الوسطى. ولا شك أنَّ تقليص نسبة الطبقة الوسطى في أي مجتمع يعد نذير شؤم على الاقتصاد، حيث أنَّ الأصل في الإصلاح الاقتصادي أنْ يزيد نسبة هذه الطبقة لا أنْ يُقلّصها ويحولها إلى طبقة الفقراء والعاطلين عن العمل.

إنَّ ما يجري في العالم اليوم يُحتّم علينا أنْ نراجع برامجنا الاقتصادية والتعليمية لتجنب إرهاصات عصر العولمة، فما يحدث اليوم من فتح الأسواق وتخصيص Privatization للقطاعات العامة يجب أنْ تُصاحبه خطة وطنية تحافظ وتدعم وجود طبقة وسطى تنعم بالرفاهية، وتُحقّق للمواطن الأمان من الفقر والمرض والبطالة. وهذا يعني ضرورة وجود الدولة تشريعياً وتنفيذياً في كثير من

القطاعات وعدم تـرك القطاعات ومرافق المصـلحة العامة كالصـحة والتعليم تعمل بأيديولوجيات تجارية بحتة من دون مراعاة للأبعاد الاجتماعية والسياسية للوطن.

الآثـار المتوقعة للعولمة في اقتصـادات البلدان النامية:

في بحـثٍ مهـم للباحـث الاقتصـادي الجزائري الدكتور «عبد الله بلوناس»، يخلُص الباحث إلى أنَّ للعولمة آثاراً سـلبية كبيرة في البلدان النامية، أبرزها:

- العولمـة أو أقلمة العالم، لا تعني إقامة نظام عالمي اقتصادي عادل يقوم على تكافؤ الفرصـ بين كل أجـزاء مكوناته، وإنما هو استمرار للقديم المتجدد، ويؤكد ذلك تقاسم رؤوس الأموال بـين مئة من كبرى الشركات المتعددة الجنسيات في العالم، تتوزع كما يلي: ٤٠٪ للشركات الأمريكيـة، و٣٨٪ للشركات الأوروبية، و٢٢٪ للشركات اليابانية.

- يؤدي تطبيق الاتفـاق حول إجراءات الاسـتثمار الأجنبـي إلى تشـجيع تدفقـه إلى البلـدان النامية، حيـث تؤدي الشركات المتعددة الجنسـيات دوراً كبيراً في انتقاله، وقد تجنـي البلدان النامية مـن وراء ذلك بعض مكاسـب نقل التكنولوجيا، والتمويل، والتموين والتسويق، ولكن ما يلاحظ هنا أنَّ الرأسـمال الأجنبي عادةً يُفضّل القطاعات الاسـتخراجية، ويُحْجم عن الاسـتثمار في القطاعات الإنتاجية التي تخلق قيمة مضافة في الاقتصـاد الوطنـي وتلبـي الحاجيات الأساسية للسكان.

- المؤسسات المتعددة الأطراف الشركات المتعددة الجنسـيات والتكتلات الاقتصادية الإقليمية، ليست سوى وسائل للحفاظ على ميزات الدول الصناعية الكبرى.

- إلغاء الدعم الزراعي وتطبيق برنامج الإصـلاح الزراعـي «الغـات» في البلدان الصـناعية المتقدمة يؤدي إلى ارتفاع أسعار السـلع الزراعية والغذائيـة، وينعكس ذلك سلبًا على موازين المدفوعات للبلدان النامية وخاصة المستوردة الصافية للغذاء منها.

- يـؤدي الانفتاح المباشر على الأسـواق العالميـة بسرعـة ومن دون تأهيل مناسـب وتآكل المعاملة التفضيلية التي كانت تحصل عليها صادرات البلدان النامية والأقل نمواً إلى أسـواق الدول الصـناعية، مع التوسع في تحريـر التجـارة الدوليـة، وزيادة حدة المنافسـة في الأسـواق الدولية، إلى اختفاء المؤسسات الوطنية من الوجود لعدم قدرتها على المنافسـة غير المتكافئة، ومن ثم تفشّي البطالة، وتردّي الأوضاع الاقتصادية بصورة أكبر.

- أدّت العولمة كما قال الباحث «سـمير

أمين» إلى بـدء الدول بالتخلي عن وظائفها الأساسية تجاه المجتمع، كالوظيفة السياسية، من خلال تراجع الحكومات عن دورها في صنع القرار السياسي لصالح الشركات المتعددة الجنسيات، ولصالح رجال الأعمال في الداخل، فالشركات ترغب في إخضاع السياسات الحكومية لاستراتيجياتها الخاصة.

- ستستمر مدة طويلة القيود على صادرات البلدان النامية من بعض السلع التي تتمتع فيها بميزة نسبية مثل صادرات المنسوجات والملابس.

- على صعيد نمو التنمية الاقتصادية، ليس هناك أي مؤشر واضح يؤكد أنَّ التبادل الحر يقود حتماً إلى التنمية، فهناك عوامل ومتغيرات اقتصادية وحتى غير اقتصادية عديدة أخرى، داخلية وخارجية لا يُمكن التحكم فيها ولا حتى التنبؤ بها.

- إنَّ قطاع الخدمات تُهيمن عليه شركات عملاقة على المستوى الدولي، ومن المتوقع أنْ يتعرّض إلى منافسة غير متكافئة مع شركات أجنبية تقوم بابتلاع الشركات الوطنية العاملة في هذا القطاع.

- أما بالنسبة لتحرير تجارة الخدمات من القيود والإجراءات الإدارية، فمن المرجح أن تكون لها آثار سلبية، فقطاع الخدمات يضم الخدمات المالية: المصارف، شركات التأمين، شركات الاستثمار والاتصالات، السياحة، الخدمات الطبية، الخدمات الاستشارية والفنية والإدارية، والذي تُهيمن عليه شركات عملاقة على المستوى الدولي، فمن المتوقع أنْ يتعرّض إلى منافسة غير متكافئة؛ وهو ما يؤثر سلباً في الشركات الوطنية العاملة في هذا القطاع.

عولمة الثقافة:

لم تعدْ الثقافة اليوم كما كانت في الماضي خاضعةً لوسائل تقليدية في النشر والانتشار، وإنما أضحت متأثرةً إلى حد بعيد بالتكنولوجيا عامةً، وتكنولوجيا الاتصالات خاصةً. هذه التكنولوجيا التي استطاعت القيام بالاختراق الثقافي، أي أنَّ السيطرة أصبحت للتكنولوجيا، وأصبحت الثقافة منتشرةً عبر التكنولوجيا. إذ بإمكان التكنولوجيا بث الثقافة التي تريد. ومن هنا جاء مصطلح «العولمة الثقافية»، أي قدرة الثقافات الأقوى تكنولوجياً على السيطرة على الثقافات الأضعف تكنولوجياً، حيث بدأت التكنولوجيا تلعب دوراً تأثيرياً بارزاً ليس على نطاق محلي فحسب، وإنما على نطاق عالمي.

والعولمة الثقافية «بصورة أوضح» هي محاولة لتعميم النموذج الثقافي لمجتمع ما



على المجتمعات الأخرى من خلال التأثير على المفاهيم الحضارية والقيم الثقافية والأنماط السلوكية لأفراد هذه المجتمعات بوسائل سياسية واقتصادية وثقافية وتقنية متعددة. وتهدف «العولمة الثقافية» إلى زرع القيم والأفكار النفسية والفكرية والثقافية للقوى المسيطرة في وعي الآخرين، وإسقاط عناصر الممانعة والمقاومة والتحصين لديها وبالمعنى الثقافي الحضاري إعادة صياغة قيم وعادات جديدة تؤسّس لهوية ثقافية وحضارية أخرى لهذه المجتمعات مهددةً لهويتها الحضارية بشكل جدي باتجاه فرض نمط ثقافي معيّن، وهيمنة ثقافية معينة تنتجها مصالح الأقوياء وسيلتها الأساسية أداة إعلامية جبارة أصبحت تعمل على إعادة صياغة الأخلاق والقيم حتى العادات. وإذا كان عالم النفس الأميركي «بوروس سكنر»(1) قد أشار قبل عقود في كتابه الشهير «تكنولوجيا السلوك الإنساني» في معرض نظريته التربوية إلى إمكانية ضبط سلوك الإنسان الفرد بالطريقة نفسها التي يُمكن بها ضبط سلوك حيوانات السيرك، مركّزاً على دور الأسلوب المشوق والجذاب في ذلك الضبط، الأمر الذي اعتبر في حينه صدمة للكرامة. والآن فإنَّ العولمة الثقافية وعبر وسائل الإعلام وشبكات المعلومات كالإنترنت وسواها، أصبحت تُمارس نوعاً من التحكّم والضبط لسلوك الأفراد

والمجتمعات وبطريقة قسرية رغم بعض أشكالها الجذابة، ولهذا لم يعد مستغرباً أنْ تمتلك بعض المحطات التلفزيونية الفضائية موارد تفوق ميزانيات بعض الدول النامية، أو أنْ تصل ميزانية فيلم سينمائي إلى مئات الملايين من الدولارات.

والسؤال الذي تطرحه النُخب الثقافية العربية اليوم: «هل تُشكّل العولمة خطراً محدقاً بهويتنا، وهل تتهددها؟».

في بحثٍ للكاتب «سالم يفوت» بعنوان: (هويتنا الثقافية والعولمة)، يستهله بمشروعية طرح هذا السؤال الهام، نتيجة اقتناع معظم المثقفين العرب بأنَّ التمسّك بالهوية يشتد بفعل هول التحولات والمنعطفات، وكأنه نوع من الانتقام من قساوات التاريخ، أفلا تكون العولمة، من وجهة النظر هذه، قساوة من قساواته؟

ويضيف الكاتب: «يُمكن القول بدايةً: إنَّ صغر العالم، وتحوله إلى قرية صغيرة ليس ظاهرةً مباغتة، ومن دون مقدمات وممهدات، بل جاءت كتتويج لمسلسل طويل هو مسلسل «التدويل». فظاهرة العولمة امتداد وتطوير نوعي للتدويل، تتّخذ مظاهر اقتصادية واجتماعية وسياسية.

لذلك فالعرب اليوم مطالبون بأنْ يكونوا في مستوى التحدي الجديد، تحدي المستقبل باقتراح أجوبة مناسبة تجعلهم يواكبون التحولات التي تفرضها ظاهرة العولمة، ولايظلون في هامش التاريخ، وأول شرط من شروط المواكبة: خلق تجمع إقليمي اقتصادي عربي، ذلك أنَّ العولمة أظهرت أنَّ الكيانات القطرية لم تعد قادرةً على الاستجابة لمتطلبات الارتقاء التكنولوجي والتنافسي. أما الشرط الثاني فهو الانفتاح على طاقات المجتمع بجميع مكوّناته، وإدماج البعد الاجتماعي في عملية التنمية الشاملة، فلا تنمية اقتصادية من دون تنمية اجتماعية تُقلّص الفوارق وتوفر العمل.

إنَّ مراكز المعلومات وتكنولوجيا الاتصال هي التي تمتلك اليوم مفاتيح الثقافة، ولذلك نجحت الدول الغربية في نشر ثقافتها عبر المحيطات والقارات والترويج لأفكارها وقيمها الثقافية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية على حساب اكتساح الثقافات الوطنية. ويعتبر اكتساح الثقافات الوطنية نقطة رئيسية من ثلاث نقاط لتبيان آثار العولمة الثقافية حددها المفكّر الدكتور «برهان غليون»(٢) في ندوة عقدت في القاهرة بعنوان «مستقبل الثقافة العربية» إذ قال بأنَّ العولمة الثقافية تقوم بتعميم أزمة الهوية حيث يتضاءل مع تزايد الثقافات الأقوى في فضاء مفتوح وزن الثقافات الوطنية

ونفوذها. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى تحذير المؤرخ الثقافي «جورج ستينر» من أنّ هذه الحضارة سوف تفرز تماثلاً كاسحاً يهدد الثقافات المحلية، ويعود مصدر معظم هذا التماثل إلى صناعات الإعلان والترفيه والسينما فالأفلام والبرامج التلفزيونية الأمريكية تُباع على نطاق واسع في كل أنحاء العالم، وتبلغ الآن جملة هذه المبيعات أكثر من خمسة مليارات دولار سنوياً.

ولقد وصفت إحدى الصحف الهندية وسائل الإعلام هذه بأنها «النمل الأبيض تقوّض قيمنا وعاداتنا»، والعولمة الثقافية لا تُهدّد البلدان النامية والصغيرة وإنما تهدد أيضاً دولاً كبرى، وهذه الدول تشعر بالخوف والقلق من انتشار الثقافة الأمريكية في المجتمع الفرنسي، ومعروف أنّ فرنسا قد تنازعت مع الولايات المتحدة الأمريكية في موضوع «الغات» حول «الاستثناء الثقافي» لدرجة أنّ أحد الأوروبيين تحفّظ على النجاح الذي أحرزه فيلم «الحديقة الجوراسية» للمخرج «ستيفن سبيلبرج» لدرجة وصفه هذه الظاهرة بأنها «إمبريالية ثقافية أمريكية».

إنّ نسبة ٦٠٪ من إيرادات صناديق التذاكر في دور السينما الفرنسية مصدرها أفلام أمريكية معروضة، ولولا أنّ السلطات الفرنسية فرضت قانوناً تُلزم بموجبه قنوات التلفزيون الفرنسي أنْ تعرض ما نسبته ٦٠٪ من البرامج ذات المنشأ الأوروبي، فإنّ من المؤكد أنّ البرامج الأمريكية كانت ستسيطر على الشاشة الصغيرة سيطرةً كاملة.

وفي هذا السياق تجاوز الأمر فرنسا إلى البرلمان الأوروبي في حربه على مصطلح «العولمة» بمفهومها الأميركي، إذ فرض البرلمان قيوداً شديدة على الأفلام الأمريكية التي تعرضها التلفزيونات الأوروبية، وأبدى البرلمان الأوروبي استغرابه من موقف بعض الدول الأوروبية التي أبدت تردداً في وضع قيود جبرية على الأفلام الأمريكية خشية أنْ تشن الولايات المتحدة حرباً تجارية ضدها.

ويتزعّم الحملة ضد أمركة الثقافة في أوروبة في البرلمان الأوروبي النائبة الإيطالية «لوتشيانا كاستيلنا» التي تستند في شرعية حملتها إلى إحصاءات تقول: «إنّ من بين كل عشرة أفلام تُعرض في قاعات السينما الأوروبية هناك ثمانية أفلام أمريكية، بينما يعرض التلفزيون الأوروبي ستة أفلام أمريكية من بين كل عشرة أفلام»، الأمر الذي حقّق للولايات المتحدة فائضاً تجارياً مع أوروبة بلغ أربعة مليارات دولار في قطاع الترفيه. وإذا كان الإعلام الفرنسي يجد مسوغات كثيرة للخوف على الهوية

الفرنسية من الهيمنة الأنجلوسكسونية، فإنَّ العالم العربي لديه من المسوغات ما يفوق ذلك بكثير في ظروف التهديد الحضاري الشامل الذي يعيشه، وهنا لابدّ من التأكيد على أنَّ رفض العالم العربي للغزو الغربي لا يعني الدعوة للانغلاق والتقوقع في أطر ضيقة ومحدودة في مواجهة ثقافة العصر.

وهنا يمكن أنْ يحصل تفاعل ثقافي بين الثقافات الإنسانية في العالم، ويُعتبر ضرورة موضوعية للاستجابة لتطورات المرحلة الراهنة عالمياً وذلك لاستمرار تقدم المجتمعات العربية ولتسليح الشعوب العربية بقيم ورؤى وأفكار تمكنها من الإبداع والمشاركة في صناعة ثقافة عالمية بشرط ألا يطمس هذا التفاعل الخصوصية الثقافية والهوية الثقافية المتميزة للعالم العربي التي هي في الحقيقة محصلة لتطور تاريخي. ومما سبق نصل إلى نتيجة مؤداها أنَّ العالم العربي أمام معادلة صعبة شائكة يتطلب حلها المحافظة على العناصر الإيجابية في الثقافة العربية بما يدعم خصوصيتها وتعبيرها عن خبراتها التاريخية والانفتاح في الوقت نفسه على الثقافة العالمية بمكوناتها المختلفة ليس فقط في الغرب بل وفي الشرق أيضاً إذ هناك إضافة إلى أوروبة توجد اليابان والصين وغيرهما.

ولكل منهما ثقافتها الوطنية المتميزة الحافلة بالكثير من القيم والمبادئ والأفكار وفي الختام يمكن القول بأن عصرنا الحالي سيفرز العديد من الظواهر والمفاهيم والمصطلحات بالاستناد إلى ردود الأفعال أو مواكبة الموجة الفكرية السائدة من دون القيام بما هو ضروري للتقدم والتمعن في الآن نفسه للتفاعل الواعي والتلاؤم المحصن مع ما يستجد على الساحة العالمية. إنَّ الوضع الحالي تكنولوجياً وأيديولوجياً يتطلب من العالم العربي كغيره من شعوب العالم السعي لامتلاك ناصية التقدم العلمي ومواكبة تطورات ومتغيرات العالم بشكل عملي منظم وعدم تضييع الوقت والجهد والورق في سجالات ونقاشات حامية الوطيس حتى لا يمر وقت كبير ليأتي مفكرون ويجدوا عقم السجالات الماضية ولا جدواها والندم لعدم اتخاذ خطوات عملية حاسمة في هذه اللحظة التاريخية.

المثقفون العرب والعولمة:

في كتابه «تعريب العولمة»، يقول الدكتور «محمد حافظ دياب»: بأنَّ المثقفين العرب لم يواجهوا قبلاً تساؤلات على قدر عالٍ من الكثافة والجدال كما هو في الوقت الراهن إزاء العولمة، وهو ما قد يرجع إلى أنها لم تطلع من الداخل العربي، بل عبر

لقاء قسري مع الخارج، وهو خارج يتعيّن استجلاؤه والإحاطة بكافة مقاصده ووعوده وتحدياته، مضافاً إليه اشتداد اكتساحها وهرولتها ووقعها في السنوات الأخيرة، وارتباط الوقائع والتطورات البنيوية مع اليومية، ومن ثم تعدّد وتجدد القضايا والأسئلة التي تُثيرها.

والأمر هنا يتعلّق بأنَّ ما يُحيط بالعولمة من إغراءات ومخاطر في الوقت نفسه، بات يأخذ بخناق المثقفين العرب، ويضعهم قبالة أسئلة صعبة، يطرحها الباحث الاقتصادي «سمير أمين» على النحو التالي: كيف نعرف العولمة والاستقطاب الملازم لها بالسوق العالمية؟ بشمولية التكنولوجيا؟ أم بالتقدم على طريق بناء نظام إنتاجي عالمي؟ وبأي الوسائل يتم ذلك؟ بالسياسة أم بالثقافة؟ وكلتاهما تقتربان من اتخاذ سمات أكثر كونية. وهل تُنتج العولمة استقراراً أم أنها تزيد من تخلخل الأنظمة؟ وهل هي الآن في طور نوعي جديد، أم مجرد درجة عليا في سلم تاريخي؟ وهل نعيش مرحلة أزمة هامة في الرأسمالية والاشتراكية معاً؟ وكيف تؤثر أزمة كل منهما في الأخرى؟

وهل يُمثّل التأزم بين مراكز النظام الرأسمالي وأطرافه في الحاضر عقدة التساؤلات المتعلّقة بمستقبله؟

وهل يُمكن بناء استراتيجيات وطنية كمرحلة انتقالية نحو اشتراكية عالمية، أي عولمة اشتراكية؟

وكيف تُعالج العولمة قضايا البيئة وفق منظور إنساني شامل، مع طرحها لمشكلات تشمل الأرض بأسرها والإنسان والثقافة؟

وكيف يُمكن التعامل مع التعددية الثقافية في أطر عالمية إنسانية؟

وأخيراً، هل تُعطى الأولوية للميدان المحلي، أم للمدى العالمي في تحليل هذه التحولات؟

هذه الأسئلة ومخارجها، لاشك أنها محكومة بالسجال والتفاوض، وهو مايبدو في اختلاف أجوبة المثقفين العرب عليها.

ويلخّص الأستاذ «عبد الخالق عبد الله» هذا الاختلاف بقوله: «إنَّ الموقف لا يخلو عموماً من الراغبين في الاستفادة من فرص العولمة الواضحة، وبالتالي الدعوة للانغماس فيها، وموقف الراغبين في تجنّب مخاطرها وبالتالي الدعوة للانكماش... والموقف الوسط والمستقل بين الانغماس والانكماش»[٢].

فالمنتصرون للعولمة يتذرعون باعتبارها ظاهرة حتمية لا مفر منها، خاصةً وهو ما يراه الأستاذ «جلال أمين»، حين تعوزهم الحجة في الدفاع عنها باسم الحرية أو

الرفاهيـــة، بما يشـــي أنَّ تذرعهم أقرب إلى التعبـير عن اليأس مــن أي محاولة للوقوف في وجههــا، فيما يبــدو أنَّ تقلص تقدير احتمالات التغيير في أغلب البلدان العربية، هو ما دعاهم إلى تأييد العولمة[٤].

والرافضــون من المثقفين العرب للعولمة على صـنوف: منهم من يبحث عن إجراءات للتوصـل إلى عولمة جديدة تتفق مع سـعي البلـدان الأقل تطوراً لتحقيـق أهدافها في التحـرر والتنمية، ومنهم من يراها كسـتار من دخـان يخفي آليـات الحتـم والإكراه التي تحملهـا، ومنهم من يُكفّرها، فالباحث المغربـي «عبد الإله بلقزيـز» يعتبرها أعلى مراحل الإمبريالية، ويراها الباحث السوري «إبراهيـم محمـود» كفاعـل شـيطاني[٥] والاقتصـادي السـوري «منـير الحمش» كستار لوحشية الرأسمالية[٦]، والاقتصادي المصـري «محمـود عبد الفضـيل» كإحدى لحظات التدمير الخــلاّق[٧]. ويراها المؤرخ اللبناني «مسعود ضاهر» بأنها الوجه الآخر للهيمنة الإمبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة[٨].

فيمـا أطلـق عليهـا الأسـتاذ «محمود حيـدر»: الإمبرياليـة المفتوحـة، على حين وصمها الأستاذ «عادل حسين» بالكفر.

وخـارج إطـار التأكيد القاطـع للقبول والرفض، تقع استجابات أخرى، فهناك من المفكّرين العرب من يدعو إلى ترشيد العولمة انطلاقاً من التفرقـة بينها كعملية تاريخية غير قابلـة للارتـداد، وتقتضـي التفاعل الخلاق معها، وبين القيم والسياسـات التي تحكمها، وتحتاج إلى ترشيد من خلال حوار الحضارات.

يقول الكاتب والباحث «محمود محفوظ»: إنَّ الخلفيـة الفلسـفية والمضـمون المعرفي لمشـروع العولمـة وآليـات الفعـل والتعميم المستخدمة، هي التي تُشكّل تحديات جديدة للثقافة العربية، وتتجسّد هذه التحديات في الآتي:

١- إنَّ مشـروع العولمة، لا يُمكن فصـله بأي شـكل من الأشكال، عن المشروع الثقافي الغربـي، إذ هي إحدى اسـتراتيجياته، وكل خطواته السياسية والاقتصادية والتجارية، هي تخدم في المحصـلة الأخـيرة، المشروع الثقافي الغربي. ولا شك أنَّ امتلاك المشروع الثقافي الغربـي، هذه الإمكانيات، يُشـكّل تحدياً صريحاً للثقافة العربية بمشروعاتها ومؤسساتها وآفاقها.

٢- إنَّ مشـروع العولمـة، وفّـر للثقافة الغربيـة، جميع الإمكانـات المادية والفنية، التي تجعله يسـاهم مسـاهمة رئيسـية في صـناعة الـرأي العـام العالمي. ومـا زالت

مؤسسات الدول الحاضنة لمشروع العولمة، هي التي تتصدّر الساحة الدولية فيما يرتبط وصناعة الرأي العام العالمي.

ولا ريب أنَّ هذه الإمكانات، تُعتبر تحدياً ثقافياً واجتماعياً للثقافة العربية، إذ ما زالت الثقافة العربية، تعتمد في تعبئة الجمهور، وصناعة الرأي العام على وسائل وإمكانات المشروع الثقافي الغربي، ولذلك نجد أنَّ الرأي العام العربي، في الكثير من الأحيان، يوجه وتصاغ أولوياته واهتماماته، من قبل مؤسسات العولمة، ومشروعات الثقافة الغربية.

٢- إنَّ القيم التي تبثها وسائل ومؤسسات العولمة، والسلوكيات التي تُعطى لها الأولوية، هي قيم وسلوكيات لا تنسجم والمعايير والقيم العليا، التي تنادي بها الثقافة العربية.

لذلك فإنَّ توافر مؤسسات دولية، تأخذ على عاتقها الدعوة إلى الالتزام بقيم ومبادئ مناقضة، لقيم وأصول الثقافة العربية، يُعتبر تحدياً خطيراً، يواجه الثقافة العربية ومستقبلها.

من خلال هذه العناصر، يتضح أنَّ مشروع العولمة، يُعتبر تحدياً حقيقياً للثقافة العربية.

لذلك من الأهمية بمكان، أنْ نتحدث، عن الثقافة العربية وآفاقها واستراتيجية عملها في عصر العولمة.

وإنَّ بقاءنا سلبيين ومن دون أنْ تُحرّك فينا هذه التحديات حوافز العمل والفعل الثقافي الحضاري، يحولنا إلى أسرى حقيقيين لثقافة الآخر وأولوياته واهتماماته ومصالحه، فعصر العولمة، يدفعنا إلى ضرورة التفكير الجاد في محاولة العمل القادمة فيما يرتبط والثقافة العربية.

وإننا نرى أن في هذا العصر، الذي تحاول فيه الدول الكبرى، تعميم نماذجها الثقافية، ينبغي علينا التأكيد على النقاط التالية:

الوعي الحضاري:

إننا لا يمكن أن نواجه تحديات العولمة، إلا بحضور الوعي الحضاري وتكثيف آلياته في حياتنا، حتى تتأسس الشروط اللازمة للانطلاق في رحاب الوعي وآفاقه بعيدا عن أطر التقليد الضيقة أو خيارات التبعية المذلة.

ذلك الوعي الذي ينهي كل مفردات التقليد الأعمى، من حياة الإنسان فتصبح ذاته ذاتاً عارفة متحركة باستمرار نحو الآفاق المعرفية المرجوة، هذا الوعي بآفاقه المعرفية، الذي يعيد صياغة حياة الإنسان وفق منظومة جديدة تنقل الإنسان من واقع التقليد والتبعية إلى آفاق الإبداع والاستقلال.

وإنَّ الوعي وحضور بنوده ومفرداته في حياة الإنسان، هو المهاد الفكري الضروري للانعتاق والتحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية وتحديات العولمة والانطلاق من آفاق نوعية إلى الأمام.

نظرية عمل ثقافية:

إنَّ الزخم المعرفي والمعلوماتي الهائل، الذي تعيشه الإنسانية جمعاء والتحديات التي تواجهنا جميعاً من جراء مشروع العولمة والكوكبة، يحتمان علينا بلورة نظرية متكاملة للثقافة، حتى يتسنى لنا كأفراد ومؤسسات الاستفادة القصوى من هذا الزخم المعرفي الضخم.

ومن الطبيعي، أن بلورة نظرية للثقافة، لا تتأتى إلا بدعم وإسناد عملية الاجتهاد الفكري والثقافي، لما توفره هذه العملية من آفاق ثقافية جديدة، ونظرات فكرية تجمع البعد التاريخي التأصيلي، وبعد العصر وتطوراته.

كما أنَّ الاجتهاد الثقافي يمد المسيرة الاجتماعية بالأفكار التجديدية، التي تتجسد في أنشطة وأعمال إبداعية، يتجدد من خلالها المحيط الاجتماعي العام، فيتحول إلى محيط حيوي ذي فاعلية مستمرة.

ولا ريب أنَّ حيوية المحيط وفاعلية الاجتهاد والتجديد الثقافي، سيخلق الواقع القادر على مواجهة تحديات العولمة.

الإبداع الثقافي:

والإبداع الذي نقصده، ليس مقطوع الصلة بالواقع، بل هو ينطلق منه من دون أنْ ينحبس فيه لتأسيس منظومة ثقافية جديدة، تُعيد لنظامنا الثقافي حيويته ودوره في إعلاء شأن الأمة ومواجهة تحدياتها، وتعيد لها دورها الحضاري.

لهذا فإنَّ إطلاق مشروع الإبداع في حقول الثقافة العربية المختلفة، وتوفير كل الظروف المؤاتية لذلك، هو حجر الأساس في عملية إعادة حيوية الأمة، وسد حاجاتها النظرية والعملية وتحديد أطر الصعود والارتقاء.

فالإبداع يعني فيما يعني، فتح مغاليق الامور واكتشاف سبل جديدة لخروج الواقع الثقافي من محنته، لذلك فهو يتعاطى مع الواقع الثقافي بمفرداته المتعددة لإعادة صياغته بما يتماشى مع دور الأمة التاريخي والتحديات المعاصرة.

والإبداع الذي نعنيه يحمل أمل تأسيس خريطة ثقافية، يشترك الجميع في رسمها وتحديد أولوياتها، وبيان منطلقاتها وركائزها، متوسلين في سبيل تحقيق ذلك بلغة الحوار والتفاهم والانفتاح وقبول الآخر وجوداً وفكراً.

فمواجهة تحديات العولمة، على المستوى

الثقافي، لا تتم إلا بإنهاض الحياة الثقافية العربية، ووصلها بالأفكار الإنسانية العليا، التي تثري مسيرة الثقافة العربية، وتزيدها زخماً وحيوية، فعصر العولمة لا يمكن أنْ يواجه ثقافياً إلا بالمزيد من إطلاق حرية الإبداع وأفكار المساءلة والنقد والحوار، والتوجه إلى القضايا الاستراتيجية، والابتعاد عن كل ما يمنع حيوية وحرية العمل الثقافي العربي.

وبصدد التحديات التي تواجه الثقافة العربية، فهناك من المثقفين العرب من يرى أنَّ الثقافة ليست هي العنصر الأهم في مواجهة العولمة، بل هي إحدى العناصر فقط، وأنَّ إعطاء الثقافة دوراً وأهمية بارزين هو هروب من المواجهة في المجالات الفعلية؛ أي الاقتصاد والسياسة والعلم، وهو ما عبّرت عنه الباحثة الدكتورة «فهمية شرف الدين» بقولها: «إننا عندما نستنهض الثقافة فقط لمواجهة العولمة، فإننا بذلك نتهرّب من الشروط الضرورية الأخرى للمواجهة، فالعولمة ليست إرادة لاستتباع الثقافي فقط، بل هي فعل اقتصادي سياسي، وليس الاستتباع الثقافي سوى النقطة النهائية على السطر لاكتمال الهيمنة والسيطرة الكلية»(٩). وإنْ أقرّت الباحثة بعدم تقليلها من أهمية المواجهة الثقافية، وتأكيدها على صعوبة الفصل بين الثقافي والاقتصادي.

ويُفرّق الباحث المصري الدكتور «عمرو حمزاوي»(١٠)، بين العولمة الاقتصادية والعولمة الثقافية، حين يرى أنَّ: «العولمة الثقافية، وعلى العكس تماماً من العولمة الاقتصادية ذات المراكز الجغرافية الواضحة، ليست أحادية الاتجاه والمحتوى، ولن تؤدي إلى توحيد ثقافي للعالم تحت رايات الغرب، بصرف النظر عما إذا كان هذا الأخير مرجواً أو منفّراً. فالأثر الرئيسي لعمليات العولمة الثقافية، إنما يتمثّل في تكثيف وتسريع حركة التبادل بين أجزاء الكرة الأرضية المختلفة، على نحو يزيد من التعددية والتنوع».(١١)

يقول الدكتور «محمد حافظ دياب»: إنَّ الأمر هنا يتعلّق بتراوح المثقفين العرب بين تأثيرات البعد الثقافي للعولمة، ما بين إبداء عدم الخشية منها، والتحذير من عواقبها. فمن جانب، تبلغ درجة الطمأنينة على الثقافة العربية من تأثيرات العولمة ذروتها لدى الكاتب الفلسطيني «أحمد صدقي الدجاني»(١٢)، فهو يُرحّب بالتعامل مع العولمة، انطلاقاً من موقف آخر هو ثقتنا بعقيدتنا وتراثنا ولغتنا؛ أي بحضارتنا الإسلامية التي تُمثّل جمع هذه العناصر

وقدرتها على المواجهة، فيقول: «هذه الظاهرة موجودة، فنتعامل معها، ولكن لنثق بقدرتنا على المواجهة، فعملية محاولة إنهاء الثقافات وتنميط البشر على ثقافة غربية واحدة يقيناً سيفشل».[١٣]

ويُركّز المفكّر العربي «محمد عابد الجابري»[١٤] على ثقافة الاختراق، ويراها تقوم على جملة أوهام هدفها التطبيع مع الهيمنة، وتكريس الاستتباع الحضاري، بوساطة القيام بعملية تسطيح الوعي، واختراق الهوية الثقافية للأفراد والجماعات والأمم، بتكريس ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية، تصنع الذوق الاستهلاكي (الإشهار التجاري)، والرأي السياسي (الدعاية الانتخابية)، وتشيد رؤية خاصة للإنسان والمجتمع والتاريخ.[١٥]

أما الباحث السعودي «هشام نزار»، فيرى أنَّ الغرب قد استخدم هيمنته على تكنولوجيا الاتصالات؛ لفرض قيمه ومؤسساته السياسية على باقي دول العالم، ويُحذّر من أنَّ هذا قد يؤدي إلى تأذّي الثقافات الأخرى.[١٦]

يقول الدكتور «محمد حافظ دياب»: إذا كانت هذه هي تحدّيات العولمة، كما تتبدى من نذرها في العالم العربي، فما هي حدود مواجهتها لدى المثقفين العرب؟

ويتساءل الباحث «سالم يفوت» قائلاً: هل العولمة تتهدد الهوية؟ فيخلُص إلى أنَّ الجواب ليس، بالضرورة، بالإيجاب. إنها لا تتهددها إلا بالنسبة لرؤية تربط الهوية بالماضي وتعتبرها معطى جاهزاً ومكتملاً، بينما الحقيقة أنَّ الهوية ترتبط بالمستقبل كذلك، بطموح الأمة وآمالها في التجديد وبناء مستقبل جديد لا يتنكّر لمكتسبات العصر، بل يعمل على استيعابها لصالحه، لا يتجاوز المتاح عالمياً، بذريعة خلق متاح خصوصي يحفظ الهوية من تقلبات التاريخ قد يكون هذا الوهم صحيحاً لو كنا نحن «الغالبين» أي نُشكّل مركز العالم، أما وإننا محيط أو طرف من الأطراف، فإننا مضطرون إلى قبول ما هو متاح واستثماره لصالحنا.

وأخيراً، وحتى نستطيع استيعاب العولمة لا أنْ تستوعبنا هي ، فلابد من استشراف آفاق المستقبل ووضع تصور مستقبلي لموقع بلداننا العربية في المحيط الإقليمي والدولي، وتوقع مدى إمكانية قيام السوق العربية المشتركة وما يرتبط بها من قضايا الحماية والدعم والمنافسة والحرية الاقتصادية، ووضع استراتيجية بناء القدرة التنافسية والتي تُعد من أهم عناصر الاستراتيجية العليا للتنمية الشاملة في البلدان العربية،

كما يجب الارتقاء بالقدرات البشرية وتنميتها.

إنَّ عالم المستقبل هو عالم التكتّلات الاقتصادية، عالم الشركات والاستثمارات الكبرى، عالم التقانة والمعلوماتية، عالم المجتمع المعرفي، عالم الإدارة القادرة والقرار النافذ. لذلك يتوجّب على بلداننا العربية أنْ تخطو خطوات حاسمة في استمرارية لا رجعة فيها لتحقيق هدف التكامل الاقتصادي العربي والوحدة الاقتصادية العربية التي من دونها لن نستطيع بناء اقتصاد قادر على البقاء والمنافسة في عالم الاقتصاد المعاصر، كما يجب أنْ نندمج في عملية التفاعل الثقافي مع جميع الثقافات الإنسانية في العالم، حيث يُعتبر ذلك ضرورة موضوعية للاستجابة لتطورات المرحلة الراهنة عالمياً وذلك لاستمرار تقدّم المجتمعات العربية، ولتسليح الشعوب العربية بقيم ورؤى وأفكار تُمكّنها من الإبداع والمشاركة في صناعة ثقافة عالمية، بشرط ألا يطمس هذا التفاعل الخصوصية الثقافية والهوية الثقافية المتميزة لعالمنا العربي.

المراجع

١- عالم نفس أمريكي، من مواليد سكهانا في بنسلفانيا، أسهم في تقدم علم النفس التربوي، وعلم النفس التجريبي.

٢- «برهان غليون»، مفكّر سوري ولد في مدينة حمص وهو مدير مركز دراسات الشرق المعاصر وأستاذ في جامعة باريس الثالثة. خريج جامعة دمشق بالفلسفة وعلم الاجتماع، دكتور دولة في العلوم الاجتماعية والإنسانية من جامعة السوربون، دكتوراه في علم الاجتماع السياسي، أستاذ علم الاجتماع ومدير مركز دراسات الشرق المعاصر في السوربون، له عدد من المؤلفات.

٣- «عبد الخالق عبد الله»: «العولمة... ومحاولة دمج العالم»، مجلة العربي، العدد (٤٦٥).

٤- «جلال أمين»: «العولمة والدولة»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.

٥- «إبراهيم محمود»: «العولمة — هل هي انفجار الهوية؟» مجلة الفكر العربي، العدد (٩٣)، صيف ١٩٩٨.

٦- «منير الحمش»: «العولمة ليست الخيار الوحيد»، دار الأهالي، دمشق، ١٩٩٨.

٧- «محمود عبد الفضيل»: «العولمة وخطة التدمير الخلاّق»، مجلة الوفاق العربي، العدد الثاني، ١٩٩٩.

٨- «مسعود ضاهر»: «صدام الحضارات كمقولة أيديولوجية لعصر العولمة الأمريكية».

٩- الدكتورة «فهمية شرف الدين»، ولدت عام ١٩٤٣ في لبنان، وهي عضو في اتحاد الكتاب العرب، جمعية البحوث والدراسات، عملت في معهد الإنماء العربي ببيروت، لها كتاب: الثقافة والأيديولوجيا في الوطن العربي (بيروت

١٩٩٣)، الاقتباس من: «تعقيب» في (العرب والعولمة)، ص ٣٢١.

١٠- الدكتور «عمرو حمزاوي»، كبير الباحثين بمؤسسة «كارنيجي» للسلام الدولي، يُعتبر أحد أبرز المفكّرين العرب، سبق له التدريس في جامعة القاهرة وجامعة برلين.

١١- الدكتور «عمرو حمزاوي»: «حول العولمة ونقائضها»، (مجلة دراسات عربية).

١٢- «أحمد صدقي الدجاني» مفكر عربي فلسطيني، عمل مدرساً في معهد البحوث والدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، أسهم في تأسيس المؤتمر القومي، شغل منصب عضو مجلس أمناء منتدى الفكر العربي وأسهم في فعالياته. أسهم في فعاليات مركز دراسات الوحدة العربية، اختير عضواً مراقباً بمجمع اللغة العربية في مصر وسورية. له ما يربو على ستين كتاباً في التاريخ والفكر السياسي والدراسات المستقبلية والتأملات ومسرحية ومجموعة بحوث ودراسات في العلوم الإنسانية.

١٣- «أحمد صدقي الدجاني»: «إسلامنا وعولمتهم»، مجلة الكلمة العدد (١٨).

١٤- المفكّر العربي المغربي «محمد عابد الجابري» (١٩٣٦ - ٢٠١٠) أستاذ الفلسفة والفكر العربي الإسلامي في كلية الآداب بالرباط.

١٥- «محمد عابد الجابري»: المسألة الثقافية، سلسلة الثقافة القومية، العدد (٢٥).

١٦- تعريب العولمة، الدكتور محمد حافظ دياب - منشورات دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

الدراسات والبحوث

مهرجانات وألعاب دوساريس

(ذي الشرى) الأولمبية في بصرى - بصرى تعانق روما(١)

د. خليل المقداد ٭

«رومـا تحبك يا بصرى» هذا هو عنوان الكتاب الذي سـوف يوثق ويبين مـدى التوافق بين المدينتين العظيمتين ومدى التوأمة بين كليهما وما قدمت كل واحدةٍ من إسـهامات ثمينة في جميع مجالات الحياة وعلى رأسها مناهج التنظيمات العمرانية والمدنية بجميع تفرعاتها.

وكان سكان مدينة بصرى يتمتعون بأمور التسلية والترفيه نفسها الموجودة في جميع مدن الميتروبوليان(٢) وعلى رأسـها عاصمة الإمبراطورية الرومانية

٭ باحث ومؤرخ سوري.

مدينة روما مثل التجوال في المصايف والمنتزهات، والاستمتاع بالنزهات داخل المدينة المزدهرة والمتنامية حيث الاسترخاء في حمامات مريحة وفاخرة، والتجوال في أسواق المدينة تحت ظلال الأروقة الفاخرة والهواء النقي العليل، والاستمتاع بمشاهدة واجهات المعابد والقصور، والشعور بالعز والكرامة أثناء المرور تحت أقواس النصر المنتشرة في شوارع المدينة الرئيسة، والانتعاش بالهواء الرطب أثناء التجوال فوق جدران خزانات المياه الفسيحة، ومبادلة الغمزات والعبارات العاطفية والغرامية للعشيقات على دروب ينابيع المياه أو التعبد في المعابد والتسوق من الأسواق. ومن أجل إكمال نهاية الجولة يتوجب الأمر الذهاب إلى المسرح والسيرك والمسرح الدائري حيث تدور هناك ألعاب القوى والمصارعة والفعاليات المختلفة والمثيرة التي تقدمها الفرق القادمة من جميع مدن العالم.

وكان سكان مدينة بصرى كباقي مدن المنطقة ينهمكون في أعمالهم اليومية المعتادة في جميع مجالات الحياة الصناعية والزراعية والتجارية والثقافية والعمرانية والتنظيمية وعلى مدار أيام السنة لذلك حولوا مدينتهم إلى مدينة تضاهي أمهات المدن بما فيها مدينة روما العاصمة، لذلك أخذت مرتبة العاصمة الإدارية والسياسية والعسكرية والترفيهية ومنذ العهد النبطي إن لم يكن قبل ذلك في العهود الآرامية والأقدم منها من عهود عربية مختلفة، وفي خضم هذا النشاط الجسمي والفكري المتواصل فكان لابد من تزويد الأحاسيس والمشاعر والعواطف من الشم والنظر والسمع وبتلبية رغبات الجسم ومشاعره كافة، لذلك كانت المساعي تبذل دائماً لتوفر كل ما يحقق لهذه النفس العربية المرهفة كل ما تصبوا إليه من أحلام وتخيلات وآمال.

وبالطبع فكانت الألعاب والفعاليات تحتاج كما هو الأمر في يومنا الحاضر إلى أبنية خاصة تشاد في المدينة التي تجري فيها مثل هذه الفعاليات والنشاطات، ومن هنا نجد أن مدينة بصرى وغيرها من مدن سورية وبلاد الشام والبلاد العربية كانت السابقة في بناء وتهيئة مثل هذه المنشآت من ميادين فروسية ومسارح وكذلك مسارح دائرية وميادين ألعاب القوى (ستاد) وحمامات عامة وفنادق ومنتديات وكل ما يتطلبه الأمر، لذلك كانت تقام جميع هذه الفعاليات على شرف الآلهة العربية من نبطية وآرامية وفينيقية وعلى رأسها إله مدينة بصرى النبطي ذي الشرى والذي

تمثل عند الإغريق بالإله دوساريس وعند الرومان بالإله باخوس.

كما ترافقت أمور التسلية بالتجول في الحقول والمنتزهات وعلى ضفاف ينابيع المياه والبحيرات وخزانات المياه التجميعية (البرك) وعلى ضفاف الوديان التي كانت تجري فيها المياه في معظم أيام السنة مع الغزارة في فصلي الشتاء والربيع على أثر تساقط الأمطار أو في فصلي الصيف والخريف على أثر ذوبان الثلوج. وكذلك التجوال في الحقول لسماع سمفونيات رائعة من خلال معانقة سنابل القمح أو خرير المياه أو الهواء العليل وهو يتخلل المزروعات.

وفي ذلك الصباح نهض السيد النبطي مالك عبد الله (ماليكوس عبيد اللات) من فراشه وأخذ يتمطى على شرفة قصره الذي يبعد عن مدينة بصرى بضعة كيلومترات ويستنشق الهواء العليل، ثم وقف تحت هذه الشرفة المعمدة يناده خادمه (سبيتينتريو septentrio) قائلاً: «يا بني هيئ الحصان وأطعمه واسقيه وزينه واربط السرج وبلغ سيدتك أنني سوف أقضي الأيام القادمة في المدينة» أي بصرى التي كان يملك فيها أيضاً مسكناً فاخراً إضافةً إلى قصره الريفي.

وكان السيد مالك رجلاً غنياً في ممتلكاته الخاصة ومواطناً نبطياً وورمانياً على أثر حصول أبناء المنطقة هبة التمتع بصفة المواطنة وذلك بعد أن أصبحت مدينة بصرى عاصمة الولاية العربية الرومانية، وقد أوصله غناه هذا إلى امتلاك الحقول والمساكن والمتاجر والخدم والعبيد الذين يقومون على خدمته والعمل في تنفيذ وتصريف مصالحه المنزلية والزراعية والتجارية وغيرها من أعمال كما هو الأمر عند باقي أفراد الطبقة البرجوازية الغنية في المنطقة في ذلك التاريخ.

وقد لبس السيد مالك ألبسته الفاخرة ومنها الثوب الطيلساني البراق والفضفاض والمصنوع من الصوف الأبيض والمخصص لأيام الأعياد إضافةً إلى غيره من باقي الألبسة الفخمة، وهنا بدا هذا الرجل المعروف في المبالغة والترف والأناقة والصرف على جسمه الممتلئ والنشيط أيضاً بغير حدود بدا بمظهر يلفت الأنظار، وبالطبع وبعد الانتهاء من الألبسة فقد سرح شعره الأسود الذي أضفى على بشرته وجسمه المسمر من أشعة الشمس رونقاً من الجمال الممزوج باللون البرونزي والممزوج باللون الحنطي أيضاً، لذلك أصبحت هذه النظرة والسمة البرونزية مبعثاً للأناقة الفائقة التي أضفت عليه رونقاً في مظهره العام والطبيعي وجعلت منه شخصاً يلفت

أنظار الحسناوات في المدينة وخاصةً بعد أن تطيب بالطيب والعطر المحلي المصنوع من ورود وأزهار حقول حوران الخصبة والغنية بروائحها وألوانها وأنواعها المتعددة.

وكان هذا الرجل معتاداً في معظم أيامه النهوض باكراً ليعانق الجياد والخيول الأصيلة التي يمتلكها، ويحتضن المواليد الصغيرة من الحيوانات الأليفة من الماعز والأغنام وغيرها والتي تسكن في الأكواخ وبين أكوام وأغصان الأشجار حيث يسكن فلاحو الأحرار، ومن ثم يجول في الحقول التي بدأت تأخذ لونها الذهبي تحت أشعة الشمس في صباحيات نهاية فصل الربيع وبداية فصل الصيف، وعند ذلك يسترخي مع هذه الأنغام الساحرة والأصوات العذبة مع الرياح التي تتخلل أشجار الزيتون والتين والعنب التي تغطي سفوح الهضاب والمرتفعات التي تحيط في مدينة بصرى وخاصةً في منطقتها الشرقية وتمتد نحو المنحدرات الأرضية غرباً.

ولما كان مالك لم يبلغ من العمر إلا خمساً وثلاثين عاماً لذلك لم تنتبه أية نظرة حسد أو غيرة من أغنياء الرومان الذين يقضون الصيف مستمتعين في رطوبة رياح البحر على شواطئ اللاتيوم، والسبب في ذلك أنه باستطاعته هو أيضاً أن يتمعن ملياً في مشاهدة المياه ذات الزرقة النيلية الشديدة والفائقة من خلال ضلال وفي الأروقة والسرادق في قصره المبني في وسط منطقة مليئة بالبحيرات الطبيعية والمصطنعة أو الذهاب إلى شاطئ البحر غير البعيد عن المنطقة.

وإذا أراد الاسترخاء في جسمه واستنشاق الهواء الطلق والاستمتاع بالرطوبة والدفء عند ذلك بإمكانه الاستلقاء داخل حمامات قصره الخاص أو الذهاب إلى بصرى وعلى بعد مسافة بسيطة يصل حماماتها العامة والمزينة في اللوحات الجدارية المتعة (الفريسكات) والفسيفساء والجص (المعجون في المرمر) ناهيك عن مكتباتها الغنية بالمحتويات المتعددة من الكتب والمؤلفات.

وما أن يأتي الخادم بالحصان حتى يوقف مالك هواجسه ويصعد على سرجه وبعد أوقات قليلة من مسير الحصان يصل المدينة بعد قضاء رحلة ممتعة على ظهر الجواد، فهو على بعد قليل من الفراسخ التي كانت تفصله عن المدينة[٣]. وكان أثناء مسيره في الطبيعة يسترجع تاريخ المنطقة وتاريخ والده وعائلته حيث كان مثقفاً ومتضلعاً في التاريخ والسياسة حيث ورث ذلك عن والده الذي شغل مناصب عدّة على مستوى الولاية العربية ومستوى الإمبراطورية كعضو في

مجلس الشيوخ (البوليه) ومجلس القضاء، ثم جاء دور مالك ليشغل بعض هذه المناصب كإرث عن والده وكجدارة في ممارسة مثل هذه الأمور، وفي هذه المناسبة الحالية سيحضر جانباً منها.

وقد كان مالك بعيداً جداً في تفكيره هذه المرة وهذه السنة؛ على اعتبار أن هذه السنة هي السنة الخامسة من حكم الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونيوس والمعروف باسم كراكلا ٢١١ - ٢١٧م، والتي تعود إلى عام ٢١٥م(٥)، وفي تلك اللحظة يدخل مالك المدينة من مدخلها الشمالي الذي يفصلها عن معسكر المدينة الذي كان يعتبر بحد ذاته مدينة عسكرية مستقلة.

وبالطبع فلم يشعر مالك بالوقت الذي مر على اعتبار أن الهواجس وتداعي الأفكار شغلته عن التفكير في الوقت، وقد دخل مالك من البوابة الجنوبية المهيبة والتي ازدادت هيبتها حسناً وعظمةً وبهاءً في عهد الإمبراطور تراجان وخاصةً بعد أن أصبحت هذه البوابة تطل على المعسكر حيث تخترقها الفرق العسكرية والقادة والجنرالات زرافات ووحدانا، وخاصةً أثناء الاحتفالات والانتصارات والعروض العسكرية وحمل الرايات أثناء المهرجانات الإمبراطورية.

وقد بنيت بضخامة فائقة خصيصاً لذلك، وكانت البوابة على شكل ثلاثة أقواس الأوسط والمركزي هو الأكبر والأعلى من البوابات الجانبية المحضونة في الأبراج التحصينية والدفاعية الضخمة والعالية. وتضم البوابة بالوقت نفسه عشرة أقواس اثنان في المركز وأربعة من كل جانب وكل مجموعة متوجة بقبة مركزية. وكان يزين البوابة المحاريب التي تفتح على كل الاتجاهات إضافة إلى النقوش والزخارف النباتية وخاصة المشتقة من أوراق الكرمة، واللوحات الميثولوجية المقتبسة من الأساطير العربية واليونانية والرومانية وصور الملائكة العشاق الصغار (البوتي)، إضافة إلى ترصيع الجدران بالألواح الرخامية ناصعة البياض.

ويحتضن البوابة أيضاً الأسوار الدفاعية العالية والتي تبلغ في ارتفاعها عشرة أمتار، بينما يبلغ ارتفاع البوابة والأبراج المحيطة خمسة عشر متراً، وقد زودت البوابة بملحقات جانبية مثل غرف الحراسة والاستقبال ومبيت القادمين من خارج المدينة ليلاً حتى تفتح البوابة عند الصباح حيث كانت تقفل أبوابها ليلاً ويمنع الدخول إلى المدينة إلا في ساعات محددة منذ الصباح وحتى المساء بالنسبة إلى القادمين الغرباء كما هو حال

بقية أبواب المدينة التي كانت تشهد حراسةً مشـددة ومنتظمة، كما أنها أصبحت بوابة طريق تراجان الإمبراطوري «فيا تريانا».

وكان معظـم هـؤلاء إمـا مـن التجار القادمـين من مختلف أنحـاء الإمبراطورية أو أفراد مـن القوافل التجارية القادمة من أعمـاق أفريقيا أو الجزيـرة العربية حيث يتوجب عليهم تسـجيل أسمائهم عند الغفر المنسـوب إلى الحرس والمراقبين المختصين في شـؤون الأجانب، ثم هناك ذوو المصالح المختلفـة في المدينـة والقادمون من مناطق بعيـدة وغيرهم. وترى الجميع في الصباح مشغولين بالثرثرة والتعارف وترتيب أمورهم ومعرفـة مواقـع الأبنية قبـل الدخول إلى المدينة.

وقد وقف مالك تحـت قبة البوابة وهو يحدق ملياً بعظمة هذه البوابة وهذه المدينة وقدرة وعظمة وعبقرية البناة والمهندسـين مـن أبناء هذه المنطقة، ثم قاده هذا التفكير في التأمـل في عظمة ومجد وشرف الأباطرة من ذوي الأصـول العربية ومنهم سبتيموس سـيفيروس وابنه كراكلا، كما تصور أن مع هـذا الإمبراطور سـيكون الخلـود والمجد للقبائل العربية والتي تجسدت انطلاقاً من خلال أبنائها أمثال هؤلاء الأباطرة، وكذلك عظمة السـلطة الإمبراطورية التي تشـهر ذلك. يضاف إلى هذا الأمر أيضاً انتصارات روما على البارثيين في بلاد النهرين أو ضد الجرمان الأعـداء الدائمـين والتي جعلت من كـراكلا أن يكون دائمـاً في حالة حرب ضدهم.

وبعد وقفة قصـيرة عنـد البوابة التقى مالك في هذه المناسـبة مع صديق قديم له من أصول عربية أفريقية وينتمي إلى أفراد الفرقة الثالثة البرقاويـة وهوQuintuas Avidius Quintianus كينتوس أفيدوس كينتيانوس من مدينة لبـدا الكبرى، إلا أنه ليس له المظهـر نفسـه في اللباس والجبة الفضفاضـة. فهو ضـابط عسكري برتبة قائد روماني (قائد العشرة) ويشـغل منصب Gholas غولاس، وعمله يبتعد عن المدينة والمعسـكر الرئيس مسـافة عشرة أيام من المسير جنوباً حيث تتمركز هناك بضعة مئات من العسـاكر. وأخذ يتبادل معه الأحاديث بعـد أن عاد هذا الضـابط العسـكري من جولة تفتيشية على المراكز المتقدمة والمشادة بالقرب من خزانات المياه والينابيع المنتشرة في معظم مناطق الولاية التابعة إلى المعسكر المتمركز في مدينة بصرى وغيرها.

بعد ذلك اتفق كلاهما على اللقاء مجدداً بعـد الإجماع في البازيليك وبداية الاحتفال الوطني في سـاحة السوق العامة (الفوروم)

للمشــاركة في التجــوال في المدينة ومتابعة النشاطات المختلفة. عند ذلك استدار مالك جنوباً مخترقاً الشــارع الرئيس أو الشــارع المســتقيم (الكاردو) في المدينة الذي تحيط به المنازل، وهي بشــكل عام منازل ســكنية فخمة خصص معظمها لسكن عائلات كبار الضباط في الجيش ورجال الأمن في المدينة والولاية، أما المساكن الشعبية فكان معظمها في الأحيــاء الغربيــة حيث تكــون جميعها صــاخبة بالثرثرة والأصــوات المنطلقة من المناقشات.

وقــد كان دخول كينتوس مترافقاً مع جماعات المشاة أو راكبي الخيول أو الحمالين وسائقي العربات، وما إن وصلوا إلى منطقة الأسواق حتى شاهدوا التجار والزبائن وهم جميعاً يتســاءلون متمازحين ويصرخون هنا وهنــاك وخاصــةً البائعين الذيــن حلوا في المدينة من خارجها وهم يبحثون وينشــدون الزبائن لتصريف بضــائعهم باكراً ليتســنى لهم الانصراف إلى شؤون أخرى.

وخلال المســير تمّ اختراق ســاحة كبيرة على شــكل chalcidicum خالسيديكوم وكذلــك أحد الأروقة التجارية ثم المصــلبة (التترابيل) التي تتوســط تقاطع شــارعين رئيســين الكاردو والدوكومانوس الذي يقود إلى المســرح، وهنــاك تم التوقــف من أجل إلقاء نظرة على الحجارة الكريمة والحجارة الثمينة التي تعلوها المجوهرات المصــنوعة من قبل الحرفيين السوريين المهرة أو أنسجة الحريــر القادم من الشرق، أو المصــنوعات الزجاجية الفينيقية أو الســجاد الصــوفي القادم من مختلف المدن في منطقة كابادوس وتراقيا وغيرها من مناطق أسيا الصغرى أو بلاد فارس.

وعند الوصول إلى هذا المكان أسرع مالك في المشــي مــن أجل الوصــول إلى المحكمة (الكوري) وهي مركز مستشارية المدينة الذي يتكــون من طبقة النبــلاء حيث يكون مالك عبيد الله أحدهم أو أحد هؤلاء الأعضــاء، ولهذا تطلب الأمر أن يخترق الفوروم القديم وهــو مركز المدينة منذ تأسيســها في العهد الارامي والذي مضــى علــى بنائه أكثر من ثمانية قرون من الزمن.

وكان مالــك كأي مواطن مــن بصرى لم ينَل هذه العضــوية أو يمارسها مطلقاً دون أن يتحسس ويشعر بشدة بالفخر والاعتزاز وهو يدخل المدينة ويكون من بين الأعضــاء الموكلــة إليهــم رعايتها وتنظيمها وإشــادة الأبنية الفخمة فيها خاصــةً وهو يشــاهد ملياً ويتأمل المعابد المنتصــبة على الجهات المحيطــة بالســاحة، ومنهــا هــذه المعابد الرخامية المكرسة إلى آلهة الأسلاف (أسياد

ومؤسسي الوطن ديدي بارتي (dii patrii والمنتصبة تماثيلهم فوق الدكات المرتفعة للإلهة هيركول باخوس (مربية الإله باخوص Bacchus Hercule) أو ذي الشرى (دوساريس) والتي تذكر بمربية الآلهة Melqart ميلكارت و Shadrapa وشدربا وهي الآلهة العربية الفينيقية والتي تمثلت في الآلهة حدد وعشتار الآرامية ومن ثم تمثلت في الآلهة النبطية في بصرى عاصمة الأنباط، وفي المناطق النبطية والصفائية والإيدومية كافة ونصبت لها التماثيل في جميع هذه المناطق من شمال الجزيرة العربية إلى تدمر وحتى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وكم كان مالك مندهشاً عندما وقف في وسط باحة معبد زيوس أمون في بصرى حيث كرس هذا المعبد ليكون على شرف إله الفرقة الثالثة البرقاوية وكبير الآلهة عند الإغريق والذي تمثل في الإله جوبيتير عند الرومان، كما أصبح من كبار الآلهة في حوض النيل، عند ذلك أخذت الأفكار العقائدية الهللينستية تتفاعل في عقلية وذهنية مالك حيث ذهب بعيداً في التاريخ وهو يتصور هذه الوحدة الحضارية لعالم البحر الأبيض المتوسط والتي كانت ذات اندماجية متكاملة العضوية في جميع مجالات الحياة وعلى رأسها المجالات العقائدية وكيف أصبح الإله أمون من كبار الآلهة في هذا المحيط الجغرافي ولدى جميع الشعوب التي عاشت فوق هذه الرقعة الجغرافية.

وازداد هذا الشخص إعجاباً بمداخل المعبد المفتوحة على البناء الذي ترك لديه انطباعاً حساساً مع الأخذ بعين الاعتبار الأعمدة الضخمة للمعبودة روما وإلى تماثيل الأباطرة الأوائل مثل أغسطس وتيبير وكلود وهادريان إلى سبتيموس سيفيروس وحتى كراكلا وإلى أقربائهم وذويهم وإلى الولاة وكبار قادة الجيش وأعضاء مجالس الشيوخ المحلية. وهذه التماثيل المنتصبة أو ذات الجلسات التربيعية والمكسية بالأردية الفضفاضة والتي انتصبت على ركائز حجرية وتظهر الأقدام والأرجل والأيدي والرؤوس التي نحتت وشذبت وصقلت من الرخام الإغريقي.

ومن بين جميع هذه التماثيل ظهر تمثال الإمبراطور سبتيموس سيفيوس وعائلته التي تجمعت في الحلبة النصف الدائرية الصغيرة، أو في المجلس المهيأ على شكل مقام يزين مركز الساحة. وهذا الأمر لفت انتباه مالك، ولذلك أعاد الاهتمام الكبير في طرح التساؤلات عن أصول هذه العائلة العريقة من كلا الجدين للآباء من قبل قبيلة

سبتيما وقبيلة دومنا ذات الأصول السورية والتي تفرعت وانتشرت فروعها في القارات الثلاث وتمثله في الأباطرة.

وبنظرة حزن ألقيت من قبل مالك وضيفه كينتوس أفيدوس كينتيانوس على تمثال ذلك الطفل الوديع جيتا الأخ الأصغر للإمبراطور كراكلا والذي قتل وهو في حضن أمه جوليا دومنا وبين ذراعيها. ومنذ ذلك الوقت وفوق أصغر تمثال نقشت كتابة كرست كذكرى تشرف وتشهر وتذكر بالضحية والقتيل، وأصبح مزاراً لكل القبائل العربية القادمة من أفريقيا.

وفي كل مكان من المدينة وكما هو الحال في كامل مدن الإمبراطورية فلم تضجر وتمل من كثرة التماثيل المعروضة هنا وهناك، إذ كثيراً ما يتوقف المرء أمام تماثيل الشيوخ والقناصل وذوي المراكز العالية، بما فيها الشخصيات من مراكز ما فوق رتبة القناصل أي البروقناصل حكام الولايات المرموقة في الإمبراطورية مثل الولاية العربية. وجميع هذه الشخصيات عرفت من خلال الكتابات المنقوشة على الركائز التي تشير بعبارات التفخيم والكرم والسخاء المقدم من قبل الولاة أو الشخصيات الغنية أو من قبل زعماء القبائل في المنطقة كإهداء وتكريم.

وأخيراً وصل مالك إلى مجلس القضاء (الكوري) المعروف من خلال واجهته التي تشبه واجهة معبد فخم رباعي الأعمدة والواجهة الكلاسيكية المثلثة مع الرواق المتقدم على شكل بهو مهيب، أما من الداخل فقد قسمت الصالة إلى قسمين من خلال معبر مركزي يقود إلى تمثال الإمبراطور كراكلا الذي ظهر على شكل عجوز فوق صف من المقاعد الحجرية والركائز الخشبية المجهزة والمزينة من خشب الصنوبر المنقول من الساحل السوري الفينيقي.

وقد جلس مالك ملتزماً بالنظام الطبقي والوظيفي وحسب التدرج في المراتب التي كانت تعرف باسم الدومفيرسن كونكينيو Les duumvirs quinquennaqux أي الشخصيات ذات الاعتبارات العليا في المجتمع، ومن بين هؤلاء يتم اختيار مجموعة أعضاء مجلس القضاء الأعلى ألبو الديكوريونال Les duumvirs quinquennaqux (الكوري). وقد صفوا وجلسوا جميعاً حسب نموذج الأقدمية على شكل الشيوخ القدامى ومن ثم قدماء الشخصيات الاعتبارية في المدينة (دوفير) duovirs أي شيوخ المدينة ومن ثم المراقبين والقائمين والمكلفين بأعمال المدينة العامة، ومن ثم رجال المال والمسؤولين عن الأموال والضرائب، ومن ثم الأعضاء العاديين مثل

أعضاء المجلس البلدي décurional (دوكوريون) وهكذا.

وحسب المعتاد تفتتح الجلسة ويفتح المحضر ويتم البدء في مناقشة القضايا المدرجة على جدول الأعمال، ثم تطرح الأسئلة التي تتعلق في شؤون المدينة ومبانيها العامة وأعمال المباني والطرقات العامة ورجال الأمن والشرطة وأمن الأسواق ورجال الشرطة المكلفين في السهر على أمنها وأمن السفارات المكرسة والمتخصصة في شؤون الإمبراطورية والإمبراطور أو مكاتب استعلامات الإمبراطور، وكذلك مجريات الأمور مع الولايات الإمبراطورية المجاورة.

إلا أنه في هذه الجلسة فقد أدرجت قضايا ملحة وفورية بمناسبة بدء الألعاب الأولمبية التي تعرف باسم: «ألعاب دوساريس» ذي الشرى والتي سيكون موعد انطلاقها في هذا اليوم حيث تم استعراض الفرق المشاركة وأماكن العروض التي سوف تجري على الشكل التالي:

١ – العرض الافتتاحي بعد الاحتفال الجماهيري، وإلقاء الكلمات وتفخيم وتعظيم الإمبراطور والعائلة الإمبراطورية والأباطرة العظام، ومن ثم الترحيب في الفرق المشاركة في العروض.

٢ – الفعاليات التي سوف تجري فوق خشبة المسرح من عروض المسرحيات والرقص والغناء.

٣ – النشاطات التي تقام في ميدان الفروسية (الهيبودروم) ومسابقات الفروسية والهجن وغيرها.

٤- العروض التي تقام داخل حلبة المسرح الدائري (الانفتياتر) من مصارعة الأبطال بين بعظهم البعض ومصارعتهم مع الحيوانات المفترسة أو مصارعة الثيران وتنفيذ الأحكام القضائية

٥ – العروض التي تجري في حوض السباحة والألعاب المائية.

٦ – كما طرأ شيء جديد في هذا العام وهو تزامن العيد السنوي للإمبراطور مع مناسبة المهرجان، وفي هذه المناسبة تحتفل جميع مدن الإمبراطورية في عيد ميلاد الإمبراطور كراكلا وفي نفس التوقيت، ولذلك فقد أدرج هذا الأمر في محضر الجلسة وتمت مناقشته وأدرج ليكون أيضاً من ضمن فعاليات المهرجان. إضافةً إلى الكثير من القضايا المدرجة والهامة، ولهذا فقد كان اجتماعاً استثنائياً حضره كل المسؤولين في الولاية والمدينة وممثلين من العاصمة روما.

وبعد الاجتماع ذهب الجميع للبدء في الاحتفال حيث أخذ الأعضاء (دوفير)

duovirs أماكنهم من أجل الاحتفال، وكان التواجد هنا والجلوس حسب الرغبة والميول وبالطبع بعد توفير كامل المواصفات الرسمية المطلوبة وبشكل خاص أماكن الشخصيات الاعتبارية التي تهيمن على الجو العام في إدارة الموقف في الوقت الذي كان فيه أعضاء المجلس البلدي المحلي الديكوريوس décurions وعناصر الجوقة المنشدين repement en choeur ينشدون الهتافات والأناشيد المستخدمة في مدن الإمبراطورية كافة مثل: «الحياة الطويلة والعيش المديد إلى الأباطرة أنطونين وأغسطس، تعيش السيدة جوليا أوغسطا المعظمة حياةً مديدة وبعيش مقر الآلهة».

وبعد ذلك ينطلق الموكب بهيبة وإجلال وبمنهجية دقيقة وحسب الأقدمية أو الأفضلية وذلك حسب الاعتبارات الدقيقة وبجلال واحترام ملزم حسب التقليد القديم حيث يسير الجميع متجهين إلى الفوروم الجديد (الفوروم السيفيري الجديد) الذي بُدئ العمل فيه في زمن سبتيموس سيفيروس وانتهى العمل فيه حديثاً. وقد تم تدشينه من قبل البروقونصل حاكم الولاية العربية نيابةً عن الإمبراطور كراكلا. وفي هذا المكان نجد الرخام المزين ذا البياض البراق المتباين والمتفاوت مع الأعمدة الرخامية ذات اللون البصلي أو الرخام الرمادي متموج الخطوط كالبصلة المعروف بالأخضر والأخضر المصحوب والمستورد من جزيرة أوبيه Eubée في بحر إيجة، أو من جزر اليونان أو بعض مناطق آسية الصغرى، أو من المناطق الداخلية في أفريقية وغيرها.

وفي هذا المكان تجمع الحشد محيطاً في الدكة التي يعتليها تمثال الإمبراطور وتماثيل الآلهة والكثير من المنحوتات التي كان معظمها مجهول الهوية من قبل المدعوين وخاصةً تلك المنحوتات المعروضة والتي تعبر عن كفاح ونضال وصراع الآلهة والعمالقة المعروضين أمام الواجهة بالقرب من الأعمدة ذات الحجر السماقي وذات التيجان المزينة بورق الزينة (على شكل سنابل محزمة بشكل الزهور). ويتقدم الدكة درج تزييني مجمل يقود إلى المعبد الذي تتوسطه المقصورة في الأعلى حيث يصعد الجميع للتبرك والتضرع إلى الإمبراطور أمام الآلهة.

وفي هذا المكان المرتفع من هذه المقصورة يقف كاهن وعراف الآلهة روما وأغسطس وهو يسكب شراب من الماء المخلوط بالزيت ويقدمه إلى الضيوف، وكان يعرف ذلك قديماً عند الشعوب الهللينستية باسم: «إراقة الشراب إكراماً للآلهة الوثنية» وكان قسم منه يسكب على أجسام الثيران وأجسام

الرجال الأقوياء الذين ينشدون الأناشيد المتعلقة في الطقوس المتخصصة وإطلاق الكلام الجوهري والخطابات، ومنهم الشعراء والقاصون والرواة والمغنون.

وبعد ذلك وقف الجميع أمام المنصة من أجل العرض الذي سيجري في مناسبة افتتاح المهرجان واستعراض الفرق العسكرية بجميع أصنافها من فرسان وخيالة ومشاة وحراس حدود وضاربي المنجنيق وفرق الهجانة ورجال الأمن والفرق الرياضية المشاركة. وما هي إلا دقائق قليلة حتى دقت طبول العرض وبدأ الغناء والأهازيج والهتافات والاستعراض المبهج والجميل.

وكما ذكرنا سابقاً فقد تعرف مالك في هذه المناسبة على شخصية عسكرية وهو كينتوس أفيدوس كينتيانوس Quintuas Avidius Quintianus وهو بمرتبة قائد روماني (قائد العشرة) ويشغل منصب Gholasغولاس. وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال والتعب والإرهاق فقد توجه مالك إلى ضيفه قائلاً إن هذا اليوم يوم الفرح والسعادة ويوم الوطن، ولكن بالمقابل إنه يوم التعب، لذلك يجب علينا الاسترخاء من أجل التزود بالنشاط لمتابعة الفعاليات اللاحقة.

وبمناسبة هذا الاحتفال فقد دعي الجميع مساءً لتناول العشاء بما فيهم الضيوف، لذلك غادر الجميع الاحتفال للاستراحة، عند ذلك قال مالك لضيفه هلم بنا لتناول وجبة خفيفة في النادي المجاور مع قليل من الشراب، ولكن علينا ألا نكثر من الطعام استعداداً للوجبة الفاخرة مساءً.

وفي هذا المكان يوجد مطعم فاخر حيث تناولوا فيه وجبة من الدجاج المقلي والطازج وبشكل سريع. ولذلك تذوقوا الدجاج المحمر والطازج مع قطعة خبز من القمح الحوراني وبعض حبات من الزيتون المحلي مع قليل من الخمر المحلي أيضاً والذي كان يعرف في العالم الروماني باسم التاسوس (thasos) ذي المذاق العذب والذي يتميز بجودته العالية، ويعتبر من أجود أنواع خمر الترف لأنه قادم من النبيذ البلدي الأكثر شهرةً وجودةً من بين أنواع الخمور، كما أنه قطف من أجود أنواع العنب في المواسم السابقة وتم عصره ومن ثم تعتيقه بعناية شديدة لأكثر من عام.

بعد ذلك أخذ الرجلان طريقهما مسرورين في تمازجهما وانخراطهما في هذا المجتمع الجماهيري الخليط واتجها نحو الحمامات العامة في المدينة والتي لم تكن بعيدة عن أماكن الاحتفال والعرض والنادي حيث يتوجب عليهما المسير حوالي مئة متر ومن ثم يدخلان إلى الحمامات الكبرى. بدءاً

من غرفة خلع الملابس ومن ثم الحمام البارد المكشوف ومن ثم التدرج في الدخول حسب المقتضى بحيث يكون أول مكان للدخول هو المكان الأخير للخروج بموجب القوانين المرعية.

وهنا وفي البداية توجد الصالة المهيبة المركزية الكبيرة حيث تنتصب الأعمدة ذات اللون البصلي الأخضر والتي يبلغ ارتفاعها تسعة أمتار تعلوها القبة الشاهقة ذات الفسيفساء الأخضر المذهب والذي يبرق ويلمع في الظل. والكل منهمك في الحركة والذهاب والهدوء. ومن الحمام الساخن والجاف لاكانيكوم lacanicum إلى الحمام الساخن والرطب caldarium كالداريوم. وأفضل شيء يمكن أن يقوم فيه المرء في الحمام الساخن lepidarium ليبيداريوم هو المناقشة وتبادل الأحاديث. أما الحمام الفاتر tiéde تييد حيث الجدران المزينة التي تقدم أفضل العروض وتنقل وتقلد أفضل روائع وأعمال الفن العربي والإغريقي والروماني، فتشاهد هنا تمثال مارس إله الحرب يعرض بشكله المنتصب مسلحاً ومجنداً بسلاحه الحربي، وكذلك الإله أبوللون إله الشمس. ومن خلال هذه اللوحات التي تقدم وتعطي حلاوة الإطراء والملاطفة وخاصةً الجماليات المنمنمة والقسمات لأنطونيوس نديم وسمير وشاعر الإمبراطور هادريان.

وقد ذكر مالك لضيفه أن المواطنين جميعاً في المدينة مهتمون في المحافظة على رشاقة أجسامهم ونظافتها، ولهذا كان سكان بصرى يرغبون في قضاء فترة ما بعد الظهيرة في حمامات المدينة العامة والتي تتواجد في قسم منها هنا حيث نشاهد الديكور الأصلي المكسي والقباب المطلية والمزينة بالرسوم وكذلك الركائز المكسية بالرخام على شكل مصفح. وهذا التقليد والثقافة الرياضية في المحافظة على لياقة الأجسام كان يتم الحصول عليه عن طريق ممارسة الرياضة في ميدان الرياضة المجاور والمعروف باسم باليستر palestre أو الاستاد الرياضي حيث يتواجد فيه الرياضيون في معظم أوقاتهم. ولهذا كانت الرياضة مترافقة مع الإحساس والشعور بالانتعاش، وهذا الانتعاش كان يتولد عن طريق الممارسة في الصالات التي كانت تتم فيها المناقشات وكذلك المطالعة وممارسة الثقافة إضافةً إلى ممارسة النشاطات المختلفة.

وبعد الخروج من الحمامات توجب الأمر الانتظار في صالات المناقشات المحاذية للقسم الحقيقي للحمام في المبنى العام حيث يجتمع فيه التجار السوريون

محيطـين في المعبد المخصص إلى ألهتهم في القسم الشرقي من الحمامات، وفي هذا المكان يتواجد أيضاً جميع التجار من أنحاء الإمبراطورية حيث تعم الأصوات الرنانة من جميع لغات القادمين من أصول فينيقية والمزوجة بالإغريقية والمصرية وكذلك اللغات المستعملة من قبل التجار، ولهذا كانوا يتكلمون حتى اللغة اللاتينية مع لهجة ذات نبرات قوية. وهذه النبرات واللهجات نجدها على كامل أراضي الإمبراطورية والتي انطلقت من فوق أراضيها لترن في جميع أنحاء مدينة بصرى التي حوت جميع لغات الشعوب الإغريقية – اللاتينية – الفارسية – واللهجات العربية من: آرامية – نبطية – صفائية – إيدومية – عبرية – ثمودية – لحيانية – لهجات مصرية – ..إلخ)

وفي هذا الوقت وقف مدير التشريفات في المدينة قائلاً: أيها الجماهير، أيها الضيوف الكرام، إن هذا اليوم هو اليوم المخصص للاحتفال على شرف عيد ميلاد الإمبراطور وبداية مهرجان الألعاب الأولمبية على شرف الإله النبطي دوساريس في مدينة بصرى عاصمة الولاية لذلك ندعوكم إلى حضور الحفل الفني الساهر في مبنى المسرح بعد حفل العشاء.

عند ذلك قال مالك لضيفه لدينا الوقت للقيام في جولة ضمن المناطق الجميلة في المدينة نتجول فيها حتى موعد حفل العشاء. لذلك أخذوا طريقهم مباشرةً نحو الحي الشرقي من المدينة مستعرضين الشارع الرئيس (الدوكومانوس) والذي ينتهي عند المدخل الجميل والرائع للمعبد الرئيس لآلهة الأنباط الثلاثة اللات والعزى وذي الشرى، وهم الآلهة العظام والمقدسون ليس في مدينة بصرى ومدن الأنباط وإنما عند القبائل النبطية كافة.

إلا أن اللات قد كان الإله الرئيس لمدينة بصرى وهذا ما قاله مالك لضيفه، عند ذلك تذكر الضيف الكتابات النبطية التي كان يقرأها عن هذا الإله أثناء جولاته العسكرية التي وصلت به إلى المدن الجنوبية والواقعة على شاطئ البحر الأحمر الشرقي مثل مدينة الحجر ومدائن صالح وكذلك مدينة البتراء، وقد قال الضابط كينتوس أفيدوس كينتيانوس لصديقه مالك صدقت في ذلك فقد قرأت الكثير من النصوص المنقوشة على جدران المعابد في تلك المدن، ومنها على سبيل المثال لا الحصر النص المنقوش فوق معبد السيق في مدينة البتراء ونصه: كرس بناء هذا المعبد على شرف الإله اللات سيد العرب وإله سيدنا المقيم في بصرى.

وأثناء المسير كان يلقي السيد كينتوس

أفيدوسـس كينتيانوس نظرات غزل وإعجاب وملاطفة على بعض الفتيات والنسـاء على قارعتي الشـارع ؛ تلـك الفتيات الجذابات والمغريـات وذوات التسريحـات الجميلـة للشعر بعد أن سرحن شعورهن بمهارة فائقة، بالإضـافة إلى الحلق والأقـراط التي تزين الآذان وجوانـب العنق مـع الحلي المتموجة والطويلـة والمحيطة في الوجوه، وكانت هذه عبارة عن إكساءات جميلة تظهرهن بمظهر جميل حيـث الحلق المتمـوج الطويل الذي يحيـط في وجوههـن الفاتنة وهـن يطلقن الغمزات والنظـرات الغرامية على الرجال الذين يتلاقون معهن في هذه الأماكن أو عند الينابيع وخزانات المياه والسبل الموجودة في شـوارع المدينة، وقد قال مالك لضـيفه لا تذهب بعيداً من خلال هذه الملاطفة فليست سوى أسلوب من أساليب البشاشة والدماثة والشـفافية وحسـن الأخـلاق والترحـاب بالضيوف.

وقد عرضـت هـذه الحسـناوات على الأرصفة وأمام المحال التجارية الجرار التي تحمل أختام وبصـمات عملهـن وإنتاجهن والتي تميزت بالخفة والرشاقة والمتانة، وقد كانت هذه ميزة الفخار الحوراني المصـنوع مـن التربة البازلتية التـي ميزت في الوقت نفسـه الفخـار النبطي عن باقي أصـناف الفخار في العالم وعبر التاريخ. وقد صـفت هذه الجرار بانتظار شحنها إلى مدن شاطئ البحر الأبيض المتوسـط الشرقي مثل حيفا ويافا وصـيدا وصـور لتنقـل بدورها إلى مدن الشـواطئ الشـمالية من نفس البحر وخاصـة مدينة أوسـتيا ثم إلى مدينة روما والمدن الرومانية الأخرى في القسـم الغربي من الإمبراطورية الرومانية بوساطة السفن الفينيقيـة التجارية وخاصـةً تلك السـفن المتجهة إلى مدينة أوستيا ميناء مدينة روما الرئيس أو إلى مدن شـمال أفريقية وآسية الصغرى.

وقالـت إحداهن وهي تتكلـم ملاطفةً الزبائـن بانشـراح وابتسـامة: «إن جراري هذه جـرار الزيت تدهش وتعجب الذواقين في الطعـام والفنانين في صـناعة وزخرفة الفخار»، وقد قالت ذلـك مفتخرة افتخاراً ملحوظاً بطريقة إتقانها في عصر وتحضير زيت الزيتون المحلي.

وفي موقـع مجاور قالت أخـرى: «لدينا الكثـير مـن الصـناعات المحلية كمـا أن صناعاتنا الحرفية في بصرى من مصنوعات صوفية ونسـيجية وجلدية تعجب الأباطرة التـي تنقل إليهم من هذه المدينة، ثم صـاح حرفيٌّ ثالث قائلاً: «لا تنسـى الصـناعات المعدنية والنحاسـية والفضية والمجوهرات

الذهبية التي جملت الأميرات ونساء الولاة والأباطرة وكبار رجال الجيش، وعلت الأصوات من قبل الجميع منشدين الزبائن: هيا بسرعة قبل أن تشحن هذه البضاعة إلى العاصمة، هيا أسرعوا واشتروها بالأثمان المناسبة قبل بيعها إلى الخارج بالثمن الغالي والنفيس».

عند ذلك تفاعل مالك مع الحدث وقال: «لم تشحن هذه المنتجات مطلقاً نحو العاصمة في هذه الآونة، كما أن الشحن إليها لم يكن بالشيء السهل، فلدينا الكثير من الضيوف القادمين إلى المدينة لشراء هذه المنتجات» إلا أنه توجه إلى ضيفه قائلاً بصوت منخفض «منذ أن انتقل الوالي السابق وحل الوالي العسكري الجديد قلت هيبة التجار وخفّت صادراتهم وصلاحياتهم حيث أصبحت هذه السلطات والصلاحيات تتبع إلى السلطة الإمبراطورية مباشرةً، كما أن جميع الجرار والمنتجات التي تصدر إلى مدينة أوستيا أصبحت تحت مراقبة رجال المال والضرائب.

بعد ذلك توجه الشخصان إلى المعبد النبطي وعند الوصول وقف الاثنان موقف المتعجب والمدهوش من عظمة هذا البناء الضخم وهذه البوابة الشاهقة، وقال الضابط كينتوس أفيدوس كينتيانوس أليست هذه البوابة التي تعتليها الجبهة المثلثة الهللينستية هي تقليدٌ إغريقي، فضحك مالك مدهوشاً وأجاب: «على العكس تماماً يا صديقي فهذا القوس الذي تشاهده هنا وفي كل الأبنية المشادة في مدينة بصرى ومدن المنطقة ما هو سوى ابتكار محلي وتم تقليده في جميع المدن السورية ثم نقل إلى العالم بعد مئات السنين وبعد أن أصبح منهجاً عمرانياً عالمياً».

ثم أخذ مالك يشرح لضيفه المناهج العمرانية المطبقة في الأبنية فوصف له مبيناً أن الفروق العمرانية بين الأبنية في جنوب سورية وباقي مدن العالم هو عدم توافر الأخشاب، لذلك ابتكر أبناء المنطقة نظام الأقواس والقباب وحلوا مشكلة الفاقة والعوز للأخشاب. وهكذا أصبحت هذه حرفة محلية نقلها العرب إلى الإغريق ومن ثم إلى الرومان وذهب المهندسون السوريون ليطبقوا ذلك في جميع الأبنية التي تمت إشادتها في عهد الإمبراطور تراجان بعد أن حول مدينة بصرى إلى عاصمة للولاية العربية الرومانية ومنها شرف تسميتها على اسمه بصرى تريانا الجديدة.

وقد استفاض كلاهما في الأحاديث والتعبد في أقسام المعبد، ثم قال مالك لضيفه هلم بنا لنأخذ أماكننا على مأدبة

العشـاء الفاخـرة التي أقامهـا الوالي على شرف الضـيوف في هذه المناسبة، وانطلقا إلى قصـر الوالي حيـث أخـذ الجميع في التوافد على القصر، وما هي إلا دقائق حتى جلس الجميع وباشروا في تناول الطعام وهم يتبادلون الأحاديث وإظهار تعابير الإعجاب والدهشـة مما شـاهدوه في مدينة بصرى من أبنية شاهقة وعظيمة أثناء تجوالهم في المدينة.

وقد حـوت المأدبـة ما لـذ وطاب من الأطعمة الشهية، ولم تكن مأدبة واحدة وإنما حوت العديد من المآدب حيث جلس الجميع على شـكل حلقات فوق السـجاد الصوفي المجمل باللوحات والرسـومات المأخوذة من الواقع المحلي والممـزوج مع التقليد العربي المتبع في بلاد النهرين وبلاد فارس وآسـية الصـغرى وبلاد النيل، وكل حلقة ذات قطر اثنان ونصف من الأمتار ويجلس محيطاً بها عشرة أشـخاص يتجمعون حسـب رغباتهم ومعارفهم وأعمارهم ومسـتوياتهم وغيرها مـن الاعتبـارات التقليدية التـي تراعيها المجتمعات العربية الأصيلة.

وقد فرشـت السُفر على شـكل موائد مسـتديرة تحيط بها شخصـياتٌ مرموقة من جميـع الجهات، وهذا المشـهد بالطبع يظهر الطبيعة المحلية كشـاهد حي للتقليد المتبع في سـورية والمنطقة الجنوبية بالذات لموائد الطعام الجماعية وخاصـة في حالة استضـاف أصـحاب البيوت ضـيوفهم في مناسـبات الزواج أو أي مناسبة أخرى، كما تدل أيضـاً على نوعيـة المأكولات التي كان يتناولها الضـيوف في مثل هذه المناسـبات الجماعية والخاصة ومن المنتجات المحلية.

وأكـثر مـا أدهشـ كينتوسـ أفيدوس كينتيانوس في هذا المجلس أحواض البحيرات التـي يتطاير منها رذاذ الميـاه المتطاير من النوافير واللوحات الفسيفسـائية الأرضية ذات الاسـتيحاءات الميثولوجيـة واللوحات الجدارية ذات المسارات المزخرفة بزخارف موروثة والإطارات ذات الأحجار الكريمة أو المرصـعة بالجواهر أو الإطارات التزيينية والمجملة بضفائر مزدوجة تحدد في داخلها لوحات صغيرة على شكل مستطيلات مزينة أحيانـاً بتزيينـات ذات بواعث هندسـية، وأحياناً ذات بواعث نباتية تتوسـطها ثمار بارزة بمظهر لائق وجميل وأنيق. وزاد الجو جمالاً وهيبةً مظهر القصر الفخم والحدائق المحيطة به والأزهـار التي تملأ الجو عبقاً بروائح عطرة وكل ذلك جاء بإخراج منسجم ومتتابع ومترابط بمظهر متقن ينسـجم مع مكانة المدينة.

وبالطبـع فقد زاد الجـو رونقاً وجمالاً

الشخصيات المدعوة والتي جلست محيطةً بالمائدة، وهنا تبرز شخصية كل واحدٍ من خلال الاهتمام بلباسه ومظهره العام وكل واحدٍ على حدة، ومن ثم المظهر العام للجميع بحيث يكون الشكل العام منسجماً مع المناسبة، ومن هنا نجد أن جميع المدعوين بما فيهم من يستضيفهم رئيس الولاية ظهروا بمظهر الغنى والترف وبمستوى حياة الطبقة البرجوازية المترفة، وهذا بالطبع ظهر من خلال الألبسة وهيئة الجلوس ومظهر الجسم العام الممتلئ والوجوه الممتلئة والمشرقة وكلٌ يتغزل ويداعب الآخر بكلمات المداعبة اللطيفة.

وما هي إلا هنيهات قليلة وقد أُحضرت أنواع المأكولات المتنوعة والمشروبات اللذيذة وملحقاتها والتي توضع على السفرة وتقدم للمدعوين، عند ذلك ضج الجو بالتصفيق الحاد من قبل الجميع والهتاف بحياة الآلهة وحياة الأباطرة والعيش المديد للإمبراطور كراكلا وأمه السيدة جوليا دومنا، وقد أظهر هذا الموقف الشعور والإحساس بالغنى الوفير والرخاء الذي كان يعيشه سكان بصرى والمستوى الاجتماعي للمجتمع الذي ينتمي إليه مواطنو المدينة.

وهنا بطل الكلام وجاء دور الطعام في المأكولات الشهية وتنوعها من لحوم وخضراوات وفواكه وحلويات ومشروبات وأنواع الأوعية والأقداح وغيرها. ووضعت أمام الجميع أنواع اللحوم التي وضعت فوق سفرة الوالي وكبار المدعوين وهي لحوم لحيوانات البط والدجاج والحمام الأهلي والحمام القمري والجدي وأنواع مختلفة من الطيور والخراف الصغيرة. وكذلك الخضراوات المتعددة وسلال الفواكه المليئة بأنواع مختلفة ومن إنتاج محلي صرف.

وبعد الانتهاء من الطعام انتقل الضيوف إلى الصالات الكبرى والتي تعرف باسم التريكلينيوم أو الصالات ذات الأجنحة الثلاثية أو التريكلينيانوسن، وفي هذه الصالات جلس الجميع لشرب نخب الإله ذي الشرى قبل الذهاب إلى المسرح لمشاهدة أولى العروض في المهرجان. وقد دهش الجميع أثناء الجلوس في هذه الصالات التي جهد الفنانون وأبدعوا في تغطية أرضياتها باللوحات الفسيفسائية الرائعة المستديرة والكروية وذات الأقطار المتسعة، وملئ الفراغات بينها رصّعت بلوحات تتعلق في مواضيع مرتبطة بنفس المواضيع الداخلية.

وهنا بدت حفلة العشاء بنضارة ممتعة وطراوة نادرة عبرت عن التقليد السوري أثناء حفلات السمر وما يتبعها والتي عاشها الجميع على شرف الإله ذي الشرى (ديونيسوس

- دوساريس)، وقد جلس الجميع بعد أن بدت عليهم حالة البسط والسعادة التي كانت تكتنفهم في تلك اللحظة، ولم يغب عن المشهد حضور الخدم والعبيد وهم في حركة مستمرة ودائمة وبرشاقة من أجل خدمة الضيوف وحسب الطريقة المعتادة، كما ظهرت الحسناوات ذوات الشعر الطويل والعمائم المتموجة واللواتي كن يتجولن بين الجميع ويبادلن الضيوف بالغمازات وبيباض العيون وسواد الجفون والعبارات الجذابة وهن يلبسن العمائم المتموجة واللباس الأنيق والتحلي بالمجوهرات الفنية والبراقة مثل الأساور والأقراط وخلاخيل الأرجل وغيرها.

وكم كانت إثارتهن فائقة وهن يقدمن أقداح الخمر إلى المدعوين اقتداء بالإلهة أريان نديمة الإله ذي الشرى (ديونيسوس أو دوساريس) وقد قُدمت الخمور بأقداح فضية وزجاجية وذهبية فاخرة. وفي هذه اللحظة تعانقت أقداح كل من مالك عبيد اللات وضيفه كينتوس أفيدوس كينتيانوس قائلاً كلٌّ منهما للآخر بصحتك وصحة الصداقة الأبدية وصحة دوساريس ودوام عز بصرى وأهلها، ثم تكرر الأمر لدى جميع الضيوف ونهضوا بعد أن طلب منهم الوالي التوجه إلى المسرح حيث خرجوا على شكل موكب بهيج وهم ينشدون ويصفقون.

وأثناء المسير في الطريق إلى المسرح غير البعيد عن القصر سوى بضع مئات من الأمتار أخذ مالك يتكلم مع ضيفه عن المسرح والعروض التي تقدم على الخشبة ثم أخذ يصف له البناء من الناحية العمرانية والجمالية والسعة وطريق الجلوس في داخله وترابطه مع المنهج التنظيمي للمدينة والأبنية المجاورة له مثل المسرح الدائري (الأنفتياتر) وميدان الفروسية (الهيبودروم) ومركز ألعاب القوى الجيمناز، والتي سوف تقام فيها جميع العروض أثناء المهرجان.

ولم يمض من الوقت إلا دقائق قليلة حتى تواجد الجميع أمام الردهة اليسرى من الجهة الشرقية من منصة المسرح حيث يتوقف الجميع من أجل معرفة كل واحد مكانه في الجلوس والمعبر المستوجب العبور من خلاله إلى أماكن المتفرجين، بينما كان يعج المكان الخارجي ويضج بالغناء والأهازيج حيث يحضر المتفرجون زرافات ووحدانا ويكثر الهرج والمرج وينتشر في هذا المكان باعة العطور ومقدمو الشراب بينما يحيط بالجميع عناصر ضبط النظام في المسرح.

وما إن دخل الصديقان وأخذا مكانيهما في الطبقة الأولى حتى أخذ مالك يسترسل

في الحديث عن هذا البناء العظيم قائلاً: «أنظر إلى هذا البناء، إنه لوحة فنان مبدع تمازجت مع مخطط متقن لمهندس بارع وبنّاء محترف، أنظر إلى أماكن المتفرجين (الكافيئا) بأقسامها الثلاثة الأسفل والأوسط والأعلى ويتوجها الرواق العلوي فهي وبحق السماء آية من آيات الجمال، ويضفي عليها ويزيدها رونقاً وجمالاً انسجام الجدران الحاضنة وواجهة المنصة، وقد بدا البناء وكأنه جزء لا يتجزأ، وجعلت منه أيضاً كتلة إبداع معماري لتناغم جمالي متكامل ومتناغم» فقال له كينتوس أفيدوس كينتيانوس حقاً إنها سيمفونية ذات رؤية جمالية تريح النظر وتبعث في النفس سحر الجمال. ولكن كيف تتم عملية التنظيم بهذه الدقة الرائعة داخل المسرح.

فقال له مالك: «لقد اعتاد الناس هنا على معرفة كل واحد مكانه في الجلوس وحسب الطبقة الاجتماعية ومساهمته في البناء، ففي قسم يجلس كبار المدعوين وكبار القادة العسكريين ثم يليهم أعضاء المجالس المختلفة وهكذا إلى أن يمتلئ المسرح بالواقفين على أقدامهم في الرواق العلوي وهم طبقة الخدم والعبيد والذين يكون دورهم الهتاف الدائم بحياة الآلهة والإمبراطور. أما الوالي وضيوفه الكبار من العاصمة والولايات الأخرى وعائلاتهم فيجلسون في الألواج الجانبية التي تحتضن المنصة على شكل حجرات محكمة تفتح من الأمام لتشرف على المنصة.

وبدأ المهرجان بالخطباء والشعراء من المدينة ومن المدن الأخرى، بعد ذلك تم عرض مسرحية هزلية تحكي قصة مسلية أثارت إعجاب الجميع، ثم قصة تراجيدية أثارت شجون وأحزان المشاهدين، وفي النهاية خرج قارعو الطبول والدفوف والمنشدون فوق خشبة المسرح وبدؤوا في الإنشاد والغناء، وفي تلك الأثناء امتلأت ساحة الأوركسترا بالراقصين والراقصات حيث قدمت عروض جميلة اشتركت فيها جميع الفرق المشاركة في العرض.

وفي النهاية وبالطريقة نفسها التي دخل فيها الجميع إلى المسرح خرجوا في جو مفعم بالنشوة والإعجاب ليتناولوا المرطبات وشراب الخمر في الردهات الخارجية، وفي هذه اللحظات يتم التنسيق بين الصديقين للتلاقي في اليوم الثاني من أجل مشاهدة العروض التي سوف تجري في ميدان الفروسية (الهيبودروم) وفي حوض ألعاب المياه (النوماشيا) نهاراً ثم تعانق الصديقان وكلٌ ذهب إلى مقر إقامته بعد قضاء يوم ممتع وصاخب ومليء بالفعاليات المتنوعة.

وفي اليوم التالي التقى الصديقان عند تقاطع سبل المياه حيث تناولا وجبة الإفطار ومن ثم ذهبا إلى ميدان الفروسية الواقع في أقصى المنطقة الجنوبية من بصرى وخارج الأسوار الدفاعية والمحاذي إلى الطريق العام الدولي والذي يقود فرع منه إلى مدينة العقبة والجزيرة العربية، والفرع الآخر إلى مصر وشمال أفريقية، فقال كينتوس أفيدوس كينتيانوس إلى صديقه مالك: «أعرف هذا الطريق جيداً فقد تم تنفيذه في عهد الإمبراطور تراجان، ولذلك أطلق عليه اسم الامبراطور (فيا تريانا) طريق تراجان الدولي، ولدينا مراكز مراقبة لهذا الطريق حيث أقوم بين فترة وأخرى في الذهاب إليها لتفقد أحوال العساكر المخصصين في السهر على أمن المسافرين، كما أن هذا الطريق في نظرنا هو الطريق العسكري السريع للفرق العسكرية.

وقد أخذهما الحديث وطالت المسافة فوجدا نفسيهما عند بوابة الميدان الكبير والذي تبلغ مساحته خمساً وأربعين ألف متر مربع وبطول نصف كيلو متر وعرض مئة متر تقريباً، وقد أخذ امتداداً محورياً يوازي امتداد شارع المسرح. وأخذ مالك يشرح لضيفه بأن ميدان الفروسية في بصرى يعتبر من أكبر الأماكن الضخمة في المدينة ، ويأتي في المركز الثاني بعد المعسكر من حيث الاتساع، وقد خصص هذا الميدان لممارسة رياضة الفروسية وإقامة المباريات فيه بين الفرسان بما فيها مسابقات الخيل والفروسية وعربات الجري وسباق الهجن أيضاً، ولهذا فقد بني حوله من الشرق والغرب مدرجات تتسع لما يقارب ٣٠ ألف متفرج، ونظراً لكثرة الخيول والحيوانات التي تشارك في هذه المسابقات فقد بنيت الإسطبلات مجاورة للجدار الغربي بحيث تشمل أماكن استراحة الخيول ومستودعات العلف وأماكن إقامة العاملين على خدمته.

وقد تطلب ذلك بناء جدران سميكة بحيث تبلغ سماكتها حوالي الثلاثة أمتار بنيت على شكل جدران مستقيمة من الشمال والجنوب وبقواعد وركائز ضخمة من أجل بناء مدرجات المتفرجين فوقها ، ولهذا تم اتباع المنهج المعماري نفسه الذي اتبع في بناء المسرح حيث جاءت المدرجات على شكل متدرج وترتكز من الأسفل على أقواس متعاقبة ، وتم استغلال الفراغات الحاصلة في الأسفل من أجل بناء حجرات ذات استخدامات متعددة جميعها انحصرت في الخدمات الدائمة للميدان وعلى مدار العام.

وأضاف مالك قائلاً يبلغ استيعاب

الميدان حوالي ٣٠ ألف متفرج يحضرون من كل مدن وقرى الولاية والمناطق الأخرى من مدن الإمبراطورية، إضافة إلى الفرق المشاركة في المهرجان، وهذا العدد ليس بالقليل على مدينة مثل بصرى التي حوت عدداً من المسارح والحمامات الكبرى ومركز عاصمة لمنطقة مترامية الأطراف من شمال الجزيرة العربية حتى منطقة دمشق.

وقد بنيت في الميدان أبراج للمراقبة حيث يجلس بها المحكمون الذين يراقبون الفرسان أثناء المباريات، وكان هؤلاء يدخلون على شكل جماعات وبمواكب من المدخل الجنوبي ثم يطوفون أمام جمهور المشاهدين قبل البدء بالسباق حيث تجري عروض الفروسية المختلفة وسط الميدان، وبعد ذلك يتأهب الفرسان للسباق الذي يجري حول مسار يعرف باسم السبينة يبلغ عرضه ستة أمتار وبطول إجمالي ألف متر وبهذا يكون طول كل جولة كيلو متر واحد.

ودائماً يتوافق موسم مباريات الفروسية ويتزامن مع المهرجانات التي تقام في المدينة على شرف الإله ذي الشرى حيث تدعى الفرق من مناطق مختلفة بعد أن تكون قد مرت بمباريات تصفية وتتجول في المدينة وتقضي وقتاً في الحمامات ثم تقوم في عروض داخل المدينة مروراً بالشوارع الرئيسة ثم الذهاب إلى ميدان الفروسية، ومساءً تقام الاحتفالات والعروض المسرحية وليالي الطرب في المسارح، وتعيش المدينة أياماً حقيقية من البهجة والسرور، وفي الختام توزع الهدايا والجوائز على الفائزين بجميع العروض التي تعرض في المدينة.

وبسبب كثرة المشاركين وتعدد العروض والمسابقات لم يستطع الصديقان مشاهدة جميع العروض، وعند ذلك دعا مالك صديقه لتناول وجبة غداء ثم الذهاب إلى مسابقة السباحة والألعاب المائية في حوض النوماشيا، وأثناء تناول الطعام أخذ مالك يشرح لصديقه بأن موقع مدينة بصرى الداخلي وبعدها عن البحر وحرمانها من مجرى نهر دائم جعل سكانها يبحثون عن حل يمكنهم من خلاله ممارسة رياضة الألعاب المائية وإقامة مباريات كبرى يحضرها عدد غفير من المشاهدين، وقد ساعدهم على ذلك وجود المكان المنخفض المجاور إلى السور الغربي والمتسع مع وجود نبع ماء طبيعي تتدفق مياهه على مدار العام.

ويقع هذا المكان محاذياً لأقدم موقع لبناء مدينة بصرى من الجهة الجنوبية، حيث يشكل منخفضاً طبيعياً يبلغ امتداده الطولي شرق/ غرب أكثر من مئتي متر وعرض يتجاوز المئة متر أيضاً وبعمق يتجاوز الـ ١٠

أمتار، بينما يقع النبع مجاوراً إلى منتصف الضلع الشمالي. أما نهايته الشرقية فهي على شكل دائري والطرف الغربي مفتوح إلى الجهة الغربية بشكل طبيعي ويمكن أن يستوعب هذا المكان أكثر من مئة ألف متر مكعب من المياه الصافية والنظيفة.

وعند تهيئة المكان تم إغلاق هذه الجهة بجدار أصبح جزءاً من بناء سور المدينة، أما باقي الجهات فقد نظمت على شكل مقاعد حجرية لجلوس المتفرجين كما هو الحال في مقاعد المسارح. وبهذا يكون هذا الموقع جزءاً من تزويد المدينة بكل مستلزمات الرفاهية وأماكن الرياضة والتسلية والنظافة مثل الحمامات والمسارح وميدان الفروسية ومكان ألعاب القوى (الجمناز) وأماكن السباحة والألعاب المائية. وهي بذلك لا تختلف عن مدينة روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية التي ملكت من هذا الصنف من أحواض الألعاب المائية اثنان أحدهما باسم سيزار أو القيصر والآخر باسم اغسطس، ولذلك أمر الإمبراطور تراجان أن يقام في مدينة بصرى حوض على غرار ما تم تنفيذه في عاصمة الإمبراطورية روما.

وبعد الانتهاء من مشاهدة العروض وحلول المساء اتفق الصديقان أن تكون لكل واحدٍ منهما الحرية في الذهاب إلى أي مكان ومشاهدة العروض التي تستهويه في المسرح أو المسرح الدائري أو قاعة الطرب أو السهر في المنتديات العامة، وفي النهاية اتفق كلاهما في التواجد في اليوم التالي لمشاهدة العروض التي سوف تقام في مركز ألعاب القوى نهاراً والعروض التي سوف تقام في المسرح الدائري ليلاً، لأن كينتوس أفيدوس كينتيانوس كان مضطراً للعودة إلى المعسكر ومن ثم السفر لمتابعة مهامه الوظيفية المدرجة حسب المهمة الموكلة إليه.

وفي اليوم التالي ذهب الصديقان إلى مركز ألعاب القوى حيث كان معظم المشاركين والمشاهدين من الشباب بما فيهم أفراد من العساكر التابعين إلى معسكر المدينة والكتائب الموجودة في العديد من المراكز وقد تعرف كينتوس على العديد منهم من خلال عمله، لذلك قام في تعريف هؤلاء على صديقه مالك، عندئذ ذهب الجميع إلى المنتدى والنادي العسكري في المدينة حيث تناول الجميع وجبة الغذاء التي كانت عبارة عن دعوى من قبل كينتوس أفيدوس كينتيانوس. وقد مكث الجميع في المكان حتى المساء حيث حان الذهاب إلى المسرح الدائري.

والمسرح الدائري أو الأنفتياتر هو عبارة عن حلبة للمصارعة حيث يتواجد المصارعون

العمالقة القلادياتور gladiateurs ولاعبو القوى الذين سوف يقومون بإجراء ألعاب قتالية فريدة من نوعها وهي: الالتحام والمواجهة، ويتصارعون ويقاتلون الحيوانات، ويصارعون المتوحشين المتواجدين في الحلبة من أجل venation الفيناتو (وهو نوع من أنواع ألعاب القوى والمطاردة) وهذا العرض يعتبر عرضاً استثنائياً كما تم الإعلان عن ذلك بهذه المناسبة الاستثنائية.

وبما أن المسرح الدائري (الأنفتياتر) يبتعد عن مركز المدينة بمسافة غير بعيدة لهذا لم يتطلب الأمر قضاء الوقت الطويل للذهاب إلى المكان خاصةً وأن العروض سوف تبدأ بعد غروب الشمس ولهذا الأمر فقد تمت الاستفادة من قضاء الوقت في النهار لزيارة المعابد والقصور وأقواس النصر والتجوال في الأسواق وشراء الهدايا حيث سيكون هذا اليوم هو اليوم الأخير من الفعاليات التي أدرجت لدى كلا الصديقين حيث يتوجب على الضيف متابعة مهامه الوظيفية، أما مالك فبحكم عمله فكان ملزماً في متابعة الفعاليات حتى نهاية المهرجان.

كما تخللت الزيارات أثناء النهار الفيلات والقصور الجميلة جداً والتي تقع في ضواحي المدينة وخاصة الضاحية الجنوبية القريبة إلى الأنفتياتر، وأخيراً ومع غروب الشمس تم الدخول إلى المسرح الدائري (أنفتياتر) وهناك دخلوا إلى الأروقة حيث وجدوا أنفسهم داخل الأروقة المسقوفة والمغطاة بالكتابات المكرسة على شرف الإلهة Némésis نيميسيس إلهة الانتقام والثأر والعقاب. عند ذلك تقدم الوقت وأصبح متأخراً ومن ثم خيم الظلام على المقاعد وأصبح في تمام الهدوء والسكون. وبالقرب من مكان تواجد المشاركين وقف الصديقان لإلقاء نظرة على الأبطال والمصارعين المسلحين بالكرابيج الطويلة والطرية والأدوات المشعبة وسيوف المجابهة ومواجهة النمور والدببة وكذلك الزرافات والنعامات أيضاً. وأخذوا يتساءلون مع الجمهور بإلحاح عن المتصارعين وعن مواطنهم وأسمائهم وألقابهم، ثم استدلوا على أن بعضهم من الأبطال المشهورين والمعروفين على مستوىً كبير، وكما أن للحيوانات أسماء أيضاً.

ومن ثم تعاقبت المباريات والمصارعات تكملةً لما كان يعرض على مسار النهار أيضاً، وفي هذا المساء سوف تتم عملية تنفيذ الإعدام بالمتهمين حيث يتم تقديمهم إلى الحيوانات المتوحشة. وهؤلاء هم في هذه المرة جماعة من الألمان الشقر الذين كان الإمبراطور كراكلا قد أسرهم أثناء حروبه

العسكرية في منطقة الدانوب والمناطق المختلفة من الإمبراطورية.

وقد انتهت كل التدابير وأعطيت إشارة بدء العروض. وفي النهاية كان الجمهور مرتاحاً جداً وراضياً عن ذلك. وقبل أن يودع كل شخص الآخر تذكر مالك فجأةً كتابه قيد الإنشاء وقال لصديقة: «عندما تعود في المرة القادمة سوف يكون كتابي جاهزاً وسوف أهديك نسخةً منه»، فقال له كينتوس أفيدوس كينتيانوس وما اسم الكتاب فقال له مالك سيكون الكتاب تحت اسم: «روما تحبك يا بصرى».

الهوامش

١- من الطبيعي والمؤكد أننا سررنا كثيراً عند سماعنا أن دولة قطر الشقيقة قد فازت بعد نجاحها في الاختيار لتكون المنطقة العربية والشرق أوسطية في الألعاب الأولمبية لدورة عام ٢٠٢٢م، وبهذه المناسبة ننتهز الفرصة لنهنئ أنفسنا بدايةً ومن ثم نهنئ إخواننا في دولة قطر والشعب العربي. وإن كان هذا السبب والمبرر مباشر أو غير مباشر في كتابة هذا المقال، إلا أننا نذكر العالم أن هذا الأمر لم يكن الجديد في المنطقة. وكما نُذكّر أيضاً أن منطقتنا كانت هي السابقة في هذا المجال ومنها انطلقت وانتشرت مثل هذه الفعاليات إلى مدن العالم القديم، ولذلك نشكر ثانياً منظمة الرياضة العالمية لتفعيلها هذا الأمر من جديد.

٢- الميتروبولس – أمهات المدن الكبرى وعواصمها في العالم.

٣- على اعتبار أن الفرسخ كان وحدة القياس المستخدمة في تلك الفترة.

٤- وقد كان كراكلا الابن البكر للإمبراطور العربي سيبتيموس سيفيروس حيث تربع على عرش الإمبراطورية بعد والده وأصبح الإمبراطور الرابع في الأسرة السيفيرية والثاني والعشرين في الإمبراطورية الرومانية

Severes Dynasty	Dynastie des Severes		د- العائلة السيفيرية
Pertinax	Pertinax	193	19 - 1 - بير تيناكس
Julien I	Julien I	193	20 - 2 - جوليان الأول
Septimus severius I	Septime severe I	211-193	21 - 3 - سيبتيموس سيفيريوس
Caracalla	Caracalla	217-211	22 - 4 - كراكلا
Macrin	Macrin	218-217	23 - 5 - ماكرين
Heliogabale	Heliogabale	222-218	24 - 6 - هيليو جبل
Alexandre severe II	Alexandre severe II	235-222	25 - 7 - الكسندر سيفير الثاني

الدراسات والبحوث

عالم الألوان لدى الطبيعة والإنسان

د. عمر الدقاق ©

الألوان عالم ثري بعيد الغور. وهو قاسم مشترك بين مجمل العلوم والفنون. إنه وثيق الصلة بمختلف أوجه الحياة وشؤون العيش، واغل في شتى المعارف والعلوم مثل علم الفيزياء والضوء في مجال البصريات. وأيضاً الكيمياء من حيث تخالط الألوان وتوالدها.. وكذلك شأنها في علم الرياضيات، من حيث ضبط نسبها ومدى تقاربها وتباعدها... كما تتبدى علاقة الألوان في مجال علم السكان (الأنثروبولوجيا) وتلون أديم الأرض وجلود الأقوام والشعوب.

© أستاذ في جامعة حلب، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ونلمس ذلك أيضاً في رحاب علم الاجتماع من حيث صلة الألوان بالعادات والتقاليد والأزياء... وكذلك حال الألوان في مجال العقائد والأديان من حيث رموزها ودلالاتها وقداستها. ولعالم الألوان حضور جلي في

علم النفس (بسكولوجيا)، والتحليل النفسي (بسيكاناليز) حول تفسير الأحلام والأمراض النفسية ونحو ذلك... وعالم الألوان ملتحم بالتاريخ، وشؤون الحكم والسياسة، ومنزلة كل لون. كما أن الألوان وثيقة الصلة بعلم اللغة وفقه اللغة من حيث دلالات الأصوات والألفاظ والمعاني ولاسيما ما يتضمنه فن الشعر من حيث رمزية التعبير وفضاءات الرؤى والأخيلة... وتتبدى هذه العلاقة على نحو أجلى في فن الرسم والتصوير والفن التشكيلي ومن ثم في مختلف الصناعات والحرف وسائر مجالات التكنولوجيا.

(أ)

اللون والضوء عنصران متلازمان متداخلان، فلا لون من غير ضوء ولا ضوء من دون لون. ويشكل تلاحمهما ظاهرة فيزيائية تتجلى في الطبيعة والكون. والعالم (نيوتن) أول من درس هذه الظاهرة مخبريا حين حلل ضوء الشمس وأرجعه من خلال موشور زجاجي إلى عناصر سبعة مختلفة الألوان تسمى ألوان الطيف. وقوامها سبع موجات ضوئية متفاوتة الطول أطولها اللون الأحمر وأقصرها اللون البنفسجي. وما هذه التجربة الواقعية سوى مرآة مصغرة لقوس قزح الذي يتبدى للعين في رحاب الطبيعة في تدرج معجب: الأحمر- البرتقالي- الأصفر- الأخضر- الأزرق- الكحلي- البنفسجي، فضلاً عن البياض أصل النور وجماع الألوان كلها.

وهكذا منذ أن خلق الكون، ودار الفلك، وكان الوجود... كانت أيضا الألوان. وكما تميزت الكائنات في الدنيا بماهيتها وهيئتها، وبشكلها وحجمها، تميزت أيضا بلونها. وهكذا اتسم التراب بالحمرة، والسماء بالزرقة والحقول بالخضرة...

والطبيعة أغزر منبع للألوان، سواء في عناصرها الجامدة أو كائناتها الحية وثمة ألوان كثيرة في الصخور والحجارة والأتربة والرمال، وأكثر منها في النباتات والأشجار والثمار والأزهار. وقد تبلغ الألوان أعدادا غير متناهية تتأبى على الحصر في عوالم الطيور والأسماك وفي رحاب البحار والأنهار.

وفي فجر الإنسانية فتن المرء بتنوع الألوان، فاستهواه جمالها، وراقه لمعانها.

وكان أن دخلت الألوان في صميم حياة الإنسان، وغدت لها آثار بعيدة في حياته الدينية والاجتماعية، وأيضا في حياته النفسية والعاطفية. ويظن أن إنسان الكهوف قد استخدم الألوان في تصاويره منذ فجر الوجود، وذلك قبل نحو ثلاثين ألف سنة.

ويغلب على الظن أن قوس قزح، بألوانه الزاهية وهيئته البهيجة أثار اهتمام الإنسان القديم وانتزع إعجابه، وذلك على غرار ما كانت تفعله في نفسه سائر ظواهر الكون، من شروق وغروب، وكسوف وخسوف، وبرق ورعد، ومطر وقحط... غير أن قوس قزح، بما ينطوي عليه من جمال وبهاء وكونه ظاهرة متألقة في الكون، لجدير بأن يولد في أعماق المرء شعورا خاصا بالارتياح والسرور، والفرح والبهجة، وأن يبعث في نفسه بشائر الأمل وأنوار التفاؤل. فقد بهر العيون وأبهج القلوب بألوانه السبعة المتألقة التي تتحدر من السماوات السبع الرحيبة، أما اللون الأخضر فيقع في وسط الألوان السبعة أي في قلب قوس قزح. ولما كانت الخضرة تنطوي على عنصر الحياة في الأرض فقد غدت ترمز في الوقت نفسه للسلام. ومنذ غابر الأزمنة تبدى غصن الزيتون ذو الخضرة الدائمة لسالف الأقوام رمزا للأمان والأمل والسلام. والأصل في ذلك ما انعكس في أساطير الأولين ولا سيما لدى السومريين في بلاد الرافدين في ملحمة غلغامش وقصة الطوفان العارم. وهكذا ساد الاعتقاد في غابر الأزمان بأن ظهور قوس قزح أو قوس السماء كما تسميه شعوب الغرب Arc en ciel ما هو إلا إشارة صادرة من رب السماوات إلى خلقه على وجه البسيطة ينبئهم فيها أن الأرض لن تكون معرضة مرة أخرى للطوفان. فقد غمرت المياه كل شيء، وظلت السفينة التي تحمل الطيبين الصابرين في نجوة من الغرق. وكانت الحمامة تطير المرة بعد المرة وتعود من الأفق خائبة إلى أن أفلحت بعد طول تطواف برؤية البر وعادت منه بالبشرى وهي تحمل بمنقارها غصناً أخضر، مؤذنة بانتهاء المحنة وبلوغ شاطئ الأمان. وقد ورد حدث الطوفان في الكتب السماوية المقدسة ومنها القرآن الكريم حين عمدت إلى ذكر النبي نوح وقومه الناجين على ظهر السفينة في إطار من القصص الديني، حيث سعد بنجاته وقومه، ودعا ربه أن يطوق عنق الحمامة المبشرة بطوق جميل يبقى في عنقها وعنق ذريتها إلى أبد الآبدين. وقد أشار إلى ذلك الحدث شاعر إعرابي فقال:

مطوقة كسيت زينة
بدعوة نوح لها إذ دعا

وقال شاعر آخر:

مطوقة كساها الله طوقاً
ولم يخصص بها طيراً سواها

ومنذ ذلك الحين السحيق أصبحت الحمامة بطوقها الجميل مضرباً للمثل في الوداعة والرقة والعطف. وهذا ما دعا أيضاً المفكر الأندلسي ابن حزم إلى أن يسمي كتابه الرائد عن عاطفة الحب «طوق الحمامة في الألفة والآلاف». كما أصبح غصن الزيتون بخضرته ونضارته دليل التفاؤل والاستبشار والأمان والسلام.

وهكذا قدّر للإنسان في فجر وجوده أن يغدو فنانا ومصورا وشاعرا يستلهم الطبيعة البكر، ويلون في الوقت نفسه عالمه البهيج بألوانها الزاهية....

لقد نظر الشاعر الانكليزي (شلي) إلى الحياة نظرة ابتهاج وفرح، فتراءت له «باقة جميلة من الألوان المتناسقة، وتبدى له الكون قبة من زجاج، متعددة الألوان، وهي تتألق بلون الأبدية الباهر».

وما من ريب في أن أحقاباً كثيرة مرت بعد ذلك على الإنسان القديم قبل أن يتحول ببصره نحو الأرض، ويتأمل ملياً في شؤون الكون والحياة، وعندئذ دخل الإنسان طور التأمل والتفكير والبحث والتعليل. وكان إن التفت إلى نفسه يتدارسها ويتفحص موقعها في العالم باعتبارها محور ذلك الوجود.

وقد رأى جالينوس الإغريقي، أحد رواد الطب البشري في القديم، أن التكوين النفسي المزاجي للمرء مرتكز إلى التكوين الجسدي الفيزيولوجي، وأن ثمة أربع قوى في الإنسان، هي في حال تناسبها وتوازنها قوام حياته الطبيعية على النحو السوي المنشود. وهي القوة البلغمية، والقوة الدموية، والقوة الصفراوية، والقوة السوداوية. فإذا ما اختلفت النسبة فيما بينها لدى الإنسان اختلّت صحته الجسدية والنفسية، ووقع في المرض. وقد ربط جالينوس القوى الأربع بأربعة ألوان تلازمها، وكأنه افترض أن الصحة تكمن في تآلف هذه القوى أو هذه الألوان وبقائها متميزة، وأن المرض يثوي في تغيرها وطروء تبدل على أصالتها.

فالقوة الأولى، وهي البلغمية، تكون عادة بيضاء، وقد تنعكس في ملامح وجه المرء في حال طغيانها، على سائر القوى، فتغدو بشرة المرء باهتة، وربما غلبت عليه بلادة الحس وبطء الحركة. والقوة الدموية ناجمة عن غزارة الدم وفورانه، وهي حمراء في أصلها، ويكون صاحبها، في حال طغيانها على ماعداها من القوى، سريع الغضب والسخط، بادي الاحمرار والانفعال... أما القوة الصفراء وهي التي تفرز من

طـرف الكبد كما ذكر جالينوس، فقد يؤدي طغيانها إلى اصـفرار المرء وشـحوب وجهه وقد يصـحب ذلك حدة في المزاج، وعصبية في السـلوك. وأما القوة السوداوية في جسم الإنسان لدى الطب القديم فهي ناجمة عن السـوداء، أي غدة الطحـال، ولونها قاتم، لذا سـموها السوداء وهي، في حال طغيانها على سـائر القـوى، تدفع المـرء إلى الكآبة المستديمة، وحينئذ تغدو مرضا نفسيا يعرف باسم السوداوية أي (المالنخوليا).

هـذه المفاهيـم التـي سـادت الطـب الإغريقي، ثم الطب العربي الإسـلامي في عهود سـالفة، مازالت ذات تأثير واضح في أذهان عدد من الناس، وذلك حين يصـفون هذا بأنه عصـبي نزق، بسـبب حمرة بشرته وشـقرة شـعره، أو أنه ذو طبع صـفراوي ينطوي على الحقد واللؤم، بسـبب صـفرة وجهه. وفي رأي بعض الباحثين في الموسيقى العربيـة[1] أن آلـة العود ظلـت حتى عهد الخليفة هارون الرشـيد أو عهد الموسـيقي زرياب وإلى ما بعده أيضـاً تضم أربعة أوتار فحسب، وهذه الأوتار الأربعة موازية للقوى الأربـع في كيان الإنسـان أي القوة البلغمية والدموية والصـفراء والسـوداوية. فالوتر المسـمى بالزير كان يصـبغ باللون الأصفر وهـو في جسـم آلة العـود بمنزلـة الغدة الصفراء من جسـم الإنسان. والوتر الثاني كان في الغلظ ضـعف سـابقه الزير ولذلك سـمي المثنى وقد اصـطبغ باللون الأحمر، وهو في العود بمنزلة الدم من الجسم. وكان ثمة وتر اسـمه (البم) أسود اللون في مقابل الغدة السـوداء من الجسم وهو أعلى أوتار العود. أما الوتر المعروف بالمثلث فقد عطل من الصـبغ وترك أبيض اللون، وهو بمنزلة البلغم من الجسد.

ومـن جهة أخـرى ثمة أهمية خاصـة للألوان في طبيعة الإنسان نفسه، وذلك من حيث بنيته الجسدية وتكوينه العضوي. فكما قضـت الطبيعة أن تتعدد في رحابها ألوان الزهر والثمـر، والطير والسـمك... كذلك كان شـأن الإنسان، حين اصـطبغت بشرته بالبياض أو السواد، أو الشقرة أو السمرة، أو الحمرة أو الصـفرة. وقد عمد بعض علماء الأجناسـ، تبعـا لذلك، إلى تقسـيم البشر إلى فئـات أو عروق، على حسـب ألوانهم، هي العرق الأبيض والعرق الأسـود والعرق الأصفر والعرق الأحمر.. ومما يؤسف له أن هذا التقسيم، وهو من مؤثرات الطبيعة، قد اتخذه المتعصـبون من ذوي البشرة البيضاء أساسا للتمييز العنصري، خلافا لما جاءت به الأديان والشرائع. حتى إن العنصريين جعلوا البشر صنفين: بيضاً، وهم المتفوقون السادة،



 وملونين، وهم في المستوى الأدنى، ومقضي عليهم بسبب ألوان جلودهم، أن يكونوا تابعين وعبيداً... ومن هذا المنطلق الضيق استفحلت جذور الحركة الاستعمارية، وفشت بذور التعصب العنصري، التي ما يزال العالم يعاني من جرّائها الأمرّين...

(ب)

البياض والسواد:

لقد كان للألوان منذ الأزل شأن كبير في حياة الناس، إذ ارتبطت أوثق ارتباط بوسائل عيشهم وبأفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم ومفاهيمهم...

وطبيعي أن يتميز كل شعب بجانب من الألوان، تبعا لمحيطه وبيئته. فالعرب، إيثاراً منهم للإيجاز، جنحوا لاستخدام الصفة بديلاً عن الموصوف، ولذكر لون الشيء عوضا عن الشيء نفسه، وهذا المنحى الأسلوبي ينم على تميزهم وأصالتهم، فهم حين يقولون: البيض، فإنهم يريدون السيوف، وحين يذكرون الدهم فإنهم يقصدون الخيل... ومن هذا القبيل يكتفون بذكر لون الخمرة دون أن يسموها، فيقولون هي الصهباء أي الشقراء وعلى هذا الغرار من اعتماد الصفة دلالة على الموصوف قول العامة ليس معه أصفر ولا أحمر أي ما عنده ذهب ولا نحاس. كما يوجزون، مكتفيين بذكر لون الحمامة الرمادية فينادونها الورقاء. أي

إنهـا تحاكي لون الورق أي الفضـة. واليوم يطلق لقب الثورة البيضاء في مقابل الثورات الحمـراء علـى الطفرة العلميـة في مجال تكنولوجيا المعلوماتية من حاسوب وكومبيوتر وإنترنت...إلخ.

ومن الملاحظ على صعيد آخر، أن اللون الأسمر كثير الشـيوع في ربوع العرب بسبب سـطوع شمسـهم. وذكره يتردد على ألسنة شعرائهم في مضـمار الحماسة والفروسية، حين ينعتون الرماح بأنها سـمر، أو في صدد غزلهم حين يصفون الحبيبات في أشعارهم وأغانيهم بأنهن أيضا سمراوات أو لمياوات... على حـين أن ألوانا أخرى. كاللون الرمادي القاتم، شـائعة في بلاد الغرب بسـبب كثرة غيومهـم، وهم يعبرون باللون عن طقسـهم الغائم، فيقولون: إنه طقس رمادي:Gris.

واللون الأزرق يحظى في الوقت نفسـه لـدى أمم الغـرب بكثير من الشـيوع، وهو يكاد يدخل في أعلام أكثر دولهم مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحـدة وإسرائيل، كما يتبـوأ اللـون الأزرق منزلـة مقدسـة لدى العبريـين، فهو عندهم لون الرب يهوه. على حـين أن الأخضر، هـو اللـون الأثير لدى الشعوب الشرقية، ولاسيما المسلمة والعربية، كما أنه قاسـم مشـترك بين غالبية أعلام دولها. وهذا كله مرتبط لدى الأمم بالبيئات الجغرافية والأصـول التاريخيـة والتقاليد الاجتماعية. والعرب يسمون أولادهم أيضاً بأسماء الألوان، ففي كتب الطبقات والتراجم والأعلام ثمة صفات لونية كثيرة تحل أيضاً محل الأسماء الموصـوفة لأناس بعينهم مثل اسـم الأحمر والأحيمر والكميت، والأصفر والأزرق والأبيض والأشقر والأزهر والأسود والأخضر ومن أسماء العرب الأسود العنسي وأبو الأسـود الـدؤلي، والأحيمر السـعدي والمهلب بن أبي صـفرة والكميت الأسـدي وزرقاء اليمامة، والأزارقة فرقة من الخوارج في تاريخ الإسـلام تنتمـي إلى زعيمها نافع ابن الأزرق. وما يزال اسم الأخضر اسم علم مفضلاً لدى أبناء المغرب العربي...

كمـا يطيب للعربـي أن يطلق على نحو أوسـع أسـماء الألوان أيضـاً علـى أنواع الحيـوان في بيئته ولا سـيما الخيل والإبل وإلى حد أقـل على الأسـود والذئاب ومن ذلك: الأصهب والأشهب، والكميت والأشقر، والأدهـم والأكحـل، والأطلس والأغبر... ولون البلـق أو البلقة في لغة العرب سـواد في بياض أو بياض في سـواد، وهو رمادي قاتم أو رصاصـي، ومنه يقـال غراب ابلق. والأبلق، حصن للسموءل بن عاديا في القديم بأرض تيماء. وقد بني بحجارة بيض وسود. والبلقاء منطقة في دولة الأردن. وبلاق بلدة

أو ضاحية في مصر تقع على ضفة النيل، ويلفظها المصريون بولاق. وقد جرت على ألسنة العرب عبارة كذبة بلقاء أي انكشف مرادها وافتضح صاحبها وكأنما تجلى فيها البياض من خلال السواد..

وفي الإسلام كان البياض لون رداء الإحرام، لأداء مناسك الحج، والطواف حول الكعبة، والوقوف على جبل عرفات. وهذا الرداء الأبيض البسيط، وغير المخيط، ينم على حالة من الطهر والنقاء، وخلوص النفس- وهي في رحاب خالقها- من أدران الدنيا وذنوبها، ومفاسد الحياة ومعاصيها... ومن هذا القبيل أيضاً كون الكفن أبيض في الإسلام، يلف به جثمان المرء بعد انتقاله إلى الحياة الأخرى، عسى أن يقابل ربه خالصاً من الذنوب نقيا طاهرا. وفي الحديث النبوي قول الرسول (ص)«البسوا ثياب البياض، فإنها أطهر وأطيب»، وقوله «عليكم بالبياض من الثياب، فليلبسها أحياؤكم، وكفنوا بها أمواتكم»، وعن عائشة «كفن رسول الله في ثلاثة أثواب يمانية بيض». ومن التقاليد الاجتماعية عند المسلمين أنهم كانوا يحتفلون بختان الطفل، وكان أهله يلبسونه رداء فضفاضا أبيض اللون، ولعل ذلك رمز لبراءة الطفولة.

أما لون السواد فهو رمز الحزن عند أكثر الشعوب، وفي جملتهم العرب. وهو ما يرتديه أقارب الفقيد وذووه من ثياب سود إلى أجل محدود. وقد يكتفي بعضهم في العصر الحديث بارتداء ربطة عنق سوداء، أو بوضع شارة سوداء أو نحوها على طرف الصدر.

على أنه من الغريب أن يكون البياض، وليس السواد، هو رمز الحزن لدى بعض الأمم، ومنها أمة الصين. وهذا يعني أن الأفهام قد تتعارض، وأن الأذواق قد تتباين. وذلك ناجم عن اختلاف البيئة والأحوال والثقافات. وقد ذكر ابن بطوطة من خلال رحلته أنه شاهد أهل الصين يتخذون البياض لونا لملابس الحداد. ومازال الصينيون ومن حولهم من شعوب الشرق الأقصى إلى اليوم على هذه العادة وإن كان بعضهم أخذ يحذو حذو الغرب واصطناع شاراته السوداء في هذا الصدد. وما بالنا نذهب بعيداً وعرب الأندلس أنفسهم في الماضي اتخذوا الثياب البيض دلالة على الحداد، ومازال المسلمون في أقطار المغرب والجزائر وغيرها على ما كان عليه جدودهم في هذه الأحوال، ومن طريف ما نظمه الشاعر أبو الحسن البصري في هذا الصدد قوله:

إذا كان البياض لباس حزن
بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترني لبست بياض شيبي
لأني قد حزنت على شبابي

على أن السواد لم يكن دائماً لون الحداد عند الشعوب وحتى البياض نفسه لم يكن اللون الآخر للحزن، فهنالك أحيانا ألوان أخرى كانت تتخذ لدى بعض القدماء لتعبر عن أحزان الناس وهي اللون الأخضر أو اللون الأزرق أو اللون الأصفر. وقد كان من عادة الحكام الفاطميين في أفريقية أن ولي العهد كان يرتدي حلة خضراء إثر موت الخليفة، وهي لباس الحداد، ثم يخلعها ويبدلها عند مبايعة الرعية له، ويرتدي ثوب الخلافة. وقد ذكر بعض المؤلفين أن علامة الحزن لدى بعضهم كانت وضع مئزر أصفر على الرأس. وأورد الوشاح لسان الدين ابن الخطيب أن لباس الحزن في غرناطة بالأندلس كان أزرق اللون.. ويبقى السواد هو اللون السائد الذي يرمز للحزن لدى معظم الشعوب في الغابر وفي الحاضر.

وكان أن اكتسبت الألوان على مر العصور معاني ودلالات في حياة الأمم ما لبثت أن استقرت في ألفاظها وتجلت في عباراتها، وغدت بعدئذ بمثابة رموز فكرية، أو إيحاءات شعورية، تنطوي على سمات محددة وخصائص مميزة... فاللون الأحمر، وهو أصلا لون الدم، بات يرتبط بالحرب والثورة والعنف والبطش... واللون الأخضر يوحي بالخصب والرخاء والنعيم وجنة الفردوس... واللون الأسود يشير إلى الظلام والعبودية والظلم واليأس... واللون الأبيض يرمز للنقاء والطهر والأمل والسلام...

وقد توسع الإنسان في استخدام الألوان في حياته عن طريق القفز من الحقيقة إلى المجاز، نظراً لما تنطوي عليه الموصوفات نفسها في الأصل من صلة دلالية بألوان معينة. ولهذا وصف العيش الرغيد بأنه أخضر، واليوم العصيب بأنه أسود، والقلب الطيب بأنه أبيض، والعدو اللئيم بأنه أزرق...

(ج)

الرايات عبر العصور:

وعلى هذا الغرار مضى الإنسان المتحضر يتعامل مع الألوان المتنوعة في إطار الرمز، سعياً وراء دلالات جديدة تزيد آفاقه غنى. فاتخذ الحمامة البيضاء شعاراً للسلام، كما اتخذ الراية البيضاء علامة للاستسلام أو الكف عن سفك الدماء. وقد جرت أمم كثيرة وأقوام سالفة عبر التاريخ على اتخاذ رايات ذات ألوان بعينها لتكون رمزاً لها، وشعاراً لمقاتليها. وكثيرا ما كانت الراية ذات لون واحد، وقد تنسج من الحرير أو الديباج،

أو ترصع باللآلئ والجواهر. وفي أيام الحرب ترفع في مقدمة الجند على عصا طويلة أو رمح عال، ويحملها بعض الأشداء، ليسير خلفها المحاربون، ويهتدوا بها إذا حمي القتال فلا يضلوا. كما يلتف الأعداء في الوقت نفسه حول رايتهم ذات اللون المغاير. ويحرص كل طرف على إبقاء رايته مرفوعة أبداً، إذ إن سقوطها أو ضياعها دليل الاضطراب وإيذان بالهزيمة. وأمثلة الاستبسال في سبيل إعلاء الرايات كثيرة في تاريخ الأمم ولا سيما في تاريخ العرب والمسلمين.

ومن أقدم رايات العرب في سالف عهودهم قبل الإسلام الراية الحمراء التي اتخذتها القبائل المضرية شعاراً لها على حين اتخذت القبائل اليمنية الراية الصفراء شعاراً لها. كذلك جعل الأيوبيون فيما بعد الراية الصفراء حين تصديهم للغزو الصليبي.

وفي فجر الإسلام اتخذ الرسول (ص) في غزواته الراية السوداء شعاراً له، واسمها (العقاب)، وقد اتخذ معها لواء آخر أصغر منه وكان أبيض، على أن أبا هلال العسكري يذكر في كتابه الأوائل[٦] أن أول لواء في الإسلام هو اللواء الذي عقده النبي لعمه حمزة يوم وقعة بدر في رمضان من السنة التي تمت الهجرة فيها من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. وكان لواء أبيض اللون. وحين تولى الخلافة عمر بن الخطاب اتخذ لحكمه راية خضراء، وقد عرفت بالخضرية، وكانت راية الإمام علي في معركة صفين راية سوداء، ثم لما قامت دولة الأمويين في دمشق اختارت لنفسها الراية البيضاء ولذلك عرف الأمويون أيضاً بالمبيضّة.

أما شيعة علي بن أبي طالب وبنو العباس فقد اتخذوا لأنفسهم من جديد الراية السوداء، تأكيداً لالتحامهم بآل البيت، وسيرهم على هدي الرسول (ص)، وذلك خلال تحركهم لاستخلاص الخلافة. وقد ظهرت الرايات السود في الآفاق للمرة الأولى حين أشعل أبو مسلم الخراساني ثورته في خراسان، وكان صراع دام أسفر عن اندحار الرايات البيض أمام الرايات السود، وفرار الأمويين من وجه العباسيين وبطشهم. أما الفاطميون فقد اتخذوا بعد ذلك الراية الخضراء شعاراً لدولتهم الشيعية تمييزاً لها عن رايتي الدولتين اللتين كانتا تخاصمانها في قرطبة وبغداد أي الراية البيضاء والراية السوداء. ويقال إن سبب اختيارهم للراية الخضراء أن الرسول تدثر بلحاف أخضر ليلة الهجرة، كما أنه نقل الفتى عليا إلى

فراشه للتمويه على المشركين وغطاء بغطاء أخضر مماثل.

وفي العصور الحديثة، غدا من الطبيعي أن تحرص كل دولة على أن يكون لها علم متميز تؤلفه وفق ما يتصل بتاريخها وبيئتها وعقيدتها. فالعرب في طور انبعاثهم ومرحلة نهوضهم، حرصوا منذ تحررهم واستقلالهم، على أن يتخذوا لأنفسهم أعلاماً تؤكد حقيقتهم، وتنم عن شخصيتهم. وكان من الوفاء للسلف الصالح أن يستوحي العرب المعاصرون من ماضيهم المجيد ما يؤكد انتماءهم إلى أولئك الجدود الأماثل الذين كان لهم إسهام كبير في دفع موكب الحضارة الإنسانية إلى الأمام عبر العصور، وأن يبعثوا في طارف راياتهم صوراً من العز التالد.

وهكذا اتخذت الثورة العربية الكبرى التي هبت ضد التسلط التركي إبان الحرب العالمية الأولى، شعاراً لها علماً رباعي الألوان، يتألف من اللون الأسود فالأبيض فالأخضر. وهي الألوان الثلاثة التي ترمز لدول الراشدين والأمويين والعباسيين والفاطميين عبر العهود العربية الإسلامية. وقد احتوى علم الثورة بألوانه الثلاثة مثلثاً جانبياً أحمر، أضيف إليها ليكون رمزاً لنزعة العرب التحررية والجهادية لنيل حقوقهم. ومن طريف ما حدث، أن الثورة الفلسطينية التي ما لبثت أن شبت بعد حين في سبيل استخلاص وطنها وتحقيق سيادة شعبها، سرعان ما تلقفت الراية نفسها من تلك الأيدي الرائدة والنفوس المجاهدة، وكان فحوى ذلك أن الثورة العربية ماضية أبداً في طريق الفداء. بل إن هذا العلم نفسه، علم الثورة العربية الكبرى آل علماً لحزب البعث العربي منذ تأسيسه، متوسماً من خلال ألوانه بعث أمة العرب في إطار دولتهم الواحدة. ثم اشتقت دول عربية أخرى من هذا العلم أعلامها الجديدة منذ قيض لها أن تتحرر من الاحتلال، وتنعم بالاستقلال[٣]. فاتخذت سورية والعراق والأردن ودولة الأمارات العربية المتحدة الألوان الرباعية نفسها، مع تعديل ارتأته كل منها في الشكل أو الترتيب، من مثل وضع بعض النجوم الحمر في وسط العلم بديلا عن المثلث، أو وضع نجمة بيضاء داخل المثلث نفسه أو ماكان من هذا القبيل. وكان هذا العلم الرباعي مصداقاً لقول الشاعر القديم صفي الدين الحلي:

بيض صنائعنا سود وقائعنا

خضر مرابعنا حمر مواضينا

كذلك بقيت دول عربية أخرى ضمن هذا الإطار السلفي للألوان، فاقتصرت على اللون الأخضر في اختيار علمها مثل

الجماهيرية الليبية وكذلك المملكة العربية السعودية، أو جعلت مع الأخضر لوناً أبيض، أو جعلت مع هذين لوناً ثالثاً أحمر مثل الجزائر... وغالبية الاعلام المعاصرة للعرب باقية بالإجمال داخل إطار هذه الألوان ودلالاتها العريقة. ولا نكاد نجد علما من أعلام الدول العربية والإسلامية يخلو من اللون الأخضر الذي ذكر في الشعر والقرآن الكريم مرات عديدة، على حين يسود اللون الأزرق معظم أعلام الدول الغربية ولم يرد ذكره في القرآن سوى مرة واحدة في معرض الشر[4]، ولهذا دلالات جمة تاريخية ودينية وثقافية. وهكذا يبدو أن اللون الأخضر هو اللون الأثير في الشرق، وهو أكثر الألوان شيوعاً في الأعلام العربية والإسلامية. إنه باد في أستار كعبتها المشرفة، وعلى أضرحة أوليائها الصالحين، وفي قباب عدد كثير من مساجدها العامرة، وفي طليعتها قبة المسجد النبوي بالمدينة المنورة، كما تجلت في عمائم فئات من مشايخها السلفيين، فهذا اللون ينطوي على هالة محببة في نفوس المسلمين تكونت حوله على مرّ العصور، وهو في الوقت نفسه رمز الجنة التي وصفت بهذا اللون الأثير في القرآن الكريم ووعد الله بها عباده المتقين.

وفي ربوع الوطن العربي عدد من الأماكن والمواقع التي توصف بالخضرة مثل الجبل الأخضر في ليبيا التي عرفت مقاومة الاحتلال الإيطالي من قبل الثوار العرب والمجاهدين السنوسيين بزعامة البطل الشهيد عمر المختار. وفي سلطنة عمان بجزيرة العرب أيضاً جبل اسمه الجبل الأخضر. ووادي الأخيضر موضع قرب تبوك في الحجاز..

اللون الأحمر:

أما اللون الأحمر فلعله أقدم الألوان التي عرفها الإنسان الأول في فجر وجوده. فهو لون الدم الذي يسري في عروقه وعروق سائر الكائنات الحية. وقد تبدى له هذا اللون جلياً منذ أن عمد إلى صيد الحيوانات وذبحها ليقتات بها. كذلك ازدادت معرفته باللون الأحمر منذ أن اكتشف النار. أما الصبغة الحمراء فقد اكتشفها الفينيقيون أول مرة في الساحل السوري.

وكان العرب قبل الإسلام يعمدون إلى نصب قبة حمراء من أدم في ظاهر مكة في كل موسم حج، وذلك في سوق عكاظ وهناك يجلس النابغة الذبياني شاعر الغساسنة والمناذرة حيث يأتيه شعراء القبائل من كل صوب بقصائدهم ليحكم بينهم[5]. وقد قصدته الخنساء في جملة من قصده من الشعراء وأنشدته قصيدة من شعرها..

وكانت هناك في حقبة متأخرة من تاريخ العرب في الأندلس أسـرة بني الأحمر التي أقامـت دولة بني الأحمر باسـمها، فكانت آخر حبة في عقد الوجود العربي الإسلامي في الغــرب الأوروبي ذلك الفردوس المفقود. حين خلفت دولة بني الأحمر في عاصـمتها غرناطة واحداً من أروع الصروح العمرانية الباهرة، وقد حمل اسم قصر الحمراء، وهو آية في فن العمارة الإسلامية.

وللـــون الأحمر في المجتمعـات الغربية شأن خاص حين يحتفلون في الرابع عشر من شهر شباط كل عام بما يسمونه عيد الحب، وهو مرتبط بذكرى القديس فالنتاين، وفيه يتهادى المحبون فيما بينهم الورود الحمراء باعتبارها مشابهة دم القلب. وقد سرت هذه الظاهرة إلى بعض المجتمعات الشرقية في العصر الحديث ولا سيما لدى الشبان بدافع التقليد الأعمى...

وعلى صعيد آخر من هذا العالم يواجهنا اللون الأحمـــر في المجال السياســي خلال القــرن العشريــن حــين اتخــذت الحركة الشيوعية العالمية الراية الحمراء شعاراً لها ورمزاً لثورتها الدموية المنشــودة. وبانتصار النظام البلشفي على الحكم القيصري صار العلم الأحمر شـعاراً لأول دولة شيوعية في العــالم. ثم كان ما يقارب ذلك علم الصـين الأحمر بعد وصــول الثوار هناك إلى الحكم أيضاً. حتى لقد اصطبغ كل شيء في الاتحاد الســوفيتي منذ ذلك الحين بهذه الصـبغة الحمــراء، وكأنهــا باتت علما على جيشــه ومنظماته، إضافة إلى دولته وثورته. وأصبح الروس الشـيوعيون يعرفون بالحمر، كذلك ســمي جيشــهم بالجيش الأحمر، وعرفت الســاحة الكبرى في عاصــمتهم بالســاحة الحمــراء. وكان الجنود منذ ثورتهم يرتدون الـــزي العســكري الأحمر، علــى حين ظل خصومهم ومناوئوهم في الداخل يصطنعون اللباس الأبيض، فعرفوا بالروس البيض.

وكان لهذا اللون الأحمر قبل ذلك العهد شـأن في فرنســا إبان الحكم الإمبراطوري حين اتخذ نابليون لجيشه البزات العسكرية الحمراء. أما لون الســواد فكان على الدوام لباس الكهنوت من رجال الكنيسة المسيحية عدا الراهبــات والكرادلــة والبابا فثيابهم بيضــاء. وحين ألــف (ســتاندال) الكاتب الفرنسي روايته «الأحمر والأسود» فإنه قصد بكتابه أن يرمز من خلال عنوانه بالأحمر إلى سلطة جيش الإمبراطور السياسية، وبالأسود إلى سلطة قساوســة الكنيسة الروحية. أما ختــم الخزائــن والممتلكات فكان بالشــمع الأحمر (أي حجز المكان بأمر إداري).

❁ ❁ ❁

ثـم غدت لقطاعـات الجيوش الحديثة ألوان ترمز إليها وتعرف بها فاللون الأبيض لباس سـلاح البحرية، أي بلون الموج المزبد، والأزرق لسـلاح الطيران أي بلون السـماء، واللون الأخضر لسلاح المشاة وهو لون الأرض المعشـبة. كذلك غدا للألوان شأن في مجال السياسة، فيما يتصل بالأحزاب والجماعات، والحركات والمنظمـات. وقد حفلت الحقبة المعاصرة من التاريخ الحديث بتسميات كثيرة كان لها شأن حيناً من الزمان، من ذلك ذوو القمصان الحديدية أو الرمادية، وهم كتائب الحـزب النازي في عهد ألمانيا الهتلرية، كما ارتبـط هذا اللـون الرمادي بالفاشيسـت الطليان في عهد موسـوليني. وعلى صعيد آخر أطلقـت منذ حين جماعـة من الثوار الفلسطينيين على نفسها اسم منظمة أيلول الأسود إشارة إلى محنتهم عهدئذ في القطر الأردني. وفي أوروبة اسـتفحل شأن منظمة إيطالية سياسـية أطلقت على نفسـها اسم الالوية الحمراء، وقبلها برزت جماعة الجيش السري الأحمر في اليابان وكانت تناصر حق الفلسطينيين في أرضهم.

وعلى صعيد حضـاري في العالم المتحد اصـطلح علـى اعتمـاد الصـليب الأحمر أو الهـلال الأحمر، وهما بلـون الدم رمزاً لإسعاف الإنسـان المنكوب سريعاً في أوقات السـلم والحرب حين تعرضه الطارئ لمرض أو دهسـ أو غرق أو حـرق ونحو ذلك من دون أي اعتبار لانتمائـه العرقي أو الديني أو المذهبـي غـير الانتماء الإنسـاني. وقد قـرر المجتمعون ذلك في جنيف بحيث تكون الشـارة صـليباً أحمر مسـتمداً من العلم السويسري الذي يتوضع فيه صليب أبيض. وقـد اسـتجابت منظمة الصـليب الأحمر لرغبة العالمين العربي والإسلامي بأن يكون الهلال أيضاً شـعاراً للمنظمة تلافياً لما قد يحدثه رمز الصليب من الوجهة الدينية من حرج لدى المسـلمين... وقد دأبت إسرائيل بعـد أن أقامت دولتها على أرض فلسـطين أن تكون أيضاً النجمة السداسية الزرقاء في علمها رمزاً أحمر ثالثاً إلى جانب الصـليب والهلال، غير أن طلبها قوبل بالرفض..

وعلـى هـذا الغرار في صـدد الحروب يقـال: جرت المعركة بالسـلاح الأبيض، في مقابل مفهـوم القتال الدمـوي الأحمر أي حدث التحام بين الجيشـين فلم تفتح النار الحمراء مـن بعيد وإنما تم القتال من كثب بالسـيوف والحراب والخناجر والمدى، وما إلى ذلك، مما يعني ضراوة القتال...

وشبيه ذلك ما يصدر بين الحين والحين عن بعض الدول أو الزعامات من نشرات أو كتيبات يطيب لأصحابها أن ينعتوها بألوان

ذات صلة ما بمحتواها، فكثيراً ما نسمع بصدور كتاب أسود أو كتاب أحمر أو كتاب أخضر، وعلى هذا الغرار أيضاً في هذا العصر ظهر اصطلاح (الصندوق الأسود) وهو علبة صماء أو صندوق بالغ التحمل يسجل تفصيلات كل نأمة في الطائرة منذ لحظة إقلاعها. وهو خير معين للمحققين عند وقوع كارثة في عملية الطيران. والصندوق برتقالي اللون خلافاً لظاهر اسمه الأسود وذلك بقصد تسهيل الاهتداء إليه في مكان الكارثة فوق الأرض أو داخل البحر.

(د)

وإذا مضينا على الصعيد الجغرافي والتاريخي في هذا السبيل بدت لنا تسميات كثيرة لمناطق ومدن وبحار وأنهار كلها مستمدة من أسماء الألوان، وذلك بقصد التمييز أيضاً، كشأن كل أسماء الأعلام. ومن أشهر هذه التسميات ما يعرف بالقارة السوداء، أي أفريقية، لأن غالبية سكانها من السود أو السمر، والجبل الأبيض، وهو قمة جبال الألب ويتوجه ثلج أبدي أبيض. ومن أشهرها أيضاً البحر الأبيض المتوسط الذي يتوسط القارات الثلاث. وهناك البحر الأحمر الذي يفصل البر الآسيوي عن البر الأفريقي، والبحر الأسود الذي يقع بين تركيا وروسيا.. والبحر الأصفر ويقع في الجنوب الشرقي من البر الصيني. ومن هذا القبيل إطلاق اسم الشاطئ اللازوردي على الساحل الجميل في جنوب فرنسا، واللازورد لون بين الخضرة والزرقة لنوع من الأحجار الكريمة تدل عليه في الأصل الكلمة الفارسية (لاجورد). كذلك يقال إن نهر النيل سمي بذلك لأن مياهه قريبة من لون الكحل أو صبغة النيلة وهي الزرقة القاتمة. أما رافداه فيحملان أيضاً اسمين من أسماء الألوان هما النيل الأبيض والنيل الأزرق ويلتقيان في عاصمة السودان عند قرنة الخرطوم أو المقرن، وليسا هما في الواقع بأبيض ولا أزرق.. ولعل أعظم الأنهار في آسيا هو النهر الأصفر، ويقع جنوبي الصين ويمر بالقرب من شانغهاي. كذلك ثمة نهر كبير في أمريكا الجنوبية اسمه النهر الأسود، وهو واحد من أنهار البرازيل، وقد حملت اسمه أيضاً مدينة النهر الأسود بولاية بارانا. وثمة جمهورية صغيرة في أوروبة الوسطى تعرف باسم جمهورية الجبل الأسود وكانت جزءاً من دولة يوغسلافيا سابقاً.

وثمة مدن عربية عديدة تحمل اسم (البيضاء)، أشهرها أيضاً في ليبيا، وشبيه باسمها في هذا الصدد مدينة الدار البيضاء

المغربية على المحيط الأطلسي. وثمة مدينة اسمها الزرقاء، وهي معروفة في الدولة الأردنية، وكذلك غلب على تونس نعتها بتونس الخضراء. أما مدينة حلب العريقة فتعرف أيضاً بلقبها «الشهباء» بسبب غلبة لون الشهب القريب من البياض على أبنيتها الحجرية الفريدة، وقيل: بل الشهباء لون البقرة البيضاء التي كان النبي إبراهيم الخليل يحلبها كل مساء في سفح قلعة حلب ويتصدق بها على المساكين الذين كانوا يتنادون لدى رؤيته مهللين: لقد حلب الشهباء...

ومن أعرق التسميات في هذا الصدد في تراث الإسلام ومقدساته الحجر الأسود، وقد جاء في السيرة النبوية أن محمد بن عبد الله أبدى رأيه السديد في كيفية إعادته إلى مكانه في الكعبة بعد ترميمها، وكان شاباً أنئذ- بأن يوضع في ردنه ويحمله جميع من كانوا في الكعبة بعد أن اختلفوا في ذلك فحسم الأمر بينهم. إنه حجر بركاني صلد أملس، لامع شديد السواد، وهو محفوظ في تجويف داخل البيت العتيق، وتقبيله من قريب أو بعيد جزء من مناسك الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

وقديماً كان قصر الخليفة معاوية، ويقع جنوبي دمشق يدعى قصر الخضراء. ومن قبل ذلك العهد كان قصر كسرى الفارسي يعرف باسم القصر الأبيض، وهو مشهور باسم الإيوان، وبقاياه ماثلة في بلدة المدائن بالعراق. وقد ذكره البحتري في قصيدته السينية فقال:

حضرت رحلي الهموم

فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي

وهذه التسمية أي القصر الأبيض تذكرنا في هذا العصر الحاضر بالبيت الأبيض، وهو مقر رئيس الجمهورية في العاصمة الأميركية، ولعل الناس أطلقوا عليه هذا الاسم أول الأمر لبياض لونه، ثم شاعت التسمية حتى غلبت عليه، ويبدو أنه ليس له من البياض سوى هذا الطلاء الظاهر، فالحقد الأسود والتعصب الأزرق يغلبان على حكامه، وقد أطلق الانكليز على الشارع المؤدي إلى مباني وزارات الحكومة في لندن اسم الشارع الأبيض وهو مواز لنهر (التيمس)، كما أطلقوا اسم القاعة البيضاء White Hall على بهو الاجتماعات في مقر رئاسة الحكومة البريطانية.

ومن المعهود في حياتنا أن الليالي في هذا الكون سوداء اللون، وبهذا السواد الحالك وصفها الشعراء منذ الأزل وسوف يصفونها إلى الأبد غير أن من غرائب الطبيعة في بعض أطراف الأرض ما يسمى بالليالي البيض،

إذ تشاهد هذه الليالي في المناطق الشمالية من أوروبة وأمريكة القريبة من القطب، ففي بعض أقاليم روسية وكذلك في أعالي فنلندا والنرويج والآسكا... تكاد تبقى الشمس معظم اليوم في السماء من دون أن تغيب وراء الأفق إلا ساعات قليلة، وهي حتى في هذه الحال لا تغوص كثيراً في جهة الغرب، فيبقى شعاعها متناثراً في الجو، مما يحول دون حلول ظلام دامس. ويحدث ذلك مرة في بداية كل صيف خلال الأسبوع الثالث من شهر حزيران (يونيو) حين يبلغ النهار أقصاه ويستمر زهاء عشرين ساعة، على حين يقصر الليل حتى أدناه فلا يتعدى سويعات قليلة، ومن هنا غلب على هذه الليالي البياض أو الإشراق، فعرفت بالليالي البيض.

على أن الليلة البيضاء بدلالتها المجازية في عرف البشر هي المفعمة بالسعادة والهناء. ومن المعهود لدى الشعراء ذكرهم الليالي البيضاء في مقابل الأيام السوداء المثقلة بالهموم والأحزان. ومن هذا القبيل قول شاعرنا الأندلسي ابن زيدون يصف ما آل إليه الأمر بعد صدود حبيبته ولادة عنه، حين راح يخاطبها بمرارة وأسى:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا

ومثل ذلك في التعبير الأدبي قولهم أيام غراء وهي البيضاء أي المشرقة لما تنطوي عليه من بهجة وسرور.

(هـ)

مصطلحات العصر:

ومع التقدم الحضاري أخذت أهمية الألوان تتنامى في حياة المجتمعات المعاصرة، وغدا كثير منها ينطوي على دلالات وإيحاءات جمة. ففي مناسبات الفرح بات من الأعراف المستحبة إهداء الورد الأبيض دلالة على الصفاء والطهر، وأيضاً إهداء الورد الأحمر تعبيرا عن الهيام والحب. كذلك أصبح من التقاليد الاجتماعية البهيجة أن ترتدي العروس الحلة البيضاء ليلة زفافها، على حين يحسن بالزوج أن يظهر في بزة دخانية قاتمة أو سوداء. وقد علل بعض الظرفاء ذلك بأن العريس إذ يرتدي البزة السوداء فإنه يعبر عن الحداد وانقضاء عهد العزوبية.

وقد توخت النظم الإدارية الحديثة إزاء تكاثر الوثائق والصكوك والمستندات إلى إطلاق أسماء الألوان على الهام أو الشائع منها، تيسيراً على الناس واختصاراً في التسمية. فالبطاقة الخضراء في الولايات المتحدة تعني وثيقة الإقامة والعمل، وهي

تقارب وثيقة الجنسية. والبطاقة الزرقاء في فرنسا هي البطاقة المصرفية، التي تمكن حاملها من سحب المال آلياً من أي مكان كما تتيح له أن ينفق عند إبرازها ما يشاء من دون أن يحمل مالاً. والبطاقة الصفراء تعني في أنظمة المباريات الرياضية إنذار الحكم لمن يخالف مبادئ اللعب ويعرقل سيره، أما البطاقة الحمراء فهي اللغة الأشد وتعني طرد اللاعب نتيجة لإساءته البالغة. وبعض الفرق العالمية في لعبة كرة القدم اتخذت لنفسها ألواناً تميزها من سائر الفرق فلباس فريق البرازيل أصفر وإيطاليا أزرق والجزائر أخضر وغيره أحمر أو برتقالي. والتلوين نفسه أيضاً ينسحب على الأندية العربية حيث اختار نادي الحرية السوري لفريقه اللون الأخضر على حين آثر نظيره نادي الاتحاد اللون الأحمر.

وعلى هذا الصعيد التنظيمي في إدارة حركة السير اصطلحت المؤسسات في هذا العصر على مجموعة من الإشارات المعتمدة على الألوان لتنظيم مرور وسائل المواصلات، من سفن وطائرات وقطارات وسيارات، إضافة إلى اعتمادها أيضاً في مداخل العمارات والمرائب والمتاحف والسلالم.. إذ يعني اللون الأحمر منع المرور دفعاً للخطر نتيجة دهس أو تصادم.. كما يفيد اللون البرتقالي التحذير من خطر محتمل أما اللون الأخضر فيشير إلى أن الطريق سالك، والسير آمن. ومن متممات ذلك التنظيم الدقيق في ديار الغرب أن يحمل مكفوف البصر عصاً بيضاء، تميزه خلال سيره بقصد لفت انتباه الآخرين إليه-راجلين وراكبين- فيعطى أفضلية اجتياز الطريق، حتى يمر بيسر وسلام. وهذه من دون شك ظاهرة حضارية....

وفي عاصمة الفاتيكان بإيطاليا حين يعتزم الكرادلة اختيار خلف للبابا الراحل، يجتمعون في خلوة تامة ويوصدون الأبواب من دونهم مدة قد تطول، ثم يشرعون في محاولات التصويت، وجموع المؤمنين الكاثوليك في الخارج يترقبون النتيجة، وعيونهم شاخصة إلى إحدى قباب الفاتيكان، فإذا ما خرج الدخان الأبيض من أعلى القاعة هللوا، واستبشروا بتسنم البابا الجديد كرسي البابوية...

❁ ❁ ❁

في نهاية المطاف، يبدو لنا جلياً أن عالم الألوان واسع الأرجاء رحيب الجنبات. والإنسان، بتطلعه الذي لا يفتر وطموحه الذي لا يحد، ماض في ولوج هذا العالم إلى جانب سائر العوالم، يتفاعل معه ويغني

به وجوده. أن الألوان تواشجت مع حياة الإنسان وتوغلت في فكره ونفسه. وكان أن ظهر أثرها جلياً في ألفاظه وعباراته، فاكتسبت هذه مدلولات جديدة، قد لاتبدو معانيها في ظاهر ألفاظها، لولا القرينة أو الإحاطة السابقة بأسرار اللغة وخصوصية الأسلوب.

فلون البياض يعني في عرف الناس بوجه عام الطهر والنقاء والخير والسلام، فهذا امرؤ أبيض القلب، أي طيب العنصر، نقي السريرة، خال من الحقد واللؤم. والعرب تقول أيضاً: أبيض الكبد، لاعتقادهم أن الكبد موطن الضغائن والأحقاد. وقولهم: «بيّض الله وجهه» ينطوي على دعاء له بالفلاح يغدو مرفوع الرأس ويحظى بتقدير الناس وقولهم أيضاً: «له علينا يد بيضاء»، أي فضله علينا لا يجحد، ونعمته مشكورة. ومن هذا القبيل أن يوصف المرء بأن «صفحته بيضاء» أي ماضيه نظيف، وسجله خال مما يشين ويعيب. وحظه أبيض أي أتته النعمة وأصابه الخير من حيث لايحتسب. أما الكذبة البيضاء، فهي الممازحة التي لاتورث أذى ولا تلحق ضُـرّاً، وقد تثير بهجة وتنقذ من حرج. كذلك الانقلاب الأبيض، وهو قلب نظام الحكم السائد في بلد، من دون حاجة إلى عنف أو إراقة دم.

غير أن البياض قد يخرج عن دلالته المعهودة، فيعني في النادر، صفة غير مستحبة مثل: ابيضت عيناه حزناً، أي علتهما غشاوة، فكلّ بصره من فرط البكاء... والبياض بوجه عام مستحب في كل مجال إلا في الرأس، كما أن السواد مكروه في كل شيء إلا في الرأس أيضاً. وفي الشعر العربي روائع من المعاني والصور في هذا الموضوع.

أما السواد، وهو عكس البياض، فيشير بالإجمال إلى دلالات مضادة، إذ يقال إنه أسود القلب، أي قاس حقود لئيم.. وأسود الوجه ويراد به على سبيل المجاز أنه خاسر منبوذ بعد انكشاف طويته وافتضاح أمره. وحظه أسود، أي يفوته الخير والنجاح على رغم دأبه وسعيه والخبر الأسود هو خبر السوء، ومثله الفتنة السوداء، والفقر الأسود، واسودت الدنيا في عيونه، أي ضاقت عليه السبل ومنافذ العمل وفرص السعي، حتى كأنه في ظلام، فغلب عليه اليأس. ومثل ذلك أن يقال راودته أفكار سوداء، أي غلبه التشاؤم والهم وأخذ يهم بسلوك الدروب الوعرة ويتوهم أموراً سيئة.

وعلى صعيد آخر نجد لسائر الألوان في فن التعبير حيزاً آخر، كاللون الأحمر، إذ يقال احمرت عينه، أي بدا فيها الشر والتمع الشرر، وبات يخشى أذاه وبطشه. واحمر

وجهــه، أي عراه الخجل والحيــاء... وثمة ألوان أخــرى لاتحظى في أســاليب التعبير بحيز كبير بالنسبة إلى ما ذكرنا من الألوان، وهي تدور حول الزرقة والخضرة والصفرة، ومــا إليهــا، كأن يقال: «بــلاوي زرقاء» أي شديدة الوطأة، كما يقال: «إن عظمه أزرق»، أي بالغ الحقد، شــديد التعصب. أو يقال: «يالها من ابتسامة صفراء» أي تنطوي على المكــر والخبث وســوء الطويــة. وقد ينعت الوباء بأنه الأصــفر، ويشار به إلى استفحال الكوليرا، كما يقال الوباء الأســود للطاعون الذي يحمل الموت الزؤام... والكتب الصفراء تعبير خاص باللغة العربية، وهو اصــطلاح محدث يراد به كتب التراث القديم، ولاسيما العلــوم التقليديــة الموروثة كاللغــة والدين والفقــه والتفســير والنحــو والتصريف... وذلك بقصد التمييز بينها وبين سائر العلوم الحديثة التي باتت تطبــع على ورق أبيض ناصــع، يغاير ذلك الورق الأصفر الفاقع... أمــا المائدة الخضراء، فهــي طاولة القمار، وتغطــى عادة بقماش أخضر، وذلك للتمويه وبعث مشاعر الأمل الكاذب في نفس المقامر بالحصــول على مال سريــع ووفير، على أن ارتــداء الجراحــين ثياباً خاصــة خضراء أثناء العمل يقصد به توليد الثقة في نفوس المرضى والرجاء بالبرء والشفاء.

وثمة عبارات أخرى معتمدة أيضــاً على الألوان شــاع أمرها بين الناس، ولاسيما في مجال المال والاقتصــاد، من أهمها: السوق الســوداء، أي تعامل الناس سرا في مضمار الســلع والعملات، خلافاً للأنظمة السائدة، وكأنهــم يجوســون في الظــلام بطرق غير شرعية والســائد في البورصة لفظ الأخضر أي الدولار الأمريكي والأصفر أي عملة يوان الصــينية. ومن هذا القبيــل ذيوع عبارات مستحدثة، خرجت من الحقيقة إلى المجاز، لتضــفي مزيداً من الأهمية علــى معانيها الأصــلية، مثل: الذهب الأســود أي الفحم الحجري والنفط في هــذه الأيام. والذهب الأبيض أي القطن لأهميته الاقتصــادية في العــالم والذهب الأحمــر أي الزعفران وهو نبتة نفيسة تتفتح عن زهيرات عطرة منكهة. وما ذلك كله إلا تشبه بمعدن الذهب الثمين وهو الذهب الأصفر...

وصــفوة القول إن هــذا العصر المتفجر يشهد باطراد ازدهارا تكنولوجيا لم يسبق له مثيل، يواكبه أيضاً تقدم في العلوم الفيزيائية والكيميائية والتطبيقية الأخرى التي ازداد بفضــلها عالم الألوان غنى وتنوعاً. وكان أن الإنســان الحديث راح يلح في إثراء عيشــه وإمتاع بصره بســحر تلك الألوان، وذلك من خلال الألبســة والأزياء، وأصــناف الطعام

والشراب، وشاشات السينما والتلفزيون، وأجهزة التصوير والسيارات، وجدران الغرف وأثاث المنازل إن اللون منسرب داخل عقولنا وفي حنايا نفوسنا، ملتحم بمختلف أمزجتنا وأذواقنا وسار في مجمل تقاليدنا وعاداتنا... وغير ذلك مما لا ينضب له معين في هذا العالم الذي لا تسبر أبعاده، ولاتحد آفاقه.

وبعد، لعل أهم سمة للألوان أنها عالم رحيب فسيح الأرجاء، وهي لكثرتها البالغة تستعصي على الإحصاء، وتتأبى على الحصر. وهكذا فالكلمات على كثرتها لابد لها أن تنفد لأنها متناهية، وهيهات أن يكون بوسع اللغة أن تستوعب الألوان كافة، لأن الألوان وما أعجب أمرها، غير متناهية في الكون والحياة.

الهوامش

١- تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، ص٥٣، القاهرة ١٩٥٥.
٢- من كتاب (الاوائل)، أبو هلال العسكري، ج ١، ص ١٧٤، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٥.
٣- الحديث هنا عن الأعلام حين نشوئها، ومعلوم أن بعضها قد تغير بعد ذلك..
٤- المصحف الشريف، سورة طه (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا..).
٥- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق محمد شاكر، ١/٣٤٤ دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦.

المصادر

- القرآن الكريم.
- الألوان في القرآن الكريم، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن حزم، بيروت ١٩٥٠
- الألوان، نظريا وعمليا، إبراهيم دملخي، حلب ١٩٨٣.
- تكملة المعاجم العربية، رينهارت دوزي، ترجمة محمد سليم النعيمي، العراق ١٩٧٨.
- المخصص، ابن سيده، أبو الحسن، المكتب التجاري بمصر ١٩٦٦.
- لغة الألوان، شفيق جبري، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، نيسان ١٩٦٧.
- اللغة واللون، د. أحمد مختار عمر، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٨٢.
- معجم الألوان، عبد العزيز بن عبد الله، الرباط ١٣٩٨ هـ.
- معجم الألوان في اللغة والأدب والعلم، زين الخويسكي، بيروت ١٩٨٧.
- الموسوعة البريطانية مادة LAWN،
- The world of colour by David Katz, London 1935.



الدراسات والبحوث



ألفرد نورث وايتهد
وفلسفة السيرورة

د. غالب سمعان ☼

انتقل الفيلسوف الإنكليزي ألفرد نورث وايتهد Alfred North Whitehead (١٨٦١-١٩٤٧) في حياته، من مرحلة اهتم فيها بالرياضيات ودرّسها في الجامعات الإنكليزية، وأنتج خلالها بالاشتراك مع الفيلسوف الإنكليزي الآخر برتراند راسل Bertrand Russell (١٨٧٢-١٩٧٠) كتابهما الهام (مبادئ الرياضيات) إلى مرحلة أخرى اهتم فيها بالعلوم الفيزيائية والبيولوجية، وبالتطورات العلمية الحديثة، فإلى مرحلة الاهتمام

☼ باحث ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بالفلسفة التي أنتج خلالها كتبه الهامة (العلم والعالم الحديث) و(فلسفة السيرورة) و(مغامرات الأفكار) التي أذاع فيها فلسفة ميتافيزيائية قائمة على أساس الاكتشافات والابتكارات العلمية التي اطلع عليها، وأخيرا تقدَّم باتجاه الدين، وكتب في علم اللاهوت السيروري. ومن منظور فكري عام، فإن الكثيرين ممن يمتلكون طاقات إبداعية، وقدرات على تطوير ذواتهم من الداخل، يتقدمون من مرحلة إلى أخرى، بصرف النظر عن حقيقة كونهم كتابا أو شعراء وفلاسفة. فالشاعر الإنكليزي التحرري جون كيتس John Keats (١٧٩٥-١٨٢١) تقدَّم من دراسة العلوم المتنوعة، وتحديداً الطب البشري، إلى كتابة الشعر الذي انطوى على أفكار جمالية وأخلاقية وميتافيزيائية. ومما أعلنه الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة Friedrich Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) الذي انطوى على الإمكانية العلمية، من دون أن يكون عالما بالمعنى الحرفي للكلمة، أنه تقدم من المعرفة العلمية إلى المعرفة الفلسفية الأعظم شأنا، وإلى ابتكار نظرية بشأن القيم والمعرفة والعالم، وأكثر من هذا فإنه ينتقد العالم الذي يكتفي بالعلم، ويعتقد أنه فيلسوف الواقع الحقيقي، وهو يقرِّر عدم إمكانية كون الفلسفة علما، وألفرد نورث وايتهد لم يقدم علما فلسفيا، بل استفاد من الابتكارات والتطورات العلمية في بناء صرح نظامه الفلسفي. ومما يقرره الكاتب الصوفي اللبناني جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) في إحدى خواطره، أن التطور الطبيعي لدى الكائن البشري، ينبغي له أن يرتقي من المعرفة الحسية إلى المعرفة العلمية فإلى الفلسفة، وأخيراً إلى الدين أي الماورائيات المعقولة، وفي هذا الإقرار تقليل من شأن العلم والفلسفة لصالح الدين، وهو ما يعني أننا أمام إشكالية تجاوزها ألفرد نورث وايتهد باقتدار أكبر، فالتقدم من الفلسفة الميتافيزيائية الى علم اللاهوت السيروري، أبقى عليه باعتباره فيلسوفا في المقام الأول، وليس هنالك من يفترض أنه في قرارة نفسه رجل دين قبل أي شيء آخر. وربما يكون التقدم من مرحلة التفكير الرياضي إلى مرحلة التفكير العلمي فالتفكير الفلسفي أخيراً، أرفع شأنا من التقدم من مرحلة جمالية إلى مرحلة أخلاقية فإلى مرحلة إيمانية ماورائية، على طريقة الفيلسوف الدانماركي الوجودي سورن كيركجارد Soren Kierkegaard (١٨١٣-١٨٥٥). وعلى الرغم من أننا أمام فلسفة وجودية أصيلة، فإن تجاوز النظرات التقليدية من ناحية تطبيقية عملية، وإفساح المجال أمام

انطلاقات الفكر، واتساع أفقه، وارتقائه، وتجاوزه للسلبيات والإشكاليات الناجمة عن الفكر التقليدي السكوني، إمكانية يستطيع أمثال ألفرد نورث وايتهد تحقيقها، ويقصِّر عن إدراكها فلاسفة كالدانماركي سورن كيركجارد، وكتاب أخلاقيون ماورائيون كاللبناني جبران خليل جبران، والروسي ليون تولستوي Leo Tolstoy (١٨٢٨-١٩١٠)، والبرازيلي باولو كويلهو Paulo Coelho في رواية (الخيميائي).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفيلسوفين ألفرد نورث وايتهد وبرتراند راسل اللذين اشتركا في كتابة (مبادئ الرياضيات) افترقا من الناحية الفلسفية، على الرغم من تقدمهما في البداية باتجاه الواقعية الجديدة، ومما يقال أن ألفرد نورث وايتهد انتقد اعتناق برتراند راسل للمذهب السلمي Pacifism الذي أدى إلى اعتقاله، من دون أن يكون داعية من دعاة الحرب من الناحية الأولية، بل داعية من دعاة التغير الأبدي، وفي الوقت ذاته انتقد برتراند راسل اتجاه ألفرد نورث وايتهد الأفلاطوني، واعتقاده بالمذهب النفسي الكلي Panpsychism. وفي كل الأحوال تأثر هذا الفيلسوف الإنكليزي بالأفلاطونية، وأعلن أن تأثير الفيلسوف اليوناني أفلاطون Plato (٤٢٧-٣٤٧ ق.م.) على الفلسفة الأوروبية، أقوى من تأثير أي فيلسوف يوناني آخر، وأيضاً اهتم بالفيلسوف أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق. م.)، وتحديداً باعتناقه المذهبين العقلي والتجريبي، وفي إطار فلسفة السيرورة اهتم بالمبدأ الأرسطوطاليسي في القوة والفعل. واللافت أن اتهام أفلاطون للمعرفة الحسية بأنها متموجة ومتقلبة ومتغيرة وغير يقينية، أملت عليه الاعتراف بالمعرفة الماورائية اليقينية التي تضم المثل المعقولة الفعلية، وعلى رأسها مُثل الخير والحق والجمال، والأهم من هذا أنها أملت عليه إنكار المذهب التجريبي، وفي تلك الحقبة من التفكير الفلسفي، تقدم المذهب التجريبي Empiricism على أيدي الشكوكيين ومن أبرزهم الفيلسوف سكتوس إمبريكوس Sectus Empricus (٢٠٠-٢٥٠)، وإن اهتمام أرسطو بالمذهب التجريبي، عنى أنه ما من اصطراع بين الوقائع الحسية والميتافيزياء الكونية. وفي كل الأحوال رأى ألفرد نورث وايتهد أن المُثل الأفلاطونية ليست فعلية بل مجرد إمكانيات موضوعية خالصة، وأيضا يبدو أنه تأثر تماما بالفيلسوف اليوناني هيراقليطوس Heraclitus (٥٤٤-٤٨٣ ق. م.) وفلسفته في السيرورة، وأعلن أن فلسفة السيرورة

التي أنشأها، إنما هي قراءة حديثة لفلسفة هيراقليطوس في الفيض Flux والصيرورة Becoming بناء على الاكتشافات العلمية التي ظهرت في أيامــه. ومن الأفكار الهامة لدى الفيلســوف الإنكليــزي فكرتي الخلق Creativity والحَــدَث Event الذي هو إدراك Prehension. والواقــع أن مفهوم الحدث يحتــل في نظامه الفلســفي مكانة جوهرية، وهو أشبه ما يكون بالموناد الروحي الذي تكلم عنه الفيلسوف الألماني غوتفريد فيلهلــم ليبنيتــز Wilhelm Gottfried Leibnitz (١٦٤٦-١٧١٦)، وأيضــا ثمــة تطابق إلى درجة كبيرة بين الدفعة الإبداعية الخالقة لدى الفيلسوف الإنكليزي، والجوهر الإلهــي لدى الفيلســوف الهولنــدي باروخ ســبينوزا Baruch Spinoza (١٦٣٢-١٦٧٧)، وبالإضافة إلى هذا تأثر بالفيلسوف الفرنســي هــنري بيرجســون Henri Bergson (١٨٥٩-١٩٤١)، واعتنــق كمثله فكــرة الديناميكيــة الجذريــة في الحيــاة وموجوداتها، وافترق عنه عندما يتعلق الأمر بالحدس، فالفيلسوف الإنكليزي يتكل على العقل، والحدس يكشــف له عقلانية العالم، في الوقت الذي يتكل فيه هنري بيرجســون على الحدس، ويرفض أن يكون العقل قادرا علــى إدراك الحقائــق الجوهرية، وبالطبع يبقــى الفارق كبيرا بين مفهوم الحدس لدى الفيلسوفين.

وفيما يتعلق بالفلسفة، أثنى ألفرد نورث وايتهد على التفكير الفلسفي، وأشار إلى أنه قائم على التجريدات، وأن مهمة الفيلسوف الأولى نقد التجريدات واختبارها، فالأفكار التــي يعتبرها العلماء مبادئ عليا، قد تكون غــير دقيقة، وأيضــا يدفع الانطــواء على تجريدات معيَّنــة، إلى إغفال حقائق وفيرة، وإلى تصــلب عقلي، وتراجع ثقافي، وأيضــا أكد أن حدوس العلماء أقل شأنا من حدوس الفنانين، والعبقريات الدينية، وأن الحدوس الفلســفية ينبغي لها أن تتجاوب معها، وما من إشــارة إلى إمكانيــة وجود صراع ما بين الفلسفة والدين، أو بين الفلسفة والفن، وأيضا يؤدي إغفال التفكير الفلسفي واستبعاده من السياق الاجتماعي، إلى ظهور نُظم متنوعة من دون رقابة فاعلة من العقل، وأكثر من هذا إلى استســلام العقل أمــام الوقائع القائمة، وهــو ما يعني أننا أمــام انحدار على درجة من الخطــورة. والعقلانية وفق ألفرد نورث وايتهد حقيقــة واقعة، فالرؤية الحدســية المباشرة تقررها، وتكشــف أن العالم محكوم بقوانينــه المنطقية، وبانســجامه الجمالي، والعقلانيــة تجعل التقدم العلمــي إمكانية قائمــة. ومما يســترعي الاهتمــام هنا، أن

الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠) أدرك بالرؤية الحدسية المباشرة لاعقلانية العالم، واتكل على المعارف العلمية من أجل إعلان اعتقاداته الفلسفية، والترويج لها، فالإرادة الكونية الميتافيزيائية لاعقلانية، والإرادة البشرية لاعقلانية، والعقل قادر على وقف إملاءات الإرادة، والمعاناة الناجمة عنها، وإيصال المرء إلى الخلاص عبر طريقي الفن الذي يُلطِّف المعاناة، وأخلاقيات الزهد التي تقدر على إبطالها تماما. والعقلانية وفق ألفرد نورث وايتهد تستدعي أيضا الانطلاق من الاتصال بالواقع المتعيِّن، والموجودات الفعلية، والمذهب التجريبي ذاته، يصبح قائما داخل نطاق المذهب العقلي الأشمل منه، وهو على مثال الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩-١٩٣٨) لا يقصِرُ التجربة على المعرفة الحسية وحدها. ومما أشار إليه أيضا، أن المنهج العقلي الفلسفي قادر بالفعل على نقد التجريدات، وأن مناهج العلوم الطبيعية، وتعميماتها التجريبية، غير قادرة على تحقيق هذا الهدف، فالفيلسوف لا ينبغي له أبدا أن يسير وفق النظام الذي يفترضه منهج علمي طبيعي، وأيضا يبدو أن إقامة فلسفة ميتافيزيائية على أساس التاريخ غير صائب، فالتاريخ يفترض ميتافيزياء كامنة وراءه، وربما أمكن الادعاء بأن هذه الإشارة لا تتوافق تماما مع فلسفة الفيلسوف الألماني جورج فيلهلم فريدريك هيغل George Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠-١٨٣١). وأمام تقدم ألفرد نورث وايتهد باتجاه الواقعية الجديدة، وتوحيد العناصر المادية والمثالية، وأخيراً باتجاه نوعية حداثية من المثالية الموضوعية التي أنشأها بالأصل الفيلسوف اليوناني أفلاطون، فإنه انتقد المذهب المادي، ورفض أن تكون جزيئات المادة معزولة بالكامل عن بعضها البعض، وأن تصل بينها علاقات مكانية زمانية خارجية، خالصة وغير كيفية.

ويبدو أن إنكار أفلاطون للمعرفة الحسية الباطلة، واعترافه بالمعرفة الميتافيزيائية اليقينية فقط، قد دعاه إلى إنكار المذهب التجريبي، وأن هذا الإنكار قد سيطر على علم اللاهوت الديني الذي ورث الفكر الأفلاطوني، وأوجد أساسا فلسفيا للدين، وهكذا فإن عودة هذا المذهب التجريبي على أيدي علماء كالإيطالي جاليليو جاليلاي Galelio Galilei (١٥٦٤-١٦٤٢) ترافق مع عداوة علم اللاهوت الديني لما اعتبره اتجاها ماديا، وانتقادا سافرا لما



أصبح في عُرف الجميع اعتقادات مستقرة وإلهية الطابع. وثمة دليل على أن العالم الإيطالي أبقى على اعتقاداته اللاهوتية التقليدية، وأن المذهب التجريبي الذي أحياه، اتخذ بُعداً مادياً أدى إلى ارتباط التقدم العلمي بالمذهب المادي، بأكثر من ارتباطه بالمذهب المثالي، وبطريقة أو بأخرى يبدو أن هناك ارتكاساً مادياً علمياً تجاه الاعتقادات الثابتة التي بنى السياق الاجتماعي أركانه على أساسها، وما من إشارة أوردها ألفرد نورث وايتهد بشأن تأثيرات أفلاطون السلبية جراء إنكاره للمذهب التجريبي، واللافت أن أرسطو الذي احتفى بالمذهبين العقلي والتجريبي، احتل موقع أفلاطون في علم اللاهوت الديني، وعندما ظهر جاليليو جاليلاي كان هذا العلم يرى في أرسطو فيلسوفاً إلهيا، ومع هذا فإن جمودا شاملا طرأ على المذهبين تماما، وهو ما عنى تلقائيا

أن التأثير الأفلاطوني بقي كامنا، وأن انتقال لقب «الفيلسوف الإلهي» من أفلاطون إلى أرسطو لم يؤثر كثيراً جداً على النظرة السلبية إلى المعرفة الحسية، وارتباطها بالمذهب التجريبي. والمعلوم أن الفيلسوف الفارابي Al-Farabi (٨٧٠-٩٥٠) تأثر بأفلاطون وأفلوطين Plotinus (٢٠٥-٢٧٠) وأرسطو، وأنشأ توفيقا بين أفلاطون الإلهي

وأرسطو، وبين الفلسفة اليونانية كما أعلنها الفلاسفة المذكورون، وبين الدين، والهام هنا أنه أطلق على أفلاطون، وليس على أرسطو، لقب «الفيلسوف الإلهي» والواقع أن فلسفة أفلاطون أنكرت العالم المادي الحسي، وأن فلسفة أرسطو انطوت على عناصر مادية وميتافيزيائية، وفي كل الأحوال اضطرت المثالية على ما يبدو، إلى الاعتراف بالمادة، ومع ألفرد نورث وايتهد انطوت المادة ذاتها على ما هو عضوي وعقلي حي، وعادت المثالية الموضوعية إلى إعلان مبادئها بقوة. والواقع أن الفيلسوف الإنكليزي اطلع على النظريات العلمية ابتداء من النظرية الموجية في الضوء، ونظرية الذرة، وتطبيقاتها في ميدان علم الحياة، إضافة إلى نظرية بقاء الطاقة، والمذهب التطوري، ونظرية الكوانتم، وهو ما استدعى انتقاد المادية جراء وجود وقائع لا تستطيع تفسيرها، وافتراض تصوُّر عضوي للمادة ذاتها، قائم على أسس علمية واردة في جملة النظريات المذكورة، ومن الأمثلة التي يضربها ألفرد نورث وايتهد على مغالطة التعيُّن الموضوع في غير مكانه، اعتبار العالم الإيطالي جاليليو جاليلاي، والعالم والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت Rene Descartes (١٥٩٦-١٦٥٠) أن الجسم غير موجود، وما هو غير تجريد معزول، وألفرد نورث وايتهد الذي تبنَّى الواقعية الجديدة، ووحَّد العناصر المادية والمثالية، رفض ثنائية المادة والعقل، وثنائية الجسم والعقل، ومما أعلنه أيضاً أن انطلاق المذهب المادي من مفهوم «الموضع البسيط» يفترض أن المادة ثابتة، وأن الزمان عرض من أعراض المادة، وما من دوام للحظة الزمانية. وعلى الرغم من أن الشاعر عمر أبو ريشة (١٩١٠-١٩٩٠) صوفي الميول بوضوح، فإنه عبَّر في قصيدته (امرأة وتمثال) عن رفض التغيريَّة والاحتفاء بالجمال والفن القادر على الإبقاء عليه وعن رغبة دفينة باستمرارية المتعة الحسية، وإمكانية جعلها متعة أبدية:

حسناءُ هذي دميةٌ منحوتةٌ من مرمرٍ
طلعتْ على الدنيا طلوعَ الساخرِ المُستهترِ
وسرتْ إلى حرمِ الخلودِ على رقابِ الأعصرِ
عُريانةً سكرَ الخيالُ بعريها المُتكبِّرِ
أبداً ممتَّعةً بينبوعِ الصِّبا المتفجِّرِ
نرنو إليها في وجومِ الحالمِ المُستفسرِ
والطرْفُ بين منقَّلٍ في سحرِها ومسمَّرِ
وشّى بها إبداعُ ناحتِها الجمالِ العبقري
ومضى وبنتُ رؤاه لم تكبرْ ولم تتغيَّرِ
حسناءُ ما أقسى فجاآتِ الزمانِ الأزورِ
أخشى تموتُ رؤايَ إنْ تتغيَّري فتحجَّري

ويبدو أنه تأثر بقصيدة الشاعر الإنكليزي التحرري جون كيتس التي حملت عنوان (أيها النجم المتلألئ، ليتني كنت ثابتا مثلك) والتي يعبّر فيها عن رغبة باستمرارية المتعة اللطيفة، والحياة ذاتها من دون انقطاع زماني، أي من دون موت، وهو الشاعر الذي تقدم باتجاه نورانية روحية في جملة إبداعاته الشعرية، ووفق نظرات ألفرد نورث وايتهد فإننا أمام اتجاه مادي لدى الشاعرين، عبَّرا عنه، وانتقلا مع تقدم خبراتهما، إلى اتجاه صوفي أو روحي بصورة عامة.

ولعل المذهب العضوي الذي تبنَّاه ألفرد نورث وايتهد، مما هو على درجة رفيعة من الأهمية في فكره الفلسفي، فالطبيعة وأحداثها تتضمن التغير والثبات والتخلل، وهناك على الدوام شيء ما يتعدَّل، ويبقى شيء آخر، والأشياء غير معزولة، بل يتخلل بعضها البعض من دون انقطاع، والعالم يتكون من أحداث وليس من أشياء، ومفهوم الحدث جوهري في المذهب العضوي، وهو ينطوي على كينونة الحادثة الصغرى، والحدث من ناحية أولى بالأهمية، كيان عضوي إدراكي، وأجزاؤه يؤثر كل منها في غيره، والكل يتحكم في الكيفيات التي تتخذها الأجزاء، وهو مرآة للكون، وأشبه ما يكون بالموناد الروحي في فلسفة الفيلسوف الألماني غوتفريد فيلهلم ليبنيتز، على ما أعلنه في مؤلفه (مذهب الذرات الروحية). وفلسفة المذهب العضوي تجعل الكون والسياق الاجتماعي الحياتي كائنا حيًّا، فالكل يؤثر في الكل، وما من علاقات خارجية بين الأشياء أو الأحداث، وأمام هذه الإقرارات يتضح افتراق ألفرد نورث وايتهد عن المذهب المادي أكثر فأكثر، فالمكان في هذا المذهب تجريد معزول من علاقات تخلل مُتبادلة بين الأحداث، والزمان تجريد معزول لكل ديمومة من ديمومات الأحداث المتوالية، وهنا يتوافق رأي الفيلسوف الانكليزي مع فكرة الديمومة كما أقرها الفيلسوف الفرنسي هنري بيرجسون، على أنه يبقى على ولائه التام للمذهب العقلي، ولا يتخلى عنه أبدا عندما يتقدم فكره الفلسفي ويطرد، ليتناول الميتافيزياء والألوهيَّة. وفي كل الأحوال تتضمن نظرية المذهب العضوي مفاهيم التغير والثبات والتخلل، إضافة إلى الموجودات العضوية، والموضوعات الخالدة أيضا. وبشأن نظرية المعرفة تبنى ألفرد نورث وايتهد المذهب الموضوعي، وأشار إلى أن الموجودات ليست مكونة من أفعال المعرفة وحدها، بل من الماضي والحاضر والمستقبل، ومن حقيقة التعالي، وهو اختار الواقعية، فالواقعية

الجديدة والمثالية الموضوعية، ورفض مبدأ المُباطنة Immanence الذي يقرر عدم إمكانية معرفة إلا ما هو قائم فينا، أي إنه يفترض التصور المادي الذي يفترض بدوره، انعزال الأشياء عن بعضها، فالحدث يتعدّى نفسه بفضل الإدراك، أي يتعدى الذاتي إلى الموضوعي، وتصبح إمكانية إدراك الأحداث القائمة هناك، من الأحداث القائمة هنا، إمكانية قائمة. وفي إطار نظرية المعرفة لا يكشف الاستقراء قوانين الكون الثابتة، بل الخصائص المعينة لمجموعة محدودة من الحادثات في المكان والزمان، وأيضا تقوم المعرفة المباشرة بإدراك المُعطيات الحسية، والفاعلية السببية، على اعتبار أن السببية بنية ذهنية فوقية. وفي عالم الأدب تبنّى الروائي الفرنسي الواقعي جوستاف فلوبير Gustave Flaubert (١٨٢١-١٨٨٠) المذهب الموضوعي، وتنقّل في جملة إبداعاته من التعبير عما هو موضوعي، وغير ذاتي، وعما هو رومانتيكي وأقرب إلى الذاتية، وأثنى على الكتاب الموضوعيين كالشاعر اليوناني القديم هوميروس

Lived 9th Century BC) Homer)

والكاتب الإنكليزي وليم شكسبير William Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦) فالفن الأرفع قيمة، يستدعي الاهتمام بالموضوعية، والكاتب الأهم هو الذي لا يستطيع القارئ اكتشاف أفكاره الخاصة في مؤلفاته، وثمة فارق هام بين هوميروس الموضوعي، والشاعر اليوناني الآخر هيزيود

(Lived 8th Century BC) Hesiod

الذي سيطرت على أشعاره نغمة ذاتية لم يستطع تجاوزها أبدا، وفي هذا السياق يبدو الشاعران عمر أبو ريشة وجون كيتس ذاتيين بوضوح تام، على أن جوستاف فلوبير أبدى أيضا اهتماما بالدين ومفاهيمه.

وبشأن التعالي ثمة فارق كبير بين تعالٍ رومانتيكي على طريقة الشاعر الرومانتيكي أبي القاسم الشابي، وتعالٍ إرادي أرستقراطي على طريقة الشاعر أبي الطيب المتنبي (٩١٥-٩٦٥)، الذي يتوافق تعاليه الجواني، مع نوعية التعالي التي امتدحها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة. وفي إطار النظرية النفسية يرفض ألفرد نورث وايتهد فكرة انقسام الطبيعة إلى عقل ومادة، والكائن البشري إلى عقل وجسم، على ما أقره الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وهو يعتبر أن العقل والمادة والجسم سلسلة متّصلة من الحوادث، وأن الوعي وظيفة على ما أشار إليه الفيلسوف البراجماتيكي الأمريكي وليم جيمس William James (١٨٤٢-١٩١٠) وهكذا فإن كل حدث ثنائي

البؤرة، وهو وعي حين يُرى من الداخل، وفي فلسفة المذهب العضوي تكون الطرق العقلية على علاقة بالطرق المادية، وأما بقاء النفس وخلودها فهو مرهون بالتجربة الدينية المخصوصة، وعندما يعبِّر جبران خليل جبران في قصيدته (المواكب) عن بقاء الأرواح وخلودها، فإنه في الواقع يعبِّر عن هذه التجربة الدينية المخصوصة بوضوح بيِّن:

وغاية الروح طيَّ الروح قد خفيتْ
فلا المظاهر تُبديها ولا الصورُ
فذا يقول هي الأرواح إن بلغتْ
حدَّ الكمال تلاشت وانقضى الخبرُ
كأنما هي أثمارٌ إذا نضجتْ
ومرَّت الريح يوماً عافها الشجرُ
وذا يقول هي الأجسام إن هجعتْ
لم يبقَ في الروح تهويمٌ ولا سمرُ
كأنما هي ظلٌّ في الغدير إذا
تعكَّر الماء ولَّت وامَّحى الأثرُ
ظلَّ الجميع فلا الذرات في جسدٍ
تُثوى ولا هي في الأرواح تُحتضرُ
فما طوتْ شمألٌ أذيالَ عاقلةٍ
إلا ومرَّ بها الشرقي فتنتشرُ

وبصورة عامة اعتنق ألفرد نورث وايتهد المذهب النفسي الكلي وتحديداً مذهب الخبرة الكلي، أو المذهب النفسي الأصلي الكلي، ورأى أنها مذاهب تعبر عن مفاهيم متصلة، وهو في اعتناقه هذا، يستلهم أفكار العالم الألماني ألبرت أينشتاين Albert Einstein (١٨٧٩-١٩٥٥) في النظرية النسبية. وإن مذهب الخبرة الكلي يدل على تأكيدات الفيلسوف الإنكليزي بشأن الخبرة، فالطبيعة خبرة، والله ينطوي على خبرة مطردة، وفي فلسفة السيرورة تكون العناصر الجوهرية للكون حادثات من الخبرة القادرة على تخليق كائنات عُليا كالكائن البشري، وفي هذا النظام تزول ثنائية العقل والجسم، ويصبح العقل وليس الوعي نوعاً متطوراً من الخبرة. وألفرد نورث وايتهد فيلسوف مثالي موضوعي، وليس فيلسوفاً مثالياً ذاتياً كالفيلسوف الإنكليزي جورج بيركلي George Berkeley (١٦٨٥-١٧٥٣) الذي رأى أن الأشياء المادية موجودة فقط في العقل القادر على إدراكها، وليس لها وجود مستقل، في الوقت الذي رأى فيه المذهب النفسي الكلي أن الكينونات المادية تملك العقل، والوجود الخاص الذي يجعلها مستقلة عن الكائن البشري الذي يرصدها، ومرة أخرى تبدو فلسفة ألفرد نورث وايتهد المتعلقة بالأحداث والحادثات، أقرب إلى فلسفة غوتفريد فيلهلم ليبنيتز في مذهب الذرات الروحية، وأن حادثات الخبرة

متداخلة مع كل حادثة أخرى من الخبرة التي كانت قد حدثت في السابق، وهي العنصر الأكثر صغرا في الكون، ولعلها أصغر من الجسيمات ما دون الذرية. وانطلاقا من هذه المقدِّمات اعتنق ألفرد نورث وايتهد المذهب التوحيدي الكلي، فالله يطوِّق كل حادثات الخبرة، ويفرض التعالي عليها. وفي ميدان علم النفس تكلم العالم السويسري كارل يونغ Carl Jung (١٨٧٥-١٩٦١) عن النفس والمادة الموجودتين في عالم واحد، وأعلن أنهما على اتصال دائم فيما بينهما، وأنه ما من شيء يمنع أن تكون النفس والمادة مما يعبِّر عن شيء جوهري واحد، وهو ما يعني أننا أمام صورة من صور المذهب النفسي الكلي في ميدان علم النفس.

والأحداث الفعلية كيانات عضوية حية، وهي تنطوي على حادثات متناهية الصغر، وأجزاء الحدث الفعلي غير معزولة عن بعضها، وكل منها يؤثر في الآخر، والكل الذي يجمعها يؤثر فيها، ويتأثر بها أيضا، والكون بأكمله يتكون من مجموع الأحداث الفعلية فيه، وماضي الحدث قائم فيه، ومستقبله كامن فيه أيضا، وهو الوحدة الأساسية في فلسفة ألفرد نورث وايتهد، والأشياء تتغير باستمرار، وثمة ثبات وتغير تتصف به، وكل منها يتخلل الآخر، وما من وجود للعلاقات الخارجية بين الأشياء في الكون، فالمذهب العضوي يفترض نوعية من العلاقات الداخلية التي لا تنقطع، وفي هذا السياق يبدو تأثر الفيلسوف الإنكليزي بالتغير والديناميكية التي أعلنها الفيلسوف الفرنسي هنري بيرجسون، على أن اعتباره الحدث المحدَّد ناجما عن اندخال الكينونات الميتافيزيائية الأبدية، يجعله أفلاطونيا بأكثر من كونه بيرجسونيا. ومن منظور ديني يدافع ألفرد نورث وايتهد في كتابه (السيرورة والواقع) عن العقيدة التوحيدية في الديانات الإبراهيمية، وأيضا ساهمت أفكاره في المذهب العضوي، في تطوير الفكر الديني السيروري، والكثير من المؤمنين أعلنوا أن فهمهم للكون والله أصبح أكثر وضوحا، بعدما اطلعوا على الأفكار المذكورة، التي تجعل الله متطورا باستمرار، وناميا من دون انقطاع، وإن توحيد العناصر الواقعية والمثالية عنى تلقائيا رفض ثنائية الجسم والعقل، فالمكوِّنان للثنائية المذكورة متوالية من الأحداث، وما من علاقات خارجية تحكم العلاقة القائمة بينهما، وهنا أيضا تقدم ألفرد نورث وايتهد باتجاه الأفلاطونية، ولم يعترف بالعناصر المادية في فلسفات كتلك التي للفيلسوف اليوناني أرسطو، والتي للفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، بل أبقى

على ما هو مثالي فقط عندما تقدم من الواقعية الجديدة إلى المثالية الأفلاطونية الموضوعية. وثمة إشارة على قدر من الأهمية عندما يتعلق الأمر بالسيرورة الدائمة، فالفيلسوف اليوناني هيراقليطوس يتكلم عن الحرب باعتبارها قانونا أبديا ينطوي على صراع الأضداد الدائم، ويجعل الخير والشر قائمين في الواقع باستمرار، وهو ما عنى فكرة تتدرج في نطاق التشاؤم ما دام الشر موجودا، وغير قابل للزوال. في حين أن فكرة التطور أو السيرورة لدى الفيلسوف الإنكليزي، لا تستدعي الحرب من الناحية المبدئية، ففي مؤلفه (مغامرات الأفكار) يتكلم عن أسلوبي الإقناع والإلزام القسري، وهو يفترض أن العبودية والإكراه الحكومي والحرب، تنتمي إلى أسلوب الإلزام القسري المرفوض، في الوقت الذي يتطلب فيه انبثاق أسلوب الإقناع على نطاق واسع، نزعة تحررية شاملة، على المستويين السياسي والاجتماعي. والمعروف عن الروائي الروسي ليون تولستوي استنكاره لظاهرة الحرب، وإمكانية انتشار الأفكار البناءة عن طريقها، وفي نهاية رواية (الحرب والسلم) يعرض أفكاره المتعلقة بهذا الموضوع، وهو في كل الأحوال نموذج أخلاقي ديني تقليدي، على الرغم من أفكاره المستقلة عن الهيئة الدينية الرسمية، فالاستقلال وفق الطريقة التي أعلنها في حياته، غير كافٍ لجعله نموذجا تحرريا كالفيلسوف الإنكليزي ألفرد نورث وايتهد، الذي بدت التحررية في حياته نزعة استقلالية أصيلة، وليس لها أن تتلاقى مع الأخلاقية الماورائية التقليدية، والواقع أن هذه التحررية استلهمت الروح الديناميكية، وروح التغير الموصول، وعلى افتراض أن ليون تولستوي تقدم باتجاه المثال الأعلى بأداء تحرري، فإن فكرة المثال الأعلى ذاتها لا تتوافق مع فكرة الديناميكية والتغير دون انقطاع، ومن الناحية الواقعية لن تؤدي إلى أكثر من سياق سياسي واجتماعي سكوني، وغير قادر على الارتقاء والإثراء، أو على التطور باتجاه ما هو أرفع قيمة وأعظم شأنا.

وتبقى نظرية الفيض Flux لدى الفيلسوف اليوناني هيراقليطوس النقطة التي ابتدأ منها ألفرد نورث وايتهد عندما أنشأ فلسفة السيرورة، ومما أعلنه في هذا السياق، أنه سعى إلى قراءة هيراقليطوس في ضوء المعارف العلمية الرياضية والفيزيائية الحديثة، وإلى تعديلها وإكمالها بأفكار أرسطو في الوجود بالقوة والفعل، وأنه ينظر إلى ميتافيزياء الجوهر نظرة تجعلها متممة لميتافيزياء الفيض، ومما أدركه أن فلسفات

جون لوك John Locke (١٦٣٢-١٧٠٤) وديفيد هيوم David Hume (١٧١١-١٧٧٦) وعمانوئيل كانط Immanuel Kant (١٧٢٤-١٨٠٤) وليس جورج فيلهلم فريدريك هيغل، تنطوي في داخلها على فكرة الفيض بدرجات متفاوتة، وأن ميتافيزياء الجوهر أقل مرتبة وقيمة، فالفيلسوف هنري بيرجسون أشار إلى أن فلسفة الجوهر تجعل للكون حيِّزاً مكانياً، وهو ما أملى على ألفرد نورث وايتهد الاهتمام بفكرة الفيض لدى هيراقليطوس، وإقرار إمكانية وجود نوعين من السيرورة الصاعدة والهابطة في الوقت ذاته، فالسيرورة الصاعدة تعني النمو للكينونات الفردية، وتكوين كينونات فردية جديدة، وهو ما دعام بالحادثات الفعلية. وفي هذه النوعية من السيرورة تكون الغاية المتمثلة في تكوين كينونات فردية جديدة متحققة، أما السيرورة الهابطة فتعني فناء النمو، والإبقاء على عنصر أصلي، يخدم من أجل تكوين الكينونات الجديدة في المستقبل، وهذه السيرورة الناقلة للأسباب أو العلل الفاعلة، تعبِّر عن الماضي الخالد. وكما في فلسفة هيراقليطوس، فإن النمو لا يصل إلى الاتحاد مع العلة النهائية، وهو ما جعل ألفرد نورث وايتهد يستخدم تعبير الحادثات ذات التظاهر القبلي، والتي هي تزييفات أو إحباطات، وهكذا فإن التطابق قائم بين الشيء وتناميه، وما من وجود لأكثر من هذا أو لغيره، والتنامي ذاته يعني النمو معا، والتحام الأجزاء أو الأعضاء المنفصلة في الأصل، وإن سيرورة الكينونات المتحوِّلة إلى معطيات من أجل التنامي الجديد، هي الوجدان أو الوعي، ولعلها الشعور الحي بكلمة أخرى، فالحادثة الفعلية إنما هي تنام متأثر بسيرورة المشاعر، وعلى خلاف الصيرورة وفق أرسطو، لا يؤدي التنامي على الإطلاق إلى الفعل السكوني الذي ينزع باتجاهه، بل يصل الأوج الذي يعني زوال عدم التحديدات، وتحقيق الإمكانيات، وإن زوال عدم التحديدات هو الإشباع التام للوجدان، ومن ناحية أخرى تدفع كيفية تفسير عبور اللحظة الفعلية عبر الزمان، في طريقين صاعدة وهابطة، ويشير ألفرد نورث وايتهد إلى تكوين ائتلاف هام بين التدفق الفيضي لدى هيراقليطوس، ومفهوم القوة والفعل لدى أرسطو، فالقوة لدى أرسطو هي المادة التي تكمن فيها كل الإمكانيات، والتي يأتي منها الفعلي أو المحدَّد المتعيِّن، والكائنات ذات القدرة النوعية عبر سيرورة الصيرورة. وألفرد نورث وايتهد يشير إلى القوة الموجودة في رعاية المستقبل القادم، وفي كنف حمايته، وهي القوة القادمة في يوم

من الأيام كي تكون واقعا فعليا. وأما انتقال القوة إلى الفعل فيحدث في سيرورتين: الأولى منهما عيانية، وتتمثل في الانتقال من الفعلية الحادثة إلى الفعلية في طور الحدوث. والثانية منهما غير عيانية، وتتمثل في التنامي، أي في تحويل الأوضاع التي هي مجرد حقائق واقعة إلى فعليات محدَّدة ومتعيِّنة. والماضي بناء على هذه الاعتبارات هو سلسلة أشياء مترابطة تنمو باتجاه ما هو مستقبلي في الوقت الجاري الحاضر. ومن هذه الحقائق يتم الوصول إلى مذهب الكيان العضوي أيضا، فالوجود يحوي جمهرة من الأشياء الفعلية، وهي ليست بالكيان العضوي السكوني، بل إنها عدم اكتمال دائم في سيرورة من الإنتاج الدائمة دون أي انقطاع. ومما يدعو إلى التأمل في قصيدة (إرادة الحياة) للشاعر الرومانتيكي أبي القاسم الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤)، تعبيره اللافت عن مفاهيم الديناميكية والتغير والتعالي، وعن فكرتي الوجود بالقوة والفعل، وأيضا عن ترافق التنامي مع اطراد الوعي والمشاعر إلى درجة الأوج، الذي يترافق مع تحقيق الإمكانيات، وزوال التحديدات، وثمة إشارة إلى أن الكون كيان عضوي حي، وإلى ارتباط الأحداث الفعلية الواقعية بما هو ميتافيزيائي في الكون:

هو الكون حيٌّ يحبُّ الحياةَ
ويحتقر الميْت مهما كبرْ
وقال لي الغاب في رقةٍ
محبَّبة مثل خفق الوترْ
يجيء الشتاء شتاء الضبابِ
شتاء الثلوج شتاء المطرْ
وتبقى البذور التي حُمِّلتْ
ذخيرة عمرٍ جميل غبرْ
مُعانقةً وهي تحت الضبابِ
وتحت الثلوج وتحت المدرْ
لِطيف الحياة الذي لا يُمَلُّ
وقلب الربيع الشذيِّ العطرْ
وما هو إلا كخفق الجناحِ
حتى نما شوقها وانتصرْ
فصدعت الأرض من فوقها
وأبصرتِ الكون عذب الصورْ
وشفَّ الدجى عن جمال غريبِ
يشبُّ الخيالَ ويُذكي الفكرْ
ومُدَّ على الكون سحرٌ غريبٌ
يُصرِّفه ساحرٌ مُقتدرْ

وهذه الحقائق تؤكد على أهمية الفلسفة في اكتشاف الثراء الذي تحفل به الإبداعات الأدبية الرفيعة المستوى، وتهب الإبداعات الأدبية قيمة غير مُنتظرة من الناحية المبدئية. وألفرد نورث وايتهد الفيلسوف هو فيلسوف ميتافيزيائي قبل أي شيء آخر، وهو

ينتمي إلى مؤسسي فلسفة الوجود في القرن العشرين، والميتافيزياء كما يراها وصف للحقيقة، فالفعلي في صيرورة أبدية، وهو نهر من الحوادث، والديناميكية الجذرية تطبع كل شيء بطابعها، وأما العناصر الميتافيزيائية فهي الموضوعات الخالدة التي تقابل المثل الأفلاطونية، ولكنها إمكانيات موضوعية خالصة في موضوعيتها، وليس وجودها فعليا، إضافة إلى الدفعة الإبداعية العمياء التي هي علة فاعلة، ومادة الصيرورة معا، ولعلها تقابل فكرة الجوهر في فلسفة باروخ سبينوزا الذي هو الله والطبيعة معا، باعتباره فيلسوفا من أنصار مبدأ وحدة الوجود، والجوهر هنا هو ما يكون في ذاته، ولا يفهم إلا من خلال ذاته، ولا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر. وأخيراً هناك مبدأ الحد أي الله الذي يستطيع تفسير ظهور الفعلي المتعيّن، وهو مبدأ فعلي وزماني يحد ويحدد الحوادث التي في صيرورة تهدف إلى إنتاج وحدة تركيبية جديدة، تحت تأثير الدفعة الخلاقة للجوهر، والحدث الموجود بالفعل، وهذه الوحدة التركيبية الجديدة تضم الموضوعات الخالدة، وأوجه الحوادث الواقعية الأخرى، ومرة أخرى يبرز مفهوم الحدث الأساسي في فلسفة ألفرد نورث وايتهد باعتباره الفرد الواقعي والفعلي والقيمة، والذي ينطوي على كل أوجه العالم الواقعي، والموضوعات الخالدة، والدفعة الخلاقة والإله الذي هو مُباطن أو حالٌ في العالم. والحدث شيء يزيد على العالم الذي يسبقه، لأن له فردية جديدة تخصه، ويقوم على خلق كيان فعلي جديد، وبالتالي على خلق قيمة جديدة.

وفي قصيدته (ألاستور أو روح العزلة) يقدم الشاعر الإنكليزي الأفلاطوني بيرسي شيلي Percy Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢) انطباعا بأنه ممن يعتقون مبدأ المباطنة، ويعتقدون به. والواقع أن الإشكاليات الميتافيزيائية على درجة عالية من التعقيد، وليس من الطبيعي على سبيل المثال، اتهام الشاعر العباسي ابن الفارض (١١٨١-١٢٣٤) بأنه اعتنق مبدأ المباطنة أو الحلوليَّة، فالحقيقة الأولية تعني أننا أمام نماذج روحية متقدمة في اختباراتها الروحية، وأرفع شأنا وقيمة من أن يتناولها التقليديون بالانتقادات التي تبدو خطرة، لأنها تتنافى مع ما هو لائق بالكائن البشري ذي الانفتاح العقلي، والتكوين الجواني الديناميكي. وأيضا ربما يكون امتداح الفيلسوف الإنكليزي للشاعر الرومانتيكي الإنكليزي الآخر وليم وردث وورث William Wordsworth (١٧٧٠-١٨٥٠) ناجما عن تقدمه من معرفة

حسية إلى معرفة أخلاقية، وإلى معرفة روحية ختامية، تدمج الطبيعة وقواها الروحية بالألوهيَّة، على الرغم من أنه الشاعر الذي أبدى تحررية في البداية، وانتهى إلى أداء تقليدي محافظ أخيرا، على أنه الأداء الذي ينطوي في تجلياته كلها، على تقدم من الواقعية إلى توحيد الواقعية والمثالية، وهو ما يتوافق مع الواقعية الجديدة، فإلى الروحية المثالية، وهو من منظور فلسفي كائن ديناميكي سيروري، تقدم إلى حدود معينة ووقف عندها، وهو يعبر بأدائه عن مفاهيم المذهب العضوي من تغير وثبات وتخلل. وفي كتابه (البيادر) وتحت عنوان «العاصفة» يصف الكاتب اللبناني ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) اصطراعا عنيفا بين الكائنات الحية بإشراف مباشر من الله، وعلى خلفية العاصفة العاتية، ونحن أمام رؤيا Vision تتماشى مع علم اللاهوت، وليس مع المذهب العقلي الذي أقره ألفرد نورث وايتهد، ولعلنا أمام تجربة دينية ذاتية مخصوصة، ينتهي الاصطراع فيها بارتقاء الكاتب الجواني، أي بإنجاز قدر أصيل من التعالي، وبالتعايش السلمي بين الكائنات الحية المفترِسة والمفترَسة التي تعبر عن أضداد متنافرة، وهي حالة تعبر عن انتصار شامل للخير على الشر، وعن تجاهل للاعتبارات العلمية، والتفكير العقلاني الأصيل، وعن انتهاء الاصطراع والصيرورة إلى حالة ختامية سكونية، وهو ما يتعارض مع نظرات الفيلسوف اليوناني هيراقليطوس، وقراءة الفيلسوف ألفرد نورث وايتهد المعاصرة لأفكاره في الصيرورة، على ضوء المعارف الحديثة. وعندما يقرر هذا الفيلسوف أن الحدث هو الفرد الواقعي، وهو الفعلي الذي هو قيمة، فإنه يقدم انطباعا بأن القيم متغيرة، وفي حالة سيرورة، وهو ما يجعل الواقع غير سكوني، وما ينجم عن حقيقة كونه ديناميكيا. وفي مقابل هذا الزعم فإن الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشة سعى بقوة كبرى، إلى إعادة تقييم القيم المألوفة ذات الطبيعة السكونية، ومن ناحية أخرى ربط الاعتقاد المكين بالعلم، باعتقاد مكين آخر بالميتافيزياء، وبأن الحقيقة موجودة وإلهية الطابع، ولا ينبغي انتقادها أبدا، والتشكيك في وجودها اليقيني، وهذه الاعتبارات لا تتوافق مع اعتبارات ألفرد نورث وايتهد الذي تقدم من المرحلة الرياضية والعلمية باتجاه المرحلة الميتافيزيائية، وليس بأي اتجاه آخر، ومما هو لافت أيضا أن الجوهر في فلسفة باروخ سبينوزا الذي يدمج الألوهية بالطبيعة، ويعتنق مبدأ وحدة الوجود، جوهر عقلاني،

وأن الدفعة الإبداعية الخالقة في فلسفة ألفرد نورث وايتهد عمياء، وهو ما يقربها أيضا من فكرة الإرادة الكونية العمياء لدى الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهاور.

وبشأن الله يرى أن طريقة البحث عنه ينبغي لها أن تكون عقلية وغير حدسية، وأن برهان أرسطو الكوني أصبح عتيقا، وفي الوقت الذي اعتقد فيه أنه لن يتجاوز أرسطو كثيرا في هذا الميدان، وفكرته عن المُحرِّك الأول الذي لا يتحرَّك، والذي هو عقل خالص لا يفكِّر إلا في ذاته، ولا صلة له بالعالم والإنسان، فإنه في ميقات تالٍ طوَّر نظرية في الإلهيات، وقال بأن لله طبيعة أولية، وهو من هذا المنظور ثابت وأبدي وخارج الزمان، ووجوده الفعلي لانهائي وكامل، وطبيعة لاحقة، وهو من هذا المنظور الإدراك الواعي التصوُّري الكلي، وذو الحضور الكلي أيضا، وجوهر العالم المثالي، واللافت أن لغة الفيلسوف الإنكليزي تقترب من لغة التصوُّف في الأفلاطونية الجديدة. وإضافة إلى هذا فإن الله هو مبدأ التناسق والتناغم والنظام، وهو مبدأ السلام والخير، وهو القائم على تقييم العالم، والذي يؤدي إلى التقدم النوعي فيه، والشر ليس له أن يأتي من مصدره، وأكثر من هذا فإنه في حالة صراع مع هذا الشر الذي يؤدي إلى التراجع والفوضى في العالم. وبكلمات أخرى فإن سيرورة العالم إنما هي خبرة الله، والطبيعة ذاتها خبرة، وهو ما يدفع في مرحلة أولى باتجاه الواقعية الجديدة، وفي مرحلة ثانية باتجاه المثالية الموضوعية، والكليات ذوات الكيف التي اعتقد بوجودها وحدها من دون غيرها، روَّاد واقعية العصور الوسطى من أمثال أنسلم أسقف كانتربري Anselm of Canterbury (١٠٣٣-١١٠٩) والقديس توما الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥-١٢٧٤) بطريقة أو بأخرى، الذين تبنَّوا الكلامية الأفلاطونية أو الكلامية الأرسطوطاليسية تتماشى في فلسفة ألفرد نورث وايتهد مع الموضوعات الأبدية والدفعة الإبداعية والطبيعة الأولية لله، وتنتقل من العالم المثالي إلى العالم الفيزيائي الذي تتدخل فيه طبيعة الله اللاحقة، وتحدد الأحداث الفعلية وكيفياتها التي تقابل الجزئيات في المفاهيم القديمة. ويبدو أن الانطلاق من الواقعية والأحداث الفعلية باتجاه المثالية الموضوعية والكليات، أفضل من التركيز على الكليات إلى الدرجة التي تصبح معها الجزئيات الفعلية نافلة وليست مما يستدعي أدنى اهتمام، وفي كل الأحوال يبدو أن الفيلسوف الإنكليزي أحرز النجاح الشامل في تحليلاته وتركيباته

الفكرية، وتجاوز النزعة الاصطفائية عندما استطاع بأصالة تفكيره وإبداعه، إنتاج فلسفة جديدة تحتوي المفاهيم الموجودة في فلسفات كثيرة أخرى، بطريقة مُغايرة عنها، وفي الوقت ذاته تنطوي على قدرات إبداعية تميِّزه عن غيره من المفكرين، وتقدِّم نظرات فكرية جديدة في إطارها العام.

وثمة نقطة هامة وخدمة أداها هذا الفيلسوف عندما أعلن أن طبيعة الله اللاحقة نامية ومتطوِّرة باستمرار، وهناك الكثيرون من أتباع الديانات الإبراهيمية ممن أبدوا تقديرهم للرؤية التوحيدية الجديدة. فالتطور الذي يشمل كل شيء في الكون، يدفع باتجاه التقدم المطرد، ويمنع نمو النزعات الفكرية الجامدة، وسيطرة التيارات القائمة على اعتناق حقائق معينة، وعدم تجاوزها، وعدم اتفاقها مع التيارات الأخرى. وفي هذا السياق تقدَّم ألفرد نورث وايتهد باتجاه نقد فكرة المثال الأعلى على ما هو قائم في فلسفة أفلاطون، فالمثال الأعلى ذاته يعني أن الغاية النهائية معينة ومعروفة، وهو ما يعني أننا موجودون في إطار سكوني جمودي وغير ديناميكي، وعلى الرغم من انتصار كتاب عالميين للنزعة التحررية كالكاتب المسرحي النرويجي هنري إبسن Henrik Ibsen (١٨٢٨-١٩٠٦) الذي حاول في سياق أدبي، اقتفاء أثر الفيلسوف الوجودي الدانماركي سورن كيركجارد، فإنهم أبقوا على فكرة المثال الأعلى، وهو ما يعني أن تحررية ألفرد نورث وايتهد أعظم شأنا، وأيضا هي أعظم شأنا من تحررية الشاعر بيرسي شيلي القابلة للارتداد باتجاه النزعة السكونية الجامدة، والمعلوم أن الشاعر الآخر وليم وردث وورث اعتنق التحررية، وارتد باتجاه النزعة التقليدية المحافظة، وفي هذا دليل قوي على أن هذه النوعية من التحررية إنما هي انطلاقة تقليدية محافظة في نهاية المطاف. والدليل قائم أيضا على أن انطلاقة جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) التحررية التي تصدَّت للسلطتين الزمنية والروحية، باعتبارهما سكونيتين وغير ديناميكيتين في الواقع، غير مالكة للديناميكية التي اعتقد جبران خليل جبران أنها تملكها، وغير قادرة على التبشير بأكثر من النزعة السكونية المحافظة، والأخطر من هذا أن السياق السكوني يدفع باتجاه أداء سلوكي معيَّن، وباتجاه تحنيط العقل والنفس في قالب معيَّن أيضا، وهو يدفع باتجاه الاستسلام التام أمام الواقع واعتباراته، وباتجاه خليط من الخير والشر تكون الغلبة فيه للشر، أو تكون كفة الشر فيه طاغية، وفي هذه الأجواء تنتشر الغوغاء، وتغيب

العقلانية بالمعنى الأصيل. ووفق ألفرد نورث وايتهد فإنــه ما من حقائــق كلية، وقديما أعلن هيراقليطوس أن المرء لا يسـتطيع أن يستحم مرتين في النهر الواحد، فالماء يتدفق باسـتمرار، والمرء والماء وكل شـيء في حالة من الصيرورة والجريان ليس لها أن تتوقف أبدا. ومما يسترعي الاهتمام أن ألفرد نورث وايتهد أسـقط على علم اللاهوت فلسـفة السيرورة، وأنشـأ علم اللاهوت السيروري، وهو بهذا الإجراء أزال إمكانية تحوُّل النظام المعـرفي الأخلاقي الميتافيزيائـي إلى نظام بطريركي اسـتبدادي، والأهـم من هذا أنه أزال إمكانية الركـون إلى نظام معرفي غير ديناميكي، فالحقائق كلها أنصاف حقائق ما دامت السيرورة دائمة، واعتبارها حقائق لن يـؤدي إلى الخير العام، بـل إلى متوالية من الانهيارات الإنسانية.

المراجع

المراجع العربية:

١- الدكتور محمود زيدان، مغامرات الأفكار، ألفرد نورث وايتهد، تراث الإنسانية.

٢- ترجمة: سمير كرم، الموسوعة الفلسفية، ألفرد نورث وايتهد، غوتفريد فيلهلم ليبنيتز، هنري بيرجسون، أنسلم أسقف كانتربيري، إدموند هوسّرل، جورج فيلهلم فريدريك هيغل، جاليليو جاليلاي، دار الطليعة، بيروت.

٣- إعداد: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ألفرد نورث وايتهد، دار الطليعة، بيروت.

٤- الدكتور زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، ألفرد نورث وايتهد، كتاب العربي السابع والعشرون.

٥- إ. م. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبة، ترجمة: عزّت قرني، ألفرد نورث وايتهد، عالم المعرفة، الكويت.

٦- الدكتور نظمي لوقا، إنديميون، جون كيتس، تراث الإنسانية.

٧- فريدريك نيتشة، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيسي.

٨- جبران خليل جبران، المؤلفات الكاملة، تقديم: ميخائيل نعيمة، البدائع والطرائف، المواكب، الأرواح المتمردة.

٩- باولو كويلهو، الخيميائي، ترجمة: فاطمة النظامي، دار الباحث.

١٠- الدكتـور عادل العـوّا، المذاهب الفلسـفية، تومـا الأكويني، هيراقليطوس، أرسطو، سكتوس إمبريكوس، جامعة دمشق.

١١- الدكتور علي عبد الواحد وافي، آراء أهل المدينة الفاضلة، الفارابي، تراث الإنسانية.

١٢- عمر أبو ريشة، الديوان، امرأة وتمثال، بيروت، دار العودة.

١٣- الدكتور عبد الوهاب المسيري ومحمد علي زيد، مختارات من الشعر الرومانتيكي الإنكليزي، جون كيتس، بيرسي شيلي، وليم وردث وورث، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
١٤- الدكتور محمد سليم سالم، الأعمال والأيام، هيزيود، تراث الإنسانية.
١٥- أبو الطيب المتنبي، الديوان، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، بيروت، دار الكتاب العربي.
١٦- الأستاذ علي أدهم، الحرب والسلم، ليون تولستوي، تراث الإنسانية.
١٧- أبو القاسم الشابي، الديوان، إرادة الحياة، بيروت، دار العودة.
١٨- أنيس المقدسي، أمراء الشعر العباسي، ابن الفارض، دار العلم للملايين، بيروت.
١٩- ميخائيل نعيمة، البيادر، العاصفة، دار نوفل، بيروت.
٢٠- الأستاذ علي أدهم، مدام بوفاري، جوستاف فلوبير، تراث الإنسانية.
٢١- هنري إبسن، بيت آل روزمر، ترجمة: أحمد النادي، وزارة الإعلام، الكويت.

English References:

1- Encarta Encyclopedia, Alfred North Whitehead, Soren Kierkegaard, Leo Tolstoy.
2- Internet, Wikipidia Encyclopedia, Alfred North Whitehead, Panpsychism.
3- Studies on Philosophical Thought, Juliette Quayshik, Damascus University, Arthur Schopenhauer.



الدّراسات والبحوث



وصف الشّعراء لآثار حلب

محمود أسد ۞

مدخل:

الشــعر إبداعٌ إنســانيٌ وموهبة تتــوق إلى الجمــالِ في كلِّ أطوارِ الحياة أحزانها وأفراحِها. والشعر ترجمان للروح الهائمة. فتأسرهُ المواقف،وتجذبهُ الطاقــات المبدعة. ولذلك يُعَجَبُ الشــاعرُ بإبداع الخالق وصــنعه. فيتأمَّلُ ويتســاءَلُ، ويثيرُ زوبعة من الأَســئلة. وبالمقابل يُعَجَبُ بإبداعات الإنسان في مجالاتِ النحتِ والرقص والغناء والبناء والزخرفة وغيرها.

۞ أديب وشاعر سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وهـذا جانـب تتداخـل فيـه الفنـونُ الإنسـانية. فكم لوحة فنيّة صاغها الشعراءُ شعراً. وكم قصيدة ألهمت الفنانين، فأعادوا صـياغتها لوحة أو رقصة أو معزوفة. وهذا عطاء إنسـاني جديـر بالتقديـر. وما أكثرَ الأدبـاء الذين جمعـوا بـين الأدب والفن" تمثيلاً أو رقصاً أو نحتاً وبالعكس!

إن المكانَ الحافلَ بالعطاء الإنسـاني، يحتفـي باسـتمرار الحيـاة ومـا فيها من صـخب وحياة وهدوء. وبيع وشراء وحَراك سياسـي هو مكان محقّـق كينونته، يدعوك للاستقرار. والاسـتقرار يحثُّ على الإبداع والبنـاء والتمايز. وهذا شـأن حلب كغيرها من المدن الضاربة في القدم والمستمرة بنبض الحياة.

في حلـب مـوادُّ منوعةٌ وشـاملةٌ تغري المبدعـين، وهذا ليـس من بـاب التفاخر والادّعاء، ولكنها الحقيقة التي تبرزها معالمُها ويقدّمُها تاريخها. وترسمها أحداث الدهر. ولذلك لم يغفلْ ذكرُ حلب عن مسـار التاريخ وأحداثـه. تراهـا في أغلب الكتـب الأدبية والتاريخيـة. كانت محطّةً لامعةً ينطلق منها الدارسون، وينْهَلُ منها الباحثون. فالاختلاف حول عمرها، وحولَ تسـميتها ونسبتها تقرُّ بذلك. ونشـاطاتُ التنقيـب في قلعتها وما حولها، والاهتمام العالمي بآثارها يثبت مدى أهميّتها وفي دراسـتنا هذه سـنتوقّف عند وصف الشعراء لمعالمها الأثرية، ومنها أعرّج تلميحـاً إلى بعض طباعهـا وأحيائها كآثار لاماديّة..

حظيـت حلـب منـذ القـدم باهتمام الشـعراء، وكانت ملهمة. وجدوا فيها أرضاً خصبة للإبداع. فانتشر فيها الفنُّ بأنواعه. وذاع صـيتُ أبنائهـا في الطـرب والرقص والغنـاء. وكانت قبلـة الفنانين والشـعراء والأدباء والعلماء الذين أقاموا فيها أو عبروا أرضها. فأين يكمن هذا السحرُ الحلالُ الذي يثيرُ شـهوةَ الإبداع؟ وهل تملك حلب العصا السحرية الجاذبة؟ حلب لها موقعها المتميّز، ولهـا خصوصـيّة المجتمع الموّار بالنشـاط والحيـاة والإبداع. ولها وفرة الأحداث التي عصفَت بها، وتركت أثرها ولها سـجلٌ حافلٌ يبوّئها موقع القلب من الإنسـان. فلا غرابة إن سـلبت الأفئـدة، وأيقظـت الإبداع من غفوته.

آثار حلب في شعر الأقدمين

هناك الكثـير من الكتب التي غاصـتْ في أعمـاق حلـب، وتناولتهـا في شـتّى المجالات الاجتماعيـة والثقافية والعمرانية والتراثية..

في هـذه الكتـب نجـدُ آراءً ذاتَ قيمة معرفية، نسترجع الذكريات والأحداث التي لا تخفى على أحدٍ ولم تخفِ شيئا.



حلبُ من المدن التي تكتظُّ بالآثار، وسورُها المنيع يرعى بين جنباته وفي مركزه مسجدها الأموي وأسواقها وحماماتها وخاناتها، وفي مركز القلب تنهض قلعتها. وعلى أطرافها تلك الأبواب الحصينة والمنيعة.. وخاضت معاركَ البقاء وخرجت ظافرة مرفوعة الرأس. ولذا أحبها الشعراء قديماً وحديثاً. وما أكثر القصائدَ في ذلك!

هذا الشيخ محيي الدين بن عربي وقد حلَّ بها، فوصف محاسنها وأشاد برجالها. (نهر الذهب - الغزي- ج١/٧٢)

حلبٌ تفوقُ بمائها وهوائها
وبنائها والزهر من أبنائها
نورُ الغزالة دون نور رجالها
والشهبُ تقصُرُ عن مدى شهبائها
طَلَعَتْ نجومُ النصر من أبراجها
فبروجُها تحكي بروجَ سمائها
والسورُ باطنُهُ، ففيه رحمةٌ
وعذابُ ظاهره على أعدائها
بلدٌ يظلُّ الغريبُ كأنَّهُ
في أهله، ما سمعُ جميلَ ثنائها

هناك الكثيرُ ممَّا قيلَ في ذكر معالمها الأثرية، ولكنَّ القليلَ من الكثير قد لامسها عن قرب. فهناك ذكرٌ سريعٌ وعابرٌ لمعالمها الأثريّة التي ارتبطت بحلب باستثناء القلعةِ والمسجد الكبير عند بعض الشعراء.

ذكر الشـاعر محمد الديري «الفردوس» وذكره كباب:

في بـــاب فـــردوســـ حـلـبٌ
سـطـرٌ مـن الخـطّ عـجـبٌ
فـيـه صـحـافٌ مـن ذهـبٌ
هُـنّ صـحـافٌ مَـنْ ذهَـبْ

وذكر الفردوس الشـاعر زين الدين بن الوردي. ورد في أعـلام النبلاء /الجزء ٣/ ٤٥٢:

عـليكَ بصهوةِ الشهباء تكفي
بجوشنـهـا محـاربـةَ الـزمـانِ
فـللغرفاتِ في الفـردوسِ طيـبٌ
يـفـوحُ شـذاهُ من بـابِ الجنـانِ

وبـاب الجنـان بـابٌ من أبـواب حلب المندثرة. وقد ذُكرَ أيضـاً في أكثر من مكان، ففي معرض تفضيل حلب على سائر المدن، قال أحد الشعراء:

لقد سبقتْ شهباؤنا كـلَّ سابقٍ
إلى الحسنِ، وامتازتْ على الزهرِ بالوردِ
وفيها لنا بابُ الجنـانِ، وحُـورُها
بفردوسها يرتَعْنَ في فلكِ السعدِ

ويذكر الشـاعر أبو سـعيد العزّي أيامه في الشهباء وذكرياته في أماكن معروفة منها (باب المقـام وباب الأربعين وبـاب الجنان والفردوس) فيقول: / مدينة حلب في قوافي الذهب / للدكتورة كارين صادر ص ١٢٤:

أيا ساكني الشهباءَ عندي لعهدكمْ
قـديمُ ولاءٍ لم يُـشَـبْ بمَـلالِ
إذا حلبٌ يمّمْتَ ساحةَ أرضِها
فـحَـيِّ قـيـامـاً بـالمقـام غـوالِ
وعـرِّجْ بـبـاب الأربـعـين مبلّغاً
سـلامـيَ أحـبـابـاً بـه ومـوالِ
ولم آلُ عـن بـاب الجنـانِ تسلّياً
لسلسالِ مـاءٍ كـالحيـاةِ زُلالِ
وروّى مقرَّ الأنبياءِ سحائبٌ
يـؤلّـفـهـا ريـحـا صَـبـا وشـمـالِ
يـذكّـرني الـفـردوسَ طيبَ نعيمه
فيا حسنَهُ لو لم يُـتَبْ بـزوالِ

وفي الديوان الحلبـي القديم المتناثر في حنايا الكتـب التاريخية ودواوين الشـعراء الكثيرُ من الأبيات والمقطوعات التي تذكر حلـب ومعالمهـا. وقـد جمعتهـا وحقَّقَتْها الدكتورة «كارين صادر» وصدر بعنوان «مدينة حلب في قوافي الذهب» وهو من منشـورات وزارة الثقافة بمناسبة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية.

ذكر الشـاعر عمر اللبقـي باب النصر وباب الفرج وباب الجنان والباقي منها باب النصر فيقول:

يمِّمْ حمى حَلَبَ تلقَ السرورَ على
جبـينِ أبـنـائـهـا، الـنـيّرِ البـهجِ

فعُجْ ولُجْ، وتأمّلْ بلدةً شملتْ

باب الجنان وباب النصر والفرج

هذه المعالم ذكرتْ دون أن تأخذ حقها من الوصف الفني الدقيق الذي يبرز عظمة البناء والخطوط وحلب افتقدت لشاعر حقيقي كبير يصف معالمها الدقيقة سوى الصنوبري الذي أكثر من وصفها وذكرها وربما يبقى نهر قويق الظاهرة الوحيدة التي التفت إليها الشعراء، فوصفوا حاله في كل الظروف وهذا ليس مجاله الآن.

ورأى بعضهم في باب الفرج منتجعاً للروح المتعبة، فيقول الشاعر يوسف الدمشقي وهو نقيب أشراف حلب:

قُلْ لمن رامَ النوى عن بلدةٍ
ضاق فيها ذرعُه من حرجِ
علِّلِ القلبَ بسكنى حلبٍ
إنَّ في الشهباءِ بابَ الفرجِ

ومازال إلى فترة قريبة ملاذاً للشباب، فيه المقاهي والمطاعم ودور السينما واللهو والمحلات التجارية والفنادق فهو قلب المدينة.

والشاعر البحتري في ذكره علوة التي أحبها وفي معرض ذكرياته يحنُّ إلى معالم حلب وأحيائها ومنها جبلُ جوشن ومتنزهات حلب (بانقوسا- وبابلي- وبطياس) وقد ذكرت هذه الأماكن غيرَ مرَّة في مقطوعات الشعراء الذين اشتاقوا إلى حلب، فقال البحتري / ديوان الصنوبري ص١٠٩/:

أقامَ كلُّ مُلِثِّ الوَدْقِ رجّاسِ
على ديارٍ بعُلْوِ الشامِ أدراسِ
فيها لعلوةَ مصطافٌ ومُرتَبَعٌ
من بانقوسا وبابُلّي وبطياسِ
منازلٌ أنكرتْنا بعد معرفةٍ
وأوحشتْ من هوانا بعد إيناسِ
يا علوَ لَوْ شئتِ أبدلتِ الصدودَ لنا
وصلاً ولانَ لصبٍّ قلبُكِ القاسي
هل لي سبيلٌ إلى الظهرانِ من حلبٍ
ونشوةٍ بين ذاك الوردِ والآسِ؟
إذ أقبلَ الريحُ، والأيامُ مقبلةٌ
من أهيفٍ خنثِ العطفينِ ميّاسِ

وقد وردت هذه الأبيات في أكثر من كتاب.

وللصنوبري قصيدة مطولة يصف أشهر ما في حلب من معالم طبيعية وأحياء سكنية وذكريات حضرت في ذاكرته والقصيدة جاءت على مجزوء الرمل فأعطت إيقاعاً جميلاً وسريعاً يضاف إلى رويّ الهاء المشعّ في طلاقته والعميق في دلالته ومطلعها (ص١٤٤):

أحبسا العيسَ احبساها
وسلا الدارَ سلاها

ومنها:

بـانَقوسـا وبـهـا بـا
هـى المباهـي حـينَ باهـا
حَـلَـبٌ بـدْرُ دجـى أنـ
ـجُـمُـهـا الـزهـرُ قـراهـا
حـبـذا جـامـعـهـا الجـا
مـعُ لـلـنـفـسِ تُـقـاهـا

ثم يصف الجامع الكبير ومئذنته:

مـوطِـنٌ يُـرْسـي ذوو الـبـ
ـرِّ بمـرسـاهُ حـبـاهـا
شـهـواتُ الـطـرفِ فـيـهِ
فـوق مـا كـان اشـتـهـاهـا
قـبـلـةٌ كـرّمـهـا الـلـ
ـهُ بـنـورٍ وحـبـاهـا
ورآهـا ذهـبـاً في
لازوردٍ مَـنْ رآهـا
ومـراقـي مـنـبرٍ أعـ
ـظـمْ شـيءٍ مُـرْتـقـاهـا
وذُرى مـئـذنـةٍ طـا
لـت ذرى الـنـجـمِ ذراهـا
قـبَّـةٌ أبـدعُ مـا فـيـ
ـهـا بـنـاءً إذْ بـنـاهـا
ضـاهـت الـوشـيَ نـقـوشـاً
فـحـكـتـهُ وحـكـاهـا
لـو رآهـا مـبـتـنـي قـبَّـ
ـةَ كـسـرى مـا ابـتـنـاهـا

بهذا الوصف الرائع والدقيق للجامع الأموي في حلب يكادُ يكون الوصف المتفرّدُ لهذا المسجد، وبهذه الدقة والبراعة.

وفي هذه القصيدة نفسها يذكر البابَ الأثري المشهورَ (باب قنسرين)لأنه دفن ابنته التي أحبها في قنّسرين:

شـجْـو نـفـسـي بـابُ قـنّـسْـ
ريـنَ وَهْـنٌ وشـجـاهـا
جَـدَثٌ أبـكـي الـتـي فـيـ
ـهِ ومـثـلـي مـن بـكـاهـا
أنـا أحـمـي حـلـبـا دا
راً وأحـمـي مَـنْ حـمـاهـا
أيُّ حـسـنٍ مـا حـوتْـهُ
حـلـبٌ أو مـا حـواهـا

وهنالك أبيات تصف بعض مساجد حلب القديمة، وهي آيةٌ في العمارة والزخرفة وفنّ البناء، ولكنها لم تحظَ بآيةِ الوصف البديع. ورد في كتاب كنوز الذهب وصف لجامع الطنبغا الأثري. وهو أوّل جامع بني بحلب بعد الأموي كما ورد في الكتاب المذكور. الجزء الأول ص٢٢٥وقال فيه الشاعر ابن حبيب:

في حـلـبٍ دارِ الـقـرى جـامـعٌ
أنـشـأتْـهُ، الـطـنـبـغـا الـصـالحـي
رحـبُ الـذرى يـبـدو لِمَـنْ أمَّـهُ
لـطـفُ مـعـاني حـسـنـهِ الـواضـحِ

مرتفع الرايات يروي الظما
من مائه بالشارب السالحي
يهدي المصلي في ظلام الدّجى
من نوره باللامع اللامح
من حوله الروضُ، يسرُّ الورى
من زهره بالفائق الفائح
لله بانيه الذي خصَّه
بالروح للغادي وللرائح

وفي الكتاب نفسه وردَ وصف لجامع (تغري بردي) والمسمى ب (الموازيني) ويقع في حيِّ السفَّاحية داخلَ أسوار حلب. وصفه الشاعر زين الدين بن إبراهيم الرهاوي وكتبت الأبيات على عتبة منبره ص٢٣٨:

منبرٌ جامعٌ محاسنَ فضلٍ
ذلك الجمعُ ماله من نظيرِ
خصَّ عزّاً بجمعةٍ وخطابٍ
عن رسولٍ مبشّرٍ ونذيرِ
قد بناه لله تغري بردي
كي يجَازى بجنةٍ وحريرِ

وحظيت بعض الأديرة بالوصف، فوصف ابن الوردي آثار دير (بيرة دادخين) وذكر ماضيه الزاهر بالراهبات والرهبان والنواقيس والحدائق والطيور ومجالس الأنس. وربط بين ماضيه المشرق وحاضره الكئيب. هذا ما ورد في كتاب الدكتور أحمد فوزي الهيب «الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء» فجاء في /ص٣١٢/ وقد أعيدَتْ طباعة الكتاب بمناسبة حلب عاصمة الثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٦:

يا ديرُ إنْ تصمُتْ فإنَكَ ناطقٌ
إنَّ النواعمَ ضمَّهُنَّ قبورُ
وتبدَّلتْ تلك المحاسن، وانثنتْ
تلك القدودُ، وخُرِّبَ المعمورُ
فغدوتَ تندبُ أهلكَ باكياً
بلسانِ حالِ طيُّهُ منشورُ
وإذا رأتكَ العينُ تبكي رحمةً
لخلوّ ربعِكَ والبكاءُ يسيرُ
إنَّ التفكُّرَ في المعاهدِ نافعٌ
بل عاصمٌ والغافلون كثيرُ

الأبيات بسيطةٌ بأسلوبها وواضحة معانيها ولكنَّها عميقة الدلالة لعفويتها وصدق ما عبَّرَ عنه الشاعر. ونالت بعض البيمارستانات بعضاً من الذكر فوصف أبو محمد بن حبيب البيمارستان الكاملي الواقع على مقربة من باب قنسرين الأثري الشهير وذلك في كتاب كنوز الذهب لسبط ابن العجمي الحلبي في جزئه الأول /ص ٤٤٨/:

قولا لأرغون الذي معروفُهُ
بالعرفِ قد أحيى النفوسَ والأرَجْ

أنــزلــك الــرحــمــنُ خــيرَ مــنــزلِ
رَحْــب ورقَّــاك إلى أعــلــى الــدرجْ
بــنــيْــت داراً لــلــنــجــاة والــشــفــا
ليسَ بها على المريض من حرجْ

ولمَّا شيِّدت ساعة باب الفرج الشهيرة والتي تعتبر من معالم المدينة المعاصرة في آخر العهد العثماني. أرَّخ ذلك بعضهم ووصفوها، فيقول الشاعر عبد الفتاح الطرابيشي الحلبي فيها:

قد شادَ بالشهبا منارةَ ساعة
تزهو بإتقانٍ وحسنِ صناعة
في دولة الملك الحميد المرتجى الـ
ـثاني الذي ساسَ الورى بدرايةِ
وبهمّة الوالي الرؤوف أخي الحجا
وصنيع قوم من أعاظم سادةٍ
فهمُ رجالٌ قدْ رَوَى تاريخهمْ
لعُلائهمْ حتى قيام الساعةِ

مثل هذا الحدث يستدعي الوصف والتعبيرَ ولكنه بقي في إطار الوصف الخارجي والإعلامي فقط دون ملامسة للنبض الإنساني الذي شيَّد وأبدعَ..

للقلعة حصَّةٌ كبرى في وصف الآثار وهناك أكثرُ من شاعر توقف عند شموخها وارتفاعها وهيبتها.

يصف الشاعر السريّ الرفّاء في قصيدة يمدح بها سيف الدولة. فيصف حلب ويتوقف عند قاعتها ولا غرابة إن كان يربط بين سيف الدولة وقوته ودفاعه وبين القلعة ومنعتها /ص ٩٨/:

وشاهقة يحمي الحمامَ سهولُها
ويمنع أسبابَ المنايا وعورُها
إذا سترتْ غرَّ السحاب، وقد سَرَتْ
جوانبُها خُلتَ السحابَ ستورَها

وكذلك وصف الشاعر الفقيه المعروف بابن أبي المنصور في قصيدة قالها في مدح الملك الظاهر بن يوسف بن أيوب. والوصف أبرزَ جزئياتها من الخارج ومكانتها وموقعها وبلغة جزلة تتناسب مع الموضوع:

وفسيحةُ الأرجاء ساميةُ الذرى
قلبت حسيراً عن عُلاها الناظرا
كادتْ لفرط سموّها وعلوّها
تستوقفُ الفلكَ المحيطَ الدائرا
شمَّاءُ تسخَرُ بالزمان وطالما
بشواهقِ البنيان كان الساخرا

وهناك قصيدة بديعة للشاعرين (الخالديان) وهما شقيقان ولهما ديوان شعر مطبوعٌ. وصفا القلعة في مدحهما لسيف الدولة، وهذه القصيدة من القصائد التي تقترب من الوصف كغرض يهتم بالجزئيات، ويتقن وصف الموصوف، ويقربكَ منه /ص ٦٥/:

وخرقاءُ قد تاهتْ على من يرومُها

بمرقبِها العالي وجانبِها الصّعْبِ

يــزرُّ عليها الجوُّ جيبَ غمامةٍ

ويلبسُها عقداً بأنجمِهِ الشهْبِ

إذا ما سرى برقٌ بَدَتْ من خلالِه

كما لاحتِ العذراءُ من خلَلِ الحُجْبِ

فكم ذي جنودٍ قد أمالَتْ بغُصّةٍ

وذي سَطواتٍ قد أبانتْ على عَتْبِ

ولمّا بيَّض نصوح باشا عام ١٠١٢ للهجرة قلعة حلب ذكر ذلك الشاعرُ مؤرِّخا. أحمد بن يحيى المعروف بالكواكبي /ص٨٧/:

يميناً قلعةُ الشهباءِ أضحَتْ

عروساً عرفُها مسْكٌ يفوحُ

وقالتْ أرِّخوا، عنّي بياضي

فأرِّخها مُبيِّضُها نصوحُ

وتستوقفنا قصيدة أخرى للشاعرين (الخالديان) وهما يصفان القلعة وصفاً بديعاً يليق بجلالها وشموخها /ص١٥٢/:

وقلعةٍ عانقَ العَيّوقَ سافلُها

وحازَ منطقةَ الجوزاءِ عاليها

لا تعرفُ القَطْرَ إذْ كانَ الغمامُ لها

أرضاً توطّأ قطريهِ مُواشيها

إذا الغمامةُ راحتْ خاض ساكنُها

حياضَها قبل أن تهمي عواليها

يُعَدُّ من أنجمِ الأفلاكِ مرقبُها

لو أنّهُ كانَ يجري في مجاريها

على ذرى شامخٍ وَعْرٍ قد امتلأتْ

كِبْراً به وهْوَ مملوءٌ بها تيها

لهُ عُقابٌ عُقابُ الجوِّ حائمةٌ

من دونها، فهْي تخفى في خوافيها

ردَّتْ مكائدَ أملاكٍ مكائدُها

وقصّرتْ بدواهيهم دواهيها

في هذه الأبيات إحاطة بالقلعة الشامخة التي نالت حظاً وافراً من الوصف يتناسب مع عظمتها مع روعةٍ في التشبيه والخيال..

وفي كتاب الأعلاق الخطيرة لابن شداد أبياتٌ رائعةٌ وجميلة تصف (دار العز) التي بناها الملك الظاهر. وقال فيها عبد الرحمن ابن النابلسي بديع الشعر، وصف أصباغها وشموخها وروعة عمرانها جاء هذا في الجزء الأول الذي خص به حلب. وقد علَّق عليها تعليقاً جميلاً وغنياً الدكتور أحمد فوزي الهيب في كتابه (الحركة الشعرية) زمن الأيوبيين في حلب الشهباء ص /١٤٠/:

دارٌ حلتْ دارينَ في طيبٍ ولا

عطرٌ بساحتها ولا عطّارُ

رُفِعَتْ سماءُ عمادِها، فكأنّها

قطْبٌ على فلكِ السعودِ تُدارُ

وزهتْ رياضُ نقوشها وبنفسجٌ

غضٌّ، وورْدٌ يانعٌ وبهارُ

نورٌ من الأصباغِ مبتهجٌ، ولا

نورٌ وأزهارٌ ولا أزهارُ

وضحَتْ محاسنها ففي غسقِ الدجى

يُلفى لصُبحِ جبينها إسفارُ

ثم يصف الشاعر لوحة فنية رائعةً، تذكّرنا ببراعة البحتري وهو يصف إيوان كسرى ولوحة معركة أنطاكية وما أثارتْهُ من إعجابٍ وشكوك:

صُوَرٌ تُري ليثَ العرينِ تُجاهَهُ

منها، ولا يخشى سطاهُ صوارُ

سلمٌ إلى الحرب القديم فآنسٌ

بعدوِّهِ من طال منهُ نفارُ

وموسَّدينَ على أسرَّةِ ملكهمْ

سكراً ولا خمرٌ ولا خمّارُ

لا يأتلي شدوُ القيان رواجعاً

فيهِ ولا نغمٌ ولا أوتارُ

هذا يعانقُ عودَه طرباً وذا

دأباً يقبّلُ ثغرَهُ المزمارُ

فالأبيات ناطقةٌ ومعبرة عن إحساسِ الشاعر الذي أجاد التعبير وهي من القصائدِ القليلة التي لامست موضوع الوصف بهذه البراعة..

تروي الكتب التاريخية أنَّ حلب تعرضت للغزو التتري ولنكبات تركت آثارها الوخيمة على هذه الآثار والمدينة ، فهناك من تألم لحالِ حلب أثناء الغزو المغولي وبعد دخول تيمورلنك الذي أشعل النارَ فيها لمدة ثلاثة أيام فيقول السرّاج المختار وقد أورد الأبيات الغزي في نهر الذهب والطباخ في إعلام النبلاء:

يا عينُ جودي بدمعٍ منك منسكبِ

طول الزمانِ على ما حلَّ في حلبِ

ويلاهُ ويلاهُ يا شهبا عليك وقد

كسوْتني ثوبَ حُزْنٍ غير منسلبِ

ثم يقول:

وخرَّبوا ربعَك المعمورَ حين غدوا

يسعون في كلِّ نحوٍ منك بالنّكَبِ

وخرّقوا من بيوتِ الله معظمِها

وحرّقوا ما بها من أشرف الكتبِ

وقد رثى ابن العديم حلب بعد انصراف التتار عنها، وقد تركوها خرائبَ وحرائق ودماءً وأشلاءً. وردت الأبيات في كتاب الطباخ أعلام النبلاء الجزء الثاني/ ص ٣١٣ / ومطلعها:

هو الدهرُ ما تبنيهِ كفاك يَهْدِمُ

وإنْ رمْتَ إنصافاً لديه فتُظْلَمُ

ثم يقول:

وقد دُرِستْ تلك المدارسُ وارتمتْ

مصاحفُها فوقَ الثرى وهي ضُخَّمُ

فيا حلباً أنى ربوعُك أقفرتْ

وأعتتْ جواباً فهْيَ لا تتكلّمُ

أنوحُ على أهليكِ في كلِّ منزلِ

وأبكي الدّجى شوقاً وأسأل عنهمُ

ونبقى مع رثاء المعالم الأثرية. ذكر

الطباخ في أعلام النبلاء الجزء الرابع/ ص ٣٥١ / أن دير عمان بنواحي حلب. وتفسيره بالسريانية دير الجماعة ومرَّ به أبو فراس بن أبي الفرج البزاعي فقال ارتجالاً:

قد مررْنا بالدير ديرِ عَمانا
ووجدْناهُ دائراً فشجانا
ورأينا منازلاً وطلولاً
دارساتٍ ولم نرَ السُّكانا
وأرتنا الآثارُ من كان فيها
قبلَ تفنيهمُ الخطوبُ عيانا
فبكينا فيه وكان علينا
لا عليهِ لما بكينا بكانا
فرَّقتهمْ يدُ الخطوب فأصبح
تَ خراباً من بعدهم أسيانا
وكذا سيمةُ الليالي تميتُ ال
حيَّ منَّا وتهدم البنيانا

الأبيات تنضح من الآلام والحسرة، وتبث اللواعج مضمَّخةً بالحكمة والعبرة. فماذا تقول الآن ونحن نرى إهمال الآثار وإفسادها بأيدينا وتحويلها إلى منتجعاتٍ وأبنيةٍ حديثة. دافعنُا إلى ذلك عقدة التحديث والعولمة وملء الجيوب ولو كان على حساب آثارنا وأخلاقنا.

آثار حلب والشعر المعاصر:

أكثر الشعراء المعاصرون من ذكر حلب ومن مختلف الأقاليم والدول ،ومن مختلف التيارات الأدبية.وخصَّها الشعراء بقصائدهم وبالعناوين. وكان لاعتماد حلب عاصمةً للثقافة الإسلامية دورٌ كبيرٌ في ذلك. ويضاف إلى ذلك كثرة المهرجانات والمناسبات التي كانت تحتفي بها حلب. والوقفة عند هذه القصائد لا تؤدي الغرض لهذا الموضوع الذي يريد اختيار بعض الجوانب.فهناك عناوين ذكرت قلعة حلب وحلب.واعتبرتها مجداً وحبيبة. ومنها من أخذ أبواب حلب عنواناً لقصائده وعلى سبيل المثال(باب المقام) للشاعر سعيد فخرو، و(باب الجنان) للشاعر محمد علي البابلي، محمود محمد كلزي (الدخول إلى حلب من باب الفرج) والشاعر خليل هنداوي (قاعة العرش) والشاعر أحمد دوغان (قراءة في أبجدية حلب) وغير ذلك كثير..

في هذه القصائد وغيرها اقتراب من الآثار وإنعاش للذاكرة، وبث للشكوى. بعضُ القصائد يكثُرُ فيها الشعراءُ التنقلَ في أزقة حلب وأحيائها، وقصائدُ أخرى لا ترى سوى الخطابة وقسم من القصائد ترتقي فيها الرؤى، فتلامسُ بين المادي واللامادي وتقارب بينهما.

وهناك قصائد ليس فيها سوى النظم. فلا تجدُ ألواناً أو ريشةً أو نبضاً يبعث فيك الدهشة في الشعر أو في الموصوف.

فالشـاعر مصطفى النجار في قصيدته (قـدود جديـدة) والقدّ لون غنائـي تراثيٌّ تشتهر به حلب وتناقلته الأجيال يقارب بين المادي والمعنوي والمحسـوس وغير المحسوس فينقلنا إلى أبواب حلب ويضفي عليها أبواباً يحلم بها ويتمناها وذلك عبر زيارة شـعرية تمكنت من البوح والتخييل فيقول:

/يخفق القلب علـى الأبواب يكتب/ أهنا باب الحديد /يستلين تحت وهج من حنين؟/

/أم هنا باب المقام/ يستفيق الشـجر الغافي ظليلاً/ فوق طفل سوف يمضي في الزحـام /أم هنـا باب الغـرام؟ /أهذا باب الفـرج /أتهادى تحت بـاب النصر جنديا خرج /لفلسطين وصومال المجاعة/.

فالشاعر يحدّد معالم طفولته التي عاشها ويحلـم بما تربى عليه وتشـبّع منه فيمتزج الخاصُّ بالعام.

وفي القصـيدة نفسها يرسـم لنا بعض إشعاعاته من طقوس زيارة القلعة فيقول:

فلنـا فيها مقـام /ولنا فيهـا الأغاني المرمعـه /وحكايـا في الفصـول الأربعة/ وبقايا من زمان مطري/.

إلى أن يقولَ:

/دلَّ قلبـي يـا دليل القلـب/ من أين الصعود /لزمانٍ عبقريٍّ من جديد؟/.

القلعة كانت حاملاً لأسئلة تقلق الشاعر. فراح يشـعل البؤر المظلمـة في عصرنا وهو يتحدَّث عن القلعة والشـاعر المرحوم سعيد فخرو له قصيدة بعنوان /باب المقام/ وباب المقـام حيٌّ أثريٌّ غنيٌّ بالصـخب والحراك الاجتماعـي. فيلـوذ بـه الشـاعر ليشرب ويستعيد ذكريات الزمان السعيدة في لحظة من حاضرٍ يشوي الفؤاد ويثقل بتبعاته:

/أيها الساقي بحانات الزمان/ وسوى حانـك مـالي مـن مـكان /اسـقني.. ثـمَّ اسقني حتى تراني/

/قمـراً في وجـه النجـم اليمـاني/ مشرقاً في كلِّ حانٍ /فاسـبق الموت بكأسٍ/ ما مضى ليس بآت/

/بعضنا ضيفٌ لبعض/وموات لموات/ كلّ من في الأرض فان../

ويختم الشـاعر بنغمة وجدانية إنسانية تشفُّ عن روحه ورؤيته:

/غطّت الشهباءَ أسرابُ حمام/ تسألُ الحانـات عن سرِّ مدامي /لن تـري حاناً كقلبي لتنامي/

/فادخلـي روحـي ونامـي بسـلام/ واسكني باب المقام /كلّما النسمةُ مرَّتْ/ بين عينيك وبيني/«قلعة الشهباء غنَّتْ»/ آه ياليلي وعيني /آه يا سربَ الحمام/.

لا تـرى وصـفاً بل تلتقط إشـارات من دفء المـكان وحميمية الأزقـة، فكان باب المقـام لاستحضـار حكمة واسـتدعاء أيام خوالٍ حضرتْ مسارها في الأعماق.

وللشـاعر محمود محمد كلزي قصـيدة بعنوان (الدخـول إلى حلب من باب الفرج) وقالها بعد عودته إلى حلب. فيسقط عليها روحَهُ المتعطشة وآراءَه الغافية، فيوقظها في هذه القصيدة:

/إنني عائدٌ مـن ضياعي/ أحمـل صبارةً في جبيني /ومسارات قافلتي وسقوطي/

/ألا تذكرينَ. . زمـان التسكُّع في الطرقـاتِ/ الأفاعـي الطويلـة تبتلـعُ اللحظـاتِ /وأقتاتُ من أعـين العابرات/ وأحتضـن الكتـبَ المدرسية/ أرسـم وجه الحبيبة عبرَ الضبابْ/.

ثم يقول متسائلاً:

/ألا فارسٌ من بني أميةَ يمسح جرحي
/ألا فارسٌ من بني حمدانَ/ يكشُ الذبابَ
/ ويفتح باب الفرج /ويصدُّ الذئابْ/.

هذه الآثارُ ما زالت منهلاً للإبداع، يرى فيها الشعراء منطلق إبداعهم، وبؤراً مضيئةً يعبرون من خلالها دهاليز الظلمة للوصـول إلى الحلـم وتجاوز العناء. فالشـاعر أحمد دوغان في قصيدته (قراءة في أبجدية قلعة حلب) ينقلنا عبر تفصيلاته إلى جزيئات من معالم القلعة:

/أرفع رأسـي. . أنظـر هذي القلعةْ/ والتاريخ أمامي/ يرسمُ ما أجهلُ من صُوَر التبيانْ/ وأحاول فهم الألغاز المنقوشة في كلِّ مـكانْ/ في الأقبيـة الأثرية/ في حبس الدم «ما حملتْ هذه الجدرانْ/.

ويغني الشاعر قصـيدته بطرح الأسئلة التي تحرِّك الأشـجان وتقـرع الآذان وهذا دأبُ أغلب الشعراء المعاصرين أتساءَلُ:

هـل شُيِّدت قلعتنـا بـدم الشهداء/ هـل بُنيتْ بالآلة والـذرة؟/ كانت آية هذا الشرق بهاءْ.../

ويستمر الشاعر في تساؤلاته ليفكَّ هذه الألغاز فلا يجدُ أمامه سوى القلعة...

/دوّامـةُ هذا العصر تـدورْ/ وأنا حول القلعة أبحث عن سرٍّ /و تدور الدنيا/ أين البدْءُ... وأين ختام الأشياء..؟

إذاً أيـن الوصـفُ؟ ولكن بقيـت القلعةُ مبعثَ جدلٍ وسـفْراً يحتاج لقـراءة جديدة مغايرة تتجاوز الأحجار، وراح بعض الشعراء يتلمسـون ذلك كما مرَّ معنا. . في قصـيدة (حلب تستحمُّ بقطر الندى) للشاعر يوسف طافش نجدُ نقلةً ومحطاتٍ تعبُر بنا إلى معابر التاريخ التي يراها أحواضـاً من سلسـبيل عذب فيقول:

/شـممتُ روائـحَ كلِّ العصـورِ علـى

كتفيك /لأختارَ عطراً/ يليقُ بليلِ رفاقي إلى حاضري/.

ثم يقول في لحظة من لحظات البديع الشعري المتوهج:

/أنـا والمدينـة كنَّا/ إذا مسَّنا الشعرُ قبـل انبـلاج الكلام/ نسيرُ إلى حارةٍ عندَ باب الجنان/.

ولا يجد سبيلاً سوى التغزُّل بالقلعة التي يكنُّ لها كلَّ حبٍّ:

/أنـا حارسُ الحلـم/ والليـل والساهرين /سكبتُ الهوى في رحابكِ/ يا قلعةَ الطيِّبين /أنا برزخُ الصحو والنوم/ لـن أوقظَ الحلمَ من حلمه/ طالما أنتِ يا قلعـةَ النورِ/ والـراح.. والروح/ في داخلي تسكنين..

هذه دفقات شعورية كان لنبض الحجارة دورٌ في إيقاظ الذاكرة والفكر المتوثب نحو الخير والجمال في عصر لوَّثتْهُ أعمال الإنسان فكان الهروبُ ملاذاً ومحطةً لتعقيم النفس وفي هذا المنحى نبقى مع الشاعرة الطبيبة لميس حجّة في قصيدتها ((القصر المضاع)) تسترجع فيها موروث حلب وجماليات البيت الحلبي التراثي، تستنبطه، وتحرِّك حجارته، تخاطبها وتسألها، تبثُّها النجوى، ولا تخفي قلقها ودهشتها ممَّا يجري في تلك الأماكن التي فقدت حسَّ الذاكرة والتجاوب:

/مشيتُ بين الشمس والظلالْ/ وكان للنهـارِ ساعتانْ /ويُطْفـأُ الـزوالْ/ بـين الزقاقِ والزقاق خطوتانْ/.

ثم تتابع الشاعرة مسارها في أزقة حلب مسترجعة ذكرياتها:

/في بؤسِها تعـودُ/ لعصبـةِ الأقـرانِ والخـلاَّنْ/ في مسجدٍ ومئذنةٍ بـلا أذانْ/ وفسحةٍ كخِرْبةٍ/علـى الفنـاءِ تستديرْ/ وترتمـي لتحضنَ الحجـارةَ الجليلـةْ/ رأيتُ فيهمـا قـد حسبتُ/بابها الشرقيَّ والأصيلةْ/ ورحلـةَ الـدروب والحواري/ ولحمةَ العمـارةِ الحميمةْ/ كأنما أدور في خميلةْ/

ثم تتابع المشوار في حنايا وزوايا البيت العربي المهجور:

/صعَدْتُ للمُرَبَّع الكبير/ حيث جدَّتي تنـامُ /وجسمـيَ الصغيرُ قربَهـا يلـوذْ/ ومُفْزَعاً وخافتاً بدفئها يعوذُ /من طائفٍ من جانٍ /يحومُ في المكانْ/.

استطاعتْ هذه القصيدة أن تصوِّر بشكل غير مباشر عالم الإنسان الحلبي وحياته وذكرياته في الأحياء القديمة.

نقلتها بإحساسٍ استدعى الحبَّ والقلق والوفاء.

وأغلب هذه القصائد التي ذكرْتُها يمتزج فيها الخاصُّ بالعام وتقولُ الكثيرَ ممَّا وراء السطور. وهناك لفيفٌ من الشعراء الذين أحبّوا حلب وذكروها في غير قصيدة. فالشاعر خليل هنداوي يقترب من القلعة ويتوقف عند قاعة العرش في احتفال جمعية العاديات بعيدها الخمسيني في ١٩٧٤/٧/١:

أغارَ على منكبيكِ الزمانْ
فللّه ما حملَ المنكبانْ
وكَرَّتْ عصورٌ، ومرّتْ دهورٌ
وأنتِ مكانكِ هذا المكانْ
وكم فاتحٍ دقَّ أبوابها
فما دميتْ منه إلا اليدانْ
بحسبكِ أنتِ رموزُ الإباءِ
وأنتِ رمزٌ تحدى الزمانْ

أشاد الشاعر بصمود القلعة وتاريخها ومنعتها، ولكنه لم يمسك بيده ريشة الفنان الذي يلتقط فتنة الإبداع ليفتننا بها. وما أعظمَ ذلك في قاعة العرش ومدخل القلعة! وهذا حالُ الشاعر عبد الله يوركي حلّاق الذي أحبَّ حلبَ حتى الرمق الأخير من حياته وحبَّبَ الشعراءَ الوافدين بها، ومجلة الضاد تشهد على ذلك. إنه يذكر القلعة في قصيدته المعروفة /حلب/ ومطلعها:

جنّةَ الجلالُ على رباها
والتبرُ لألأ في سماها
والحسنُ صافحَ أهلها
وبثوبه الزاهي كساها

ثم يقول في قلعتها:

شاخَ الزمانُ وقلعةُ ال
شهباءِ ظلّتْ في صباها
ربضتْ على التلّ الأشمّ
فروّعتْ أقوى عداها
والدهرُ نازلها فما
ذلّتْ، ولا وهنتْ قواها

وفي قصيدة أخرى يحنُّ إلى حلب ويذكر حيَّ «الصليبة» الذي نشأ فيه وهو حيٌّ أُخذتْ بعد خروج الحلبيين من السور. وما زال الحيُّ نابضاً بالحياة ولكنه فجع بهجوم التجار ويد الخراب والتغيير فيقول متألماً:

ذكرْتُ عهدَ الصّبا الريّان فانفجرتْ
منّي المآقي، وراحَ الدمعُ ينهمِلُ
مسارحُ الأنس قد أودى الزمان بها
وظلَّ في حلبٍ من بعضها طَلَلُ
بساطةٌ غيّرَ التجديدُ روعتها
وكلُّ حيٍّ بدا من وجهه بَدَلُ
حتى (الصليبةُ) لم تحفظْ مهابتها
لا تسألنَّ إذا هلْ بدّلَ التلُّ
أينَ الرياضُ التي كانتْ تزيّنُها
وألفُ سهلٍ وسهلٍ كلُّها سَبَلُ

تــغــيَّرتْ حــلــبٌ إلاّ كـرامـتـهـا
فـإنَّـهـا بـالـنـجـومِ الـزهـرِ تـتَّـصلُ

يرى الشـاعر أمام عينيه ما يجري من تغييرات ونَسْفٍ وسرقةٍ للجمالِ والآثار.

فيطلق صرخةَ ألمٍ وحسرة.

وللشـاعر الحلبي قسـطاكي الحمصي قصـيدة بعنوان ((الوطنية)) يشـدو بحلب ويتوقّفُ عند أسـواقها وقلعتها وما فيها من سحر البيانِ الرائع:

حدّثْ عن الشهباءِ واطربْ مسمعي
بمفـاخـرٍ لحـديـثـهـا وقـديـمِ

يـاحـبَّـذا جـنَّـاتُـهـا وحـيـاضُـهـا
وصَـبـوحُـنـا وغَـبـوقُـنـا بـكـرومِ

والـقـلـعـةُ الـشـهـبـاءُ قـائـمـةً بـهـا
تـروي لـنـا عـن مجـدهـا بـرسـومِ

وجـمـالُ أسـواقٍ وتـرتـيـبٍ بـهـا
يُـحـكـى أتمَّ الـذوقِ في الـتـقـسـيمِ

فـصـنـاعـةُ الـبـنـيـانِ فـائـقـةٌ بـدتْ
وكـذا الـنـجـارةُ آيـةٌ لـفـهـيـمِ

وصناعةُ النسيجِ الرفيعِ، وصَنْعةُ الـ
ـمنقوشِ والتفضيضِ والتسهيمِ

فالشاعر يذكر الكثير من الطباع الحلبية وما تشـتهر به حلب من ذوق وفنٍّ وصناعة وتسـامح. وهـي وقفات إعجـاب لا تمسُّ الجوهرَ والروعةَ في البناء.

وللشـاعر محمد زينو السـلوم وقفةٌ مع قلعة حلـب، يخاطبها ويبثُّها لواعجَ نفسـه وحرقةَ الواقع المأزوم:

وقـفْـنـا عـنـد بـابـك فـانظرينـا
نُجـسّـدُ في مـعـانـيـك الـيـقـيـنـا

ولـولا الـكـبـريـاءُ بـكـلِّ روحٍ
ركـعـنـا في ظـلالـك سـاجـديـنـا

لـصمتـك ألـفُ معنـىً في لقانا
وهـذا الـصمتُ يـخـتـصر الـسنـينـا

مضى زَمَـنٌ، جمـالُك صـارَ رمـزاً
نـقـدّسُـهُ، وقـد أضحـى حزينـا

وسِـحرُك تنتشي الأبصارُ منهُ
وحـبُّـك صـار في قـلـبـي دفـيـنـا

نـزورُك كـلـمـا فـضْـنـا حـنـيـنـاً
إذا مـا الشمسُ عـادتْ أخبرينـا

هـي الأيـامُ في قـربٍ وبُـعـدٍ
إذا طـالَ الـفـراقُ فـسامحينا

شاعرنا يسـكب آهاتٍ وحسراتٍ ويشعل فينا حريقاً من الأسـى، ولا يسألنا إطفاءَه.

في الخطاب الجميل للقلعة الشـامخة عتابٌ وتقريعٌ، فكانت القلعةُ حاملةً هذا الشـموخَ في وقتٍ عزَّ فيه الشموخُ والإباء..

وذُكِـرَ بابُ الجنـان لدى عدّة شـعراء معاصريـن فالشـاعر أحمـد علـي بابللي في قصـيدته (باب الجنان) يتغـزّل بجمالِ الطبيعـة المحيطة به وعلـى مقربة من نهر قويق الذي كان رئة حلب:

وجهُ الربيعِ مُنوّرٌ فتّانُ
مِنْ صَدْرِه يتنفّسُ الريحانُ
الجوُّ في باب الجنانِ مُعطّرٌ
من غوطةٍ فيها انتشى نيسان
والنهرُ فيه ساربٌ مُسْترسِلٌ
يسقي الجنانَ كأنّهُ شريانُ
البابُ هُدّمَ والجنائنُ غُيّبتْ
مَرّتْ على أيّامِها أزمانُ
لم يبقَ إلاّ ذكرُهُ في دفترٍ
وعلى الجنائنِ شُيّدَ البنيانُ

وهذا الشاعر محمد صبحي المعمار يتوقف في حرم باب الجنانِ ويرسم من وحي مخيلته ما سمع عنه وقرأ، وذلك في قصيدته (أم الشمال) ويقصد بها حلب:

بابُ الجنانِ شذىً يرعاهُ حارسُهُ
مُدَجّجاً حذراً بالزهدِ مُغتصِباً
لا ترتوي النفسُ إلاّ من نسائمهِ
عليلةً، تنعشُ الأبدانَ والعصبا
طافَ الجمالُ ضحوكاً في خمائله
عند الظلال يناغي الزهر والعشبا
تخالهُ الكوثرَ الموعودَ في مرحٍ
جمّ العطاء، أباحَ الكرمَ والعنبا
يحنو على القلعة الشماء، يسألنا
أمناً، وينشد فيها منزلاً رحبا
رسولهُ قفّةٌ من فستقٍ حبلتْ
بأحمرِ الوجنتينِ، تنحني أدبا
شهباءُ كم غدر الهوى بعاشقةٍ
وكم تلظّى بنار الشوق من هربا

الأبيات تشكلُ لوحة تعيدُ رسم معالم باب الجنان وما يحيط به من ماء وحياة ومنتزهات. إنّ توقفَ الشعراءِ المعاصرين كان استدعاءً للذاكرة والماضي إسعافاً وكشفاً لهذا الواقع. فالملاذُ يكون في البحث عن الأنقى والأبقى فرأوها في الآثارِ. فالشاعر محمد مضر سخيطة يتغزل بحلب وبعنوان صارخ (حلب حبيبتي) وفيها يذكر هذه المعالم التي تستحضرها ذاكرته وروحه المتعبة، فيرى فيها المتنفسَ لترويح النفس:

حلب الجميلة موطني وديـاري
وبها تباهي عند كلّ فخار
أسواقُها بالطيب تعبق، والمنى
ويفيضُ بالخيراتِ والأنوار
تكتظُّ بالخانات وهي كثيرةٌ
ملأى بكلّ بضائع التجّارِ
والقلعةُ الشمّاءُ تربض وسطها
تستنبت الإعجابَ في النظّارِ
بُرّتْ قلاعاً في فرادةِ حُسْنِها
فهيَ الأميرةُ، والقلاعُ جوارِ

ثمّ يتابع قائلاً:

يا بابَ أنطاكيةٍ.. رحّبْ بنا
واسردْ لنا نتفاً من الأخبارِ

من ها هُنا مرَّتْ كتائبنا التي
مزدانةً بضفائرٍ من غارِ
قبسٌ من الماضي، من الأمس الذي
أنوارُهُ شعَّتْ على الأقطارِ
قبس من الأجداد ينهض هاتفاً
يدعو لعلمٍ نافعٍ وحوارِ

ومن القصائد المطولة التي لم تُغفلْ شيئاً عن حلب وطباعها وأحيائها قصيدة الشاعر عبد القادر مايو وعنوانها (إلى حبيبتي حلب مع الاعتذار). ومطلعها جميل ومؤثِّرٌ:

إنّي أحبُّكِ.. فيمَ اللومُ والعتبُ
وهل لهذا الجفا ما بيننا سببُ؟
أخلصتُ حبّي.. وفي الإخلاص محرقةٌ
وقودُها القلبُ والإحساسُ والنَّصَبُ

ثم يعبِّر عن شوقه وتعلّقه انتماءً إلى البيئة الحلبية فيذكر أحياءَها القديمة ومنها حيُّه.. «حي قسطل الحرامي»

يُريكَ حبَّكَ مَنْ أحبَبْتَهُ قمراً
الحبُّ أعمى ومرسالُ الهوى دَرِبُ
من (قسطل الحرَمي) من (بانقوسا) ومن
(أقيول) كم هزَّ عطفي الصفوةُ النخبُ
هذا انتمائي كنزٌ لا أبدّدُهُ
فيه الغنى كلُّهُ إن ضاق مُكتسَبُ
هذه القلعةُ الشمّاءُ شاهدةٌ
أنَّ الحضارةَ أبقى رُغْمَ مَنْ غلبوا

ولا أعرفُ سرَّ غياب وصف المساجد في الشعر المعاصر وتحديداً المسجدُ الأموي (الجامع الكبيرُ) وهو معلم إسلامي أثري قديم مشهورٌ بمنبره ومئذنته وروعة عمرانه ومع ذلك شَحَّ الشعرُ بوصفه باستثناء قصيدة للشاعر عادل بكرو وقد قالها فرحاً ((بعد أن عادت دماء الحياة تسري في شرايين المسجد الأموي بحلب)) تفتحتْ هذه الزهرة الشعرية وبعنوان «رسالة إلى أموي حلب» يستهلُّها:

تهلّلَ النورُ في مرآكَ وازدانا
فكنتَ للطهرِ والإيمانِ عنوانا
يا مسجداً أموي الروح قد طفحتْ
بالعطر كفيّ، وصار الحرف سكرانا
على حجارتكَ الشهباءِ زخرفةٌ
صلى عليها العلا في الحسن هيمانا
ياهاشميَّ الهوى مبنىً، وفلسفةً
أضحتْ قبابُكَ للأرواح بستانا
كلُّ الحضاراتِ ألقتْ فيك رونقها

ثم يقول مخاطباً:

يا زائراً موطنَ الأجدادِ منتجعاً
سحرَ المكانِ بعقد الوردِ مزدانا
سلِّم على زكريا الودَّ في نُسُكٍ
واقرأ على صفحات الفخر حمدانا
يا للتسامح وضّاحاً بمسجدنا
صرحُ المحبة نرعاهُ ويرعانا

لا تخلو هذه القصائد من صفاء الروح

ونبلِ المقصد، ولا تخلو من الغيْرة على هذه المدينة التي أحبها الوافدون. فكيف لا يحبُّها المقيمون ولا يهجرُ مُحباً إلا جاحدٌ للفضل. وإني خَصَصْتُ حَلَبَ بديوان شعريّ لم يرَ النورَ بعد. وهو مجموعة قصائدَ تجولُ في حلب، وتنتح من معالمها. تذكر آثارها وما تقاسيه، وتتنقل بين أزقتها وبيوتها القديمة محاورةً ومتغزلة. فيها العشقُ والحبُّ وفيها الألم والحسرة. وفيها سيلٌ من الأسئلة لا يسمح المجالُ لها. ولكن من حقي أن أستشهد ببعضها في قصيدة ((من مقامات العشق الحلبي)) وهذا عنوان المجموعة. تنقلّتُ بين أزقّتها ومعالمها المادية واللامادية، ودمجت الذات بالعام فأقول:

/وكنت استدنْتُ من الوالدين/ حديثَ الأزقّةْ/ وما أجملَ الذكرياتِ/

/تقصُّ عليكم مشاويرها / في أزقة باب الفرج /ومنذا يلملم آهات باب الفرج /ومن يقرأ الوقت والأغنيات؟/ لذا جئت بابَ الجنائن /مددْتَ يديكَ لتقبيل نبض المآذن /أصغَيْتَ للعشق للمولويهْ/ وتتَّسعُ الأمنيات /أمام السّرايا ترفُّ قلوبُ الحسان/ تهدهدُ باب المقام/ تنادي الصبايا وتغزل عطر اللقاء/ وحيّ المعادي كأيٍّ من الذكريات الجميلة/ معاً نصعد البابَ /تحمل في القلب أحجارَ/ سور المدينة/.

في قصيدة ((من عبق أبوابها)) وقد نشرت في العدد صفر من مجلة العاديات وكذلك القصيدة التي قبلها نشرت في مجلة العاديات تنقَّلتُ بين أحياء حلب وفي القلب أشياءُ باح الشعر بها:

/سأمضي إلى نبض أسواقها/ أستميحُ البيوت ووهجَ القباب /ليغسلَ القلبُ فجراً/ ومن شدوِ تلك المآذنْ / أسبِّحُ أشرقُ حتى تعودَ النصاعةُ/ سأرنو إلى صوتها، أسلبُ الحبَّ في كلِّ بابٍ / أغازلُ نبضَ الأزقّةْ/ وصوتُ القباب يزيحُ المخاوفَ،/يزرعُ فجوى/

/سأحنو على كلِّ بابٍ. . وفي كلِّ حيٍّ /سبَتُهُ التجارةُ /أبثُّهُ شوقي وحزني /وأعطيه قبلهْ /حروف القصائد صارتْ موائد شوق /على كلِّ باب تبثُّ لواعجَها/ تشتهي أن تعودَ الولاده/ وإنّي لماضٍ إليك بطهري وحزني وخوفي/ فمدّي يديك/فأنت اليقينْ/

/سواك خسارة../سواك خسارةٌ..

وهناك قصائد كثيرة تتناولُ حلب شوقاً وعشقاً وحنيناً ومجداً ولكنها لا تناسب الموضوع وإني عازم على جمع القصائد

الحلبيــة المعاصرة في مجموعة وأســأل الله العون لأنه مكلف وبعد هذا.

الخاتمة وتساؤلات المحبّ:

بعد هذا الشريط من الوصف لمعالم حلب الأثرية عبر تاريخها من شــعر قديم مقفّى، ومن شعر معاصر جاء على القافية الموحدة وشــعر جاء على نظام التفعيلة أجد نفسي أمام أسـئلة ملحّة وباعثة التفكير والتأمُّل، وهي أسئلة تستحق الإجابة والوقوف عندها.

هل نجح الشعراءُ في وصف هذه المعالم على مســتوى الفنِّ والموضــوع؟ وهل استطاعوا رسمَ المعالم الأثرية بجزئيّاتها الدقيقة وكانوا بارعين بذلك؟ وهل كان الشعرُ على مستوى روعة الآثار في نضجه الفني؟

الجواب ليسَ سهلاً ليُجابَ عنه بسرعة. وليس صعباً إذا قرأنا هذه القصائد وغيرها وما أكثرها!. فأغلبُ ما قيل لا يتجاوز الشوق والإشــارة والإطنــاب. وهو شــعرٌ يميل إلى الوجدانيات ويرتبط قســمٌ منه بالمناسبات أكثر من روح الشــعر الدافع للوصف. وهذا الرأي لا يقلّلُ من شأن الشعرِ والشعراء بشكل عام ولكنني ربطته بموضوع آثار حلب.

حلب أنجبت ورعَتْ على جنباتها الكثير من الشــعراءِ عبرَ تاريخهــا منهم البحتري والمعــري والصــنوبري وأبو ريشــة والمتنبي وغيرهم كثــير. فالبحتري أبدع في وصــف إيوان كسرى وأشــاد برســم لوحــةِ معركة أنطاكية التي أعادَ رسمَها بإحساسه وشعره. فخلّدها. وكذلك المعرّي الكفيف رسم بشعره لوحةً فريدةً للّيل. وذكر حنينه إلى حلب وذكر نهر قويق. ومع ذلك لم تعنِهِ هذه الآثار. ربَّما ألتمس له العذرَ. وهــذا المتنبي الذي أجادَ في وصف شِعب بوان وصف معركة الحدث. وعايشَ ســيف الدولة عن قــربٍ ومدحهُ، واقترن اســمهُ باسـمه. ألم تحرِّك فيه معالم حلب شيئاً فيه؟ وكان على مقربةٍ بسكنه من القلعة والمســجد الأموي والأسواق. وربما لم يشأ التعبير عن عظمةِ القلعة وربطها بعظمة ســيف الدولة كما فعــل الخالديان.. وهذا عائــدٌ في قرارةِ نفســه وتكوينها الخاص.. وهذا عمر أبو ريشــة الذي شــبَّ في حلب وألهبَ مشــاعر أبنائها بقصائده الحماسية وهو الذي أســرهُ الجمالُ والروعةُ في ((تاج محل)) فوصــف معبد كاجوار وصــفاً رائعاً جعله في مقدّمة شــعراء الوصــف إن أراد. أتســاءَل ألم يجدْ في حلب أثراً يليق بالوصفِ ويحرِّضــهُ على الشعر.. وهذا أحمد شوقي وصــف آثارَ أســوان والأهرامات والأستانة وكان بارعاً. وهذا خليل مطران يصف قلعة بعلبك وصفاً قديراً وبديعاً. وقد زار حلب.

ألعلَّة في الشعراء أم في الآثار أم في كليهما معاً؟ فالقصائد التي ذكرت القلعة والأبوابَ

والآثار مرّت مرور الكرام أمامها في مَعْرض فخرهــا وحنينهــا، ولكنهــا لم تلامسْ هذه الآثار إلا القليل منهــا والجانب الفنيُّ فيها لا يصل إلى درجة رفيعة. هذه أسئلةٌ تحتاج المسلّمات التي نهلْنا منها، وظنَنّا أن الشعراءَ أكثروا من الوصف. فالوصف بمعناه الدقيق افتقدتــه مدينة حلب لحد مــا. أهذا عائدٌ لضــعف تأثير الأثر وجذبه وتحريكه للمزاج الشعري؟. وربما لضــعف الشعر والشعراء الذين لم يســتطيعوا الاقتراب منه. فحاموا حول الوصــف والأثــر. وهــذه وجهة نظر شخصــيَّةٌ قد تجدُ من يخالفهــا وهذا أمرٌ حسن. فهناك ذكر للمآذن والقباب والكنائس والمنابــر والأبواب والمدارس القديمة ولكنها ذكرت بشكل افتعاليٍّ مع نهج القصيدة وليس مع روح الشعر. وهي دعوة للبحث والنقاش الأدبي النقدي المجدي الذي يكشف أعماق القصائد ودلالاتها. وهي قصائد مناسبات في معظمها وتكاد تكون واحدة مع اختلاف في الأســلوب وقدرةٍ على التقنية الشــعرية والإبداع. وقد يكون الســببُ حبَّ أهلِ حلب للطبيعة والسرور والبهجــة وهذا لا يتوافَرُ في الآثــار ونراه متوافراً بوصــف نهر قويق والمتنزهــات وكلمة حقٍّ تقالُ في القصــائد المعاصرة وتحديداً قصــيدة التفعيلة. فهذه القصــائد اتكأت على آثــار حلب لتعبِّر عن رؤيتها. فهي قصائدُ للفنِّ وحاملُها موضوعات معاصرة تســتحضر الماضي لمداوات وكشف الحاضر. فارتقت فنّياً وشعورياً ولكنها نهلت من عظمة الأثر وعبَّرت ولكنها لم ترسمْ لوحةً وصفية بديعة...

المراجع

١- مدينة حلب في قوافي الذهب، جمع ودراسة وتحقيق الدكتورة كارين صادر.
٢- أعلام النبلاء في تاريخ حلب، للشيخ راغب الطباخ.
٣- الحركة الشعرية في زمن المماليك (في حلب الشهباء)، د.أحمد فوزي الهيب.
٤- الحركة الشعرية في زمن الأيوبيين (في حلب الشهباء)، د.أحمد فوزي الهيب.
٥- كنوز الذهب في تاريخ حلب، ابن العجمي الحلبي.
٦- نهر الذهب في تاريخ حلب، الغزّي.
٧- دواوين الشعراء المعاصرين.
٨- صحيفة الجماهير.

الدراسات والبحوث

رســـالة الأُبّـــوة

عبد الباقي يوسف ◎

عندما ينظر الطفل إلى أبيه، فإنه يحلم في تلك اللحظات أن يكون أباً، وفي المدرسة عندما ينظر إلى معلمه، فإنه يحلم أن يكون معلماً، وعندما يرى في التلفاز شخصية هامة، فإنه يحلم أن يكون في المستقبل شخصية هامة.

الأبوة السليمة هي عاطفة سامية وقوة اندفاع من الأب نحو صغيره، والصغير هو الذي يفجر تلك الطاقة الكبرى من العاطفة ومن الاندفاع نحوه، وقبل ولادة هذا الصغير كان ذاك الاندفاع بارداً نائماً في الضمير، ولكن كيف تستيقظ عاطفة الأبوة؟

◎ أديب وكاتب سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

إنها تستيقظ ببطء شديد تستغرق شهوراً والطفل هو الذي يحرّكها نحو الاستيقاظ بمحاولة تحقيق حضوره في ضمير الأب.

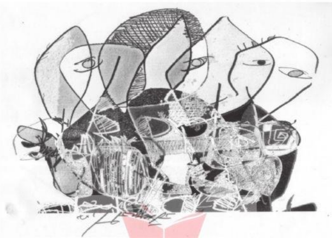
إن الطفل يبدأ بالبسمة الصغيرة، ثم ينتقل إلى المزاح مع ما يقع في يديه، ثم يُصدر أصواتاً تخلو من المعاني، ثم ينادي أبويه. وفي هذه المرحلة فإن الأبوة بكل شفافيتها ورقتها تستيقظ، فيشعر الأب هذه المرة باعتراف من الطفل ذاته بأبوته: بابا.

هذه الكلمة من خلال نداء الابن لأول مرة هي غاية في المسؤولية الأبوية ولايجد الأب أي مهرب من حقيقة أنه أصبح أباً فعلياً لطفل، وعند هذا الحد فإنه يعيش معنى قوله لهذا المولود الصغير:

يا بني، بعد أن كان يلفظها بشكل تلقائي بينه وبين نفسه في الأيام الأولى لولادة هذا المولود.

إنه الآن يقولها مخاطباً إياه، ومدركاً أنه يسمعها وشيئاً فشيئاً يستوعب معناها ويبدأ في تحمّل مسؤوليتها، فهو ذاته قد بدأ هذه العلاقة الجديدة وبالتالي دعا الأب إليها، فليس من أب يقول لمولود في يومه الأول: يا بني. لكنه ينتظر وأيضاً على نحو عفوي أن يخرج هذا المولود من القمّاط ويبادر بشيء كهذا، ودوماً فإن الطفل هو الذي يبدأ لأن أي طفل في العالم وعند اللحظات الأولى للتعرف على الحياة، فإنه يبحث أول ما يبحث عن أبوَيه، ولذلك فإن الحروف الأولى التي يلفظها يحاول من خلالها أن يناديهما، وإن كانت معرفته الأولى تبدأ بالأم بسبب الرضاعة وعدم مفارقتها له طوال الوقت، فيدرك بأنها أمه، ولكن هذا لا يكفيه فهو يبقى ينادي الأب الذي لا يراه بقدر ما يرى الأم، وبناءً على هذا الشعور فإنه يكرر: بابا.. أكثر مما يكرر ماما. ويبدأ بـ: بابا.. فهي الكلمة الوحيدة التي تجلب له الأب ليقول له هو الآخر: لبيك بني. وفي لحظات الملل من حضن الأم فإنه يندفع نحو حضن الأب ويبدأ معه بالمزاح في محاولة للتآلف بينهما ولمزيد من التعارف في هذه العلاقة الإنسانية الجديدة.

إن الأب هو السبيل إلى معرفة العالم، وهذا الأب ذاته يبدأ بتعريفه على العالم، وهذه حكمة إلهية فلو بدأ الطفل بـ: ربي، بدلاً عن أبي فربما تركه الأب ليكتشف ربه بنفسه لأنه يناديه، ولكن الابن الذي لا أب له، لا رب له، والذي لا يؤمن بأبيه فيصعب عليه أن يؤمن بربه. من هنا كانت مكانة الأب رفيعة في الدين لأنه السبيل إلى الرب، فمن يمرد على أبيه، يمرد على أحكام ربه، وبالطبع فنحن نأتي بما هو عام وشامل في هذه العلاقة الثلاثية، وهذا لا يعني عدم



وجود استثناءات شاذة أو مريضة في آباء. وهنا يمنح الدين للولد العصيان إذ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». كما يمكن للطفل الذي ولد يتيماً أن يجد مَنْ يكفله ويقوم نحوه مقام الأب لأن الأبوة هي عاطفة مكتسَبة، يكتسبها الاثنان بالتآلف والتوادد والتعامل. وقد علّا النبي من مكانة كافل اليتيم ربما أعلى من مكانة الأب عندما قال وهو يشير بالمسافة التي بين إصبعيه: «أنا وكافل اليتيم كهاتين».

لقد كرم الله الإنسان بأن خلقه، وقد خلقه ليس لمجرد الخلق، بل ليعرفه، وفي حديث ضعيف لم يصح عن نبينا أن الله قال: «كنت كنزاً خفياً فخلقتُ الخلق ليعرفوني». ولكننا نجد في كتاب الله ما يشابه هذا في قوله: ﴿وما خلقتُ **الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدُون**﴾.(سورة الذاريات: الآية ٥٦)

الإنسان هو خلقٌ أبدعه الله، والإبداع أعلى من الإنجاب، وعاطفة الأبوة مهما عَلَتْ فإنها لن تبلغ مبلغ الإبداع. ولذلك فإن الإنسان هو أقرب إلى الله من أبيه وأمه، ومَنْ يحبه، وكذلك فإن الإبداع هو أسمى من الإنجاب وأقوى من أي علاقة ما بين البشر و البشر وهكذا فلا يكون من حق الإنسان أن يفتخر بأنه ابن فلان أو فلان، بقدر ما يكون من حقه أن يفتخر ويسمو

لأنه إبداع الله، وكل إنسـان هو إبداع الله. وعلى هذا الشكل العادل فإن الناس جميعاً يشتركون في هذه الميزة الإلهية.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾.

(سورة الحج: الآية ٥)

والإنسان بعد ذلك يكون حراً في أن يسمو بنفســه فيكون مقرّباً من مبدِعه، فقد ورد أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، وكذلك هو حر في أن يذل نفسه فيبتعد عن مبدِعه إلى أن يجرّد نفسه من كل خُلق طيب فقد جاء في القرآن أن أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب.

لقد شاء الله أن يخلق هذا الكائن البديع ويملّكه الأرض وما عليهـا، والخلق أعلى درجات المسـؤولية، وأعلى درجات الرحمة مـن أي علاقة أخرى، وأمـام هذه العلاقة السـامية الكـبرى مع الله يمكن للإنسـان أن يراجع وقائع أعماله في مناسـبات شتى ويرتقي بها ليقدّم لله أنه على قدر مسؤولية الحياة الكـبرى التي شـاء الله أن ينعم بها عليــه، ومسـؤولية الأخوة الإنسـانية التي أنعـم بها عليه ليكون أخاً للأنبياء والرسـل والصـالحين، وليكـون عنصراً في سلسـلة الأخوة الإنسـانية، ويشـكل تاريخـاً كاملاً وسجلاً إنسانياً خاصاً به.

مسؤولية الأبوة

عندمـا يغدو الرجل أباً، فإن هذه الأبوة تُوقظ مشاعره لأول مرة على مسؤولية أبوية تجاه هـذا المولود الذي يشـعر نحوه بتلك الرابطة السامية، ولذلك فإنه لايريد لأحد أن يتفـوق عليه، لكنه يريـد لابنه أن يتفوق عليه.

تحدث الكثير مـن الحكماء عن عاطفة الأبوة، واشتهروا بمواعظهم لأولادهم، وقد اشتهر لقمان الحكيم(1) بمواعظه ونصائحه لأبنائه وهي مواعظ تفجر حالة الأبوة.

لقد أصـبح لقمان أباً بعد مرحلة بالغة الصعوبة في حياته.

في تلـك اللحظة أدرك معنـى أن يكون المـرء أباً: إنه تحوّ ل جديـد آخر يا لقمان يُضاف إلى التحولات المتعاقبة التي يمر بها عمرك.

يشـعر بـأن كائناً ما قد انفصـل عنه، وعليـه أن يولي هذا الكائـن عنايته الفائقة حتى يقف على قدميه.

قـال لامرأته: أرى أن نسـميه (ثاران) ياسادر، هل توافقين على هذا الاسم؟

قالت: أجل بالقمان، أرجو أن يجعله الله خيرا لنفسه، ولأبويه، ولأقربائه، ولعموم الناس.

بدأ في حالة مراقبة دائمة لمراحل نمو هذا الطفل، ومع كل مرحلة تجلو له عظمة الله، دقة الله في الخَلق.

إنه شكل جديد من أشكال محبة الله للإنسان، إنها لذة الأبوة، لذة رفع الطفل بين الذراعين، لذة قرّة العين.

إنه سعيد، وهذه السعادة حققها له الله.

يتأمل جمالية براءة الطفولة، يتأمل بروز الأسنان الأمامية أولا حتى لا يتألم الطفل، ثم بروز الأسنان الخلفية، إنها أسنان لمرحلة مؤقتة يتناول بها طعاماً ليناً حتى تقوى اللثة، ثم تسقط هذه الأسنان ليهب له الله أسناناً أبدية صالحة لأن تخدمه مدى العمر مهما كان هذا العمر طويلا إن اعتنى بهذه الهبة، وحافظ عليها.

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس، ولد ابنه الثاني الذي أسماه (نادان).

إنها ذات الجمالية، بيد أن طعمها مختلف، إنه الولد الثاني، قرة العين الثانية، قطعة الكبد الثانية.

ازداد يقيناً بأن الله لو لم يكن يحب الإنسان لما زيّن حياته بالأطفال.

كم تشعر بحالة الرضى عن نفسك يالقمان عندما يسيل عرق من بدنك وأنت تقوم بعمل شاق لتقدم لقمة طيبة لأهلك، لنفسك، حتى لحيوان أولاك الله أمره.

عليك أن تعرق يالقمان، كما عليك أن تبرد

عليك أن تجوع، كما عليك أن تشبع

عليك أن تتذوق الداء، كما عليك أن تتذوق العافية.

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس عشر قال لأبيه ذات صبيحة وهو يهم بالخروج من البيت إلى متجر الخياطة: يا أبي لقد أحببت مهنة الخياطة، وأريد أن أتعلمها.

عندئذ خطرت فكرة الاستقلال في العمل للقمان، نظر إلى ابنه وقال: سوف أنظر في الأمر يابني.

في اليوم التالي وقبل العودة من العمل إلى البيت، عرج في طريقه إلى (أيوب).

رآه حزيناً في حانوته.

قال لقمان: أراك حزيناً ياصاحبي.

أجاب أيوب: حزني على ولدي العاق يا لقمان، بلغ العشرين من عمره ومازال لايشعر بمسؤولية تجاه البيت، غداً عندما أموت، سوف يحل مكاني، وأخشى على أمه وأخواته.

قال لقمان: أنت المسؤول يا أيوب،

الطفل بالنسبة للأب كالعجينة بيد العجان، يفصل رغيفه كيفما شاء.

قال: كيف يالقمان؟

قـال: كل ولد له طريقـة للتعامل معه، أحياناً يحتاج الولد إلى شيء من الخوف من أبيه، اضربه يا أيـوب ضرباً غير مبرح حتى تُشعره بشيء من هيبتك عليه، الضرب للولد يا أيوب كالسـماد للـزرع، عليك ألاّ تضربه من أجل الضرب، بل من أجل أن يشعر ببعض الخوف من رب البيت، فإن عدم خوف الولد من رب البيت يؤدي به إلى المهالك.

عندما لايخافك ابنك يا أيوب عليك أن تخاف عليه كثيرا، وعندما لاتخافك امرأتك، عليك أن تخاف عليها كثيرا.

إذ ذاك قال أيوب: ومتى على رب البيت أن يخاف على نفسه كثيراً ياحكيم؟

صـمت لقمان قليـلاً ثم قـال: عندما لايخاف مقام ربه.

سـنة بعد سـنة غدا الولـدان يتعلمان مهنتـي النجـارة والخياطـة مـن أبيهما، فيعينـاه، وهو يرقبهما ويشـعر بحبور لأنه اسـتطاع بفضل الله أن يقدم إلى هذا العالم شخصين يعملان.

إنه الآن شخص يعيش في الحياة، يخوض مراحلهـا، يتعـرف جوانب جديـدة لم يكن يخبرها.

الأبوة، يالها من كلمة مفعمة بعوالم غنية، إنها إشراقة جديدة علـى الحياة من نافذة جديدة.

إنك يالقمان تشعر بمسؤولية نحو الحياة، هذه المسؤولية التي تحمل خصوصية معاني كلمة الأبوة.

كنت في السابق صاحب بيت فارغ لا أحد فيه، الآن غدوت رب بيت، رب أسرة.

الآن أولاك الله مسؤولية أن تربي ولدين، أن تطعمهمـا، ترشـدهما إلى نهج الإيمان، تؤدبهما، أن تتلقى هبة الله، وتحسـن إليها كمـا أحسـن الله إليـك، أن ترفـع نظرك إلى السـماء وتقول: ها أنـذا قمت بكل ما استطعت حتى أحسن إلى هذه الهبة.

وتعـود إلى الـوراء حتى تـرى مواقفك موقفا موقفا في تلـك المراحل التي مر بها أولادك وكنت واقفا عليهم تبذل كل جهودك المادية والمعنوية في سـبيل الإحسـان إليهم وفي سـبيل أن تحصـل على براءة من ربك نحوهم.

وإن أخفقت جهودك يالقمان، سـيكون لك ثواب الإخلاص في السـعي، سيكون لك أجـر تقديم موعظة، أجر إطعام لقمة، أجر كساء كسوة، أجر سهر ليلة، أجر حتى بسمة وأنت تبتسمها، أجر حتى قبلة وأنت تضعها على وجه هذه الهبة التي وهبها الله لك.

حــول الظهيرة جــاء إليه ابنــه (ثاران) حاملا طعام الغذاء، فجلس يتناول الطعام، وهو يشرد: إن لم يجع الإنسان، فإنه لايتذوّق لذة الشبع.

الآن أنــت جائــع بالقمــان، بعــد قليل ستشبع، ثم ستجوع، ثم ستشبع.

هكذا هي الحياة، إنها لاتقف على حال، أخذ الله منك أولادك، وعوضك بهذا الابن الوديع الذي يكبر سنة بعد سنة أمام نظرك، ويأخذ هيئة ابنك الأول.

عندما فرغ من الطعام نظر ملياً في وجه ابنه، فرآه في حالة حزن.

مــدّ كفه يربت على كتفه قائلا: يابني، حملتُ الصــخر، فلم أحمل أثقل من الدَين، وأكلت الطيبات، فلم أصب ألذ من العافية، وذقت المرارات، فلــم أذق أمر من الحاجة إلى الناس.

يا بني: إنمــا الوالدان بــاب من أبواب الجنة، فإذا رضيا مضيت إلى الجنان، وإن سخطا حجبت عنها.

يا بني: لا تجالس الفجار، ولا تماشــهم، اتــق أن ينــزل عليهــم عذاب من الســماء فيصيبك معهم.

يا بني: جالس العلماء وماشــهم، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

يــا بني: بــع دنياك بآخرتــك تربحهما جميعــا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا.

يــا بني: عود لســانك أن يقــول: اللهم اغفر لي. فإن لله ساعة لا يرد فيها دعاء.

وعندما رأى ابنه يصــغي إليه بإنصات وقد اســتكانت ملامحــه أردف يقول بهدوء بالغ:

جالس العلماء وزاحمهــم بركبتك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب الميتة بنور العلم، كما يحيــي الأرضــ الميتة بوابل الســماء، وإياك ومنازعة العلمــاء فإن الحكمة نزلت من الســماء صــافية، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم.

ينصــت ابنه إليه هازا رأســه ملتمســا المزيد من أبيه فقال: يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم.

قــال الابن: يا أبــت إن عملت الخطيئة حيث لايراني أحد، كيف يعلمها الله؟

يقــول: يا بني إن أتتــك مثقال حبة من خــردل فلتكن في صــخرة أو في الســموات أو في الأرضــ يأت الله بهــا إن الله لطيف خبير.

ثــم أردف: يا بني أقم الصــلاة، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر،

ثم بعد لحظات صــمت أخــرى والابن يتلقى الحكمة من أبيه بمزيد من الإنصات،

وقد تسربت راحة نفســية إليه: واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور.

صمت الأب مرة أخرى، فرفع الابن رأسه إليه يسأله المزيد فقال:

ولا تصعر خدك للناس

هز الابن رأسه، وهو يبكي

فقال: ولا تمش في الأرض مرحا

ثم بعد قليل أضاف:

إن الله لا يحب كل مختال فخور.

هز الابن رأسه وصار يبكي

فقال: واقصد في مشيك

ما يزال الابن يهز رأسه، والدموع تنهمر من عينيه وينظر سائلا إياه المزيد

فقال: واغضــض من صــوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير

ثم طلب إليه أن ينهض ليعيد أواني الطعام إلى البيت، ويرى حاجات أمه، وعندما نهض الابن ليســتودعه قال: يا بنــي إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

يا بنــي اتخذ طاعة الله تجــارة، تأتك الأرباح من غير بضاعة.

يابني: أوصــيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا:

أبســط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم، واحفظ إخوانك، وصــل أقاربك، وأمنهم من قبول قول ساع، أو سماع باغ يريد فسادك وخداعك، وليكن إخوانك مــن إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك.

يابني: إياك والطمع، فإنه فقر حاضر.

يابني، كن لين الجانب، قريب المعروف، كثير التفكير، قليل الكلام، إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح، ولاتمازح، ولاتصــاخب، ولاتمار.

وإذا سكت فاسكت في تفكر، وإذا تكلمت فتكلم بحكم.

يا بنــي، لايكن الديك أكيَس منك، إذا تقضى الليل خفق بجناحيه، وصرخ إلى الله بالتســبيح، وإياك والغفلــة، ولاتعلم بذلك النــاس، ولايغرنــك الناس بمــا لاتعلم من نفســك، لاتغتر بقول الجاهــل، إن في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة.

يابنــي، تعلــم الخير وعلمــه. واعلم أن النــاس بخير مابقي الأول حتى يعلم الآخر. وإنما كلام المعلــم كالينابيع يحتاجها الناس يوما هــذا ويوما هذا، فينفعون بها. وعليك بالتواضع فإن أحق الناس بالتواضع أعلمهم وأحسنهم له عملا.

يا بنــي، تعلم الحكمــة وأخلاقها كلها، واجعلها لك شغلا، وفرّغ نفسك لها.

أسرع إلى كسبها، وأبطئ إذا أنفقتها، وقر عينا إذا جمعتها، واعلم أن الحكمة لاتصلح

إلا باللين، وأن اللين جـراب الحكمة، وأن مثل الحكمة بغـير تدبير بمنزلة ما في يدي غير خازنه أباحه سـارقا ووجده معوزا، أو كمثل غنم تـروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدها ضـائعة فأكلهـا، وتعاهد مع ذلك لسانك، واعلم أن اللسان باب الحكمة، فإذا ضـيعت الباب دخل من لاتريـد أن يدخل، فإذا حفظته حفظت الخزانة، وإن من ملك لسـانه إن قال، قال بعلم، وإن صمت صمت بحلـم. إذا رأى لقوله قرارا تكلم، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد، وإن استنطقه السفهاء صمت.

يابني، لاتصوّب عينيك الى زهرة الدنيا، ولاتطلبن قضـاء كل نهمة من الدنيا، ولتكن نهمتك فيما يقربك إلى الله.

يـا بني: لاتتعلم العلـم لثلاث، ولاتدعه لثلاث:

لاتتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به.

ولاتدعه زهادة فيه، ولا حياء من الناس، ولا رضا بالجهالة.

يا بني: اعتزل عدوك، واحذر صديقك، ولا تتعرض لما لايعنيك، واعلم يابني أن مَن كتم سره، كان الخيار بيده.

خذ مـن الدنيا بلاغك، وانفق فضـول كسبك لآخرتك، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا، وعلى أعناق الرجال كلا.

كـن كالأب لليتيم، ولاتحـاب القريب، ولاتجالس السـفيه، ولاتخالط ذا الوجهين البتة.

واعلم يا بني أن للحاسد ثلاث علامات: يغتاب صـاحبه إن غاب، ويتملق إذا شـهد، ويشمت بالمصيبة.

بدا لقمان يمشي مع ابنه خطوات، وهو يقول له:

يـا بنـي: إذا أردت أن تصـاحب رجلا فأغضـبه قبـل ذلك، فـإن أنصـفك عند غضـبه فلا تـدع صـحبته وإلا فاحذره.. لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء.. أنزل الناس من صـاحبك منزلـة من لاحاجة له بك ولابد لك منه.. كن كمن لايبتغي محمدة الناس ولايكسب ذمهم، فنفسه منه في عناء والناسـ منه في راحة.. امتنع بما يخرج من فيك، فإنك ماسكتّ سـالم، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك.

يابني: اتق الله ولاتري الناس أنك تخشى الله ليكرمـوك، وقلبك فاجر.. لتكن ذنوبك بين عينيـك، وعملك خلف ظهرك، وفر من ذنوبك إلى الله، ولاتستكثر عملك.. أطع الله فإنـه من أطاع الله كفاه ما أهمه وعصـمه مـن خلقه.. يا بني عليك بالصـبر واليقين

ومجاهــدة نفســك، واعلم أن الصــبر فيه الشوق، فإذا صبرت عن محارم الله وزهدت في الدنيا، وتهاونت بالمصــائب، لم يكن أحب إليك من الموت، وأنت تترقبه.

وإيــاك والغفلة، خف الله ولاتعلم بذلك النــاس، ولايغرنــك الناس بمــا لاتعلم من نفســك، ولا تغتر بقول الجاهل إن في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة.

يا بني: كن لين الجانب، قريب المعروف، كثـير التفكر، قليل الكلام إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح، ولاتمازح، ولا تصاخب، ولا تمار، وإذا ســكت فاسكت في تفكر، وإذا تكلمت فتكلم بحكم.

يــا بني إذا أنعم الله عليــك بنعمة فلير أثرها عليك في شكرك وتواضعك وإحسانك إلى من هو دونك.

واعلم يا بنــي أن لكل شــيء آفة، وآفة العمل: العجب.

لاترائي الناس بما يعلّم الله منك غيرك، ولا تعجــبن بما تعمل وإن كثر، فإنك لاتدري أيقبل الله منك أم لا.

يابني: أشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شــكرك، فإنه لابقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

يــا بنــي: إذا جاءك الشــيطان من قبل الشك، فاغلبه باليقين، وإذا جاءك من قبل الكسـل فاغلبه بذكر القيامــة، وإذا جاءك من قبـل الرغبة فاخبره بأن الدنيا زائلة، يا بني أكثر التبســم في وجوه أصــحابك، وكن كريما معهم ووافقهم على كل ما يقربك إلى الله تبارك وتعالى ويباعدك عن المعصـية، وإذا استعانوك فأعنهم، وإذا رأيتهم يعملون فاعمــل معهــم، وإذا تصــدقوا فتصــدق معهم، واسمع لمن هو أكبر منك، ولا تجالس الســفيه، ولا تخالط ذا الوجهــين، وأطفئ الشر بالخير.

نعمة الأبوة

ينظر أي رجل في العــالم إلى الزواج كي يصبح أباً، وعندما يصبح أباً يحلم أن يزوّج ابنه، أو ابنته حتــى يتفرع عنه بيت جديد، وكم يشعر الأب بمشاعر غامرة عندما يزور بيت أحــد أبنائه، وتتتابه مشــاعر حميمية خاصة عندما يزور بيت ابنته.

هنــا ســوف أتحدث عن هذه المشــاعر بشكل قصصي على النحو التالي:

بعد مرور شــهر على زواجهما، وعندما بلغت الساعة الواحدة والنصف ليلاً، وفرغ البيت مــن آخر الزوّار، اتجه ســيوان على الفــور مترنحاً تحــت وطأة حالــة الإرهاق وأمــواج النعاســ إلى غرفة النــوم، وقذف جســده على ســعة السرير، في حين دخلت زوجته الحمام تغسل أسنانها.

شهر كامل مضى عليهما في زحمة استقبال الزوّار والمباركين الذين يتوافدون عليهما ليلاً نهاراً، إضافة إلى تلبية الدعوات للعزائم على الغداء أو العشاء، وعندذاك حتى وهما خارج البيت يتلقيان اتصالات هاتفية من الأصدقاء والأقرباء لترتيب مواعيد زياراتهم، أو ترتيب موعد على عزيمة.

بعد نحو ربع ساعة لحقته إلى غرفة النوم بعد أن تأكدت من إغلاق الباب والنوافذ، واطمأنت على إحكام جرة الغاز، وأطفأت الأنوار.

رأته ممدداً على ظهره ببيجامة النوم القطنية ذات اللون الفضي التي انتقتها له عندما كانت تنتقي أجهزة الزواج.

مدّت إصبعها إلى زر الإنارة لتطفئ الضوء، وتستبدله بضوء خافت، بيد أنها تذكّرت بأنه لم يغسل أسنانه، عندئذ مدّت يدها إلى جهاز الخليوي وانتقت بعض الموسيقى الهادئة التي تصلح لأن يسمعها المرء في وقت متأخر كهذا وهو يستلقي على سرير النوم.

استبدلت ثيابها بقميص نوم حريري شفاف أبيض اللون وجلست بجانبه على السرير، ثم ما لبثت أن هتفت بنبرات غارقة في الهدوء: سيوان، ثم بعد لحظات أخرى: خرجت منها نبرات بذات الإيقاع: سيوان، ثم مرة أخرى: سيوان.

فتح عينيه بالكاد فأردفت بنبرات أكثر سماعاً: انهض حبيبي، نسيت أن تغسل أسنانك.

تمطّى قليلاً في محاولة لمقاومة حالة الاسترخاء التي استسلمت لها مفاصله وهو ممدد على ظهره على رحابة السرير، ثم تأوّه قائلاً: ألا أستطيع أن أؤجل ذلك حتى الصباح؟

قالت: هيا يا حبيبي، لايوجد مزاح في الأمر، مرة واحدة سوف تجرّ الثانية، والثانية سوف تجر أختها حتى ترى نفسك ضحية لآلام الأسنان وجلسات العلاج الطويلة في عيادات الأطباء.

أنت في غِنى عن ذلك، هيا انهض من أجل خاطري، سأصطحبك إلى الحمّام، وإن لم تستطع، ابق هنا، سأجلب الفرشاة والمعجون وإناءً للغسيل، وأغسل أسنانك بيدي وأنت على السرير.

نظر إليها مبتسماً ثم مدّ كفه إلى كفها الممدودة لتشجعه على القيام.

عندما استوى على قدميه، أحس بطاقة تندفع إلى جسده، وكأنه ليس هو الذي كان غارقاً في حالة الاسترخاء، ولايتصوّر بأنه

يستطيع أن يبدي حركة واحدة قبل أن يغور في لفائف نوم عميق.

اتجهـا إلى الحمـام، وراح يقـف أمام المغسـلة يفرشي أسـنانه لمدة خمس دقائق، ثم يستخدم الخيط لتنظيف الأسنان بشكل جيد.

عـادا معاً إلى غرفة النـوم، فقال وهما يتمددان على السرير: أشعر بأننا نحتاج إلى استراحة لمدة ثلاثة أيام حتى نتحدث في بعض الأمور الهامـة لترتيب حياتنا المسـتقبلية، لقد أخطأنا عندما استجبنا لرغبات الأهل بالبقـاء في البيت، وعدم الذهاب لقضـاء شهر العسل، كان يمكن لنا أن نكتفي بنصف الشـهر، أو حتـى بربعه لنكـون معاً طوال الوقـت ونتبادل الأحاديث الحميمة والهامة التي هي على تماس مباشر مع إيقاع حياتنا الزوجية.

ثم أردف بنبرات أكثر جدّية: مضى علينا شهر ياشيخة نفيق في التاسعة صباحاً على طرقات الباب، ولايفـرغ بيتنا قبل الواحدة ليلاً.

بيني وبينك ياشـيخة صرت أشعر بحرج مـن شريكي في المحـل لأنه يحتمـل أعباء العمل لوحده. لم أكن أتصـوّر بـأن الإجازة سـتمتد شـهراً كاملاً، وهانحن أمام أسبوع آخر إذا بقي الأمر هكذا.

أظن أن ثلاثة أيام تكفينا لوحدنا، وبعدها أعود إلى عملي، وأجعل شريكي يرتاح بعض الوقت في البيت.

ابتسمت وقالت: ذاك المحل الذي تفوح منه رائحة أعبق ذكـرى عندما التقينا فيه أول مرة.

قـال: أربع سـنوات مضـت على تلك الذكـرى، عندمـا دخلتِ مع أمـك وأختك لشـراء ثياب الزواج لهـا، في تلك اللحظات عندمـا وقعتْ نظرتي على وجهكِ لأول مرة قلتُ في نفسـي: سوف أتزوج من هذه الفتاة إن لم تكن مرتبطة بشخص آخر.

قالت: في تلـك اللحظـات وأنت تعاود النظـر إليّ بين لحة وأخرى، نسـيتُ بأنني حضـرتُ مع أمي وأختي لشـراء الثياب من محلك، شـعرتُ بحالة إربـاك غريبة لم تمر عليّ من قبل.

قال: في تلك اللحظات التي بدت أمامي وكأنها سـحرية، تذوّقـتُ لأول مرة لذة أن ينظـر رجـل في وجه امرأة حسـناء، لم أكن قد مررتُ بذلك من قبل، أحسسـتُ برعشة غريبـة تهزني، تلك الرعشـة التـي أدركتُ بعـد خروجكِ بأنها كانت رعشـة لذة نظرة الحب.

عندمـا توقفت الموسـيقى مـن الجهاز الخلوي بسـبب ضـعف البطارية، أنبهتهما

إلى الوقــت المتأخر عندما نظرا إلى عقارب الساعة التي كانت تشير إلى الثالثة. عندذاك قال سيوان: ألم أقل لك بأننا نحتاج إلى وقت كي نتحدّث فيه حديثاً حميمياً.

قالت: فكرتك جيدة وضرورية ياسيوان، لكــن كيف ســنتفذها؟ الناس ســيحطمون الباب إذا عرفوا أننا في الداخل ولانفتح.

ثــم أردفت بشــيء من الحســرة: حتى إذا نجحنا في عــدم فتح الباب للزوّار، ماذا نفعــل إذا طرق علينا الباب أحد المقرّبين أو المقرّبــات، لنفرض ياســيوان أن أباك طرق البــاب، أو أخاك، أو أمك. لنفرض أن الذي يطــرق الباب هــو أبي، أو أخــي، أو احدى أخواتــي المتزوجــات مع زوجهــا وأولادها جاؤوا ليسهروا ويتناولوا عندنا العشاء.

صمت ســيوان لبعض الوقت ثم أجاب: أفضل طريقة ألاّ نرد على الهاتف الأرضي، ونقفل الهاتف الخلــوي، عندما يطرق أحد الباب ولانفتح، ســيظن بأننــا خارج البيت، وعندما يريد أحد الاتصال بنا سيظن بأننا في مكان خارج عن التغطية.

بالنسبة لي يا حبيبتي سوف أستطيع ألاّ أفتح الباب لأي شــخص خــلال ثلاثة أيام حتى لــو كان الطارق أبــي. إذا اتفقنا على هذا المبدأ ســوف نظفر بثلاثــة أيام هادئة يفضي فيها أحدنا للآخر بما يشاء.

خيم صمت عليهما، فمدّت شيخة إصبعها وأطفأت الإنارة، وأشعلت الإنارة الخافتة، ثم استسلما للنوم تحت شدة الإرهاق.

عند الساعة التاســعة والنصف صباحا استفاقا على صــوت الهاتف الأرضي. نظر أحدهمــا إلى الآخــر حتى توقــف الرنين، عندئذ مدّ ســيوان يــده إلى جهازه الخلوي وأقفله.

نهضت شــيخة من السرير وراحت تعدّ طعــام الإفطــار، وعند العاشرة والنصــف تناهى إلى ســمعها رنين جرس الباب، فلم يفتحا، ولبثا على ما هما عليه حتى المساء.

أمضــيا يوماً هادئاً رغم تواصــل رنين الباب والهاتف.

عنــد ظهيرة اليوم الثاني تناهى صــوت رنين الباب وتداخل بصــوت يقول: افتح يا سيوان.

قال بهمس: إنه أبي

قالت: ماذا تفعل؟

قال: لن نخرق الاتفاق

لبث الرجل ينادي ويطرق الباب لمدة ربع ساعة وعاد فاقدا الأمل.

مع حلول ســاعة الغــروب، تناهى رنين الباب وتداخل بصــوت آخر، فقالت شيخة: يا إلهي إنه صوت أبي

قال: ماذا تفعلين؟

قالت: إنه أبي الذي يقف في الخارج، كيف لي أن أتركه واقفاً.

في تلك اللحظات أحسس بأن ليس من حقه أن يفرض عليها أمرا لا تطيقه خصوصيتها الأنثوية، وأنه حتى لو فرض عليها ذلك، سوف يترك جرحا في أعماقها قد ينزف مدى الحياة، ستشعر بأنها ضيفة في هذا البيت يا سيوان

لا تستطيع أن تتصرف فيه بما تشاء، ستشعر بأنها مهانة في بيت لا تستطيع فيه أن تفتح الباب لأبيها.

انحدرت دموع من عينيها وهي تنظر إليه، وكأنها تستأذنه لتفتح الباب، فابتسم وهو يهز رأسه وقد فشل في التصدي لدموع أخذت تغرورق في مقلتيه وسط الرنين المتلاحق وصوت الأب الذي يتصاعد متداخلاً مع إيقاع الرنين

تقدّمت مسرعة وراحت تفتح الباب.

دخل الرجل هلعاً، فسارعت في القول: المعذرة يا أبي.

وراحت تستقبله بترحاب، وتقدم سيوان مبتسماً يستقبله بترحاب حار، عند ذاك هدأ روع الأب، وارتسمت بسمة على شفتيه وهو يصافح زوج ابنته، وقد تسرب إليه ظن بأنهما كانا نائمين.

بعد مرور سنة على ما وقع، أنجبت شيخة ولداً، لكنها فوجئت بأن زوجها لم تظهر عليه علامات الفرح.

قالت له: إنه ولد يا رجل

قال: كل ما يأتي من الله فهو خير

قالت: يقول مثل هذا الكلام من يهبه الله بنتاً وليس ولداً.

بدا سيوان طبيعياً دون أن تظهر عليه أفراح رجل ولدت زوجته ولداً.

بعد نحو سنتين، ولدت زوجته للمرة الثانية، وعندما علم في ردهة المشفى بأنها بنت، أخرج حزمة نقود من جيبه، وأعطى مبلغاً للممرضة التي بشّرته، وظهرت عليه علامات الفرح.

في المساء أعاد زوجته،وبدأ يستقبل الأقرباء بوجه بشوش، ويقدم أطباق الحلوى والضيافات الثمينة وسط دهشة زوجته ودهشة الأقرباء.

بعد يومين وفي ساعة متأخرة من الليل قالت له شيخة: لم أستطع أن أمسك نفسي عن مساءلتك، أرجوك أن تعذرني.

قال: اسألي ما تشائين يا حبيبتي يا أم ابنتي وابني.

هنا لاحظت مرة أخرى أنه ذكر الابنة قبل الابن رغم أنها الصغرى.

فتشجعت وقالت: عندما أنجبتُ ابناً لم تظهر عليك مظاهر المسرّة،

وعندمــا أنجبتُ البنت تــكاد تطير من الفرح.

قال: لأنها سوف تفتح لي الباب.

قالت دَهشــة: أي باب يا رجل، وقبل أن يجيب، جحظت عيناها وعادت بذاكرتها إلى ثلاث سنوات مضت.

نظرت إليه بعينيها الجاحظتين وقالت: ألم تنس؟!

قال: منذ ذاك المســاء تســلل إلى نفسي حلم كي تنجبي لي بنتــا، فأزوّجها، فأطرق عليها الباب، لأنها ســتفتحه لي وتستقبلني مع زوجها بترحاب.

خيار الأبوة والامومة

لذلــك كان هاجس الرجــل البحث عن امرأة مناســبة لتكون أمــا لابنائه، وكذلك تســعى المرأة للبحث عن رجل مناســب كي يكون أباً لأبنائها.

الزواج هــو فعــل اجتماعي وإنســاني وأخلاقي لاتستمر الحياة من دونه، والزواج هو اقتران ذكر بأنثى فتنتج عن ذلك أواصر علاقات متينة بين عائلتين ليصــبح كل فرد في الواحــدة قريــب الآخر، فهــذه العلاقة يمكن لها أن تجعل من مئات الأشخاص على صــلة قرابة لمجــرد أن رجلين من كل هؤلاء تزوجــا. فمن دون الزواج لايكون لك عم، أو خــال، أو عمــة، أو خالة. ومــا يتفرع من كل صــلات القربــى هذه، ولذلــك فإن كل الأديان، وكل الأعــراف الاجتماعية تحض على الزواج وتباركه لأنه الوســيلة الوحيدة في سبيل استمرار النسل البشري، وفي سبيل تمتين أواصر العلاقة بين الناس. يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧)﴾. (سورة المؤمنون، الآية ١-٧)

يقــول النبي في حديــث أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن ثلاثة أنفار من أصحاب النبي صــلى الله عليه وسلم قال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: أصلي ولا أنام، وقال بعضهم: أصــوم ولا أفطر، فبلغ ذلك النبي صــلى الله عليه ســلم فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني».[٢]

وفي حديــث ابــن مســعود رضــي الله عنه قال: «قال رســول الله صــلى الله عليه وســلم: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصــن

للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».[٢]

ويقول صلى الله عليه وسلم في بيان ما يثاب به العبد وتكتب له به الحسنات: «وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم إن وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له بها أجر».

ثم يبيّن عليه الصلاة والسلام أهمية الزوجة الصالحة وضرورتها في سبيل حياة هادئة طيبة يمكن للإنسان من خلالها أن يكون نافعا وفعّالا في الحياة لأن الرجل ودون الاستقرار الزوجي يبقى دوما يشعر بفراغ، هذا الفراغ الذي يأتي على وقته وجهده وفكره، بل وحتى عفته بعض الأحيان: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا من زوجة صالحة. إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرّته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها ومالها». أمام هذه الزوجة الصالحة لايملك هذا الزوج المحظوظ إلا أن يشعر بطمأنينة أسرية وعاطفية واجتماعية. فالرجل لايكون كائنا اجتماعيا معترفا به بشكل اجتماعي رسمي دون أن يكون مقترنا بزوجة، هذا الزواج الذي يرسخ أقدام الزوجين في عمق الأسرة والمجتمع من خلال الإنجاب وولادة صلات القربى الجديدة.

أمام ذلك نجد الناس يقتدون بهذه التوجيهات ويباركون الزواج وييسرون أمره ما أمكنهم، ولعلي أذكر وصية السيدة /أمامة بنت الحارث/ زوج عوف بن محلم الشيباني لابنتها أم إياس بنت عوف عندما هيأتها إلى زوجها /عمرو بن عوف بن حجر/ قائلة لها: أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال. أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى رجل لم تعرفيه وقرين لن تألفيه فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا، فكوني له أمة يكن لك عبدا. أي بنية اجملي عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا:

١- الصحبة بالقناعة.

٢- المعاشرة بحسن السمع والطاعة.

٣- التعهد لموقع عينيه فلا تقع عينه منك على قبيح.

٤- التفقد لموضع أنفه، فلا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

٥- التعهد لوقت طعامه فإن حرارة الجوع ملهبة، والهدوء عند منامه، فإن تنغيص النوم مغضبة.

٦- الاحتفاظ ببيته وماله والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال، حسن التقدير والإرعاء على العيل والحشم الجميل، حسن التدبير.

٧- لاتفشي له سرا فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره.

٨- لاتعصي له أمرا فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره.

٩- ثم اتقي الفرح إن كان ترحا، والاكتئاب عنده إن كان فرحا. فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

١٠- كوني أشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونينه لـه موافقة، واعلمي إنك ما تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هوا ك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك.

ونرى الآباء يوصون بناتهم عند الزواج لأنهم يخشون عليهن، فالأب يريد لابنته رجلا يتحمل المسؤولية، وكذلك يريد لابنته أن تكون امرأة جلدة تقف جوار زوجها.

يقول خارجة الفزاري لابنته هند عندما أراد الحجاج أن يتزوجها: يابنية، إن الأمهات يؤدبن البنات وإن أمك هلكت، فعليك بأطيب الطيب وهو الماء، وأحسن الحسن وهو الكحل، وإياك وكثرة المعاتبة فإنها قطيعة للود، وإياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، وكوني لزوجك أمة يكن لك عبدا واعلمي إني أنا القائل لأمك عندما تزوجتها:

خذي العفو مني تستديمي مودتي
ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرة الدف مرة
فإنك لاتدرين كيف المغيب
فإني وجدت الحب في **الصدر والأذى**
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

حرص الأب على أبنائه

مهما تقدم الابن في العمر، فإن الأب يشعر بأنه ما يزال بحاجة إلى رعايته وتوجيهه، وهذا أمر طبيعي من أجل ألا تنطفئ شعلة الأبوة في أعماقه تجاه فلذة كبده.

يمكن للأب أن يوجه الرسائل إلى ابنه الذي يدرس بعيداً عن موطنه فيقول له:

ما يهم هنا استشارة حواس العقل في كل فعل تود القيام به،

في كل فكرة تشاء أن تتأمل معالمها،

في كل معرفة ترغب في بلوغها،

في كل كلمة تنظر في قولها.

كثير من الأفعال لا تلزمك
كثير من الأفكار لا جدوى منها
كثير من المعارف لا أهمية لها
كثير من الكلمات تكون في غير موضعها
ليس مطلوبا منك أن تفعل كل شيء
ليس مطلوبا منك أن تبحر في معالم كل الأفكار
ليس مطلوبا منك أن تبلغ كل المعارف
ليس مطلوبا منك أن تقول كل الكلمات

ما يهم أن تدرك أبعاد قدرتك المحدودة في الأفعال، في التأمل، في المعرفة، في الكلام.

كل فعل مقترن بزمنه
كل فكرة مقترنة بوقتها
كل معرفة مجدية في أوانها
كل كلمة تغتني في موضعها
دوما تتأنى بما تود القيام به
تتأنى بما تريد التأمل فيه
تتأنى بما ترغب في معرفته
تتأنى بكلمة تنظر في قولها.

تحت ظلال هذه الشجرة تكمن معالم التركيز التي تمكّنك من جمالية الإرسال والتلقي بمزيد من تؤدة، بمزيد من جدوى، بمزيد من رحابة.

وهنا تدرك أن روح الفضيلة تكمن في قدر تمكّنك من العطاء، تدرك أنك ترتقي في درجات الفضيلة كلما كانت مساحة العطاء لديك أغنى من مساحة الأخذ.

الذي لايقف على أصل تتقاذفه الأصول،
الذي لايقف على عقيدة تتقاذفه العقائد،
الذي لايقف على عمل تتقاذفه الأعمال،
الذي لايقف على موقف تتقاذفه المواقف،
الذي لايقف على كلمة تتقاذفه الكلمات.

وأنت في غربتك هناك، اعلم بأنك لست وحدك، دوما تذكر بأنك تحمل جزءا مني وجزءا من أمك، إنك كالطير الذي فر من قلبينا وكبدينا، يرفرف هناك ساعة، ويعود يرفرف بيننا ساعة.

البارحة بعد صلاة الفجر أوصتني أمك أن أكتب لك بأنك إن كنت مع الله كان الله معك، لاتفعل شيئا إلا وتذكر معه الله، / إن كان الله معك فمن عليك، وإن كان الله عليك فمن معك/.

ماتزال أمك توقظني لصلاة الفجر، نصلي معا، ثم نقرأ شيئا من قرآن الفجر، ثم نجلس ونشرب الشاي معا إلى أن تدب الحركة في شعاب المدينة.

يابني كأني شممت من رائحة كلامك رائحة امرأة تدخل حياتك، هذا حق لك يابني، لكن لاتعجل في الأمر. أسوق لك هذا الحديث عن نبينا ليكون عونا لك.

عَنْ عَائِشَـةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهَـا قَالَتْ: «جلسـت إحدى عشـرة امـرأة، فتعاهَدْنَ وتعاقـدن أن لا يكتمن مـن أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جَملٍ غَثٌ، على رأس جبل وعر، لا سـهلٌ فيرتقى، ولا سمينٌ فينتقل.

قالـت الثانية: زوجـي لا أثير خبره، إني أخـاف أن لا أذَرَهُ، إن أذكـره أذكـرْ عُجَره وبُجَره.

قالت الثالثة: زوجي العَشَـنَّق، إن أنْطِقْ أُطلَّق، وإن أسكت أُعَلَّق.

قالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامة، لا حَرٌّ ولا قَرٌّ، ولا مخافة ولا سآمة.

قالت الخامسـة: زوجـي إن دخل فَهِدَ، وإن خرج أسِدَ، ولا يسأل عما عَهِدَ.

قالت السادسـة: زوجي إن أكل لَفَّ، وإن شَرِبَ اشْـتَفَّ، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولجُ الكفَّ لِيَعلمَ البَثَّ.

قالت السابعة: زوجي عَياياءُ -أو غياياءُ- طباقـاء، كلُّ داءٍ له داء، شَـجَّكِ أو فَلَّكِ،أو جمع كُلاً لَكِ.

قالت الثامنة: زوجي المسُّ مسُّ أرنب، والريح ريح زَرْنَبْ.

قالـت التاسـعة: زوجي رفيـعُ العماد، طويل النِّجاد، عظيـمُ الرَّماد، قريبُ البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالكٌ، وما مالِك؟ مالـكٌ خير من ذلك، له إبلٌ كثيراتُ المبارك، قليلات المسـارح، إذا سـمعن صوت المِزْهَر أيقنَّ أنهنَّ هَوالك.

قالـت الحادية عشرة: زوجـي أبو زَرْع، ومـا أبو زَرْع؟ أناسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ، وملأ من شَحْمٍ عَضُديَّ، وبَجَّحَني فبَجَحْتُ إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنيمةٍ بَشَقٍ، فجعلني في أهل صَـهيل وأطيط، ودائسٍ ومُنَقٍّ، فعنده أقولُ فلا أُقَبَّحُ، وأرقدُ فأتصبَّحُ، وأشربُ فأتقَمَّحُ، أم أبـي زرع فما أمُّ أبي زرع؟: عُكومُها رَداحٌ، وبيتُها فَساح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟: مضجعه كمسلِّ شَطْبة، وتُشْبِعُهُ ذِراعُ الجَفرَة، بنـت أبي زرع: فما بنت أبي زرع؟ طَوعُ أبيها وطوعُ أمها، وملءُ كسـائها، وغَيظُ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع؟: لا تَبثُّ حديثنا تبثيثاً، ولا تَنَقُّـثُ ميرتَنا تنقيثاً، ولا تَملأْ بيتنا تعشيشاً.

قالت خـرج أبو زرع والأوطاب تُمْخَضُ، فَلقي امـرأةً معهـا ولدان لهـا كالفهدين، يلعبان من تحت خَصْرها برمَّانتين، فطلَّقني ونكحها، فنكحْـتُ بعده رجلاً سَريـاً، رَكِبَ شَريـاً، وأخذ خَطِياً، وأراح علـيَّ نَعَماً ثَرِياً، وأعطـاني من كل رائحةٍ زوجـاً، وقال: كلي أم زرع، وميري أهلك، فلو جمعتُ كل شـيء أعطانيه ما بَلَغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة -رضي الله عنها: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتُ لكِ كأبي زرعٍ لأم زرعٍ(*).

البشارة بالطفل

الطفل هو بشارة من الله إلى الإنسان، وعندما يشاء الله أن يرزق الأبوين طفلاً، فإنه يبشرهما بهذا الطفل، لأن ذلك حدث سعيد بكل المقاييس، وحتى عندما تذهب المرأة لإجراء تحليل التفاعل الحملي، فإن الطبيب المخبري يكتب كلمة /إيجابي/ إذا كانت المرأة حاملاً، ويكتب كلمة /سلبي/ إن لم يكن بها حمل، يكتب هذا رفق القاعدة العامة، وربما تؤدي كلمة /إيجابي/ إلى إلحاق كارثة بالمرأة في بعض الحالات، والحمل يعني لها الكارثة، إلا أن الحمل وبكل المقاييس هو عمل خير، وهو بشارة من الله للإنسان إذا تمعّن الإنسان جيداً في معنى الولادة، ولذلك نرى الله يبشر الإنسان قائلاً:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (سورة مريم: الآية٧)

وكذلك تقدم الملائكة البشارة بالولادة لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بولده اسحق: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ(٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ(٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (سورة الحجر: ٥١، ٥٢، ٥٣)

ويقول الله ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (سورة الكهف: الآية ٤٦)

ويقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (سورة آل عمران: الآية١٤)

والابن هو قرة العين، وقد تبيّن القرآن مشاعر الأمومة في الكثير من الآيات، ومن ذلك ما ورد في سورة القصص:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا

لتكونَ منَ المُؤمنينَ(١٠) وَقَالَتْ لأُختِه قُصِّيه فَبَصُرَتْ به عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ(١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْه المَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ(١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّه كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ(١٤)﴾.

إن الإنسـان مهمـا بلغ من مـال وجاه ومجد، فإنه يشـعر بنقص إن لم يكن له ولد، ولذلـك نرى الناس يبذلون ما بوسـعهم في سبيل إنجاب ولد.

فالولد الصـالح هو الظهـر الكبير في الحياة، وهـو حامل رسـالة أبويه، ومحطة الأبـوة، أو الأمومة هي المحطـة الانتقالية الكـبرى في حياة الإنسـان، ولذلك يفضّـل الإنسـان أن يخسر أي شـيء على أن يخسر ولـده، وحتى النبـي يحزن لخسـارة ولده وهـو يقـول: /وإنـا لفراقك يـا إبراهيم لمحزونون/.

الولد هو فلذة الكبد التي تمشي لا أقول على الأرض، بل تمشـي على خفقات قلبَي أبوَيه.

يحرص الإنسـان كل الحرص على أن يقـدم أولاداً نافعين للمجتمـع، فنرى ألوان العناية والاهتمام بهم خاصـة في سـنوات الطفولة حيث تُروى لهم القصص والحكايا الهادفة، وفي سـنوات التمكن مـن القراءة يحضر الآباء لهم القصص والحكايا بحسب المراحـل التي يدخلونها لأن الطفل وإن كان يحمل السمات الوراثية بنسبة قد تبلغ ستين بالمئة، إلا أنه يكتسـب شخصيته من خلال الواقع الذي يعيش فيـه، هذا الواقع الذي يؤثر فيه شديد التأثير.

وقد وردت تعريفـات عديدة في التراث الإسـلامي عن الطفل ومنها وصـف النبي صلى الله عليه وسلم: /الطفل ريحانة من الجنة/.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أدبّوا أولادكـم على ثلاث خصـال: حـبّ نبيكم، وحبّ أهل بيته، وقراءة القرآن» كنز العمال ١٦/ ٤٥٦.

ويقول: «رحم الله والدين أعانا ولدهما على برّهما» مستدرك الوسائل ٢/ ٦١٨.

ويقول: «رحم الله عبداً أعان ولده على برّه بالإحسـان إليه، والتآلف لـه، وتعليمه وتأديبه» مستدرك الوسائل ٢/٦٢٦.

ويقـول: «رحم الله مـن أعان ولده على

برّه، وهو أن يعفو عن سيئته، ويدعو له فيما بينه وبين الله» عدة الداعي، ٦١.

ويقــول: «رحم الله مــن أعان ولده على برّه... يقبل ميسوره، ويتجاوز عن معسوره، ولا يرهقــه ولا يخرق به». الكافي ٦/٥٠/ ٦ بر الأولاد.

ويقول: «اكرموا أولادكم واحسنوا آدابهم» مستدرك الوسائل ٢/ ٦٢٥.

ويقــول: «نظر الوالد إلى ولــده حبّاً له عبادة» المصدر: مستدرك الوسائل ٢: ٦٢٦.

ويقــول: «احبّوا الصــبيان وارحموهم، فإذا وعدتموهــم فوفوا لهم، فإنهم لا يرون إلاّ أنكم ترزقونهم» مكارم الأخلاق ٢١٩.

ويقول: «اكثروا من قبلة أولادكم، فإن لكم بكلّ قبلة درجة في الجنة» مكارم الأخلاق ٢٢٠.

ويقــول: «مَن قبّل ولده كان له حســنة، ومن فرّحــه فرّحه الله يــوم القيامة» عدّة الداعي٧٩.

وجاء عنه صــلى الله عليه وســلم: (أنه نظر إلى رجل له ابنان فقبّل أحدهما وترك الآخر، فقال صــلى الله عليه وسلم: «فهلاّ ساويت بينهما») مكارم الأخلاق: ٢٢١.

ويقول: «إنّ الله تعــالى يحبّ أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القُبَل» كنز العمّال.

ويقول: «اعدلوا بــين أولادكم في النحل كما تحبّون أن يعدلوا بينكم في البرّ واللطف» كنز العمّال ١٦/ ٤٤٤.

وجاء في قوله صــلى الله عليه وســلم: «ســاووا بين أولادكم في العطيّــة، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضــلّتُ النساء» كنز العمّال ١٦/ ٤٤٤.

عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور» مكارم الأخلاق ٢٢١.

وكان الزهــير بــن العــوام يرقص ولده ويقول:

أزهــر مــن آل بــنـي عـتـيـق
مــبــارك مــن ولــد الـصـديـق
ألــذه كـمـا ألــذ ريـقـي

أمــا معاوية فيصــف ابنته بــ /تفاحة القلب/، فقد دخل عمــرو بن العاص عليه وعنده ابنته عائشــة فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟

قــال: هذه تفاحــة القلب، ثم أضــاف: فوالله ما مرض المرضــى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأخوان إلا هنَّ.

فقــال عمــرو: يا أمــير المؤمنــين إنك حببتهن إليّ.

الهوامش

• الحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب حســن المعاشرة مع الأهل برقم (٤٨٩٣)، ومسـلم كتاب فضائل الصـحابة -رضـي الله عنهم- باب ذكر حديث أم زرع برقم (٢٤٤٨)، وأخرجه النسـائي في الكبرى كتاب عشرة النسـاء باب شكر المرأة لزوجها برقم (٩١٣٨)، وأخرجه ابن حبان برقم (٧١٠٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٢٦٥)(٥/٣٥٤).

وأمـا شـراح الحديث فقد قال الحافظ بن حجر -رحمه الله- في الفتح وقد شرح حديث أم زرع إسـماعيل بن أبي أويس شيخ البخاري، روينا ذلك في جزء إبراهيم بن ديزيل الحافظ من روايته عنه، وأبو عبيد القاسم ابـن سـلام في غريب الحديث، وذكر أنه نقل عن عدة من أهل العلـم لا يحفظ عددهم، وتعقب عليه فيه مواضـع، وأبو سـعيد الضرير النيسـابوري، وأبو محمد بن قتيبة كل منهما في تأليف مفرد، والخطابي في شرح البخاري، وثابت بن قاسـم، وشرحه أيضـا الزبير بن بكار، ثم أحمد بن عبيد بن ناصح، ثم أبو بكر بن الأنباري، ثم إسـحاق الكاذي في جزء مفرد، وذكر أنه جمعه عن يعقوب بن السـكيت وعن أبي عبيدة وعن غيرهما، ثم أبو القاسـم عبد الحكيم بن حبان المصري، ثم الزمخشري في الفائق، ثم القاضـي عياض وهو أجمعها وأوسعها وأخذ منه غالب الشراح بعده، وقد لخصت جميع ما ذكروه.

وحكى عياض، ثم النووي، قول الخطيب في المبهمات: «لا أعلم أحداً سمى النسوة المذكورات في حديث أم زرع إلا من الطريق الذي أذكره وهو غريب جداً، ثم ساقه من طريق الزبير بن بكار. قال ابن حجر: قلت: وقد ساقه أيضاً أبو القاسم عبد الحكيم المذكور من الطريق المرسلة، فإنه ساقه من طريق الزبير بن بكار بسنده ثم ساقه من الطريق المرسلة، وقال النووي: وفيه أن الثانية اسمها عمرة بنت عمرو، واسم الثالثة حنى بنت نعب، والرابعة مهدد بنت أبي مرزمة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حنى بنت علقمة، والثامنة بنت أوس بن عبد، والعاشرة كبشة بنت الأرقم، والحادية عشر أم زرع بنت أكهل بن ساعد.

المراجع

١- إمام الحكمة- رواية- عبد الباقي يوسـف- منشـورات وزارة الأوقاف والشـؤون الإسلامية- الكويت ٢٠١٠.

٢- متفق عليه.

٣- رواه الجماعة.

الدراسات والبحوث



العلم يواجه مسائل الكون الكبرى

حازم محمود فرج ⊙

على شاشة حاسب إلكتروني في غرفة المتابعة والتحكم في مرصد فلكي ناء يسطع فجأة توهج ضوئي يملأ الشاشة. ويحدق عالم فلك في بقعة الضوء هذه آملاً بتفسير معنى ذلك الانفجار البعيد. أما مشهد المكان خارج المرصد فربما أنه لا يختلف كثيراً عن مشهد بقعة ما على سطح كوكب المريخ: صخور متشظية على قمة جبل متجمدة تدعم قباب فولاذية تطاول عنان السماء. يلعب مرصد كيك هذا، الذي يعلو هنا بارتفاع ١٤،٠٠٠ قدم (٤.٥كم تقريباً)

⊙ مترجم سوري.

العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

على قمة بركان خامد في جبل ماونا كيا في هاواي، دور مضيف لعدد كبير من علماء الفلك الذين يقومون بزيارة قمة الجبل كل ليلة للقيام بأرصادهم وجمع معلومات علمية. ومن أجل ذلك يتحملون مشقة التنفس من عبوات الأكسجين في مكانهم المرتفع هذا فوق قسم كبير من غلاف الأرض الغازي ذي الأثر المشوه للرؤية والرصد الفلكي.

فرض طيف النجم ذاته الآن ليثير هذا العالم الفلكي، رغم أنه لا يزيد عن صورة سلسلة من الخطوط التي تشع بنعومة في ظلام غرفة تملؤها الحواسب والشاشات والأوراق وأجهزة الهاتف، وفي مكان قريب في الجوار، يتابع العملاق كيك بمرآته التي يبلغ قطرها ١٠ أمتار، عمله في تجميع الضوء، وفصله إلى الأطوال الموجية المكونة له، وتسجيل الصور الناتجة في قاعدة بيانات خاصة.

في هذه الليلة، سيقوم علماء الفلك هنا بعملية حصاد لضوء قادم من نجوم متفجرة. نعلم أن مجرتنا، درب التبانة، تحوي أكثر من ٢٠٠ بليون نجم -شمسنا هي مجرد نجم مفرد منها. ومن بين بلايين النجوم الكثيرة تلك، تنهي معظم النجوم الجسيمة - وهي تلك النجوم الثقيلة الوزن التي تمضي مسيرة حياتها بوتيرة سريعة وتموت في شبابها - حياتها بانفجارها العنيف إلى أشلاء، لتقذف مادتها بسرعات فوق صوتية نحو مناطق جوارها المجرية المحيطة. إن هذه المتجددات العظمى (أو المستعرات الفائقة) supernovae هي من أشد ظواهر الكون عنفاً وأكثرها طاقة منذ زمن الانفجار العظيم ذاته. ومما يجب أن نعلمه هنا هو أننا ندين بوجودنا لها: إذ إن معظم العناصر الثقيلة، والعناصر المعدنية ذاتها، مثل الكربون والآزوت والأكسجين، وهي العناصر التي تكوّن معظم بنيتنا الجسمية وتسمح بتفاعل العناصر الكيميائية في الكائنات الحية، إنما صنعت في باطن هذه النجوم الكونية المتفجرة.

لم يقتصر دور مثل هذه المتجددات العظمى على إتاحة إمكانية الحياة فقط، بل إنها بدأت أيضاً بإنباء علماء الفلك بالكثير عن تاريخ الكون. من ذلك أنها تخبرنا الآن عن سرعة توسع الكون، ومحتواه من المادة. إن الإجابة عن أسئلة رئيسة كهذه ستحدث ثورة في علوم الفلك وفي إحاطة العلم بمسائل من قبيل من أين جئنا، ولماذا نحن هنا.

من الأسرار التي يتحراها علماء الفلك الآن البحث عن إجابات لأسئلة علمية تتعلق بعمر الكون، وحجمه، ومصيره. كما أن



الكثير من الأسئلة الملحة الأخرى المتعلقة بخصائص أو صفات مفردة للكون تنتظر إجابات لها: ما هي هذه المادة السوداء التي تملأ الكون؟ ما الذي يسبب حدوث الانفجارات الكونية الخارقة التي تعرف باسم انبعاثات أشعة غاما؟ وأي دور تؤديه في المجرة والكون في أوسع مداه؟ كم هناك من الثقوب السوداء في الكون؟ وماذا يمكنها أن تفعل عبر زمن طويل في مراكز المجرات، أو بالنجوم التي تسبح بحرية في محيط المجرة؟ كيف جاء الكون بقضه وقضيضه عقب الانفجار العظيم؟ وأي أجرام الكون تشكل أولاً: النجوم؟ أم المجرات؟ أم ثقوبه السوداء؟

أما في مناطق الجوار الأقرب إلى كوكبنا الأرضي، فهناك مزيد من أسئلة أخرى أيضا. فعلماء الفلك يكتشفون الآن الكواكب خارج النظام الشمسي (بالجملة). وقد اقترب عددها من عتبة الـ ٥٠٠ كوكب خارج النظام الشمسي. لكن، ترى، هل عرفنا كل شيء أولاً عن كواكب نظامنا الشمسي؟ وماذا عن الحياة العاقلة خارج نطاق الكوكب الأرضي؟

وفي حين يبدو مؤيدو كلا الرأيين المتعاكسين في هذا الجدال واثقين بقدر معلوماتهم ونظرياتهم، إلا أن دليل وجود حياة خارج الأرض ما زال غائباً حتى الآن.

ومــع ذلك، فهذا لا يعني أن الحياة لا توجد بكثرة في الكون... أو حتى في مجرتنا نحن.

١ - كيف حدث الانفجار العظيم؟

نعلــم أن الكون بــدأ بـ«انفجار عظيم»، تمثل هذه الحادثة تفجراً، أو انبثاقاً، هائلاً، للزمــكان الــذي أطلق مــادة وطاقة تندفع خارجاً - ليس في فضاء فارغ، بل في عدم.

إن الأدلــة كثيرة، بــدءاً من أساســيات نظرية أينشتاين في النسبية العامة، والتقاط الإشــعاع الدقيق للخلفيــة الكونية في عقد الســتينيات من القرن الماضــي، وصولاً إلى إثبات وجــود تموجات وتباينــات كثافة في البنيــة القديمة لنســيج الزمكان من خلال الأرصــاد التي نفذها مسبار COBE عام ١٩٩٢. ولكــن ما يحدث هــو، مثلما يحدث في بقية شؤون الحياة، أن يكمن الشيطان في تفاصيل الأمور ودقائقها.

عندما حــدث الانفجار العظيم، انبثقت المادة والطاقة والمكان والزمان جميعاً، وكان الكون شديد الكثافة والحرارة لدرجة تعصى على التصــور أو الوصف. أما السؤال الذي يتكرر طرحه عــادة - «ماذا كان يوجد قبل الانفجار العظيــم؟» فهو خارج دائرة العلم، وذلك لعدم وجود طريقة يســتطيع العلم أن يجيب بها عنه. وفي الحقيقة، فالعلم يعرف القليــل فقط عــن كيفية ســلوك مجريات الأحــداث في الكــون وصــولاً إلى جزء من الثانية الأولى بعد الانفجار العظيم.

ابترد الكون مع مضــي عملية التوســع قدماً ليصــل إلى نقطة بــدأت معها عملية تضــخم خاصــة وفريدة شــهد الكون فيها توســعاً متفجراً في الحجم في فترة جزء من ثانية. وبقدر ما يمكننا إدراكه هنا فالتضخم يفسر الأحداث والظواهر التي كانت ستكون صعبة الفهم والتفسير في حال عدم حدوثه. وبعد التضــخم بمدة جزء من الثانية، أبطأ الكون من معدل توســعه، مع اســتمراره في التوســع كما هو شــأنه اليوم. أمــا ابتراده، المماثل في الأهمية، فقد أدى إلى تكثف المادة من جميع أنواع الطاقة فيه.

وللكيمياء أيضــاً جذورهــا العميقة في ســحيق تاريخ الكون. ففي لحظة مفصلية، تبعد ثانيــة واحدة عن الانفجــار العظيم، خرجــت إلى الوجود عناصــر الهيدروجين والهليــوم والليثيــوم وغيرهــا. وبعــد نحو ١٠،٠٠٠ سنة، انخفضــت حرارة الكون إلى درجة بــدأت معها قوة الثقالــة (الجاذبية) بفعل فعلها، لتزيد من حجم ومدى التموجات والتباينات في بنية نسيج الزمكان لتصل بها إلى البنى التي نشــاهدها اليوم. وفي حقبة أخرى تالية، تقع بعد ذلك بـ ٣٧٠،٠٠٠ سنة، كمــا يعتقد العلماء، تحــول الكون فيها من

معتم أكمد إلى فضاء شفاف. هنا افترقت أخيراً المادة والإشعاع.

هكذا غرست بذور النجوم والكواكب والمجرات، وبدأت بنية الزمكان الكوني تشبه ما نستطيع رؤيته في السموات الآن.

٢- كم هو حجم الكون؟

أخذ خلافان عظيمان مركز الصدارة في بحث العلماء لتحديد حجم الكون. في شهر نيسان/إبريل من عام ١٩٢٠ تجادل عالما الفلك هارلو شيبلي وهربر د.كورتيس بشأن سلم الحجم الكوني، وذلك في المدرج الكبير لمتحف التاريخ الطبيعي التابع لمؤسسة سميثسونيان في واشنطن العاصمة. افترض كورتيس أن الكون يتكون من «أكوان جزرية عديدة ومتباعدة جداً، وأن «السدم اللولبية» هي منظومات بعيدة من النجوم خارج مجرتنا درب التبانة، وأن الشمس قريبة من مركز المجرة. فيما افترض شيبلي أن السدم اللولبية إنما هي مجرد سحب غازية تقع داخل مجرة درب التبانة؛ ووضع الشمس على طرف حافة مجرة كبيرة جداً. نرى الآن أن كورتيس أصاب بشأن الحجم الكبير للكون واتساعه، ولكنه أخطأ بشأن موقع الشمس، بينما أخطأ شيبلي بالقول بكون صغير وأصاب بشأن موقع الشمس.

ومع ظهور عدة عمليات حسابية لقياس المسافات إلى وبين المجرات، ومعسكرين اثنين يتباينان بشأن نتائج مختلفة لقيمة ثابت هبل -معدل توسع الكون- فقد أرسى الفلكيون خلافاً كبيراً آخر. إن عمر الكون وحجمه مترابطان، وكلاهما يتوقف على قيمة ثابت هبل. وفي المدرج ذاته الذي استخدمه كورتيس وشيبلي، تجادل باحثا المجرات سيدني فاندنبرغ وغوستاف تامان بشأن هذه المسألة. قدم فاندنبرغ دليلاً يوحي بكون فتي وصغير الحجم نسبياً، فيما أيد تامان فكرة كون أكبر عمراً وحجماً. ومازال علماء الفلك مقيدين بالافتراضات ونقص البيانات والمعطيات الكافية للتوافق على سلم المسافة وحجم الكون، وما زال البحث في إثر مزيد من المعلومات مطرداً.

رغم هذا، يستطيع علماء الفلك رسم بعض الحدود، أو القيود، لما يجب أن يكون صحيحاً، وذلك اعتماداً على أرصاد القرن الماضي. ويجب التذكر أنه عندما نقول حجم الكون، فإنه يجب أولاً تحديد أننا نعني بذلك حجم الكون المرصود. وإذا كانت نظرية التضخم صحيحة، فقد يكون الكون أكبر حجماً بكثير مما نستطيع رؤيته. وباستخدام أقوى المناظير الفلكية الحالية، يستطيع علماء الفلك مشاهدة مجرات تبعد عنا مسافة ١٠ إلى ١٣ بليون سنة ضوئية

(السنة الضوئية تساوي نحو ٦ تريليون ميل، أو ١٠ تريليــون كم). لكــن «أفق الرؤية» في الكون قد تمدد إلى مسافات تتجاوز عتبة الـ ٢٠ إلى ٢٦ بليون ســنة ضوئية فقط، وذلك ببساطة لأن الفضــاء (المكان) ذاته يتوسع. ولذا فإن حافة الكون المرصود يجب أن تبعد مســافة ٤٦ بليون سنة ضــوئية على الأقل عنا- وهذا مــا يدعى بالمســافة المواكبة[1] comoving distance أو أفق الجســيم particle horizon. وعلــى أي حــال، فالكــون المرئي هو على الأرجح كرة قطرها ٩٣ بليون سنة ضوئية على الأقل.

وما يزيد الأمر غرابة هو احتمال حدوث التضــخم الكوني في أماكن عديدة تقع وراء الأفق المرئي وخلف حدود المتصل الزماني- المكاني الذي نعرفه. وبذا فقد توجد أكوان أخرى خارج قدرتنا على كشفها.

ولكــن حتى من دون هــذه الأكوان، فأن نــدرك أننا نوجد في كــون يبلغ قطره ٥٥٠ بليون تريليون ميل (٨٨٥ بليون تريليون كم) على الأقل لهو أمر يحبس الأنفاس ويوقع في نفوسنا الكثير من المهابة.

٣- كم بلغ الكون من العمر؟

في القرن الماضي، استنبط علماء الفلك عــدة طرائق لتقدير عمر الكــون. وبالعمل على كل منها، فقد اســتطاعوا التركيز على رقــم لحقبة من الزمن ربمــا أنه يمثل عمر الكون. والإجابة عن هذا الســؤال الآن أكثر دقــة بكثير مما كانت عليه قبــل ٢٠ أو ٣٠ ســنة، رغم أنها قد لا تكون أكيدة أو نهائية مطلقــاً، وإن الأهمية التــي توليها لطريقة تحديد العمــر هي ما يتوقــف عليها عمر الكون هنا.

تعتمد أحــدث طريقة على اســتخدام عدد يكاد يكون سحرياً في علم الفلك يدعى باســم ثابت هبل. يصــف هــذا الرقم قدر سرعة توســع الكون- سرعة تباعد المجرات عن بعضــها. ومن أجــل تحديد قيمة ثابت هبل، يلجأ علماء الفلك إلى رصــد المجرات البعيدة وقياســ سرعة هروبها عن الأرض، ومسافاتها أيضاً. يعرف العلماء المسافات من قياس ســطوع الأجســام المعروفة مثل النجوم المتغــيرة من نمط معين. ثم يقومون بتحديــد قيمة ثابــت هبل بتقســيم سرعة ابتعاد المجرة على مسافتها (بعدها). وحالما يتفقون على قيمة لثابت هبل، يســتطيعون عندئذ تحديد عمر الكون باستخدام معادلة رياضية بسيطة. إن أكثر الأرقام ذكراً وقبولاً حالياً لعمر الكون باســتخدام هذه الطريقة (ويعتقــد عموماً أنــه الأدق حتى الآن) هو ١٣,٧ بليون سنة.

وتحاول طرق أخرى لقياس عمر الكون قياس أعمار أقدم الأجسام في الكون. يستطيع علماء الفلك قياس تحلل العناصر الإشعاعية[٢] radioactive elements، وبذا فهم يستطيعون، وبدقة، قياس أعمار أقدم الصخور على الأرض عند عمر ٣.٨ بليون سنة، وأقدم الأحجار النيزكية عند عمر ٤.٦ بليون سنة، وتأريخ النظام الشمسي بدقة عالية. وباعتماد طريقة أعمار النجوم القديمة هذه، وجد العلماء المؤيدون لهذه الطريقة أن عمر الكون يتراوح بين رقمي ١٢ و ١٥ بليون سنة مع هامش خطأ قدره ٣ إلى ٤ بلايين سنة أكثر أو أقل. كما وجدت دراسة علمية أخرى اعتمدت على قياس تحلل عنصر اليورانيوم في النجوم القديمة أن عمر الكون قد بلغ ١٢.٥ بليون سنة.

ويقدم قياس أعمار حشود النجوم القديمة وسيلة أخرى. فبالنظر إلى أسطع النجوم في حشد نجمي كروي، يستطيع علماء الفلك وضع حد أعلى لعمر الحشد. وتوحي دراسة حديثة لحشود كروية كثيرة بعمر ١٢ بليون سنة تقريباً لكثير من أقدم نجومها.

يستطيع علماء الفلك أيضاً قياس أعمار النجوم القزمة البيضاء، التي هي بقايا نجوم تقلص حجمها، وثقيلة كالشمس، ولكنها بحجم كوكب الأرض فقط. وبإيجاد أقدم الأقزام البيضاء وأكثرها خفوتاً، يستطيع الفلكيون تحديد كم من الوقت مضى على ابتراد الأجسام. تقدم هذه الطريقة تحديداً لعمر قرص مجرة درب التبانة يقرب من ١٠ بلايين سنة. وحيث أن أصحاب هذه الدراسة يفترضون أن قرص مجرتنا قد تشكل بعد الانفجار العظيم بنحو ٢ بليون سنة، فإن هذا يضع عمر الكون عند الرقم ١٢ بليون سنة فقط.

سيستمر تضاؤل نافذة الارتياب، لنحصل على تقدير دقيق جيد لعمر الكون. وعلى أي حال، فإن معظم علماء الفلك الآن يذكرون العمر ١٣.٧ بليون سنة كأرجح تقدير.

٤- كيف تشكلت مجرات الكون؟

يعرف علماء الفلك القليل فقط عن أيام الكون الأولى. هل تشكلت النجوم أولاً؟ أم المجرات؟ أم الثقوب السوداء؟ كان الكون الوليد بحراً متجانساً نسبياً من مادة معتمة وغاز حرارته آلاف الدرجات. واعتماداً على رجع صدى الانفجار العظيم، يعتقد العلماء أن المادة تضامت والتحمت عندما ابترد الكون وأصبح شفافاً بعد نحو ٣٨٠ ألف سنة من الانفجار العظيم. وبدأت بنى مختلفة مثل النجوم والمجرات بالتشكل على الأرجح بعد نحو ٥٠٠ مليون سنة من الانفجار العظيم.

لكن لا أحد يعلم على وجه الدقة كيف بدأت المادة بالتكتل أول مرة.

يعود بـدء كشـف آلية نشـوء المجرات بالعهد إلى وولـتر بادي، الذي درس النجوم في المجـرات وحـاول شـرح كيفية تشـكل المجرات. اكتشف بادي، وهو واحد من أبرز الباحثين في مرصـد ماونت ويلسون بولاية كاليفورنيا في عقد الخمسـينيات من القرن الماضـي، مجموعة من النجـوم حول مجرة درب التبانة قليلة المحتوى المعدني (وفق هذا المعنى يعرف المعدن بأنه العنصر الأثقل من الهيدروجين والهليوم). وهذه النجوم قديمة العمر، ربما بقدر يقرب من ١١ بليون سنة. أما العناصر المعدنية التي قذفتها المستعرات الفائقة وعمليات أخرى إلى فضـاء ما بين النجوم فقد اندمجت أخيراً في نجوم أحدث عمراً في مجرتنا.

قاد اكتشـاف بادي إلى نمـوذج نظري لتشكل المجرات في عقد السبعينيات يدعى بـ ELS، على اسـم العلماء أولـين إيغن، ودونالد لينـدن بل، وآلان سـانديج. يقول نمـوذج ELS أن المجرات تنشـأ كأجسـام مفردة بفعل انهيار سحب الغاز. فمع تراكم الغاز وتركزه بفعل قوة الثقالة، فهو يشـكل أولاً هالة كروية، ومن ثم يندمج مزيد ومزيد من الغاز، ويبدأ بالدوران، ويتشبع تدريجياً بالعناصر المعدنية، لتتخلق الأقراص ضـمن المجرات.

وهناك فكرة أخرى هي نظرية الاندماج. تحـت هذا الفكرة، تقوم مجـرات بدائية - تجمعات غازيـة- بالتجاوب معـاً وتندمج لتشكل المجرات في الكون المبكر. ومع مرور الزمن، تندمج مجرات من أحجام مختلفة مع مجرات أخرى. وبالفعـل، فإن علماء الفلك يعتقدون على نحو متزايد الآن أن الكثير من المجرات -ربما معظمها- قد تشـكل عندما اجتمعت سـحب غاز صـغيرة واندمجت في بنى أكبر وأكبر مع مضي الوقت. تدعى هذه العمليـة بطريقة التنامي من الصـغير إلى الكبير.

تزداد الأدلة وتتراكم لتشـير أن المجرات تتشـكل بنحـو رئيسـي من خـلال العملية الاندماجية. تكشـف صـور «حقول بعيدة» نفذها منظار هبل الفضائي مجرات سحيقة البعد- هي عبارة عن أجسـام كثيرة صغيرة الحجـم يبـدو أنها مجـرات بدائية أشـبه بلطخات يرجح العلماء أنها تلك الأجزاء أو الفتات التي علقت ببعضـها بعضـاً لتشكل المجـرات العادية الأكبر حجمـاً التي نراها اليـوم في الكـون الحديـث. ويعتقد بعض العلماء المختصين بأبحاث ودراسة المجرات أن مجرة درب التبانة ربما تشكلت من اندماج

١٠٠ مجرة صغيرة أو أكثر مع مرور الزمن.

لا أحد يعلــم للآن ما إذا كانت المجرات تشــكلت أولاً معاً بشكل جيوب غازية قامت من ثم ببناء النجوم، أو إذا كانت النجوم قد تشكلت من جيوب غازية صغيرة ثم نمت إلى مجرات. وهناك احتمال ثالث هو أن الثقوب السوداء تشكلت أولاً كجيوب كثيفة من المادة التي جرفت المادة الساطعة حولها، ثم تشكلت المجــرات المحيطة من الغــاز الذي لم تبتلعه الثقوب الســوداء. توجد الثقوب السوداء في مراكز العديد من المجرات الكبيرة والمتوسطة الحجــم. إنها هذه المحركات المســيطرة في الكوازارات البعيدة (التي هي مجرات وليدة عالية الطاقة). ويعتقد علماء الفلك الآن أن الثقوب السوداء تسكن على الأرجح في نوى جميع المجرات تقريباً.

ســيقوم منظار جيمس ويب الفضائي، بعد إطلاقــه في عــام ٢٠١٤، بالتعامل مع مســألة أي هذه الأجرام نشأ أولاً. ستهدف دراســة «تجمع المجرات» الخاصة بالمشروع إلى مسح أعداد كبيرة من المجرات القديمة للإجابة عن آلية نشوء المجرات وتحشدها، ربما مع ثقوب سوداء كبذور جاذبة للمادة.

٥- وللمادة السوداء قصة

يحفــل الكــون بقصصــه الغامضــة ومفاجآته المذهلة. أحد أغرب هذه القصص هي أن الكون يحوي شــكلاً ما من مادة غير مرئية- بل والكثــير منها. ومن أجل معرفة وفهم هذه المادة المعتمة، يحاول علماء الفلك أن «يزنوا» الكون بأســاليب شتى، فيقومون برصد تأثيرات المادة السوداء على الأجسام الفلكية التي تتباين حجماً من الصــغير إلى الكبير.

اقترح الفلكي الهولندي جان أورت Jan Oort وجــود المادة المعتمة أول مرة في عقد الثلاثينيات من القرن الماضــي عندما درس حــركات النجوم في مناطق جوار الشــمس. ولأن عقد المجــرة لم يكن ينفرط بحال، فلا بد مــن وجود مادة كافية في قرصــها، كما اســتنتج، للإبقاء على النجــوم في أماكنها ومنعها من التحرك بعيداً عن مركز المجرة. لكن الصــورة التي بدت له هي عدم وجود مادة مرئية كافيــة لمنع النجوم من الإفلات بحرية من المجرة. وفي منطقة جوار الشمس، افترض أوورت وجــود مادة معتمة تفوق في كميتها المادة النيرة بثلاث مرات.

جاء دليل أقوى في وقت لاحق عندما درس علماء الفلك الأقراص المتوهجة والهالات halos المجريــة. تنصــ قوانــين نيوتن أن سرعــة النجوم التي تدور حول مركز المجرة يجب أن تتباطأ بقدر كبير مع زيادة مســافة أبعادها عن المركز. لكن النجوم الموجودة في

مجـرة تدور بالسرعة ذاتها مهما كان بعدها عـن المركز إلى الخارج. إن تفسـير ذلك هو أن الهالات الكروية الكبـيرة جداً من المادة السـوداء (المعتمة) تحيط بالمادة المرئية في المجرات.

ثم جاءت أدلة أخـرى على وجود المادة السوداء من دراسة حشود المجرات. من ذلك أن اكتشـف الفلكي الأمريكي فريتز زويكي، أيضاً في ثلاثينيات القرن الماضي، سحباً من المادة السوداء أكبر كماً بكثير في حشد الذؤابة Coma cluster المجري على مسافة ٣٠٠ مليون سنة ضوئية تقريباً من الأرض. وجد زويكي أن المادة المرئية يجب أن تشـكل نحو ١٠٪ فقط من الكتلـة اللازمة للإبقاء على المجرات في قيد قوة الثقالة. وبذا ربما تكون المادة المعتمة ٩٠٪ من مادة الكون.

وإذاً ما هي طبيعة هـذه المادة المعتمة؟ هذا واحد من أكبر الأسرار الحديثة في علم الكون. ربما أنها تتكون من جسيمات دقيقة تدعى بجسيمات النيوترينو، وأجسام غريبة شـبه نجمية يسـمونها أقزاماً بنية، وأخرى بيضـاء، ونجـوم نيوتـرون، أو حتى ثقوب سوداء. تتمثل فرص أخرى بجسيمات غريبة مثل الآكسـيونات[٣] axions، وجسـيمات نيوترينو كبيرة الحجم، وجسيمات فوتينو[٤] ، أو غاز هيدروجين عائم بين المجرات.

وأياً كانت طبيعتها، فالمادة المعتمة تعني الكثير لمسـتقبل الكون. فإذا وجدت بكميات كافية فهي قد تكبح في نهاية المطاف عملية توسع الكون لتعكس بذلك اتجاه حركة مادته وطاقته.

٦- كم يوجد من الثقوب السوداء في الكون؟

بعـد أن أشـهر آينشـتاين نظريتـه في النسـبية العامة بوقت قصـير، قـدم عالم الفيزيـاء الفلكية النظريـة -الألماني كارل تشفارتشايلد- نموذجاً نظرياً مفصلاً لوجود الثقوب السوداء في العام ١٩١٦ (تعود فكرة الثقوب السوداء زمناً إلى جون ميشيل وبيير سـيمون لابلاس في ثمانينيات القرن الثامن عشـر). وكما هو شـأن الكثير مـن الأفكار المدهشة، فقد أخذ القبول بالثقوب السوداء كأجسـام حقيقيـة بعيداً عـن الطروحات النظريـة وقتـاً طويلاً جـداً. ولم ينل الأمر قبولاً عاماً قبل تراكم أرصاد كثيرة للمجرات والنجـوم المزدوجـة في عقد السـبعينيات وأوائل الثمانينيات من القرن الماضي تفرض ضـرورة وجود الثقوب السـوداء. وفي عقد التسعينيات صار واضـحاً لعلماء الفلك أن الثقوب السـوداء ليسـت موجودة فقط، بل وكثيرة الانتشار في أنحاء الكون.

إن الثقب الأسود هو منطقة من الفضاء

(أو الزمكان) يخضع لتأثير حقل ثقالي بالغ القوة يقيد حركة أشكال المادة كافة، بما في ذلك أنواع الإشعاع الكهرطيسي، ويمنعها من الإفلات من قبضته. لنتأمل مثال قدر السرعة اللازمة للإفلات من شدة قوة ثقالة (جاذبية) الأرض: إذا استطعت أن تقذف كرة بيسبول بسرعة ٧ أميال بالثانية، فسيكون بوسعك أن ترسلها إلى الفضاء بعد أن تتغلب على قوة ثقالة الأرض الجاذبة لها. وفي حالة انهيار أجسام كونية هائلة الحجم إلى أحجام أصغر فإن قوى ثقالتها تزداد بصورة دراماتيكية. بذلك سنرى، في مثال الثقب الأسود، أن سرعة الإفلات يجب أن تتجاوز قدر سرعة الضوء في الفراغ – ١٨٦ ألف ميل في الساعة– وكل ما يتحرك في الثقب دون هذه السرعة يظل حبيساً فيه إلى الأبد.

وإذاً، إذا كانت الثقوب السوداء سوداء هكذا، فكيف يمكن لعلماء الفلك أن يعرفوا بوجودها؟ إن كشفها لن يكون ممكناً بصورة مباشرة. فالثقوب السوداء يجب أن تكشف من خلال تأثيرها على النجوم والغازات أو الغبار في مناطق جوارها. وفي مجرة درب التبانة، يعرف العلماء بوجود الكثير من الثقوب السوداء النجمية الكتلة -أي التي لها عشر كتل شمسية تقريباً- وأن هذه الثقوب هي على علاقة بالنجوم النيوترونية. عندما يموت نجم جسيم فهو ينفجر بصورة سوبرنوفا (مستعر فائق أو متجدد أعظم)، وتنتهي بقية النجم المتفجر إلى نجم نيوتروني سينهار -إذا كانت الكتلة كبيرة بما يكفي- إلى ثقب أسود. إن «رؤية» الثقوب السوداء ممكنة لأنها توجد ضمن المجموعات النجمية المزدوجة التي تصدر إشعاع X، وهي منظومات تحول أحد نجميها إلى ثقب أسود، وظل الآخر في مكانه، ليمزقه الثقب الأسود أو يحدث في حركته اضطراباً من نتيجته إصدار طاقة بصورة أشعة X.

لكن الثقوب السوداء نجمية الكتلة ليست هي النوع الوحيد من الثقوب السوداء. لقد كشفت أرصاد حديثة بمنظار هبل الفضائي ومراصد أرضية عشرات الأمثلة الواضحة عن وجود ثقوب سوداء جسيمة جداً في مراكز المجرات. ولهذه الوحوش السوداء الخارقة الطاقة -أنى وجدت- كتلة تتراوح بين مليون إلى بليون كتلة شمسية من المادة. وفي الحقيقة، فإن مجرة درب التبانة ذاتها تحوي ثقباً أسود متواضعاً بكتلته التي قدرت بمليون كتلة شمسية. ويشتبه العلماء الآن أن مئات المجرات (على الأقل) تؤوي ثقوباً سوداء بداخلها.

ومع تزايد أرصاد المجرات البعيدة، تبين أن الثقوب السوداء خارج مجرة درب التبانة هي شائعة جداً في الكون. وفي الواقع، فربما أن الثقوب السوداء تشكلت داخل جميع المجرات المتوسطة والكبيرة الحجم (دون القزمة منها حيث لا كتلة كافية فيها)، وذلك في وقت مبكر جداً من عمر الكون. ومن الممكن أن «بذور» الثقوب السوداء قد سبقت حتى تشكل المجرات والنجوم التي نشأت حول هذه الآبار الثقالية. وفي أي صورة منها، فإن بعض المجرات تشهد أطواراً من «النشاط» عندما تسقط مادة جديدة في الثقوب السوداء المركزية لتغذيها ولتصدر كميات هائلة من الإشعاع الذي نراه بمناظيرنا. إن مثل هذه الفكرة هي مناسبة لمجرة «سليمة» يعتريها عارض «انفلونزا» دوري.

إن الفكرة القائلة بالانتشار الكبير للثقوب السوداء في الكون قد أخذت زخماً في العام ٢٠٠١ عندما أنجز مرصد تشاندرا الفضائي لرصد مصادر أشعة X مسحاً للسماء بأشعة X، و وجد أعداداً كثيرة من ثقوب سوداء جسيمة جداً في منطقتين من مناطق رصد منظار هبل الفضائي التي تعرف باسم «الحقول البعيدة[٥] deep fields». ومما كشفه منظار تشاندرا أيضاً أن تلك الثقوب كانت أكثر نشاطاً بكثير في أزمان سابقة.

وإضافة إلى الثقوب السوداء العادية، فقد افترض العلماء النظريون وجود نوع آخر سموه بالثقوب الدودية (أو الأنفاق الدودية) worm holes، تجمع بين ثقوب سوداء متخالفة في درجة دورانها وشحنتها الكهربائية.

وقد أخذتنا الأفلام السينمائية التي تناولت هذه الفكرة لتصل بنا إلى أن هذه الأنفاق الدودية ربما تحدث عملية انتقال أو سفر سريعة بين مكانين بعيدين في الفضاء. لكن، من الناحية العلمية، ما من دليل بعد على وجود هذه الثقوب الدودية. وإضافة إلى ذلك، فإن تجربة هذا الأمر ستكون أمراً قاسياً. فمواجهة ثقب أسود، من أي نوع، ستسبب شداً لجسدك (أو لسفينتك الفضائية، الخ) يمطه بصورة خيط من البروتونات طويل جداً -قبل أن يحرقه بأشعة X وإشعاع غاما- وهو ما سيجعل من وصولك إلى أي مكان بعد ذلك رحلة غير سارة أبداً.

٧- سر ظاهرة انبعاثات أشعة غاما

طوال أكثر من ٤ عقود، كان هناك موضوع شائك في علوم فيزياء الفلك تركز على ما يعرف الآن باسم انبعاثات أشعة

غاما (GRBs). اكتشفت هذه الظواهر الغامضة أول مرة في عقد الستينيات من القرن الماضي بعد أن رصدتها مسابر فضائية بشكل ومضات خاطفة من إشعاع غاما عالي الطاقة دامت فترات تراوحت بين جزء من ثانية إلى عدة دقائق.

يأسر مثل هذه الأسرار العلمية العظيمة خيال وتفكير العلماء، وأيضاً دولارات أبحاثهم. في العام ١٩٩٥، عقد علماء فلك، في إطار اتباع وإرساء تقليد كبير سابق، «جدالاً كبيراً» بشأن طبيعة انبعاثات أشعة غاما. كان الموضوع الرئيس المتاح حينها هو مسافة مواقع انبعاثات أشعة غاما. فقد اعتقد بعض العلماء أنها تحدث في مجرة درب التبانة؛ فيما افترض آخرون أنها تحدث على مسافات وأبعاد «كونية» بعيدة جداً عن الأرض. كانت مضامين الافتراض الثاني كبيرة وعميقة، لأنها تعني أن هذه الانبعاثات تقدم ظواهر ذات طاقة خارقة جداً لم يعرف العلماء بمثل قدرها مسبقاً.

كان الموضوع المركزي الذي كان يجب تفسيره من قبل كلا الطرفين في جدال عام ١٩٩٥ هذا هو أن انبعاثات أشعة غاما قد بدت متجانسة -لها الصفات ذاتها- عبر أنحاء السماء كلها. فإذا كانت تحدث فقط داخل مجرتنا أو في جوارها، فكيف يمكن تفسير هذا التجانس في الصفات؟ افترض دونالد ك. لامب «من جامعة شيكاغو» أن انبعاثات أشعة غاما كانت قريبة المسافة وتصدر عن نجوم نيوترونية عالية السرعة تمكنت من الإفلات من قرص المجرة وسبحت في «الإكليل المجري galactic corona» لتعيد توزيع إصدارها من الطاقة بشكل متساو عبر السماء. ومن جهة أخرى، افترض بودان باشينسكي «من جامعة برينستون» أن انبعاثات أشعة غاما مثلت أحداثاً أقوى طاقة بكثير وأبعد مسافة بكثير، وقدم دليلاً من أرصاد منظار كومبتون لأشعة غاما لدعم استنتاجه هذا. احتدم الجدال، و وضع قدر كبير من الاهتمام بهذه المشكلة التي استعصت على الحل.

ثم كشفت أرصاد دامت ٦ سنوات تالية من خلال مسبار BeppoSAX وجود أكثر من عشرين مصدراً بصرياً ترتبط بانبعاثات أشعة غاما. وثمة إجماع الآن أن باشينسكي كان مصيباً: فهذه الأحداث تقع على مسافات كونية، وتتصف بقدرتها على إصدار مفاجئ لقدر هائل من الطاقة في ثوان قليلة يفوق ما تصدره الشمس طوال حياتها كلها. وبتفوقها على ظاهرة المتجددات العظمى (المستعرات الفائقة) في القوة والطاقة، يعتقد العلماء الآن أن ظاهرة انبعاثات أشعة غاما هي على

الأرجح أقوى ظواهر الكون وأشدها طاقة منذ زمن الانفجار العظيم ذاته.

ويشتبه العلماء أن انبعاثات أشعة غاما تحدث في مناطق تشهد عمليات هائلة الطاقة لتشكل النجوم داخل مجرات بعيدة. ولكن كيف ولماذا يحدث ذلك؟ هذا ما لم يعرفه العلماء بعد. وفي أحد الأمثلة، ذكر علماء فلك في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام ٢٠٠٠ أنهم رصدوا أبعد انبعاث لأشعة غاما أمكن التقاطه، ومثّل ومضة ضوء خاطف صدرت عندما كان الكون بعمر يقل عن ١,٥ بليون سنة. قدرت شدة سطوع الانبعاث بـ تريليون مرة من قدر سطوع الشمس، وحدث في منطقة صغيرة من السماء في مجموعة القاعدة (أو الجؤجؤ) النجمية Constellation Carina.

نقل خبر التقاط هذا الانبعاث بسرعة كبيرة حول العالم كي يتمكن علماء الفلك من متابعته بأرصادهم الأرضية. وقد استخدم فريق علمي في المرصد الأوروبي الجنوبي في تشيلي المنظار الكبير جداً VLT لتصوير جسم خافت الإضاءة، أشبه بنقطة أو لطخة، في مكان الانبعاث. كان لون الصورة بالغ الحمرة، وهو ما يعني درجة انزياح حمراء كبيرة للغاية- وهذا دليل على عظم مسافة موقع الانبعاث. قام علماء الفلك بحساب زمن حدوث الانبعاث، الذي أطلقت عليه تسمية GRB ٠٠٠١٣١، ليجدوا أنه حدث في وقت كانت فيه مجرة درب التبانة في طور الولادة، وقبل نحو ٦ بلايين سنة من نشوء الشمس ومنظومة كواكبها. بذا يكون ضوء هذا الانبعاث قد أمضى بارتحاله زمناً يمثل ٩٠٪ من عمر الكون.

ويمثل إطلاق بعثة مسبار HETE-٢ لدراسة هذه الانبعاثات رغبة العلماء واستعدادهم لإجراء مزيد من الأبحاث الدقيقة والموسعة على هذه الظواهر. ستسمح هذه البعثة للباحثين الفلكيين على الأرض أن يصوبوا مناظيرهم بسرعة فائقة باتجاه المصادر البصرية المرتبطة بانبعاثات أشعة غاما. ويأملون أن يمكنهم هذا بالحصول على صورة واضحة ودقيقة لآليات تشكل وحدوث النجوم المتفجرة التي يعتقد أنها تصدر هذه الانبعاثات الخارقة.

٨- كم هو عدد أجرام النظام الشمسي؟

ربما كنت تعتقد أن علماء الفلك يعرفون النظام الشمسي جيداً، الذي هو هذه المنطقة من الفضاء الأقرب إلى كوكبنا الأرضي. وهم كذلك حقاً. لكنهم بالتأكيد لايعرفون كل شيء عن قصته.. أو قصصه.

وكمثال، فقد يكتشف كوكب آخر بعيد

هناك وراء مدار بلوتو، أو ربما نجم خافت بعيد قرين للشمس. وفي عهد غير بعيد اكتشفت كواكب افترض وجودها سابقاً في بعض زوايا النظام الشمسي الغريبة. أما الكواكب المرئية بوضوح للعين المجردة - عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل- فقد عرفت منذ القديم، بل واعتبرت كآلهة مبجلة لأنها فرضت إرادتها بالتحرك بحرية بين نجوم السماء الثابتة.

كان أول تلك الكواكب اكتشافاً بالمنظار هو أورانوس، الذي اكتشفه وليم هرشل عام ١٧٨١. ثم أشارت حسابات مدارية إلى وجود قوة جذب كبيرة تمارس تأثيراً على حركة أورانوس من مسافة أبعد وراءه، ليكتشف من ثم الكوكب نبتون في العام ١٨٤٦ بعد بحث مضن من قبل يوهان غالي وهنريش داريست. ثم أوحت اضطرابات في مدار نبتون بوجود كوكب آخر أبعد مسافة، وهذا ما أدى إلى تنفيذ أبحاث عديدة بدأت في وقت مبكر بقدر العام ١٨٧٧ إلى أن اكتشف (الكوكب) بلوتو أخيراً على يد كلايد تومبو عام ١٩٣٠ عندما قام بمقارنة أزواج من صور فوتوغرافية أظهرت وجوده وحركته (من الغريب أن الاضطرابات المذكورة لم توجد حقاً في مدار نبتون، أو أن بلوتو على الأقل لم يكن كبيراً بما يكفي لإحداثها).

لكن هل اكتمل أعضاء النادي الشمسي مع اكتشاف بلوتو آنذاك؟

طوال سنين وعقود تالية لاكتشاف بلوتو قادت حسابات وأرصاد كثيرة علماء الفلك للاشتباه بوجود أجسام رئيسة أخرى تدور حول الشمس. وفي وقت مبكر بقدر العام ١٨٤١، أطلقت دراسات حثيثة بحثاً عن نسخ مختلفة من الكوكب المفترض X، ليكون نبتون أول الكواكب المكتشفة منها، وتلاه بلوتو، بعد أن افترض إدوارد بيكرنغ، الذي كان أنشط الباحثين، وجود نحو سبعة كواكب مختلفة الكتل والمدارات تقطع مدار كوكب نبتون.

ولكن حتى بعد اكتشاف بلوتو، فقد توقع علماء الفلك وجود كواكب وراءه على أسس وحسابات نظرية في معظمها. في العام ١٩٤٦، تنبأ فرانسيس سيفن بوجود كوكب افتراضي أسماه «ترانس بلوتو» على مسافة ٧ بليون ميل من الشمس (متوسط مسافة بلوتو المدارية هي ٣.٦ بليون ميل). ثم افترض الفلكيون في عقد الخمسينيات وجود كواكب أخرى بعيدة ومشابهة.

وفي العام ١٩٨٧، قام جون آندرسون <من مختبر الدفع النفاث JPL التابع لوكالة الفضاء الأمريكية ناسا> بدراسة مسار مركبتي بايونير ١٠ و ١١ بدقة، وخلص إلى احتمال وجود كوكب عاشر له

كتلة تعادل ٥ كتل أرضية ودورة مدارية حول الشـمس تعادل ١٠٠٠ سنة أرضية. كما قام كونلي باول «من مختبر الدفع النفاث أيضاً» بدراسة دقيقة لمدار كوكب أورانوس وافترض وجود كوكب له ٣ كتل أرضـية على مسـافة ٥.٦ بليون ميل من الشمس. وعندما بدأت عمليات البحث في مرصد لويل لم يجد أحد شـيئاً بهذه الصفات عند هذه المسافة. ومع أن الكوكب X قد يكون موجوداً إلا أن شيئاً من هذا القبيل لم يكتشـف بعـد وراء مدار بلوتو.

ومع ذلك، فإن الاهتمام الكبير بالقسـم الخارجـي من النظـام الشمسـي قد أثمر بغزارة. فمع اكتشاف أول جسم في ما يعرف الآن باسـم حـزام كويبر في العـام ١٩٩٢، اكتشف ديفيد جويت وجين لوو وعلماء فلك آخرون وجود شيء جديد في النظام الشمسي -أكـثر من ٧٠ ألف جسـم صـغير الحجم من كويكبات ومذنبـات محترقة- توجد في منطقـة تمتد خارج مدار كوكب نبتون، على مسافة تتراوح بين ٢.٨ بليون إلى ٤.٥ بليون ميل عن الشـمس. بذا أضـافت اكتشافات أجسام حزام كويبر تعديلاً جديداً في إدراك علماء الكواكب لآلية عمل ونشـاط النظام الشمسي.

من المرجـح أن يكون بلوتو قد تكون من أجسام كروية بدأت حياتها كأجسام موجودة أصلاً في حزام كويبر ثم انتقلت إلى مداراتها الحالية. كما أن الحجم الكبير لقمره تشارون قد جعل العلماء ينظرون إليه كنظام مزدوج: فللقمر تشـارون نصف حجم بلوتو ذاته. إن هـذا كله يلتمس إجابة عن السـؤال التالي: ما الـذي يحدد صـفة الكوكـب؟ حجمه؟ خصائص مداره حول الشمس؟ منشأه؟ لقد أدى اكتشاف أجسام مختلفة في حزام كويبر إلى إضـعاف الفاصـل الذي يقيم حداً بين الكواكب والكويكبات asteroids. وهذا ما جعل بعض علمـاء الفلك يصرون على نزع صفة الكوكب عن بلوتو -وهو ما حصل من قريب- ليعاد تصنيفه تحت صنف الكواكب القزمة الجديد.

أما فرضـيات وأفـكار الكوكب X فلم يحالفهـا النجـاح أو التحقـق بعـد بفعل الأرصـاد. وبـذا تتألف الصـورة الحالية للنظام الشمسـي، وحتى إشـعار آخر، من نجم متوسط الحجم، وثمانية كواكب رئيسة، وثلاثة قزمة، وحـزام كويكبات بين مداري المريـخ والمشـتري، وحزام آخـر وراء مدار كوكب نبتون- على الأقل.

لكن حـذار من إطـلاق تصريح نهائي: فعلماء الفلك مستمرون بالرصد والمراقبة.

٩- هل من وجود سوانا في الكون؟

ما زال علماء الفلك يواجهون صعوبات تقانية في التقاط دلائل تشير إلى حياة على كواكب بعيدة عنا بقدر سنوات ضوئية. لكن عمليات البحث عن بصمة كيميائية في طيوف ضوء نجوم لها كواكب سوف توصل على الأقل إلى توقعات علمية راشدة بشأن قابلية الحياة على كواكب معينة حول نجوم أخرى. وعلى مرمى سنوات قليلة فقط من إطلاق جيل جديد من مراصد مدارية ثورية بقدراتها، يأمل العلماء أن تتمكن هذه المعدات البالغة القوة والتطور أن تدعم قدرتنا على التقاط ورصد كواكب شبيهة بالأرض، وربما كائنات حية عليها أيضاً. سيكون أهم هذه المراصد منظار مكتشف الكواكب الأرضية (TPF)، وبعثة مرصد داروين الأوروبية، وغيرها من مناظير الجيل التالي المدارية.

إن كامل موضوع الحياة على كواكب أخرى يطرح السؤال التالي: ما هي الحياة؟ وكيف سنستطيع تمييزها؟ من الأكيد أن الأشياء الحية تتكون من خلايا (أو خلية) وتشترك في ثلاث عمليات أساسية وحاسمة تجعل منها كائناً حياً: فهي تستهلك طاقة، وتصرف طاقة فائضة، وتنقل مورثاتها إلى أفراد آخرين من خلال عملية التكاثر (ولذا فهي تمتاز بصفة الوراثة). تتكيف الكائنات الحية مع بيئتها؛ وهي تحافظ على توازن داخلي homeostatis بين أجهزة أجسادها الداخلية. إنها أيضاً تتطور وتتأقلم. بل إن بعضها قد تطور إلى درجة أنه يستطيع أن يتمشى خارجاً ويفكر متسائلاً عن الكون المحيط به. وكما نرى، فنحن، وبصورة حرفية، كائنات من إنتاج كوننا هذا. فذرات وجزيئات أجسامنا قد تخلقت في باطن النجوم ومولداتها، وأن الطاقة التي نتلقاها وتسمح لنا بالحياة- إنما تأتي من نجمنا الشمسي.

بيد أن الحياة على كواكب أخرى قد تكون أمراً شديد الاختلاف. يمكننا أن نتخيل لمحة مما يمكن أن تكونه حتى برؤية بيئات غريبة ومختلفة هنا على الأرض والتعرف عليها. وهناك سبب معين يدعونا لذلك: فالغالبية العظمى من كائنات الأرض الحية وجدت وتوجد بصورة بكتيريا بدائية، وفطور متنوعة، ومتعضيات سبخية أخرى صغيرة الحجم إلى درجة لا تصدق (الفيروسات لا تعتبر كائناً حياً لأنها تحتاج إلى كائن مضيف كي تستطيع أن تمارس عملياتها «الحياتية» فيه).

أما الحياة المعقدة، مثل الأشجار والجرذان أو الحشرات، فهي نادرة الوجود

إلى درجة لا تصدق عند مقارنتها بالكائنات الحيــة التي لا تــكاد تــرى، إلى درجة أنك تســتطيع إيجاد ١٠٠٠ كوكــب حي دون أن تــرى ســوى الميكروبات تحيــا عليها. لكن، لنتأمل قليــلاً في أرقام كونيــة قليلة: ٢٠٠ بليــون نجم في مجــرة درب التبانة وحدها، و ١٢٥ بليــون مجرة على الأقــل في الكون. هكذا تبــدو الاحتمالات العددية لحياة غير أرضــية مدهشة، حتى لو كانت نسبة ضئيلة فقط من الكواكــب الحية قد طورت عليها أي شكل أو نوع من الأحياء.

كان العــالم الراحل كارل ســاغان مولعاً بالقول: «لدينا مثال واحــد، وتاريخ واحد، وكوكب واحد... ولدينا حيــاة عاقلة عليه». وليس مســتبعداً بعد ذلــك أن تكون الحياة العاقلة واسعة الانتشار عبر الكون. كما أننا نرى غالبية الأمريكيين تصــدق وجود حياة غير أرضية، وأن سفن زوار الفضاء UFOs قــد جاءت إلى نظامنا الشمســي، بل وربما إلى سطح الأرض، وهي تحمل كائنات كونية ذكية.

بيد أن جدل الحياة غير الأرضية هو ليس بذلك الجدل الديمقراطي -ليس بذلك الأمر الذي يطرح لتصويت عامة الناس. ونرى أن علماء مرموقين مثل إرفين دوفور «المختص بعلم دراســة الإنســان في جامعة هارفارد» قــد قدموا أمثلة مفصــلة تفترض أن تطور الحياة العاقلة علــى الأرض ذاتها إنما كان أمراً بعيد الاحتمــال، وأنها ربما نتجت من سلســلة كاملة من المصادفات التطورية غير المحتملة. و يؤكد دوفور، على ســبيل المثال، أنه «بالنظر إلى سجل المستحاثات، نستطيع الجزم أن ٩٩,٩٪ مــن جميع الأنواع الحية التي عاشت على الأرض قد انقرضت. لقد عاشــ على الأرض ما يقــرب من ٥٠ بليون نــوع حي. ومن بين هذه الأنــواع كلها أمكن لنوع واحد فقط أن ينتج الحضارة».

لكن سيث شوســتاك «من معهد SETI في ماونــتن فيــو بولايــة كاليفورنيــا» يرى صــورة مختلفة جداً، ويذكرنا أنه في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن السابق كنــا نعتقــد أن منظومات الكواكــب نادرة الوجود لدرجة كبيرة جــداً. أما الآن فنحن نكتشــف نظمــاً كوكبية حــول عشرات من النجوم القريبة منا، والعد متواصــل مع كل بحث جديد. وإلى عقد السبعينيات، اعتقد العلماء أن عملية صنع حمض DNA على ســطح كوكب مــا إنما تمثل عملية خاصــة جداً على الأرجح. ويقول شوســتاك: «لكننا نعلم الآن أن الفيزياء ليســت متفردة بكونية قوانينها، بل هناك البيولوجية أيضاً تشاركها على الأرجح في اتساقها عبر الكون». وعلى

الأرض، نرى أن الحياة نشـأت بسرعة بالغة بعد أن هدأت وطأة القصـف النيزكي قبل نحو ٣,٨ بليون سنة. إن هذا يوحي بإمكانية نشـوء الحياة بسهولة أيضاً في أماكن أخرى في الكون.

ويذكرنا شوستاك: «بالطبع، إن ما يدعى بمفارقـة فيرمي تعاكس هـذا الرأي الآخذ بالتوسـع بسؤالها البسـيط: أين هم هؤلاء الأحياء؟» ولكن تذكر أنك إذا استيقظت ذات مرة لتجد نفسـك في وسط صحراء نيفادا، وتجولت فيها هنا وهناك، فقد تستنتج أنك الكائن الوحيد في القارة.

لكن عليك أن تذكر أن غياب دليل الحياة ليس دليلاً على غياب الحياة.

١٠- ما هو مصير الكون؟

لا نعلم.

ما زالت الإجابة عن هذا السؤال الموغل في التاريـخ غـير معروفة. لكـن ثمة دلائل رصـدية قوية تشير الآن إلى نتيجة واضحة. في العـام ١٩٩٨ كان العـالم الفلكي شـول بيلموتر يعمل على مشروع رصـدي (اسـمه المختصـر SCP) في جامعـة كاليفورنيـا، وقد حقق فيه فتحاً كبيراً. فبمراقبة سـوبر نوفا (مسـتعر فائق أو متجدد أعظم) بعيد اسـتطاع بيلموتـر وزملاؤه قياس التوسـع الكوني وتوصـلوا إلى نتيجـة مفادها عدم وجود كتلة كافية لكبح توسع الكون في نهاية المطـاف. بهذا يكون الافتراضـ الآخر هو أن الكون سيسـتمر بتوسـعه إلى الأبد وأنه سيستمر في الابتراد ببطء والموت في محيط كبير بارد ومظلم. وفيما تبدو هذه الصـورة موحشة، فإنها لن تكون قبل تريليونات كثيرة من السنين من الآن.

وهناك سـؤال آخر ذو صلة، ولكن أكثر أنانية: ما هو مصير الحياة على الأرض؟

بالطبع، من الطبيعي الاعتقاد أن الحياة ستمضـي قدماً على المستوى الفردي وعلى مسـتوى النوع. فالتفاؤل الكبير هو صـفة بشرية طبيعية: إنه يساعد الناس على البقاء أحياء. قادت هذه الرغبـة العارمة برفض الموت إلى انتشـار كبير للقصص والروايات عـن الحيـاة بعد المـوت عبر الحضـارات والثقافـات القديمة، بـل وحتى بين معظم الثقافات المعاصرة. فإذا استطاع الإنسان أن يحسّن سلوكه ويرضـي الآلهة، فالأمل كبير بحيـاة أبدية في عالم آخر. وطبيعي أيضـاً الاعتقاد أن الحيـاة على الأرض هي دائمة في جوهرها -فهناك شيء ما سيستمر بقاءً عـبر بقية تاريـخ الكون. بل حتـى أن ذلك الجمع من العلماء الذي يتساءل عن ديمومة أو طول الحياة على الأرض يصـل غالباً إلى نتيجة خاطئة. إن الفكرة الشائعة حالياً هي

أن شمسنا هي في منتصف حياتها الآن- بعمر يناهز ٤,٦ بليون سنة. ومازال أمامها نحو ٥ بلايين سنة أخرى من العمر المفيد قبل أن تغدو عملاقاً هرماً أحمر اللون وغير مستقر، ينتفخ خارجاً ليبتلع الأرض ويتركها كحجر آجر مشوي. وفيما قد لا تبدو فترة ٥ بلايين سنة كشيء أبدي بالنسبة لك ولي، إلا أنها قريبة بما يكفي. وبما أن الشمس هي في منتصف عمرها تقريباً، فالحياة على الأرض يجب أن تكون في منتصف وضع مشابه أيضاً.

لكن دراسات حديثة نفذت في عقد التسعينيات من القرن السابق تشير بوضوح إلى أن الحال ليست كذلك. إن أقدم مستحاثات ميكروبية استطاع العلماء حديثاً تأريخها إشعاعياً تعود إلى زمن ٣,٨ بليون سنة مضت عندما ظهرت بكتيريا بدائية جداً وحجزت في رسوبيات تصلبت لاحقاً كصخور. كما أوحت دراسة أجراها مايكل رامبينو «العالم الجيولوجي في جامعة نيويورك» وزملاؤه عام ١٩٩٤ بعدة أفكار أخرى ساعد عمل تال في إدراكنا لها: إن الشمس ذاتها، وقبل أن تتحول في المستقبل البعيد إلى عملاق أحمر، ستبيد الحياة على الأرض. وبتحليل تباين ضوء الشمس، إضافة إلى دراسة مجموعة كاملة من الظروف الجيولوجية والمناخية ومقارنتها بأرصادهم لسطح كوكبي الزهرة والمريخ، استطاع رامبينو وزملاؤه التنبؤ بمعرفة ثلاث مشكلات معقدة سيحدثها الإصدار المتزايد ببطء لإشعاع الشمس: ارتفاع درجات الحرارة؛ وارتفاع في نسبة غاز ثنائي أكسيد الفحم (الكربون) ثم تراجعه الحاد والمفاجئ في الغلاف الجوي؛ وانخفاض كميات الماء- هذا ما يتوقع حدوثه في حقبة تتراوح بين ٢٠٠ مليون إلى ٨٠٠ مليون سنة بعد الآن. يعني هذا أن ما نسبته ٨٢٪ إلى ٩٥٪ من تاريخ الحياة على الأرض قد كتب مسبقاً.

وبعد فترة احتراق بطيء ستجعل من صورة «الاحتباس الحراري» الراهنة مثالاً بسيطاً فقط عما هو آت، سوف تمطرنا الشمس بجرعات متزايدة من الإشعاع؛ وعبر آلاف السنين، سوف تتبخر محيطات الأرض في الفضاء وتتحول الأرض إلى صخرة عقيمة.

إن هذه صورة لأقل السيناريوهات تشاؤماً. فعلماء الفلك يعلمون بأخطار كونية أخرى كامنة في الفضاء، بعضها مبيد للحضارة تماماً. ينتشر بعض هذه الأخطار بضعف عبر المجرة، مثل المستعرات الفائقة -تلك النجوم الجسيمة الهرمة والمتفجرة- أو انبعاثات أشعة غاما، وهما ظاهرتان ترسلان جرعات عالية الطاقة من الإشعاع المبيد

للحياة في مناطق جوارهما. لكن الخطر الأكبر والأعظم بكثير يأتي من أجسام أصغر حجماً وأقل طاقة وأقرب مكاناً إلى نظامنا الشمسي وفي داخله- يتمثل بتلك الكويكبات والصخور العابرة لمدار الأرض حول الشمس. تسبح هذه الصخور في مدارات يمكن لها أن تؤدي إلى اصطدامها بالأرض، وهو ما يمثل خبراً بالغ السوء لأهلها. ومع أن مثل هذه الأحداث هو ممكن الحدوث (إن لم يحرف مسار الكويكبات باستخدام التقانات القادرة على ذلك)، إلا أن فرص هذه الاصطدامات هي بعيدة. ولذا فليس علينا التفجع على مصير الأرض حالياً أو قريباً.

تاريخ من أسرار علم الفلك

تنتظم أسرار الكون الحالية في خط نسب طويل لظواهر لا يبدو أنها تقبل تفسيراً لها؛ وهي أسرار تساءل بشأنها الناظرون إلى السماء منذ أن تطلعوا إليها أول مرة. وطوال آلاف السنين الماضية، وقبل تطور العلم كعملية بحث وتفكير وتجريب، ظلت هذه الأسئلة أساسية وعصية على الإجابة. فهل تكون نقاط الضوء التي تومض هذه والتي ندعوها نجوماً هي نوافذ توصل إلى السماء، وهل الكواكب هي آلهة تتحرك بمحض إرادتها؟ طوال معظم التاريخ البشري، كانت الإجابات مجرد اعتقادات وآراء ثقافية فاقت عدد النجوم والكواكب التي استطاع الناس رؤيتها.

مع نهضة الفكر العلمي وثورة التقانة في القرون القليلة السابقة، تمكن العلم من حل بعض الألغاز. ومع مجيء القرن العشرين، نحت علماء الفلك صورة دقيقة نسبياً لأساسيات ومبادئ عمل الكواكب والنجوم. لكن هوية، أو طبيعة، المجرة، وما إذا كانت تكوّن الكون بأكمله أم لا، كانت موضع تساؤل. أدت ثلاث خطوات إلى تدقيق نظرات علماء الفلك لطبيعة الكون وسلم المسافات الكونية بشكل كبير.

في العام ١٩١٢، وجد فيستو م. سيلفر أن الكثير من «السدم اللولبية» كانت متأثرة بظاهرة انزياح دوبلر- أي أنها تبتعد عن الأرض. بعد ذلك بعدة سنوات، استنبط هارلو شيبلي طريقة استخدام نجوم متغيرة variable stars تدعى بالقيفاويات cepheids لقياس المسافات الكونية. وبين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٩ تمكن إدوين هبل من حل مسألة المتغيرات القيفاوية في مجرة المرأة المسلسلة. أظهر هبل أن تلك المجرة كانت بعيدة عنا بقدر مهول، ومهد أيضاً لعلاقة تناسبية بين سرعة المجرة المبتعدة عن الأرض ومسافتها عنا. و وجد العلماء المفتاح لإماطة اللثام عن سر المسافات

الكونية، وعرفوا فجأة أن السدم اللولبية هي جزر من نجوم وغازات بعيدة جداً بدلاً من أن تكون من الأعضاء المحليين المقيمين في جوار مجرة درب التبانة.

ومع تزايد الأرصاد الفلكية وتحسن تقانة المناظير وأجهزة الرصد، فقد تحسنت تصورات علماء الفلك عن الكون إلى درجة كبيرة، يتضح معها الآن أن الكون قد بدأ بانفجار عظيم أطلق المادة لتندفع خارجاً- حتى لو لم يحط العلماء بكامل تفاصيل ودقائق الصورة. ومع انهماك العلماء النظريين بعمل يزداد نشاطاً إلى جانب زملائهم القائمين بالأرصاد الميدانية، فإن السباق إلى جمع دقائق فيزياء الفلك وعلم الكونيات في رؤية واحدة كبيرة إلى أصل وتطور الكون قد احتدم؛ فكان أن جاء الكثير من الاكتشافات المهمة في العشرين سنة الماضية.

وعلى سبيل المثال، شهد العام ١٩٩٢ ثلاث اكتشافات كبيرة في حقول مختلفة من علم الفلك: فباستخدام مسبار COBE اكتشف علماء فلك تباينات في بنية إشعاع الخلفية الكونية- الذي هو صدى الانفجار العظيم. تقدم هذه التموجات، التي كسرت تجانسية بنية الزمكان، لقطة عن الكون عندما كان عمره ٣٨٠ ألف سنة، وهي ربما تمثل النوى التي تكتلت حولها المادة إلى مجرات ونجوم بعد الانفجار العظيم بعدة مئات من ملايين السنين.

وفي العام ذاته، اكتشف الفلكيون كوكباً خارج النظام الشمسي. واكتشف الكساندر فولزكزان «من جامعة ولاية بن» نظاماً كواكبياً يدور حول النجم النباض اللحظي الدور PSR ١٢٥٧+١٢ في مجموعة العذراء النجمية Constellation Virgo. وبعد ذلك بثلاث سنوات اكتشف الفلكيون الكواكب الأولى التي تدور حول نجوم أخرى بعيدة شبيهة بالشمس. أما الآن فمثل هذه المنظومات تعد بالمئات.

وفي نظامنا الشمسي، اكتشف ديفيد جيويت وجين لو «من جامعة هاواي» الأجسام الأولى في ما يدعى الآن بحزام كويبر، والذي هو تجمع افتراضي سابق لكويكبات صغيرة الحجم نسبياً أو مذنبات توجد وراء مدار كوكب نبتون. ويعتقد الفلكيون الآن أن ٧٠ ألفاً على الأقل من هذه الأجسام تسبح في الجزء الخارجي المتجمد من النظام الشمسي.

أما في عقد الثمانينيات، فقد تمكن العلماء من فك أحد أقدم الألغاز الأرضية الذي يتعلق بواحد من أشهر أشكالها الحية وأكثرها تناولاً- وهو انقراض الديناصورات.

فقد تعاون علماء الجيولوجيا وعلماء الكواكب والفلك لكشف أن أثر ندبة ناتج عن اصطدام تحت سطحي في شبه جزيرة يوكاتان إنما كان نتيجة لما يدعى باصطدام K-T، وهو ذلك الاصطدام الذي أفنى الديناصورات عند نهاية حقبة العصر الطباشيري قبل نحو ٦٥ مليون سنة.

إن فك ألغاز فلكية وكونية وأرضية مثل هذه لم يثر فقط المعارف العلمية البشرية، بل يذكرنا أيضاً بضعفنا وهواننا أمام نزوات الكون وجموحه.

الهوامش

١- المسافة المواكبة comoving distance: هي مسافة جسم كوني ما في الوقت الحالي.

٢- العناصر المشعة (أو الإشعاعية) radioactive elements: عناصر تطلق عدة أنواع من الإشعاع أثناء عملية التحول الذاتي لنظائرها (إلى نوكلايدات). مثال: اليورانيوم والثوريوم والراديوم.

٣- آكسيون Axion: جسيم عنصري افتراضي، ذو كتلة ضئيلة جداً، تخلق بكميات وافرة أثناء الانفجار العظيم، ويفترض أنه يدخل في تركيب المادة السوداء.

٤- فوتينو photino: جسيم افتراضي أساسي، قرين للفوتون، تخلق أثناء الانفجار العظيم بكميات كبيرة، تفترض بعض النظريات أنه يدخل في بنية المادة الكونية السوداء.

٥- الحقول البعيدة (أو حقل هبل البعيد) Hubble Deep Field (HDF): المنطقة التي صورها منظار هبل الفضائي في العام ١٩٩٥، وهي مجموعة من الأجرام الكونية ضمن مجموعة الدب الأكبر النجمية Ursa Major، وتنتشر على مسافة ٢.٥ دقيقة قوسية. ويقصد بها أيضاً صور لمناطق أخرى مماثلة.

الإبداع

شعر:

- هَدْهَدْة — سليمان العيسى
- بين قلب وسحابه — فؤاد كحل

قصة:

- الفارس — لينا كيلاني
- مفارقات — اسكندر نعمة

الإبداع



هَدْهَدة

شعر

سليمان العيسى ⊛

وهذهِ قَطَراتي..
وكُنَّ قَبْلُ سيولا
أُهدهِدُ العمرَ فيها
أمُدُّ ظلي قليلا
أُحاوِرُ المتنبَّي
أرتدُّ عنه كليلا

⊛⊛ شاعر العروبة الكبير.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.



لقد عصاني يراعٌ
غزا بيَ المستحيلا
سكتُّ، لملمتُ جُرحي
تمتمتُّ: صبراً جميلا
ما دامَ في العِرْقِ نبضٌ
فلن أكونَ بخيلا
ياجمرةً حمّلتْني
إلى النشيد رسولا
زال الزّوالُ وعاشت
لم تستطِعْ أن تزولا

❁ ❁ ❁

وراءكَ!
اقذِفْ وراءكَ
كلَّ أقنعةِ الدجى
واملأْ بأنفاسِ الضحى رِئَتيكا
هذا الوجودُ يظلُّ حلواً يُشْتَهى
ما دامَ أغنيةً على
شَفَتيكا

❁ ❁ ❁

بَيانٌ
قال أحدُ شعرائنا الكبار:
الخالدانِ، ولا أقول الشمس
شعري والزمانُ

تزولُ أنتَ وأنا
يا شاعري كأي فانٍ
والخالدان الشمسُ والزمان
باقيان...
النفحةُ الحلوة هذي
لمْ تكنْ سوى بيانْ

* * *

غُرور
سيفقدُ الخِصمُ من سِحْرِهِ
إن قالَ:
إني الزافرُ الساحرُ
ويفقدُ الصباحُ من نورِهِ
إن قال:
إني المشرقُ الباهرُ
وتفقدُ الوردةُ من عِطرها
إذا تعالى عَرْفُها العاطرُ
ما أجملَ الدنيا بلا مُدَّعىً
وَشْوَشَ يوماً نفسَهُ شاعرُ

الإبداع

بين قلب وسحابه !

شعر

فـؤاد كحـل *

قال لي بعد انتظار:
بين قلبي والسحابه
يتخفّى منذ أن جئت إلى الدنيا
وحاولت ابتداء الطيران
هكذا حاصرني منذ الطفولة
منذ بدء البحث عن معنى الوجود
منذ حاولت اكتشاف النار

* شاعر سوري.

العمل الفني: الفنان وليد الحسيني.

والخطو وتسآل المكان
منذ قاربت الرجولة
وتوقدت على كوكب روحي
ونضوج الجسد البازغ كالشمس
على كل انبجاس وجديله
وابتهاج النفس بالأزهار
والأشعار
والركض وراء الحيوانات النزيله
وانتظار الحلم القادم
من خلف جبال الهم
والقهر الطويله
فإلام سوف يبقى يتخفّى
بين قلبي والسحابه ؟
كلما حاولت سطراً
أطلق النار على طير الكتابه ... !

❁ ❁ ❁

هكذا قاسمني عمري
وحبري
ودمائي
وامتداد الطرقات
ساترا خنجره القاطر بالشعر وبالشدو
وبوح الحشرجاتْ
يتخفّى مثل جني غبيّ
في تفاصيل اللغاتْ
كيف لي أن أقراه
فلا أجعله يطبق كالوحش
على ما هو آتْ ؟
ليتني أدركه يوماً
على شاطىء نبضي في القصيده
أو طريقي
أ و جراحي
أو فضاء الأغنياتْ
أو أرى ظله
لاستنجدت دوماً بجنوني
وتوقدت إلى آخر حريات
دفء النور
في زهر
الغصون ...

❁ ❁ ❁

ثم نادى ذلك المخفيّ في الظل :
ترى هل أستطيع الهمس يوما
إنني دوما أراك ؟
فأنا أشعر بالخنجر
والطلقة
والقبضة
والتشطيب ...
في كل شهيق وزفير
بين أرضي وعُلاك !
ولماذا دائماً تقبض خطوي
دون أن أعرف



في أي اتجاهات خطاك ؟
آه كم يؤلمني هذا المدى
تسكنه في كل وقت
قابضاً لحظة إزهاري
ولا تخرجني معجزةُ الإفلات
من ظلم قيود
حبكتها حول أيامي يداك
فإلام سوف تبقى تتخفّى
بين قلبي والسحابه
كلما حاولت أن أكتب
أو أفعل شيئاً
تطلق النار على روحي
وترميني على أرض
بلا نهر وغابه !..؟!

* * *

بح بشيء
كي أواسي ما تبقى
من عذاب الأبديّه
بمجاز فوق ما يحصده القتل
وقلب كلما أطلق طيراً
جعل الدنيا قويّه
وصعودٍ مدهشِ البهجة
إذ تنطلق النفس
كما ترغب في كل اتجاه
إن هذا وحده
يطلق شمس العبقريه
بح ولو يوماً
أكن مستيقظاً في كل حرف
ورفيف .. وشهيق .. ومتاه
وانبعاثات نديّه
آه كم يصعب أن أعرف
في أي مكان أو زمان أو إله
تتخفى
أيها القادم

من كل
الطقوس الهمجيه !
ولهذا دائماً تسقط زهر الكلمات
كفراش فوق نار سرمديه
فإلام سوف تبقى تتخفى
في فؤاد يتسامى
أو وجود لم يزل يغرق
في بحر جمود
يبست أمواجه من غابر الأزمان
وانهالت عليه القبليه
أو وداد شنقوا أشجاره
منذ بدايات الرموز الوثنيه
كلما حاولت أن أفضح ظلماً
تطلق الصمت على روحي
فلا يعلن بوحي بوحه
إلا بما يفسح إرهابك
من حجم فضاء لذبابه..!
* * *
قال لي بعد انتظار:
بين قلبي والكتابه
لم أزل أبحث عمّن
يقتل الروح
لهذا ستراني يا صديقي
دائماً أحيا مع الأمطار
والأزهار
والطير
وما يبدعه الأطفال
والعشاق والأعلام...
كي أبعد عني
طوطماً يأخذني نحو الكآبه
فأنا أوقن أن النور آت
ولهذا
لم أزل أزرع
بين الناس
قلبي
تحت أمطار سحابه ....



«الفارس»

❁ لينا كيلاني

لم أكن تائهة.. لم أكن ضائعة.. بل أنا من اقتحمت تلك الصحراء.. صحراء شاسعة تمتد حتى حدود الأفق. مكان خرافي لا يقف في وجه اتساعه شيء.. وليس فيه أكثر من قبة السماء صافية الزرقة.. وحبات من رمال متناهية في الصغر ونعومة الملمس تبدأ بواحدة ولا تنتهي عند مليارات الأصفار إلى جانب الرقم (واحد).

❁❁ أديبة وناقدة سورية.

العمل الفني: الفنان وفاء كريدي.

وأنـا.. مَنْ أنا؟.. لسـت أكـثر من كائن متحرك صـغير فوق سطح شاسع لا تبين له حدود.. أرض منبسـطة بلون الذهب ووهج الشـمس..خالية إلا من بعض كثبان الرمال التـي تتسـامق في نهوض مبرر فـوق باقي الرمـال الناعمة وهي تشـكل منظراً بديعاً أخاذاً لكنه لا يصـنع سراباً.. إذن فلأعترف أنني فوق أرض أكثر واقعية من أن يتشـكل السراب فوقها.. أرض حقيقية لا مكان فيها لخداع البصر أو الأوهام.

ولكـن.. أمـا مـن كائن حـي آخر هنا غيري؟.. لا.. لابد أن هناك حياة تضـج في هذه الأرجاء إلا أنني لا أراها أو أشعر بها.. فما من مكان فوق هذا الكوكب السـعيد أو التعيس إلا وفيه حياة من نوع ما.

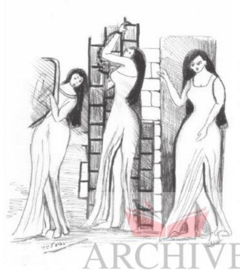
وأوغل في صـحرائي الأسطورية هذه.. أتمنى أن أعثر على وجود آخر يتحرك مثلي عـدا تلك الرمال التي أخذت تسـابقني في تشـكيلات لها تنبثق أمامـي فجأة لتختفي فجأة أيضـاً وكأنها تداعبني، أو أنها تحاول استرضـائي للبقاء هنا بينما هي تجتذبني إلى مناطـق أكثر عمقاً.. تسـحبني وراءها وكأنها تلهو معي فأسـبقها حيناً، وتسبقني أحياناً.

عندما أرهقتني أضـواء المدينة الكبيرة التي كنت أعيشـ فيها قالوا لي: اذهبي إلى تلك البقعة البعيدة.. أعيدي اكتشافها فمنذ أزمـان وأزمان لم يعد يؤوي إليها أحد.. إنها أرض منسية.. هجرها الناس.. وأسقطوها من كتـب تاريخهم. يقولون إنها أصـبحت أرضـاً للجان والأطياف وليس فيها أكثر من الرمال. قالوا لي: أعيدي اكتشـاف ذاتك.. وانتظري حتى تعثري على كل الإجابات.. أو تعثري على السلام.

يزداد حضـور المكان كثافـة وهو يلفني مـن كل جانـب.. ويبهت ضـوء النهار وهو يمهد لسـطوع القمر أو تسلل الليل.. فأعثر على الوحشـة والوحدة في عالم متحول بين ضوء وظلام.. وليل ونهار.. ماذا أفعل؟ وأين أذهب؟ بل ما هو مبرر وجودي هنا؟.. أسئلة تحاصـرني من كل اتجاه فـلا أعرف لي أي اتجاه.

لا.. رغم هذا لا أريد أن أعود من حيث أتيت.. صـحيح أن عالمي الـذي جئت منه يموج بالأضواء والأصوات إلى حد الصخب بينما هنا السـكون تام وكامل لا ينفتح على أي صـوت حتى للريح التـي تتنقل من دون همس وكأنها تقدس الصمت فلا تجترحه.

مدينتي.. جميلـة وآسرة.. تتفتح كزهرة لوتس على ضـفاف نهـر عظيم خالد على مر الأزمان.. كان.. وظل.. وسيبقى متدفقاً إلى أن تتوقف الدهور.. ولكني لا أسـتطيع



أن أعود إليها قبل أن أقبض على أجوبة لأسئلتي.

أسئلة بسيطة.. وربما وقعت في السذاجة.. لكن العثور على جواب عريض لها ربما يقع هو الآخر في دائرة المستحيل. هل تصدقون أنني أبحث في هذه الصحراء مترامية الأطراف عن جواب لسؤال بسيط بسيط: أين يختبئ النقاء في هذه المدينة وهي تغيب وراء سحابة من التلوث؟.. تلوث أصبح يطارد الهواء والماء والشجر.. والنفوس أيضاً!

هل من فارس يتطوع لأن يعيد اكتشاف حاراتها وأزقتها فيتماهى مع وجوه أناسها الذين تسحبهم دوائر أقدارهم في تصادم أو تلاق؟.. ما أشد سذاجتي وأنا ألقي بأسئلتي في أرض تحرقها شمس النهار.. ولا يطفئ لهيبها ندى الصباح.

أظنني سأعود.. من دون العثور على أي شيء.. لأغيب مع الآخرين في دوائر الأقدار أو دوائر السؤال. ولكن ألن أنتظر حتى تكتمل إشراقة هذا اليوم الجديد؟

وأتسمر في مكاني فجأة وأنا ألمح من بعيد شبحاً يتحرك باتجاهي.. فينبض قلبي رهبة وفرحاً بآن معاً.. فالحياة إذن موجودة في هذا المكان. وأتذكر أنهم قالوا لي بأنها أرض منسية مزروعة بالجان.. فأجفل.. وأتراجع خطوات إلى الوراء كمن يحاول الهرب من مفاجأة لايريدها.

. مَنْ أنتِ أيتها النجمة.. هل سقطتِ من السماء.. أم نبتِّ من روح هذه الأرض؟

جاءني سؤاله مباغتاً وهو ينبع أمامي كما لم أكن أتوقع.. فألوذ بصمت المفاجأة

وأنا استغرب وجود هذا الفارس المهيب فوق جواده.. والمكان مقفر من سواه.

. بل أنتَ.. مَنْ أنتَ؟ ومن أين أتيت؟.. أيام طوال جلت في هذه الصحراء وما التقيت فيها نبض حياة.. فكيف إذن تنبثق هكذا أمامي وأنا ألمح شبحك من بعيد؟!

وتدوي ضحكته من وراء ابتسامة مشرقة تتزامن مع إشراقة أوّل خيوط الشمس:

. ألم يحدّثك أحد عني؟.. أو جاء على وصفي؟

وأجيب ببراءة:

. لا.. قالوا لي إن الناس هجروا هذه البقعة ونسوها منذ دهور.

يترجل عن جواده الذي تركه سائباً، ويتقدم نحوي وهو يبسط كفاً تدعو يدي لأن تسقط فيها، أو أن أتبع صاحبها.

أتلفت فلا أرى جواده.. أين تراه سيختفي والمشهد ينبسط أمامنا كاملاً؟.. هل انشقت الأرض وابتلعته؟.. وكيف سأتبع هذا الفارس الغريب في هذه القفار؟.. وإلى أين سيصل بي؟ أكاد لا ألمح أي معلم نخطو باتجاهه!!

لم تعد الصحراء هي التي تلفني من كل ناحية وإنما غرابة الموقف ذاته.

وفجأة.. وهكذا من دون مقدمات.. أجد نفسي مع الفارس، وعلى بعد بضعة خطوات من مكان لقائنا، في مواجهة مدينة تصعد من أعماق رمال الصحراء.. مشهد ليس بالمألوف.. وأمر ليس بالمعقول.

. هذه الصحراء وإن بدت منسية.. وخالية.. إلا أنها ما تزال تحتضن في أعماقها هذه المدينة العامرة.. انظري إليها كيف تبرق وهي تستحم بوهج الشمس.. انظري إليها كيف تنبت من رحم الرمال.. إنها المدينة التي تشرق مع كل شمس وتهدأ مع كل ليل.

إجابة سريعة لا تخلو من الغموض قالها الفارس بثقة جعلتني أحوّل نظراتي المتسائلة باتجاهه، وكمن يقول: وأنتَ.. مَنْ أنتَ أيها الفارس الذي تقف أمامي مثل رمح؟!

أما أنا..

وأسأل بلهفة:

. أجل.. مَنْ أنتَ؟

. أنا فارس هذه المدينة.. وحامل كل مفاتيحها وأسرارها.

تبرق عيناي بانبهار فيضيف:

. هل جئتِ تحملين أسئلتك؟!.. كثيرون غيرك فعلوا.. ولكنهم لم يصلوا إلى حيث أنتِ الآن.

ينعقد لساني رهبة وطمعاً في أن أعود بجعبة تحمل الجواب دون السؤال، فيباغتني بدفعة قوية من يده وإذا كلانا في قلب

المدينة.. وما إن تقع عيني على تفاصيلها حتى أقول:

. هذه مدينة منظمة كما تبدو.. وهي تذكّرني بأقدم مدينة على الأرض وقد نظموا كل مهنها في أقسام مخصصة لها.. انظر فهذا زقاق للرسوم واللوحات.. وهذه حارة تزخر بكتب قديمة.. وهذا شارع ارتصف بالكتب الحديثة.. وهناك بناء يضم مئات الآلات والأدوات.. استغرب هذا كله!!

. لا تستغربي.. فهذه هي الأمجاد.. وأنا حارسها ومَنْ يقوم على رعايتها.

وأسأله وأنا أستذكر كلمات آخر من تركتهم على أبواب المدينة التي جئت منها:

. لابد أنك.. الماجد.. ماجد.. أجل.. إنك هو.. لقد حدثوني عنك..

يضحك ويقول:

. وقالوا لك إنني أصنع الحروف وأصوغ منها الكلمات.. بل قالوا لك إنني أملك كتب التاريخ افتحها وأطويها.. وأخرج من جوفها تاريخاً جديداً.

أقول بعد أن استحوذ عليّ هذا الماجد:

. هذا صحيح.. ولكنهم قالوا لي أيضاً كلاماً آخر كثيراً عنك.

. لا يهم الآن ما يقال.. المهم أن تعودي بجواب لكل سؤال.

وأسأل بالتوق إلى المعرفة:

. وكيف السبيل إلى هذا؟

فيجيبني:

. اتبعي خطواتي وأنا أتنقل بين الزوايا والأرجاء وهي التي ستدلك أو تأخذك إلى حيث الرجاء.

وبعد أن توغلت في المدينة.. وأنا أتبع الماجد الفارس رحت ألملم بدايات الإجابات عن بعض التساؤلات.. فالعراقة موجودة هنا في هذا المكان.. والتاريخ الناصع يقبع هناك في تلك الزاوية.. وشواهد الأمجاد تقف قريباً من أسوار المدينة.. والمخترعات والاكتشافات تصطف فوق أرفف عريضة.. وهنا.. وهناك.. وفي كل زاوية جواب.. أجوبة كثيرة أظن أنها تعيد الاكتشاف.. وتعطي مفاتيح تغلق دونها أبواب التلوث في العقول كما في السلوك.

فرحة كنت سأعود.. لكن الفارس استوقفني.. فما أحمله في رحلة العودة كإرث ثقيل لن أستطيع العودة به ما لم تباركه يد (ماجد).. قال لي:

. اتبعيني من جديد.. وسوف أخطف لك طيفاً من كل لون.. وكلمة من كل كتاب.. ومَعلماً من كل أثر.. عند ذلك لن تعود جعبتك ثقيلة.. وسوف تستطيعين حملها فتنطلقين بها خفيفة.

وافقته.. وأخذت أتبع خطواته بينما

انطلق هــو خفيفاً واثقاً ومتحــرراً. خطوة في إثر خطوة كنــت أتبعه.. وإذا به ينحرف تارة يميناً وأخرى شــمالاً، وأنا لا أســتطيع مواكبته.. وبسرعة كبيرة أصــبحت أراه تارة هنا وأخرى هناك.

واصرخ به:

ـ يا ماجد.. أيهــا الفارس ماذا تفعل؟.. لمــاذا تقلّب الخطى وتغير الاتجاهات.. لماذا تعبث معي.. أين وعود الفرسان؟ لقد جئتك مــن عالمي أبحــث عن فارســ.. فما الذي تفعله الآن؟

ويعلــو صــوتي في أرجــاء الصــحراء، ويضــطرب (ماجــد) في خطواتــه، ويكاد أن يتعــثر، والحــيرة والدهشــة تأخذني في متابعته.

يا للخيبة إذن.. لقد تبدل الفرسان.. ليس لي بعد هذا إلا أن أترك أسئلة جديدة هنا.. وأعــود من حيــث أتيت فأهــادن التلوث.. وأعتاد على مصــاحبة أســئلة ليس لها من جواب.

لكن صــوتاً قوياً كالرعد خرج من تحت الأرضــ.. باغتني بجــواب كان يطغى على كل الأســئلة: الفارس لم يزل فارساً.. وماجد لايغــادر الأمجاد.. لكنه مــاذا يفعل إذا كان يسير فوق أرض متحركة؟؟!!.

الإبـداع



مفارقـــات

قصـة

اسكندر نعمة ٭

يتثاءب الكاتب «س». يتمطّى. يقضي ساعات مضنية باحثاً عن موضوعات لائقة، عنواناً لقصّة قصيرة. فكرة لمقالة ذاتيّة.. يوغل أكثر ليقتنص رموزاً ضاجّة بالحركة، تليق بالأشياء الدقيقة التي تنبض بها شرايينه.. حاسّته السّادسة تسبح عميقاً في كل الاتجاهات، في مطاردة لاهثة لجزئيات واقعه اليومي. مطاردة تظلّ أبداً رهن متابعة شقية، فيما يكون عقله وإدراكه يفتّت

٭٭ أديب وقاص سوري.

٭ العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

الكلمات ويرتّبها، في محاولة ساخنة لتدبيج نصّ يخترق به صفحات الكتب أو المجلات. يظل يكتوي بوهج اصطياد حالات الدّهشة. يحنو عليها، يتماهـى معها. ثمّ يقذفها إلى غربال الذّاكرة.. يوهم نفسه أنه يستريح..

تتلاشى ساعات نهاره متقلباً على جمار الغربلة يوغل أكثر في دهاليز البحث يفترسه الليـل مـن دون أن يـدري، يقـذف به إلى متاهات المقارنـة، ينبلج الفجر على خيوط مطاردة نصوصه وكلماته ورموزه كعاشق من طرف واحد..

الكاتب «س» يتثاءب، يتمطّى على أجنحة حياة أخرى.. ساعات مثقلة بالهمّ والأعباء.. مطاردة من نوع آخر. تسـقط من حسـابها معيار الحبّ والإبداع.. في الصّباح يحمل تجهّمه ومخاوفه وحفنة من ليرات لا تصمد لحساب الزّمن، ويقصد السّوق متردّداً. يملأ أكياسه خبزاً وخضاراً وجرائد يوميّة. يعود إلى البيـت كما غادره مشـياً على قدميه.. تلفه ساعات النهار الطويلة لتدخله في عتمة مسـاءات كالحة.. في نهاية كلّ شهر يقصد مخبر التّحليل، ليسـتلم بياناً مذهلاً بنبض دمــه واعتكار بوله، وازدياد النسـب المؤذية في مكوّناته.. تغيب عنه حواسّه التي تطارد جزئيّات الأفكار والكلمات والرّموز، يتقوقع في حسـاب مع الذات، منتظراً مالك البيت يطرق بابه مطالباً بكلّ فظاظة بأجور المنزل الشّهرية..

يتمطى الكاتب «س»، يخرج قبيل الغروب ممشّـطاً شـوارع المدينـة. يلهو بسـيجارة يعبّ منها أنفاسـاً ظالمة. تتيـه نظراته في متابعـة الفتيـات اللواتـي يملأن أرصـفة الشّـوارع. عرض مثير للمفاتن الصّارخة.. «بنطلونات الجينـز، والبلوزات» الضـيقة القصـيرة تعطّر فضـاء المدينة، تتزاحم مع الخطوات القلقة لنسـاء شـاحبات متعبات يفتصبن بلاط الأرصـفة، ويزعجن رشاقة الخطـوات الهادئـة المطمئنـة «لبنطلونات الجينـز».. يدلف الكاتب «سـ» إلى مقهى قريب. ولوج المقهى طقس يوميّ اعتاده منذ زمـن بعيد. يهرب من وطأة متابعة جزئيّات يومه وحياته يجلس قرب زجاج المقهى المطلّ على الشّارع. يقرّب كرسيّه ويلتصق بالزّجاج أكثر، يستسلم لمراقبة الفتيات الشّابات وهنّ يلامسن بأقدامهنّ الصّغيرة بلاط الأرصفة، يقضمن بهدوء قطع الشّوكولا، ويمصمصن قرون المثلجـات بحذر شـديد، لئلا تندلق وتسيء «للمكياج» الجميل الذي ينير الوجوه والشّفاه..

ينبّهه ضـجيج المقهـى. يتلمّس وحدته. يتلمّظ بكآبـة. يحس ثقل اللعاب المتخثر في حلقه. يعود عن متابعة حركة الشّـارع. تلحّ



عليه وحدته وصمته. يغمض عينيه، يتراءى له ناسك بوذي يؤدّي طقوس اليوغا. هــو الآخر يفترش الوحدة.. يتألم ويمضغ مرارته. تعود إليه هلوسة متابعــة الرمــوز والكلمــات، يغربل الموضوعات.. ســيكتب أنّ الحضارة والحداثــة وحقــوق المرأة شــعارات ظالمة أرهقت المرأة وأدخلتها مسارب الضيّاع.. تختلط رؤاه وأفكاره بثرثرة تخترق مســامعه، تأتيه مــن طاولة قريبة، احتشد حولها بتراصّ غريب نســوة يقهقهن بلا حرج، يرتشــفن العصير والكوكتيل بأناقة من يخشى على إفســاد «المكياج» الجميل.. كنّ يتحدّثن بشــغف ومشاركة حادّة عن منتج كيماويّ تعرضــه كلّ مساء قناة فضــائية أجنبية، يساهم في تخفيف وزن المرأة وتخلّصــها من الشــحوم الزائدة. اثنتان من النّسوة المحتشدات حول الطّاولة القريبة كنّ يهمســن باهتمام بالغ، اقترب وجهاهما فيما يشبه العناق، ليغوصا في أمــواج حديث آخر، تنبــئ عنه عيونهنّ البرّاقة وابتسامتهنّ الرّقيقة المذهلة..

وحــده الكاتــب «س» يظــلّ منفيّاً مع جرائــده التي يحمل.. مســح أرجاء المقهى بنظرات حادّة متســائلة، لعلّه يقتنص مادّة لقصّــة جديــدة طريفــة.. نظــر إلى كلّ الطّــاولات القريبة والبعيدة. كلّها تشــتجر في ضحكات وابتسامات وهمسات وضجيج واختلاف بالرّأي وتلويح بالأيدي.. قصــمه المشــهد.. لماذا هو منفيّ عن كلّ شــيء؟! لا.. إنه صــيّاد صــور، يرمي بصنّارته في كلّ الاتجاهات وينتظر.. داخله إحساس مخيف، وحده يكبر ويســير بعناء نحو الشيخوخة..

الناســ كلّهم من حوله يتشــبّثون بما يوحي بأنهم شباب، ملتصقون بالحياة أكثر.. رجال ونساء يخفون عمرهم وعجزهم تحت ستار من المكيــاج والمراهم والأصــباغ، والملابس القصيرة الضــيّقة.. يمارسون لعبة الشّباب ويتسلحون بلكنة الطّفولة..

فيما كان الكاتب «س» يغادر المقهى، وقد شطرته تلك المفارقات العجيبة.. كان يمضغ في خبيئته أحكاماً لا حدود لها، ويختزن في أعصابه صــوراً متداخلة.. الآخرون يغطّون تفاصيل حياتهم باستعارات برّاقة طائشة.. أمّــا هو. أمّا هو.. لفّه الصّــمت طويلاً من دون أن يصل إلى فضاء يسبح فيه.

عندمــا لفظه المقهى عبر بابه الزّجاجيّ العريضــ، وانزلقت قدماه تخبّ على بلاط الأرصــفة. أغمض عينيه لئــلا تفرّ منهما الصّور المتعاقبة، وراح يغذُ السّير باتّجاه بيته المستأجر البعيد..



آفاق المعرفة

آفاق المعرفة



زكي نجيب محمود والوضعية المنطقية

د. عزت السيد أحمد ©

إنَّ الحديث في الفكر العربي المعاصر مسألة مهمة وضرورية بل وحاسمة ولا مبالغة في ذلك على الإطلاق. ذلك أنَّ هذا الفكر هو هم الأمة وهو المعبر عن همها وهو في الوقت ذاته أيضاً مشروعها المستقبلي ومفتاح مستقبلها.

هذا الكلام بحد ذاته مشكلة تستدعي كثيراً من وقفات البحث والتأمل والشرح والإيضاح وهذا ما يستحسن أن نثيره وإن كنا لا نهدف إلى تناوله هنا لأنَّ ما نرنو إليه في هذا البحث هو الوقوف عند أبرز معالم فلسفة

© أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان عماد كسحوت.

أحد أعلام الفكر العربي المعاصر الدكتور زكي نجيب محمود الذي أعلن نفسه ممثلاً للوضعية المنطقيَّة.

بغضِّ النَّظر عن الموقف منه أو من فلسفته أو منهما معاً فإنَّ الدكتور زكي نجيب محمود أحد أبرز أعلام الفكر العربي في القرن العشرين بامتياز وجدارة، وقد استحقَّ المكانة والشُّهرة بتميزه عن أقرانه في فكره، وتفرده في تمثيل الفلسفة الوضعية المنطقيَّة في العالم العربي ردحاً طويلاً من الزَّمن، ناهيك فوق ذلك عما قدمه من رؤى وأفكار كانت إلى جانب ما سبق مثار نقاش وجدال كبيرين، بل أمام تطرفين متناقضين في التَّعامل معه، فمنهم من رأى فيه علامةً فارقةً خارقةً في نهضة الأمة وقيادتها إلى المستقبلية، ومنهم من رأى فيه خصماً للتراث والهوية والعروبة وإن كان يزعم أنَّه يدعو إلى تطور العرب وتقدمهم.

لن يجد الباحث كبير عناء من أجل الوقوف على محطات حياته فقد قدَّم لنا سيرته شبه مفصلة في ثلاثة كتب هي: قصة نفس، وقصة عقل، وحصاد السنين الذي كان آخر كتبه وقد صدر قبل سنتين من وفاته، أي في عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

ولد زكي نجيب محمود في قرية ميت الخولي، دكرنس، الدقهلية، مصر في ١ شباط/ فبراير ١٩٠٥م، ووافته المنية في ١٢ ربيع الأول ١٤١٤هـ الموافق لـ ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣م بعدما ضعف بصره واشتد عليه حَتَّى منعه من القراءة والكتابة.

محطات في حياته

في عام ١٩٢٦م التحق بالقسم الأدبي في مدرسة المعلمين العليا وتخرج عام ١٩٣٠م. وفي عام ١٩٣٣م بدأ بكتابة سلسلة من المقالات عن الفلاسفة المحدثين في مجلة الرسالة. وعمل في التدريس بمدارس التعليم العام. واتفق له أن التقى في عام ١٩٣٤م بأحمد أمين وعرض عليه المشاركة في إصدار سلسلة كتب تعرض تاريخ الفلسفة وتاريخ الأدب بأسلوب واضح سهل يتقبله المثقف العام، وكانت نتيجة التعاون أن أصدر زكي نجيب محمود أول كتاب له في عام ١٩٣٥م وهو قصة الفلسفة اليونانية، وفي العام الذي تلاه صدر الكتاب الثاني قصة الفلسفة الحديثة من جزأين، ثُمَّ بعد سنوات صدر كتاب قصة الأدب في العالم في أربعة مجلدات. وكل هذه الكتب بالاشتراك مع أحمد أمين.

في عام ١٩٣٦م سافر إلى انجلترا في بعثة صيفية لمدة ستة أشهر. وفي عام ١٩٣٩م نال جائزة التفوق الأدبي من وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم لاحقاً).

المحطة الأكثر أهمية كانت عام ١٩٤٤م إذ سافر إلى انجلترا في بعثة دراسية للحصول على الدكتوراه في الفلسفة، فالتحق بجامعة لندن وحصل في صيف عام ١٩٤٥م على الإجازة بمرتبة الشرف من الدرجة الأولى في الفلسفة، وهذا ما يسر له التقدم للتسجيل لدرجة الدكتوراه فسجل أطروحة بعنوان الجبر الذاتي بإشراف الأستاذ هـ.ف. هاليت، وبها حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٤٧م.

عاد إلى مصر عام ١٩٤٧م ليعمل مدرساً في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الملك فؤاد (القاهرة لاحقاً). وفي عام ١٩٤٩م عمل مشرفاً على مجلة الثقافة حَتَّى ١٩٥٢م.

في عام ١٩٥٣م سافر إلى الولايات المتحدة أستاذاً زائراً ومحاضراً في جامعة كولومبيا بولاية كارولينا الجنوبية وجامعة بوليمان بواشنطن، فقضى فصلاً دراسيًّا في كلٍّ منهما. وفور عودته إلى مصر في عام ١٩٥٤م اختير مستشاراً ثقافيًّا لمصر بالولايات المتحدة لمدة عام. وفي عام ١٩٥٦م تزوج من الدكتورة منيرة حلمي، أستاذة علم النفس بجامعة عين شمس. وفي عام ١٩٥٨م شارك في كتابة بعض مواد الموسوعة العربية الميسرة التي أصدرتها مؤسسة فرانكلين بتمويل من مؤسسة فورد.

نال جائزة الدولة التشجيعية في الفلسفة من مصر عام ١٩٦٠م على كتابه: نحو فلسفة علمية الذي صدر قبل عام. وفي عام ١٩٦٤م عمل أستاذاً زائراً في الجامعة العربية ببيروت لمدة فصل واحد. وعاد إلى القاهرة ليحال إلى التقاعد ببلوغه الستين عام ١٩٦٥م. ولكن في هذا العام ذاته عين أستاذاً غير متفرغ في قسمه ذاته وظل كذلك حَتَّى وفاته وهو في نحو التسعين. وفي عام ١٩٦٥م أيضاً أنشأ باسم وزارة الثقافة مجلة باسم مجلة الفكر المعاصر وأشرف على تحريرها حَتَّى عام ١٩٦٨م، إذ سافر في هذا العام إلى الكويت ليعمل أستاذاً في جامعتها حَتَّى عام ١٩٧٣م، وإثر عودته في هذا العام إلى القاهرة بدأ بكتابة سلسلة المقالات الأسبوعية في جريدة الأهرام.

نال جائزة الدولة التَّقديرية في الأدب عام ١٩٧٥م. وفي عام ١٩٧٩م سمي عضواً في المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا. وفي عام ١٩٨٠م أصبح عضو المجلس الأعلى للثقافة.

نال جائزة الجامعة العربية للثقافة العربية من تونس عام ١٩٨٤م، وفي عام ١٩٨٥م منح درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفي عام ١٩٩٣م وافته المنية وانتهى مشواره.

فلسفته

الأكثر شيوعاً عن زكي نجيب محمود أنَّهُ رائد الوضعية المنطقية في العالم العربي، ولكن أن يكون كذلك فهذا يستحق شرحاً كبيراً، لم يقصِّر هو ذاته في جعل كتبه جلها لهذا الغرض، ولذلك من الصعب القول إنَّ كتاباً واحداً يمكن أن يختصر فكر علم بقامة زكي نجيب محمود، أو أنَّ هذا الكتاب أو ذاك أكثر أهمية من غيره أو أكثر تعبيراً عن فلسفته من غيره من الكتب. الحقيقة أنَّ كتبه كلها تقريباً تكون سيرورته الفكرية وتطور مواقفه وفلسفته، وخلاصة مجملها هي خلاصة فكره.

اختلف الناظرون في فكره في تصنيف مؤلفاته التي امتدت من التأريخ إلى التعريف فالسيرة الذاتية فالأدبية والجمالية والفلسفية وبينها التعليمية ومنها ما خصَّه بما يخصُّ محض فكره ورؤيته.

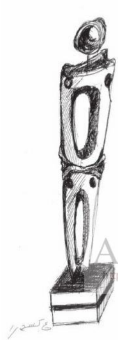
هذه المحاور ذاتها هي المحاور التي يمكن أن تتحدد من خلالها فلسفته أو فكره... ويمكن أن نتناول فكره من خلال جملة محاور أخرى تختزل التعددية الأولى في عناصر أقل ولكنها تتضمنها بطريقة أو بأخرى. وهذا أمر يطول بنا، ولذلك حسبنا الإشارة إلى أبرز ثلاثة معالم من ذلك هي موقفه الفلسفي، وموقفه من الغرب، وموقفه من التراث.

١. موقفه الفلسفي:

آمن زكي نجيب محمود بالوضعية المنطقية مذهباً فلسفيًّا يقتفي خطاه ويسير على هديه في فهم الوجود وتفسيره، وإذا كانت كتبه الرئيسة في ذلك هي المنطق الوضعي، وخرافة الميتافيزيقا، ونحو فلسفة علمية الذي نال عليه جائزة الدولة التقديرية، فإنَّ معظم كتبه تدور في هذا الفلك وتسعى إلى تعزيزه. وقد أعلن في مقدمة المنطق الوضعي هذا الانتماء قائلاً: «مذهبي الفلسفي هو فرع من فروع المذهب التجريبي، يمكن تسميته بالوضعية المنطقية». وفي هذه المقدمة ذاتها بيَّن المقصود بالوضعية المنطقيَّة قائلاً: «ولما كان المذهب الوضعي بصفة عامة، والوضعي المنطقي الجديد بصفة خاصة، هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمي كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة في معاملهم؛ فقد أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه؛ وطفقت أنظر بمنظاره إلى شتى الدراسات، فأمحو منها لنفسي ما تقتضيني مبادئ المذهب أن أمحوه. وكالهرة التي أكلت بنيها، جعلت الميتافيزيقا أول صيدي، جعلتها أول ما أنظر إليه بمنظار الوضعيَّة المنطقيَّة، لأجدها كلاماً فارغاً لا يرتفع إلى أن يكون كذباً، لأن ما يوصف

بالكذب كلام يتصوَّره العقل، ولكن تدحضه التَّجربة؛ أما هذه فكلامها كله هو من قبيل قولنا: إن المزاحلة مرتها خمالة أشكار، رموز سوداء تملأ الصفحات بغير مدلول، وإنما يحتاج الأمر إلى تحليل منطقي ليكشف عن هذه الحقيقة فيها». ذلك أنَّ لبَّ الوضعيبة المنطقية يقوم على أنَّ معيار علمية اللفظ أو المفهوم هو التجسد الواقعي القابل للاختبار والتجربة، وكل ما عدا ذلك لا يعدو كونه كلاماً خالياً من المعنى، فارغاً من المضمون.

وإذا سئل عن التراث الهائل الذي يتحدث عن هذه الموضوعات غير القابلة للتجسد الواقعي والاختبار التجريبي أجاب في خرافة الميتافيزيقا قائلاً: «إنه لعزيز علي وعليك أن تلقى هذه الأسفار كما كان ينبغي لها طعاماً لألسنة النار، أو أثقالاً في قاع المحيط».



٢. الموقف من الغرب:

تواشج إيمان زكي نجيب محمود بالوضعية المنطقيَّة بالإيمان بالغرب فكراً وقيماً وعادات وتقاليد، حَتَّى وصل الأمر ببعضهم إلى نعته بالتغريبي، وهو ذاته الذي فتح مثل هذا الباب على نفسه، ففي الفترة التي أعلن فيها اعتناءه بالتراث وعودته إليه وتدشين ذلك بكتابه تجديد الفكر العربي صدَّر مقدمة هذا الكتاب والعناية بالتراث العربي بقوله إنَّهُ «واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي؛ قديم أو جديد، حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه؛ ولبثت هذه

الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام: الفكر الأوروبي دراسته وهو طالب، والفكر الأوروبي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوروبي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ». وبعد ذلك ببضع سنوات يكرر ما لم يفتئ عن تكراره منذ نشأته قائلاً في كتابه ثقافتنا في مواجهة العصر: «إنَّهُ لعزيز على نفسي أن أقولها صريحة، وإنه كذلك لعزيز على نفوس القراء أن يسمعوها، لكنَّهُ حقٌّ لا منجاة لنا عن مواجهته، وهو أن نموذج القياس إنما هو الحياة العصرية كما تعاش اليوم في بعض أجزاء أوروبة وأمريكة، فقد شاء الله أن يكون هناك اليوم ينبوع الحضارة، كما كان ينبوعها في أرضنا ذات يوم».

٣. الموقف من التراث العربي:

ينطوي موقف زكي نجيب محمود من التراث العربي على شيء من الطرافة قلَّ نظيرها، وقد تجلت هذه الطرافة في محاور سبعة.

أولها، وهذا مستغرب منه بوصفه منطقيًّا وعلميًّا ومنهجيًّا كما يقول، أن ينطلق من ثنائية تقاطبية لا تقبل الحلول الوسطى يرى فيها أننا إما أن نعيش مع عصرنا مثل الغربيين، أو أن نترك العصر لنعيش مع هويتنا وتراثنا، وفي ذلك يقول في تجديد العربي: «إني أقولها صريحةً واضحةً: إما أن نعيش عصرنا بفكره ومشكلاته، وإما أن نرفضه ونوصد دونه الأبواب لنعيش تراثنا، نحن في ذلك أحرار، لكننا لا نملك الحرية في أن نوحد بَيْنَ الفكرين».

ثانيها إيمانه بالغرب حاضراً وماضياً وعدم إيمانه بالعرب لا حاضراً ولا ماضياً كما مرَّ معنا قبل قليل لدى الحديث عن موقفه من الغرب. على الرَّغْم من تكرار قوله أنَّ مشروعه تجديد الفكر العربي والوعي العربي والقيم العربيَّة وأنَّ هويته عربيَّة...!

ثالثها أنَّهُ حارب التراث العربي حرباً لا هوادة فيها في أكثر من كتاب وأكثر من موضع من كلِّ كتاب، ففي كتابه المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ذهب إلى أنَّ تراثنا العربي مطبوع بطابع اللامعقول، موسوم بسمة التنجيم، روحه روح الاجترار لا روح الابتكار، وميزته ميزة التقليد لا التجديد. إنه تراث عمي عن رؤية الكون والتأمل في الطبيعة بحرية وروح مغامرة واكتفى بتوليد الكلام من الكلام في شكل حواشي وتعليقات.

رابعها أنَّهُ خلط بَيْنَ التراث والدين، فرأى أنَّ التراث هو الدين أو الدين هو التراث، ففي كتابه تجديد الفكر العربي يقول: «إن هذا التراث كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته، لأنه يدور أساساً على محور

العلاقة بين الإنسان والله، على حين أن ما نلتمسه اليوم في لهفة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان». وفي كتابه المعقول واللامعقول يقول: «إنَّه تراث عمي عن رؤية الكون والتأمل في الطبيعة بحرية وروح مغامرة واكتفى بتوليد الكلام من الكلام في شكل حواشي وتعليقات يحتل الجانب الديني الحيز الأكبر، وتغيب الدنيا بأسرارها ومجاهيلها ومباهجها عن أبصار أسلافنا، وانتقلت عدواهم إلينا، فواصلنا السبات».

خامسها أنَّهُ بعد هجومه على تراثه العربي عشرات سنين عمره المنصرمة أعلن وهو في السبعين من عمره أنَّه لم يكن قد قرأ التراث العربي، وقال إنَّ هذه العودة كانت متأخرة، فقد قال في مطلع كتابه تجديد الفكر العربي: «لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة الأمد، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي... وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين»... ومع مرور أعلام تراثه أمامه أشباحاً غامضةً لم يدفعه أيُّ فضول لجلو هذا الغموض أو الضبابيَّة، فيما كان الفضول لا يوقفه عن البحث في مختلف تفاصيل الفكر الغربي وخفاياه!!

سادسها أنَّه على عدم معرفته بالتراث العربي كما أقرَّ هو ذاته فقد هاجم هذا التراث ورفض الاعتراف به، ونعته بكل أوصاف النقص والقصور والانحراف. فكيف يمكن لذلك أن يكون؟ وبأيِّ حق حشد أنواع الأحكام على أمر لا يعرف عنه شيئاً؟!

سابعها وهو مكمل لسلسلة الطرافة أنَّ زكي نجيب محمود بعد إقراره بأنَّ أحكامه على التراث كانت من دون معرفة بالتراث، وأنَّ معرفته بالتراث كانت سطحيَّة، فإنَّ اطلاعه على التراث الذي جاء متأخراً، كما قال، لم يغير شيئاً في قناعاته وموقفه من التراث العربي. وإن كانت تغيرت نوعاً ما صيغ التعبير، فهو يقول في تجديد الفكر العربي: «لم أجعل غايتي تقويم ذلك التراث، ومن أكون حتى أجيز لنفسي مثل هذا التقويم لتراث كان بالفعل أساساً لحضارة شهد لها التاريخ؟ لكني جعلت غايتي شيئاً آخر أظنه من حقي إذا أردته، وهو البحث في تراثنا الفكري عما يجوز لعصرنا الحاضر»، وكأنَّ التراث خزانة ثياب ينتقي المرء منها

ما يلائم السهرة! ودليل ذلك أنَّه يتابع هذه الانتقائية التي لا تصحُّ إلا نظريًّا بقوله: «كيف ننسج الخيوط التي استللناها من قماشة التراث مع الخيوط التي انتقيناها من قماشة الثقافة الأوروبية والأمريكية، كيف ننسج هذه الخيوط مع تلك في رقعة واحدة، لحمتها من هنا وسداها من هناك، فإذا هو نسيج عربي ومعاصر».

آثاره

أما الآثار التي وضعها فيلسوف الوضعية المنطقية العربي ففيما يلي ثبت بها دليلاً للباحثين والدارسين الذين يعنيهم تناول فكره أو جوانب منه أو الاستفادة منها في دراسات أخرى. وسنوردها تبعاً للتسلسل الهجائي لا على أي أساس تصنيفي آخر.

- أرض الأحلام- القاهرة- دار الهلال- ط١: ١٩٥٢م. ط٢: ١٩٧٧م.

- أسس التفكير العلمي- القاهرة- ١٩٧٧م.

- أفكار ومواقف (مذكرات)- بيروت/ القاهرة- دار الشروق- ١٩٨٣م.

- الأغنياء و الفقراء لويلز (ترجمة)- مجلس التأليف- القاهرة- ١٩٣٧م.

- الثورة على الأبواب- القاهرة- ١٩٥٥م. وقد صدر بطبعة ثانية عن دار الشروق ببيروت والقاهرة عام ١٩٨٣م بعنوان: الكوميديا الأرضية.

- الشرق الفنان- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ١٩٦١م.

- المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري- بيروت / القاهرة- دار الشروق- ١٩٧٢م.

- المنطق الوضعي (جزءان)- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ج١: ١٩٥١م- ج٢: ١٩٦١م.

- المنطق: نظرية البحث لجون ديوي (ترجمة)- القاهرة- مؤسسة فرنكلين- ١٩٥٩م.

- أيام في أمريكا- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥٥م.

- بذور وجذور- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٩٠م.

- برتراند راسل: عرض لفلسفة برتراند- دار المعارف (نوابغ الفكر الغربي)- القاهرة ١٩٥٦م.

- تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراند راسل (ترجمة)- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- عام ١٩٥١-١٩٥٣م.

- تجديد الفكر العربي- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٧١م.

- ثقافتنا في مواجهة العصر- القاهرة- ١٩٧٦م.

- جابر بن حيان- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة- ١٩٦١م.
- الجبر الذاتي (أطروحته للدكتوراه)- ترجمة إمام عبد الفتاح إمام- القاهرة- ١٩٧٣م.
- جنة العبيط- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٤٧م.
- حدود و طريقة التحليل - القاهرة- ١٩٥٢م.
- حصاد السنين (مذكرات)- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٩١م.
- حياة الفكر في العالم الجديد- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥٦م.
- خرافة الميتافيزيقا- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٣م. وقد صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب عن دار الشروق ببيروت والقاهرة عام ١٩٨٣م بعنوان: موقف من الميتافيزيقا.
- ديفيد هيوم- دار المعارف- القاهرة- ١٩٥٧م.
- رؤية إسلامية- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٨٧م.
- شروق من الغرب- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥١م.
- شكسبير- دار المعارف (سلسلة اقرأ)- القاهرة- ١٩٤٣م.
- عربي بين ثقافتين- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٩٠م.
- عن الحرية أتحدث- دار الشروق- بيروت /القاهرة- ١٩٨٦م.
- فلسفة وفن- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٦٣م.
- فنون الأدب (ترجمة)- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ١٩٣٨م.
- في تحديث الثقافة العربية- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٨٧م.
- في حياتنا العقلية- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٧٩م.
- في فلسفة النقد- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٧٩م.
- في مفترق الطرق (مقالات)- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٨٥.
- قشور ولباب- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥٧م.
- قصاصات الزجاج- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٧٦م.
- قصة الأدب في العالم (بالاشتراك)- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ألف الدكتور زكي نجيب محمود منه أربعة أجزاء: الجزء الأول عام ١٩٤٣، والجزء الثاني عام ١٩٤٥، والجزء الثالث عام ١٩٤٥، والجزء الرابع عام ١٩٤٨.

- قصة الحضارة (ترجمة ثلاثة أجزاء) لجنة التأليف والترجمة- القاهرة- عام ١٩٤٩م- ١٩٥٠م.

- قصة الفلسفة الحديثة (جزءان) (بالاشتراك مع أحمد أمين)- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ١٩٣٦م.

- قصة الفلسفة اليونانية (بالاشتراك مع أحمد أمين)- لجنة التأليف والترجمة- القاهرة- ١٩٣٥م.

- قصة عقل؛ سيرته الذاتية العقلية- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٨٣م.

- قصة نفس- دار المعارف - بيروت- ١٩٦٥م.

- قيم من التراث- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٨٤م.

- مجتمع جديد أو الكارثة- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٧٨م.

- محاورات أفلاطون (ترجمة) - القاهرة- ١٩٣٦م.

- مع الشعراء- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٧٦م.

- من زاوية فلسفية- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٧٩م.

- مورو وطريقة التحليل- القاهرة- ١٩٥٢م.

- موقف من الميتافيزيقا- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٨٣م.

- موقف من الميتافيزيقا- دار الشروق- بيروت/ القاهرة- ١٩٨٣م. وهو الطبعة الثانية من كتاب خرافة الميتافيزيقا الذي صدر عام ١٩٥٣م.

- نافذة على فلسفة العصر- سلسلة الكتاب العربي- الكويت-١٩٩٠م.

- نحو فلسفة علمية- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥٩م.

- نظرية المعرفة- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٥٥م.

- هذا العصر وثقافته- دار الشروق- بيروت/القاهرة- ١٩٨٠م.

- هموم المثقفين- دار الشروق- بيروت/ القاهرة - ١٩٨١م.

- وجهة نظر- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة- ١٩٦٧م.

وختاماً نعود لنؤكد أنَّ الناظرين في فكر زكي نجيب محمود قد اختلفوا في تصنيف مؤلفاته التي تنوعت بَيْنَ الميادين ممتدة من التَّأريخ إلى التعريف فالسيرة الذاتية فالأدبية والجمالية والفلسفية وبينها التعليمية ومنها ما خصَّه بما يخصُّ محض فكره ورؤيته. وهذه المحاور ذاتها هي المحاور التي يمكن أن تتحدد من خلالها فلسفته أو فكره...

ويمكن أن نتناول فكره من خلال جملة محاور أخرى تختزل التعددية الأولى في عناصر أقل ولكنها تتضمنها بطريقة أو بأخرى. وهذا أمر يطول بنا، حسبنا في مثل هذا البحث الصغير ما وقفنا عنده من معالم بدأت بموقفه الفلسفي ثُمَّ موقفه من الغرب ثُمَّ موقفه من التراث العربي. وكل تلك المسائل تحتاج إلى مزيد من التَّبسُّط والشرح نأمل أن تتاح لنا العودة إليها في دراسة موسعة. وحسبنا الآن أنَّ ما وقفنا عنده يعدُّ عماداً لمشروعه الفلسفي الذي يستحقُّ وقفةً بل رُبَّما وقفاتٍ مطولةً بغضِّ النَّظر عن الموقف منه قبولاً أو رفضاً، لأنه محطَّةٌ مهمَّةٌ من محطَّات الفكر العربي المعاصر شئنا أم أبينا.

آفاق المعرفة

لماذا استحق ماريو فارغاس يوسا نوبل

د. ماجد حمود ⊙

قلة من الروائيين في العالم تعاملوا مع الرواية بمثل إخلاص ماريو فارغاس يوسا، إذ جمع بين الإبداع في الرواية ونقدها، فدرس أبرز التجارب الروائية التي سبقته! ولم يكتفِ بموهبته، فكان في حالة تطور مستمر سواء في مجال الإبداع الروائي أم في مجال التدريس الجامعي، إذ درّس نظرية الرواية في عدة جامعات غربية! لهذا استحق نوبل بجدارة!

⊙ ناقدة وأستاذة جامعية سورية.

العمل الفني: الفنان أنور الرحبي.

من المستحسن أن نتعرف في البداية على مسيرة حياته، فقد ولد ماريو فارغاس يوسا في البيرو بمدينة (أركيبا) عام (١٩٣٦)، تنقل في طفولته بين عدة مدن (كوشابمبا، بيورا، ليما).

وقد عاش مع أمه وجديه، بعد أن ترك والده أمه إثر ولادته بقليل، فوجئ في الحادية عشرة من عمره بعودة أبيه، بعد أن ظنه ميتاً، وقد عاد ليعيش مع أسرته بعد أن فشل في مغامراته التجارية مفرغاً إحباطه بضرب زوجته وأولاده!

دفعته الحياة الصعبة والخلافات المستمرة بين والديه لدخول الأكاديمية العسكرية (لونسيدو برادو (١٩٥٠ - ١٩٥٢) في (ليما) كي يهرب من أسرته!

عمل مصححاً في صحيفة يومية ثم مراسلاً، وقد فكر جدياً بالتفرّغ للصحافة، لكن أسرته أجبرته على دراسة الحقوق، وقد دخل المعترك السياسي أثناء دراسته الجامعية، فتعرّف على المتطرفين السياسيين، من دون أن يلهيه ذلك عن الاشتراك في النوادي الأدبية!

بعد فترة قصيرة تورّط بالانضمام إلى الفرع الطلابي السري للحزب الشيوعي البيروي، الذي تركه احتجاجاً على نهجه الستاليني في الأدب والفن!

وقد تعرّف بفضل الحزب ودراسته في الأكاديمية العسكرية على البيرو الحقيقية، وكذلك أنعشت الثورة الكوبية آماله (١٩٦٠) وأججت مشاعره الثورية، التي كانت تعتمد وجهة نظر يسارية لا ماركسية!

عمل مساعداً لأحد كبار المؤرخين في الجامعة (رول بورا بارونشا) وقد وجد فيه ماريو يوسا صورة مثالية للأب!

في عام (١٩٥٩) التاسعة عشرة من عمره تزوج من قريبته (جوليا إركيدي) التي تكبره بثلاث عشرة سنة، ولم يستطع تسجيل زواجه إلا بعد أن اضطر إلى تزوير تاريخ ميلاده! وقد انفصلا عام (١٩٦٤) ثم تزوج عام (١٩٦٥) من (باتريكا يوسا) ولديهما ولدان وابنة.

درس الأدب والقانون، لكنه تفرّغ لدراسة الأدب، فأرسل في بعثة إلى جامعة مدريد عام (١٩٥٩) بعد سنة سافر إلى (باريس) حيث عمل أستاذاً للإسبانية، وصحفياً لوكالة (الفرانس برس) والإذاعة والتلفزيون.

وقد أنجز رسالة الدكتوراه عن ماركيز (١٩٧١) أتبعها بعدة كتب حول النقد الأدبي ونظرية الرواية، فدرس فلوبير وخوليو كورتازار وكارلو فونتيس...إلخ، إذ كان همه إحياء الرواية الأمريكية اللاتينية، لذلك بدا لنا أشبه بطالب على مدى الحياة، رغم أنه

عمل أستاذا في كثير من الجامعات الأوروبية والأمريكية، وبذلك يقدم لنا مثلا حيا للروائي الحقيقي وللأستاذ الجامعي.

في عام (١٩٩٠) رشّح نفسه للانتخابات الرئاسية في البيرو، وانتصر في الجولة الأولى على خصمه (البيرتو فيجيمور وهو من أصل ياباني) لكنه هُزم في الجولة النهائية، إذ لجأ خصمه إلى الخبث والكذب، فاتهمه بزنى المحارم (بسبب زواجه من قريبته) والإلحاد وأنه سيسرّح نصف مليون عامل!

لم تؤلمه الهزيمة بقدر ما آلمه تحول أعوانه إلى معسكر الخصم المنتصر، الذي لم يستطع تحقيق العدالة، ولم يقضِ على الفقر، لهذا بدا الفرق بينه وبين خصمه كالفرق بين الليبرالية والمحافظة في الاقتصاد، والاستبداد والتعددية في السياسة، وقد انتهى حكم الرئيس (فيجيمور) بهربه عام (٢٠٠٠) إلى اليابان بعد فضيحة فساد.[1]

ثقافته:

حين نتأمل كتاب ماريو فارغاس يوسا «رسائل إلى روائي شاب» تذهلنا جولات صاحبه المتنوعة في عوالم الرواية العالمية، التي لا يبدو فيها سائحا باحثا عن المتعة فقط وإنما غوّاصا باحثا عن الدرر، متأملا روعة الإنجاز الجمالي وصياغته، كي يستوعب دروسه، حتى إنه يمكننا القول بأن يوسا، قدّم في كتابه هذا صورة لتواصله الحميم مع أهم الروائيين الأمريكيين (فوكنر، همنغواي...) والفرنسيين (فلوبير، كامو....) والأمريكيين اللاتينيين (بورخيس، ماركيز...) إضافة إلى درة الأدب الشرقي (ألف ليلة وليلة).

شروط الإبداع الروائي:

بيّن (يوسا) في كتابه «رسائل إلى روائي شاب» أن مسيرة الإبداع هي مسيرة التعب والصبر والتواضع، وقد جسّد هذه المسيرة في «رسائل إلى روائي شاب» فعلا وقولا، حتى وجدناه يصف نفسه بالقزم إلى جانب فلوبير! فهو رغم إنجازاته الروائية المهمة مازال مدركا أنه في بداية الطريق! لذلك يخطئ الروائي المبتدئ حين يهجس بالنجاح والشهرة، ويجعلهما الحافز الجوهري لميوله الأدبية، إذ عليه ألّا يخلط بين الميل للأدب وبين الميل إلى بريق الشهرة والمنافع المادية التي لن يوفرها الأدب إلا لبعض الكتاب المحدودين جدا!

لهذا لن نستغرب أن تكون من أولى نصائحه للروائي الشاب أن يمنح الأدب الأولوية في حياته، فلا يقدم عليه أمرا آخر، لأن من أراد الإبداع لا يمكن أن يكون الميل الأدبي لديه وسيلة لتزجية الفراغ، وإنما عملا دؤوبا، يكاد يقصي كل ما

عداه من النشاطات اليومية، إذ عليه أن يعيش «عبودية مختارة بحرية، تجعل من ضحاياها (من ضحاياها المحظوظين) عبيدا... فيتحول الأدب إلى نشاط دائم إلى شيء يشغل الوجود، ويستغرق الساعات التي يكرسها أحدنا للكتابة... إن من يتبنى هذا الميل الجميل والممتص لا يكتب ليعيش، بل يعيش ليكتب».[٢]

ولو تساءلنا ما السبب الذي يجعل المبدع يعيش مثل هذه العبودية للكتابة إلى درجة يهبها حياته؟

نلاحظ أن الإبداع يمنح الأديب، كما يمنح المتلقي، متعة لا تعادلها متعة في الحياة، فالأدب، أفضل ما تم اختراعه من أجل الوقاية من التعاسة، برأي يوسا، لهذا يلفت نظر الروائي الشاب إلى أن السمة الأساسية للممارسة الأدبية أنها تمنح الكاتب متعة روحية داخلية، تهزل أمامها أية مكافأة مادية! إذ يشعر بانسجام مع ذاته، بعد أن تم له تحقيقها على المستوى الإبداعي، مما يدفعه إلى تقديم أفضل ما لديه دون الإحساس البائس بأنه يبدد حياته.

ويلفت نظرنا إلى أن هذا كله لن يتحقق ما لم يمتلك المبدع أساساً ذاتياً أو فطرياً مصاغاً منذ الطفولة أو الشباب المبكر، ثم يأتي الخيار العقلاني لتعزيزه، وليس لصنعه من رأسه إلى قدميه!

لم يتوقف يوسا في نصائحه عند البديهيات فقط كضرورة الميل الفطري والموهبة والتفرغ التام للأدب، بل وجدناه معنيا بتوضيح بعض أسس الرواية التي قد تخفى على الروائي المبتدئ.

الواقع والخيال:

لعل من أهم مشكلات الإبداع الروائي تلك العلاقة الملتبسة بين الخيال والواقع، لهذا بيّن يوسا أن الخيال يشكل ضرورة حيوية للروائي ليس فقط من أجل جماليات الرواية، وإنما لكونه يفسح المجال لنسج حيوات خيالية تعلن رفضها للحياة الواقعية وانتقادها لها، أي رفض الكاتب لظروف الواقع، ورغبته في استبدالها عن طريق المخيلة التي تتيح له تشكيل الحياة وفق طموحاته، فيبدو التخييل تعويضا عن بؤس الواقع، الذي بدأ الكاتب يعيشه بطريقة غير مباشرة أقرب إلى الذاتية، أي إلى حياة الأحلام والتخيلات!

إن التخييل، كما يراه يوسا، أكذوبة تخفي حقيقة عميقة، إنه الحياة التي لم تكن، والتي يتوق إليها المرء من دون أن يحصل عليها، لهذا كان عليه اختلاقها عبر المخيلة والكلمات من أجل إخماد الطموحات التي عجزت الحياة الحقيقية عن إشباعها، ومن أجل ملء الفجوات التي يكتشفها المرء

فيما حوله، فيحاول ملأها بأشباح يصنعها بنفسه، مبتعدا عن التاريخ واليومي، وباحثا عن الحلم!

إذاً لو أردنا تعريف التخيل لوجدنا أنه خداع، وأن كل رواية هي كذبة تحاول التظاهر بأنها حقيقة. أما الدافع للكتابة فهو التمرد المسالم، إذ ما هو الأذى الذي يمكن أن يلحقه الأديب بالحياة الواقعية، حين يعارضها بحيوات متخيلة غير ملموسة، لكن المشكلة تكمن، كما بيّن يوسا، في خلط الحياة الواقعية بما هو متخيل (وهذا ما فعله دون كيخوته ومدام بوفاري، اللذان عاشا وهما كبيراً من خلال قراءة قصص الفروسية أو الرومنسية) مما أدى إلى نتيجة مأساوية، وخيبة أمل رهيبة!

ويعتقد (يوسا) أن الرواية التخييلية تزودنا بحساسية وتجعلنا أكثر تيقظا حيال محدودية الحياة، ولهذا تبدو الحياة المعيشة أقل مصداقية بكثير من الحياة التي اختلقها الروائيون.[٣]

إن القلق الذي يثيره الأدب الجيد في النفوس يمكن أن يترجم في بعض الظروف إلى تمرد في مواجهة السلطة والمعتقدات السائدة، وطريقة لممارسة الحرية والاحتجاج ضد من يريدون إلغاءها سواء أكانوا متدينين أم علمانيين، لهذا منعته محاكم التفتيش وراقبته الأنظمة المستبدة.

من هنا يتوجب على الروائي أن يكتب تلك المواضيع التي تفرضها الحياة عليه، لا الأيديولوجيا التي يتبناها، كما يفعل بعض الروائيين العرب، لهذا ينصح (يوسا) الروائي بتجنب تلك المواضيع المفتعلة التي لا تولد بصورة حميمة من تجربته الذاتية، ولا تصل إلى وعيه بطبيعة لها سمة الضرورة، من هنا تتلخص حقيقة الروائي وصدقه في تقبل شياطينه الخاصين، وخدمتهم بقدر ما تسمح به قواه!

إن التخييل يتدخل في جميع عناصر الرواية (المكان، الزمن، الراوي...) لأنه وسيلة لتحرير الإبداع من معطيات الواقع وتزويده بالاستقلال الذاتي، الذي تعتمد عليه القدرة على الإقناع.

فلو تأملنا الزمن للاحظنا أنه مشيد انطلاقا من الزمن النفسي (السيكولوجي) لا المتسلسل (الكرونولوجي) فهو زمن ذاتي، تضفي عليه حِرَفية الروائي الجيّد مظهراً موضوعياً، وبذلك يتوصل إلى جعل روايته تنأى عن العالم الواقعي، وتختلف معه.

وقد تحدث عن ثلاثة احتمالات (تطابق زمن الراوي مع زمن ما يروى، ويكونان زمنا واحدا هو الحاضر، أن يروي الراوي انطلاقا



من الماضي أحداثا تجري في الحاضر والمستقبل، أن يتموضع الراوي في الحاضر أو المستقبل، لكي يروي أحداثا جرت في الماضي البعيد أو القريب).

ويلفت النظر إلى أنه من النادر أن يكون هناك رؤية زمانية واحدة في القصة المتخيلة، بل ينتقل الراوي بين عدة رؤى زمانية، وبذلك يكون الزمن في كل رواية ابتكاراً شكلياً، كي لا تكون مطابقة للواقع.

والراوي مثله مثل عناصر الرواية الأخرى من نسج الخيال، وقد يكشف نفسه أو يخفيها حسب الطريقة التي يعمل بها، وقد يتباطأ أو يتسرّع، ويكون صريحا أو مداوراً ثرثاراً أو قليل الكلام، لعوباً أو جدّياً. المهم أن تمتلك الرواية قدرة على إقناعنا بحقيقتها، أو ظهورها كدمى تفتقد هذه القدرة.

كما بيّن (يوسا) أنواع الرواة، فقد يكون شخصية من شخصيات الرواية، أو راويا كلي المعرفة، يروي من الخارج وغير منتم إلى القصة التي يرويها، وهذان النوعان تقليديان، أما النوع الثالث فهو حديث العهد، نجده في الرواية الحديثة، وهو يبدو ملتبسا لا يعرف عنه إذا كان يروي من داخل العالم المروي، أم من خارجه.

لا يمكن أن يكون صمت الراوي مجانيا أو متعسفا، بل له مغزى ودلالة، إذ يخبئ معلومة أو يغفلها من أجل ممارسة التشويق فيحرك فضول المتلقي وخياله وترقبه حتى خاتمة الرواية.

يضطر الروائي إلى حذف معطيات لاحصر لها لأنها غير مجدية، يمكن الاستغناء عنها، أو استشفافها من خلال سيرورة الحدث، أما المعطيات المخبأة فهي ليست واضحة بذاتها، ولا غير مجدية، بل على النقيض لها وظيفتها، وتؤدي دوراً في الحبكة القصصية، ولهذا فإن حذفها أو تحويلها يؤثر على القصة، وهو تأثير تمتد أصداؤه إلى الحكاية أو الرؤى ووجهات النظر التي تحدث عنها.[٤]

إنَّ على الروائي أن يفرض بعض الحدود على نفسه حين يستعد لرواية قصة، وإلا لن يكون للقصة التي يرويها بداية ولا نهاية، وستكون وهماً كلياً، وكوناً خيالياً غير متناه.

وكان يوسا معنيا في نصائحه أن يبيّن للروائي المبتدئ معنى مصطلح بات متداولا في الرواية اليوم، وهو مصطلح (الفانتازيا) فهو يضم كثيراً من المعاني المختلفة (السحري، الإعجازي، الخرافي، الأسطوري...إلخ)

كما بيّن محك الأصالة في الأدب الفانتازي في الطريقة التي يظهر بها مستوى الواقع في قصصه، وأن تعارض المستويات بين الواقع والفانتازيا تعارض جوهري بين عوالم ذات طبيعة مختلفة، لكن التخييل الحقيقي أو الواقعي يتضمن عدة مستويات متباينة فيما بينها.

لكن الأدب الفانتازي هو العجيب الخرافي غير القابل للتفسير عقلانيا، ويحدث للتفسير تلقائيا، أي هذه التخيلات لا تروي قصصا فانتازية، وإنما هي فانتازيا بذاتها.

الرواية والسيرة الذاتية:

يبيّن (يوسا) أن أكثر قصص التخييل تحررا وانطلاقا نعثر فيها على بذرة حميمة مرتبطة أحشائيا بجملة من التجارب الحياتية للكاتب، مؤكدا أنه ليس هناك استثناء على هذه القاعدة، لكنه يؤكد أن هذه العلاقة نقطة انطلاق وليست نقطة وصول...لأن المادة المستقاة من السيرة تتعرض إلى عملية تحويل أثناء سكب الموضوع في جسد الكلمات وفي نسق سردي يغنيها (وأحيانا يفقرها) وتخلط بمواد أخرى عن طريق الذاكرة أو المخيلة، وتعالج وتركب إلى أن تبلغ استقلالها الذاتي الذي على الرواية المتخيلة أن تصنعه لكي تتمكن من العيش بذاتها، أما تلك الروايات التي لا تستقل عن مؤلفها وتبقى مجرد وثيقة من سيرته وحسب، فإنها روايات خائبة بكل تأكيد.

ثمة شوق في أعماق كل روائي إلى عالم مختلف عن ذاك الذي يعيشه، سواء أكان عالم الإيثار والمثالية والعدالة أم كان عالم الأنانية المنكبة على إشباع أقذر الشهوات

المازوشية والسادية، كما نلمس لديه لهفة إنسانية، تكمن في أعماقه، من أجل خوض مغامرة حب خالد لا يعرف الذبول!

إننا نعيش عالم الرواية من خلال الكلمة، التي أبدعها الروائي بصورة مشفرة، فبدا فيها تنازعه بين الواقع الواقعي وذلك الذي ترغب رذيلته أو نبله في استبداله وإحلاله محل الواقع الذي كان عليه أن يعيشه.

وبذلك تتجسد الرواية بصفتها هندسة معمارية تقوم على المخيلة والواقع المعيش، الذي يتجلى في بعض الأحداث والأشخاص والظروف التي عايشها الكاتب، وتركت أثراً في ذاكرته، وحركت خياله المبدع الذي يبني انطلاقاً من تلك البذرة عالماً متكاملاً، إلى درجة يبدو فيها من المتعذر التعرف على تلك المادة الأولية المأخوذة من السيرة الذاتية، التي كانت صلة الوصل بين المتخيل والواقع، واستطاع الروائي تجاوزها بفضل الإبداع.

إذاً إن التحدي الإبداعي الذي يواجه الروائي هو القدرة على تحويل العالم الواقعي عبر العملية الرمزية إلى عالم متخيل، إذ كثيراً ما نجد التباسا بين التطلع إلى الاستقلال الذاتي عبر الخيال والعبودية لما هو واقعي، لكن لن يتمكن أحد الفصل بينهما، فالخيال يستمد مواده الأولية من الحياة الإنسانية، ويغنيها بدوره، فيتيح لنا فرصة العيش في حياة أخرى أكثر جمالا مما هي عليه.

ويحدد (يوسا) سمة الروائي الأصيل في كونه يكتب استجابة لنداء الأعماق، فلا يختار موضوعات بعقله وإنما بروحه وإحساسه!

كذلك دعا إلى البحث عن مظهر للحياة قد يكون منسيا وتسليط الضوء على وظيفة مهمشة في التجربة الإنسانية والوجود، كي يقدم لنا رؤية غير مسبوقة للحياة.

لهذا رفض أن يكتب الروائي انطلاقا من مصالح سياسية ضيقة، ففي كتابه «غواية المستحيل» نجده يقول «الأزمنة تمرّ على المواقف السياسية البليدة، لكن الرواية العظيمة تبقى مؤثرة وخالدة على مر الزمن».(٥)

الشكل الروائي:

تشكل الكلمات قوام الرواية، لهذا يعد الأسلوب أحد الجسور الأساسية بين المبدع والمتلقي، تظهر فيه مقدرة الروائي في اختيار مفردات اللغة وصياغتها وترتيبها، مما يتيح له قوة الإقناع، فإن مقياس النجاح في الإبداع السردي هو في قدرة الرواية المتخيلة على العيش بمعزل عن مبدعها وعن الواقع المعيش، تستطيع أن تفرض

نفسها على المتلقي بصفتها واقعا ذا سيادة قائما بذاته.

وقد جعل (يوسا) هذه الاستقلالية قرينة قوة الإقناع، مما يوحي لنا أن كل ما يحدث في فضائها قد تمّ عن طريق آلية داخلية للتخيل الروائي، وليس بقسر تعسفي، تفرضه إرادة خارجية، لأن القدرة على الإقناع تعني قدرة على إغواء المتلقي فيصدق ما يقرؤه، وهو لا يبدو في الرواية العظيمة أنه يروى، وإنما يعاش ويشارك فيه بفضل قوة الإقناع، التي تسعى إلى تضييق المسافة الفاصلة بين الوهم والواقع، فيحس المتلقي بانتفاء الحدود بينهما، ويعيش تلك الكذبة كما لو أنها حقيقة، عندئذ يبدو الوهم وصفا أشد تماسكا من الواقع.

إذاً لا تأتي القدرة على الإقناع في الرواية من تشابهها مع العالم الواقعي الذي نعيشه نحن القراء، وإنما تأتي من كيانها ذاته، المصنوع من كلمات، ومن تنظيم رؤى المكان والزمان ومستوى الواقع الذي تؤلفه، مما يؤدي إلى ضبط متقن للموضوع ومزج صحيح له مع الأسلوب والرؤى، فيبدو القارئ مأخوذا بما ترويه، إلى الحد الذي ينسى معه الطريقة التي تروى له بها، إذ يمتلكه إحساس أنها تخلو من التقنية ومن الشكل، فتبدو الحياة متجلية من خلال بعض الشخصيات والمشاهد والوقائع، وهي ليست أقل من الواقع المجسد، هذا هو النصر الكبير للتقنية الروائية، التوصل إلى أن تكون غير مرئية، وأن تكون فعالة في بناء القصة فتزودها بالألوان والدرامية والحذق والجمال والإيحاء إلى حد لا يمكن معه لأي قارئ أن يلمح وجودها، لأنه يستغرق بسحر تلك الصنعة، لا يحس بأنه يقرأ وإنما يعيش تخييلا تمكن من الحلول محل الحياة، ولو للحظة على الأقل.[1]

وعلى هذا الأساس يخفق الأسلوب عندما يشعر المتلقي بأن هناك فجوة بين ما يرويه من وقائع وبين الكلمات التي تروى بها، ومثل هذا الافتراق بين لغة القصة والقصة نفسها، يلغي القدرة على الإقناع، فلا يصدق المتلقي ما يروى له بسبب خرافة الأسلوب وعدم ملاءمته، فيعي أن ثمة شرخا بين الكلمات ووقائع القصة المتخيلة، عندئذ تتسرب منه الخدعة والتحكم اللذان تقوم عليهما القصة المتخيلة، لهذا ينصح الروائي الشاب بالانتباه إلى تلك الهوة، وردمها أي جعلها غير مرئية.

إن أي عمل أدبي كي يعيش حياته الخاصة لابد له من أن يحمل بصمة تميزه، أي يمتلك أسلوباً خاصاً به، صحيح أن الأدب ينطوي على خدعة كبيرة، لكن العظيم منه

يتمكن من إخفائها، في حين نجد الرديء يفضحها، والمحك في كل ذلك هو الأسلوب!

وقد وجدناه (أي يوسا) يبين للروائي طرقا تساعده على امتلاك أسلوب خاص به، من أهمها القراءة الثرة، وأن ينطلق من قاعدة أن كل شيء مهم في مجال الشكل، وأن التفاصيل الصغيرة في تراكمها، هي التي تحسم روعة الصنعة الفنية أو بؤسها.[7]

نلاحظ أن (يوسا) أدرك أهمية أن يتجاوز الإبداع قوانين النقد، بعد أن يهضمها، بما يحتويه من حساسية وحدس وتخمين، لهذا لا يمكن لأحد أن يعلّم قواعد الإبداع، فالمرء يتعلم بنفسه، وهو يتعثر، ويسقط، ثم ينهض دون توقف، لهذا كانت نصيحته الأخيرة أن ينسى الروائي الشاب كل نصائحه عن الشكل الروائي، وأن يبدأ الكتابة دفعة واحدة.

الهوامش

١- أخذت المعلومات عن سيرته الذاتية من الموقعين الفرنسيين

www.republique-des-lettre.com, www.Google.com

٢- ماريو بارغاس يوسا «رسائل إلى روائي شاب» ترجمة صالح علماني، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٥، ص١٣

٣- المصدر السابق، ص١٠، بتصرف

٤- المصدر السابق نفسه، ص١١٦، بتصرف

٥- ماريو فارغاس يوسا و«بؤساء» فيكتور هوغو في «غواية المستحيل»، ناديا ظافر شعبان، جريدة الحياة، ٢٣/٠٤/٠٦/٢٠١٠.

٦- «رسائل إلى روائي شاب» ص٨٥، بتصرف

٧- المصدر نفسه، ص٥٨، بتصرف.

آفاق المعرفة

العلاقات العامة الدولية (الدبلوماسية الشعبية) وإدارة الأزمات

د. محمد البخاري ©

معروف أن العلاقات العامة في المجتمعات البدائية كانت تتسم بالمباشرة والبساطة، وأخذت بالتعقد مع التقدم الحضاري والاجتماعي، وأدت التغييرات التقنية والعلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية في العالم، مع نهاية ثمانينات القرن العشرين، إلى تداخل المصالح الدولية، بسبب سهولة الاتصال التي أتاحتها وسائل الاتصال الحديثة. مما زاد من أهمية دور وفاعلية

© جامعة ميرزة ألوغ بيك القومية الأوزبكية.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

العلاقات العامة (الدبلوماسية الشعبية) في العلاقات الدولية. وتعتبر العلاقات العامة حلقة وصل بين مؤسسات قطاعات وشرائح المجتمع الواحد، وبين مؤسسات قطاعات وشرائح المجتمعات البشرية في العالم، عن طريق

تقديم خدمات معينة مبنية على الثقة المتبادلة، وانطلاقاً من أهمية الفرد والشرائح الاجتماعية المختلفة، وقوة وتأثير الرأي العام في المجتمعات على مختلف المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

وللعلاقات العامة تعريفان أساسيان هما:

١- التعريف المهني المتخصص، ويقصد به إقامة علاقات حسنة داخل المؤسسات وخارجها، مبنية على التفاهم والثقة المتبادلة. من خلال إبراز الاهتمام بالوظائف الأساسية التي تضطلع بها إدارة العلاقات العامة، في مؤسسة أو منظمة حكومية كانت أم خاصة، لتكون وظيفتها بذلك إدارية بحتة. وتبلور هذا التعريف مع ظهور شخصيات متخصصة في العلاقات العامة مع بداية القرن العشرين، أمثال: إيفي لي، وإدوارد بيرنيز، وجون هيل. وتبع ذلك قيام جمعيات واتحادات علمية ومهنية ضمت المتخصصين في العلاقات العامة في القارتين الأوروبية والأمريكية، خلال أربعينات وخمسينات القرن العشرين. وساهمت تلك الجمعيات والمنظمات بدورها في زيادة تعريف العلاقات العامة، وساعدت على تحديد مهامها ووظائفها.

وفي عام ١٩٤٧ نشرت مجلة أخبار العلاقات العامة Public Relation News خلاصة لتعريف العلاقات العامة، أخذته من نتائج الاستقصاء الذي أجرته بين مشتركيها، والعاملين في مجالات العلاقات العامة، وجاء فيها أن: «العلاقات العامة: هي وظيفة الإدارة التي تقوم بتقويم اتجاهات الجمهور وربط سياسات وأعمال فرد أو منشأة مع الصالح العام، وتنفيذ برامج لكسب تأييد الجمهور وتفهمه».

واعتبر إيفي لي أحد روّاد العلاقات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، أن مهمتها مزدوجة، وتبدأ من دراسة اتجاهات الرأي العام، ونصح الشركات بتغيير خططها، وتعديل سياساتها لخدمة المصلحة العامة،

وثم إعلام الجمهور بما تقوم به الشركات من أعمال تهمهم وتخدم مصالحهم.

أما إدوارد بيرنيز خبير العلاقات العامة الأمريكي، فاعتبر أن العلاقات العامة هي: محاولة لكسب تأييد الرأي العام لنشاط أو قضية أو حركة أو مؤسسة، عن طريق الإعلام والإقناع والتكيف، أي إيجاد التكيف والتكامل والتوافق بين مواقف مؤسسة معينة وسلوكها، مع مواقف جماهيرها ورغباتهم، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

أما جمعية العلاقات العامة الأمريكية فقد عرفتها بأنها: نشاط أي صناعة أو اتحاد أو هيئة أو مهنة، أو حكومة، أو منشأة لبناء وتدعيم علاقات سليمة منتجة بينها وبين فئة من الجمهور: كالعملاء والموظفين والمساهمين والجمهور بشكل عام، والعمل على تكييف أهداف المؤسسة مع الظروف المحيطة بها، وشرح أهدافها للمجتمع.

وقدم معهد العلاقات العامة البريطاني، تعريفاً للعلاقات العامة بأنها: الجهود الإدارية المرسومة، والمستمرة الهادفة إلى إقامة وتدعيم التفاهم المتبادل بين المنظمة وجمهورها.

بينما جاء تعريف جمعية العلاقات العامة الفرنسية، بأن العلاقات العامة هي: طريقة للسلوك، وأسلوب للإعلام والاتصال، اللذان يهدفان إلى إقامة علاقات من الثقة، والمحافظة عليها، وتقوم هذه العلاقات على المعرفة والفهم المتبادلين، بين المنشأة ذات الشخصية الاعتبارية، التي تمارس وظائف وأنشطة محددة، وبين الجماهير الداخلية والخارجية التي تتأثر بتلك الأنشطة والخدمات.

أما جمعية العلاقات العامة الدولية، فقد توصلت إلى تعريف العلاقات العامة بأنها: وظيفة الإدارة المستمرة والمخططة، التي تسعى بها المؤسسات والمنظمات الخاصة والعامة، لكسب التفاهم والتعاطف مع سياساتها وأنشطتها. وكسب المزيد من التعاون الخلاق، والأداء الفعال للمصالح المشتركة باستخدام الإعلام الشامل والمخطط.

٢- التعريف الاجتماعي الشامل: وهو الاتجاه الاجتماعي للعلاقات العامة، الذي ظهر خلال ثلاثينات القرن العشرين، إثر الأزمة الاقتصادية التي عانى منها الاقتصاد

العالمي عام ١٩٢٩، وعرفه د. محمد البادي، بأنه: الاتجاه الاجتماعي للعلاقات العامة، كمهنة ذات طابع خاص، ويشمل كل ما يصدر عن المؤسسة من أعمال وتصرفات وقرارات، وكل ما يتصل بها من مظاهر واستعدادات وتكوينات مادية لأن ما يصدر عن المؤسسة أو يتصل بها له تأثيراته، المعنوية على الجماهير، التي ترتبط مصالحها بها، وهذه التأثيرات هي التي تعطي لهذه العناصر طبيعتها، كأنشطة للعلاقات العامة، وهي أيضاً التي تعطي لاتجاه العلاقات العامة صفته الاجتماعية. وهو نشاط يشترك فيه كل أفراد المؤسسة من خلال تكوين علاقات عامة مرنة في سلوكهم واتصالاتهم ومعاملاتهم مع الجماهير داخل المؤسسة وخارجها. وأن لا يكون الهدف من النشاط السعي لتحقيق الربح فقط، بل إلى تقديم خدمات للمجتمع، عن طريق إنتاج سلع وخدمات جيدة ومتطورة تناسب الأذواق، وأداء الوظيفة المسندة إليهم بشكل جيد، مراعين الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تفرضها المسؤولية الاجتماعية في مشاركة المجتمع المحلي همومه وأفراحه وأحزانه، والعمل على تقليل الأضرار الناجمة عن نشاطاتهم، والمحافظة على البيئة، والعمل على النهوض بالمجتمع ثقافياً وعلمياً وحضارياً ومادياً.

وعرف كانفيلد العلاقات العامة، بأنها: الفلسفة الاجتماعية للإدارة، التي ترغب من خلال أنشطتها وسياساتها المعلنة للجمهور كسب ثقته وتفهمه.

أما نولت فقد عرف العلاقات العامة، بأنها: مسؤولية الإدارة التي تهدف إلى تكييف المنظمة مع بيئتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تماماً، كما تهدف إلى تكييف البيئة المحيطة لخدمة المنظمة لتحقيق مصلحة الطرفين.

وهو ما يظهر بوضوح في أن الربط بين المجتمع والسياسة والاقتصاد وإعطاء الأولية للاقتصاد كان ولم يزل في موقع الأهمية منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن.

ومما سبق نستطيع استنتاج أن دور خبير العلاقات العامة ينحصر في:

١- إقناع الإدارة العليا القيام بالنشاطات التي تجعل الجمهور راضياً عن المؤسسة؛

٢- وإقناع الجمهور بأن المؤسسة تستحق بالفعل تأييده ودعمه المعنوي والمادي.



وأن دور العلاقات العامة ينحصر في:

- تبني مصلحة الجمهور والمصلحة العامة؛

- ووضع السياسات الملائمة لها؛

- والسعي لإيصال المعلومات عن نشاطات المؤسسة وسياساتها للجمهور؛

- وخلق رأي عام مؤيد للمؤسسة، لدى الجمهور؛

- وإنشاء مواقف محددة ومطلوبة تجاه المؤسسة؛

- وتقييم مواقف الرأي العام من قبل المتخصصين في العلاقات العامة؛

- وإيصال المعلومات عن تلك المواقف لإدارة المؤسسة.

ويشمل نشاط العلاقات العامة اليوم:

نشاط العلاقات العامة في المجال الحكومي: وهو- التوعية والإرشاد والإعلام، في:

- جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدبلوماسية، للوصول إلى مساندة الجماهير لها، ومشاركتهم المعنوية والمادية في البرامج التنموية الشاملة التي تخطط لها الحكومة؛

- كسب الرأي العام للسياسات الحكومية الداخلية والخارجية؛

- التعـرف على توجهات الـرأي العام، وتقييم الخدمات العامة لوظائفها المحددة، ومدى تلبيتها لرغبات الجمهور؛

- العمل على دحض الشائعات، والتصدي للحملات الإعلامية المضادة، وإبراز الحقائق عن طريق مصارحة الجماهير؛

- الاهتمـام بشـؤون الموظفـين الحكوميين.

نشـاط العلاقـات العامـة في مجـال المنظمـات والهيئـات الحكومية: ويشـمل نشـاط العلاقات العامة في مجال المنظمات والهيئات الحكومية:

- التعريف بأهدافها وسياساتها، وتوثيق الصـلة والتعـاون بـين المواطـن والمنظمة أو الهيئـة الحكومية للوصـول إلى الهدف المطلوب؛

- دراسـة مواقـف الرأي العـام، ونقل رغبـات ومطالـب الجماهـير العريضـة للمسـؤولين، تمهيـداً لإيجـاد الحلول لها، وتلبيتها وفق الظروف المتاحة؛

- الاهتمـام بشـؤون العاملـين في تلك المنظمات والهيئات الحكومية؛

- الاتصـال بالهيئـات والمنظمـات الحكومية المشـابهة، لتحقيق أفضل صورة من التعاون بينها في الداخل والخارج؛

- إصـدار المـواد الإعلاميـة المطبوعة والمسـموعة والمرئية، عن نشاطات المنظمة أو الهيئة الحكوميـة، وتبادلها وتوزيعها في الداخل والخارج؛

- توثيـق كل ما تنشره وسـائل الإعلام الجماهيرية وغيرها من وسـائل الاتصـال الجماهيري في الداخل والخارج؛

- تنظيم الزيارات الرسمية والخاصة.

وهناك مجالات أخرى تشمل المؤسسات الاقتصادية والإنتاجية والخيرية، والمنظمات المهنية والنقابيـة وغيرها، ولا تختلف من حيث نشـاطات العلاقـات العامة عما تم تفصيله أعلاه.

ومن الملاحظ اليوم أن العلاقات العامة في القارة الأوروبية تسـتخدم كوسـيلة من وسـائل تدعيـم الوحدة الأوروبيـة، وزيادة التلاحم والتفاهم بين مختلف شعوب القارة الأوروبيـة. لأنه من المعـروف أنه كلما زاد التقدم الثقافي والعلمي والتقني في أي دولة من دول العـالم، زاد دور العلاقـات العامة

(الدبلوماسية الشعبية) فيها، وتوجهت تلك الدول نحو تأسيس جمعيات وهيئات تعنى بالعلاقات العامة، وإلى تدعيم المؤسسات الحكومية بأقسام خاصة تعنى بهذا المجال الهام، يطلق عليها تسمية «أقسام العلاقات العامة». وقد تطورت العلاقات العامة في الولايات المتحدة الأمريكية، حتى أصبحت تضاهي مثيلاتها في دول العالم الأخرى، وشهدت الدول الأوروبية كفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وغيرها من دول العالم، تطوراً خاصاً لمفهوم العلاقات العامة. لتصبح ممارسة العلاقات العامة ذات مفهوم دولي يمارس فعلاً في العلاقات الدولية.

ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً: تتحمل وكالة الاستعلامات الامريكية، التي أنشئت عام ١٩٥٣، مسؤولية العلاقات العامة الدولية، وغيرها من المسؤوليات، من أجل تحقيق أهداف السياسة الأمريكية، عن طريق شرح وتفسير ونشر تلك السياسة، ومواجهة الدعاية المضادة الموجهة ضد سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في العالم، ويقدم مدير الوكالة تقاريره عن سير العمل في الوكالة للرئيس الأمريكي مباشرة من خلال مجلس الأمن القومي.

وفي بريطانيا أسس المعهد البريطاني للعلاقات العامة عام ١٩٤٨، بهدف تجميع جهود ممارسي وظيفة العلاقات العامة وصب الاهتمام على العلاقات العامة في أجهزة الدولة المركزية والمحلية، وفي القوات المسلحة البريطانية، والمؤسسات الاقتصادية والاستشارية. ويمارس ضباط الإعلام في البعثات الدبلوماسية البريطانية المعتمدة في دول العالم، وظيفة العلاقات العامة الدولية من خلال وظيفتهم الإعلامية الأساسية.

وتطورت العلاقات العامة في فرنسا كوظيفة هامة من وظائف المشروعات الاقتصادية والتجارية والصناعية، بعد إنشاء الجمعية الفرنسية للعلاقات العامة عام ١٩٥٥، بهدف تطوير العلاقات العامة الفرنسية.

وتزايد الاهتمام بالعلاقات العامة في إيطاليا إثر إنشاء جمعية تطوير العلاقات العامة الإيطالية في روما عام ١٩٥٤، ورافق ذلك تزايد اهتمام الشركات الإيطالية بوظيفة العلاقات العامة.

وظهر الاهتمام بالعلاقات العامة في بلجيكا مع تأسيس جمعية العلاقات العامة

عام ١٩٥٣ لتطوير دور العلاقات العامة في بلجيكا.

وتضطلع الهيئة العامة للاستعلامات في مصر وهي هيئة حكومية تابعة لوزارة الإعلام المصرية بدورها «كجهاز للإعلام الرسمي والعلاقات العامة للدولة»، ومنذ إنشائها عام ١٩٥٤ قامت الهيئة العامة للاستعلامات بأدوار عديدة على الصعيدين الداخلي والخارجي لشرح سياسة الدولة في المجالات المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومواقفها إزاء مختلف القضايا. وفي الوقت الراهن تقوم الهيئة بعدد من المهام الأساسية منها:

- توفير تسهيلات للصحفيين والمراسلين الأجانب في مصر لأداء عملهم على أفضل مستوى ممكن لنقل صورة حقيقية عما يجري في مصر إلى العالم؛

- وتقديم صورة مصر إلى الرأي العام العالمي ونقل الحقائق عنها إلى وسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم. وعبر مكاتب الإعلام الملحقة بالسفارات المصرية في العديد من العواصم والمدن الكبرى؛

- وتوفير مصدر للمعلومات الدقيقة والصحيحة والحديثة عن مصر في مختلف المجالات كالتاريخ والحقائق الأساسية عن النظام السياسي والسياسة الخارجية والثقافية والمجتمع والفنون والاقتصاد والسياحة وغيرها، وإتاحتها عبر موقع الهيئة على شبكة الإنترنت باللغتين العربية والإنجليزية لكل من يحتاج إليها في كل مكان من العالم، كما تصدر مطبوعات عن هذه الموضوعات باللغات المختلفة؛

وتقوم الهيئة العامة للاستعلامات أيضا بدور مهم في التثقيف السياسي والتوعية الاجتماعية للمواطنين وشرح السياسات الوطنية لهم والمساهمة في التوعية بالقضايا والمشكلات الوطنية (مثل قضية زيادة السكان وقضايا البيئة) وبالقضايا المحلية والبيئية في المناطق الريفية والنائية في أنحاء مصر من خلال مراكز النيل للإعلام ومراكز الإعلام الداخلي.

كما توفر الهيئة مركز معلومات يتابع الإعلام الدولي ويوفر معلومات صحيحة ودقيقة عن صورة مصر في الإعلام العالمي للمهتمين والمعنيين بذلك في أجهزة الدولة ووسائل الإعلام.

وللهيئة مقر يقع في ضاحية مدينة نصر بالعاصمة القاهرة، إضافة إلى مراكز الإعلام الداخلي التي تتبعها في جميع محافظات مصر ويعمل بالهيئة عدد كبير من الإعلاميين والفنيين والإداريين المدربين على استخدام تقنيات الاتصال والإعلام الحديثة في أداء مهامهم.

أما في أوزبكستان فقد بدأ الاهتمام الجدي بالعلاقات العامة الدولية بعد الاستقلال عام ١٩٩١، حيث تم في ١٩٩٥/١١/٨ تأسيس وكالة أنباء JAHON واتبعت لوزارة الخارجية بغرض:

- توزيع الأخبار الإيجابية عن سير الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في أوزبكستان؛
- وتطوير الصلات مع وكالات الأنباء والمراكز الإعلامية الدولية؛
- وتسريع عملية دخول الجمهورية إلى الساحة الإعلامية الدولية؛

وجمع وتوزيع الأخبار داخل الجمهورية عن:

- الأوضاع السياسية والحقوقية وغيرها في الدول الأجنبية؛
- واحتياجات السوق العالمية؛
- ونشاطات المنظمات الدولية؛
- ونشاطات كبريات المؤسسات والشركات الأجنبية المهتمة بالتعاون مع جمهورية أوزبكستان.

وفي ١٩٩٦/١١/٢١ تم إحداث المركز الإعلامي في ديوان رئيس الجمهورية، لتعريف الرأي العام بالإصلاحات الديمقراطية الجارية في الجمهورية، والتجاوب مع التفاعلات الاجتماعية والسياسية المحلية والدولية، عبر شبكة الإنترنت.

ومع انتشار مفهوم العلاقات العامة في العالم سارعت مؤسسات التعليم العالي في مختلف دول العالم لافتتاح أقسام لتدريس مادة العلاقات العامة في جامعاتها ومعاهدها وكلياتها المتخصصة.

وتعد العلاقات العامة الدولية اليوم وظيفة من وظائف المنظمات الدولية، ويمارسها في منظمة الأمم المتحدة، مكتب الإعلام في نيويورك من خلال العلاقات الخارجية والصحافة والمطبوعات والخدمات العامة، التي تعرض من خلالها المشاكل التي تواجه منظمة الأمم المتحدة، وخلق

فهم أفضل لأهداف المنظمة. كما وتمارس مكاتب منظمة الأمم المتحدة في العالم العلاقات العامة الدولية من خلال الاتصال بالمنظمات غير الحكومية في الدول المعتمدة فيها، في جميع المجالات الثقافية والفنية والعلمية والتعليم والصحة والعمل ...إلخ. وتوزيع الأفلام وبرامج الإذاعتين المسموعة والمرئية والمطبوعات، والإدلاء بالتصريحات الصحفية في إطار مساعيها لخلق تفهم أفضل عن منظمة الأمم المتحدة.

وزاد دخول شبكات الكمبيوتر العالمية عالم الاتصال المعاصر من دور العلاقات العامة الدولية، وزاد من اهتمام الشركات متعددة الجنسية بالعلاقات العامة الدولية عبر شبكات الاتصال الدولية، واعتمادها عليها في العلاقات التجارية والمصرفية والنقل والتأمين، وتبادل المعلومات على الصعيد الدولي. وتساعد العلاقات العامة وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية في الحصول على المعلومات والمواد الإعلامية، مما يزيد من إمكانية انتشارها على الصعيد العالمي. ولعل منافذ وكالات الأنباء والصحف والمجلات والإذاعات المسموعة والمرئية، والمراكز الإعلامية الدولية عبر شبكة الإنترنت، خير مثال على تحول العالم في المجال الإعلامي بالفعل إلى قرية كونية. والعلاقات العامة الدولية كوظيفة لم تستثنَ من وظائف السلك الدبلوماسي، وأصبحت من المهام الأساسية للبعثات الدبلوماسية المعتمدة في الخارج، وفق ما تسمح به إمكانيات كل دولة من دول العالم.

العلاقات العامة وإدارة الأزمات

عند تعرض الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني لأزمات تهدد مقدرتها على المنافسة والاستمرار في أداء وظائفها، وفي الوقت الذي تتعرض فيه لنقد الشرائح الاجتماعية والقوى السياسية المختلفة ووسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية اللاذع تأخذ العلاقات العامة أهمية خاصة، لأن مصالح القوى والشرائح الاجتماعية مرهونة بنجاح الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني أو فشلها في أداء الوظائف المنتظرة منها.

وتعتبر الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني الأزمات التي تتعرض لها نقطة تحول مفاجئة تؤدي إلى انهيار الاستقرار الداخلي

وتهدد المصالح والبنى الأساسية للمجتمع.

وينتج عن تعقد العلاقات الدولية المتشابكة نتائج غير مرغوبة تفرض على الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني ضرورة اتخاذ قرارات تتبعها إجراءات محددة خلال فترة قصيرة لمواجهة الأزمات في وقت تكون فيه جميع الأطراف المعنية غير مستعدة عملياً لذلك وغير قادرة على المواجهة ومهددة بخروج الأزمة ومشاكلها المطروحة للتداول عن نطاق السيطرة، وسرعان ما تتلاقى الأحداث، وتتشابك الأسباب ليفقد أصحاب القرار بدورهم قدرة السيطرة على مجريات الأمور وتصريف الأمور في الهيئة أو المؤسسة المعنية وعلى اتجاهاتها المستقبلية.

ولهذا جرت العادة أن تقوم الحكومات وإدارات مؤسسات المجتمع المدني في ظروف الأزمات بتشكيل مجموعات عمل خاصة لإدارة الأزمات ومواجهة آثارها المحتملة والتخفيف من نتائجها، وتعنى مجموعات العمل تلك بإدارة الأزمة والبحث عن طرق للتغلب عليها والتخفيف من ضغوطاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية والعسكرية والتحكم بمساراتها واتجاهاتها وتجنب سلبياتها مستفيدين من الإيجابيات الممكنة والمتوافرة لتحقيق أقصى قدر من المكاسب في أقصر مدة والحدّ من الخسائر لأدنى حدّ ممكن.

وتستخدم مجموعات العمل لأداء العمل المطلوب منها كل المقدرات المتاحة لوظائف العلاقات العامة، لماذا؟

لأن وظائف العلاقات العامة تتضمن طرقاً للحيلولة دون حدوث أزمات والتغلب عليها في حال حدوثها ضمن ما يسمى بـ (إدارة الأزمات).

ويبدأ العاملون ضمن مجموعات العمل من خبراء العلاقات العامة والباحثون في الشؤون الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والإعلامية، والعسكرية، الاهتمام بالقدر اللازم بالأزمة ومجرياتها ومضاعفاتها، بهدف البحث عن إمكانيات لفعل شيء ما حيال مجريات الأزمة وتحليل أسبابها ومصادرها، آخذين في اعتبارهم آخر منجزات علم إدارة الأزمات الذي بدأ بالتطور مع ظهور نتائج التطور العلمي والتكنولوجي، التي أسهمت بتقديم وسائل وأدوات متطورة للتعامل مع الأزمات وإدارتها،

والاتصال بغرض جمع المعلومات وتحليلها، ليتمكن خبراء العلاقات العامة والباحثين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية والعسكرية من القيام بدور كبير وفعّال لمواجهة الأزمات والتغلب عليها والتخفيف من تبعاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على البيئة المحلية.

والمبدأ الأساسي للاتصال خلال الأزمات هو المحافظة على قدرة الاتصال والتواصل مع الجمهور المستهدف لأن الاتصال خلال الأزمات يكون أكثر فاعلية منه في أي ظرف آخر، ويمكن خبراء العلاقات العامة من الحصول على معلومات سريعة لتحليلها وتقدم معلومات إيجابية عن الأحداث الجارية تخدم أهداف الحملات الإعلامية المخطط لها بدقة لوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية بسرعة كبيرة ودون انتظار أن تطلب وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية تلك المعلومات بهدف الحد من الشائعات والتصدي للطروحات المعادية، وتهدئة الأوساط الاجتماعية والسيطرة على مستجدات الأزمة والحيلولة دون بروز أية تعقيدات جديدة للأزمة.

ولتحقيق أهداف العلاقات العامة في ظروف الأزمات لا بد:

أولاً: من وضع حد نهائي وفوري للأزمة.

وثانياً: الإقلال من الخسائر إلى الحد الأدنى.

وثالثاً: إعادة الثقة بالمؤسسة المعنية.

ويعد تخطيط العمل أحد الشروط الهامة للنجاح والسيطرة على تداعيات الأزمة دون أية مفاجآت غير منتظرة. وهنا يؤكد خبراء العلاقات العامة أنه من الضروري أن تقوم المؤسسات المعنية بتقويم أداء وفعالية قنوات الاتصال عند نشوب الأزمات وخاصة قنوات الاتصال مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية. والحصول على أجوبة كافية على جملة من الأسئلة الهامة أهمها:

١- ما الفائدة المرجوة التي يمكن أن تجنيها الهيئة أو المؤسسة المعنية من خلال تعاونها مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وقنواتها المختلفة؟

٢- ما الفائدة المتوقعة من تزويد وسيلة اتصال وإعلام جماهيرية معينة بمعلومات دقيقة طلبتها عن الهيئة أو المؤسسة صاحبة العلاقة؟

٣- مــا درجــة المخاطــرة التــي تقدم عليهــا الهيئــة أو المؤسســة المعنية من نشر تلك المعلومات عبر وســيلة اتصــال وإعلام جماهيرية معينة؟

٤- مــا الفوائد والمصــالح التي تجنيها وسيلة الاتصــال والإعلام الجماهيرية تلك من إيصال المعلومات التي تحصل عليها من الهيئة أو المؤسسة إلى ساحتها الإعلامية؟

٥- وبنيــة وتركيبة الســاحة الإعلامية التي تتوجه إليها وســيلة الاتصال والإعلام الجماهيريــة المعنية وإلى أي مدى تهتم تلك البنية والتركيبة بمصالح الهيئة أو المؤسسة صاحبة العلاقة؟

٦- مــا مدى اســتجابة قــادة الرأي في القطاعــات المســتهدفة لما تطرحه وســيلة الاتصال والإعلام الجماهيرية تلك؟

٧- ما مــدى ملائمة طروحات الأنظمة والقوانــين المعمــول بهــا، ومــدى تلبيتها لاحتياجات المجتمع قبل نشرها؟

٨- هــل هناك وســيلة اتصــال وإعلام جماهيرية أفضــل لنشر المعلومــات المقرر توجيههــا إلى ســاحة إعلاميــة أو شريحة اجتماعية معينة؟

وكل ذلك من أجل تحقيق أفضــل صورة من التعاون بين مجموعات العمل المختصــة بإدارة الأزمات ووســائل الاتصال والإعلام الجماهيريــة كأفضــل وســيلة للاتصــال بالشرائح الاجتماعية المستهدفة من الحملة الإعلاميــة المعــدة بدقة لمواجهــة الأزمات من قبل إدارة العلاقات العامة في المؤسســة المعنية.

وترتبــط عمليــة الاتصــال في ظروف الأزمات، بالتقديرات الدقيقة التي يضــعها الخبراء للمخاطر، والفوائد المتوقعة من نشر المعلومــات، لأن فاعلية المعلومات المنشــورة ترتبط بالقــدر الذي تؤخذ فيه النصــائح المقدمة من كبار الخبراء، والمتخصصــين العاملين في مجال العلاقات العامة.

وتفرض الأزمات عادة اتباع طرق معينة مرتبطة بخصــائص المشكلة لمواجهة الأزمة مــن دون تقديم ضــمانات تكفــل الخروج السريــع من الأزمــة التي تواجههــا الهيئة الحكومية أو مؤسسة المجتمع المدني اعتماداً على خبرات الخبراء والمتخصصين العاملين في مجال العلاقات العامة للخروج من الأزمة من خلال العوامل الرئيســية التي يمكن أن

تضمن نجاح عملية الاتصال خلال الأزمة والتي تعتمد على:

١- وجود خطة محددة للاتصال من ضمن الخطة العامة المرسومة للتغلب على الأزمة؛

٢- تشكيل فريق متخصص لمواجهة الأزمة عند نشوبها؛

٣- تسمية شخص محدد للقيام بدور الناطق الرسمي لطرح البيانات الإعلامية والصحفية طيلة الفترة التي تمتد خلالها الأزمة، من ضمن معادلة: من يتحدث، ومع من يتحدث، وعن ماذا يتحدث، ومتى يتحدث، وما الفائدة المرجوة من الحديث.

وعلى مجموعات العمل المتخصصة بإدارة الأزمات عدم تجاهل العامل الاجتماعي في سياق الأزمة لأن العاملين في الجهة التي تعاني من أزمة معينة سيخوضون نقاشات من دون تفويض من الجهة المعنية مع الأوساط الاجتماعية التي يعيشون ويعملون فيها وسيردون وفق إمكانياتهم الذاتية على الأسئلة التي ستوجه إليهم من مختلف الجهات، ولهذا على ما نعتقد يجب تضمين الخطة الموضوعة إشراك العاملين على مختلف مستوياتهم وتحديد أدوارهم في تنفيذ خطة مواجهة الأزمة للوصول إلى حد يمنع التصريحات الخاصة من خارج الخطة الموضوعة عن طريق شرح مساوئها للعاملين في الجهة المعنية وأخطار بث الإشاعات من قبل غير المتخصصين بمواجهة الأزمة، والإعلان عن الجهة المختصة للرجوع إليها داخل الجهة المعنية عند الحاجة، وعدم الاكتفاء بوسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية وحدها.

ولا بد أيضاً من تسمية جهة مختصة بجمع وتدقيق وتحليل وتقدير راجع صدى ومدى تأثير التصريحات الرسمية وغير الرسمية والشائعات واقتراح أساليب محددة للتعامل معها طيلة فترة الأزمة، لأنه من المعروف أن التصريحات الرسمية يقوم بإعدادها خبراء مختصون متفرغون لمواجهة الأزمة يساعدهم مستشارون في المجالات القانونية والإعلامية بشكل مركزي وبتفويض من إدارة الجهة المعنية في الأزمة توخياً للحذر والدقة للوصول إلى الأهداف المرسومة.

آخذين بعين الاعتبار ضرورات الصراحة

والعلنيـة في التصريحـات، وتجنب نشـوء نزاعات قانونية قد تثير أزمات قضائية غير متوقعة من تلك التصريحات، لأن الخصوم يتمسـكون عادة بحرفية مـا أعلن لتحقيق أهدافهم من إثـارة الأزمات، لأن الصراحة والعلنية من مسـوغات مواجهة الأزمات من خلال وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، وهـو ما أكده روبـرت ديلينشـنايدر المدير السابق لإحدى كبريات الشركات المتخصصة في العلاقـات العامة في الولايـات المتحدة الأمريكيـة بقوله أنه: «على المؤسسـة التي تتعرض لأزمة الخروج إلى الجمهور مباشرة بعد الإعلان عن الأزمة عبر قنوات الاتصال ووسائل الإعلام الجماهيرية».

وبرأينا هـذا لا يمكن أن يتم دون ناطق رسـمي متخصـص في مجـالات العلاقات العامة يتحرك داخـل وخارج الجهة المعنية في الأزمة على حد سواء.

ودور الناطق الرسـمي عادة يسند لمدير الجهة المعنية بحكم وظيفته، ولكن الجهات المعنية خـلال الأزمات كثيراً ما تلجأ لتعيين ناطق رسـمي متخصـص في مجال الأزمة الطارئة قادر على تقديـر أهميتها وآثارها المحتملـة وله إلمـام كامل بطرق الاتصـال والحوار مع الجمهور المستهدف والتعامل مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

وعـادة ما يكـون الناطق الرسـمي من أعضاء فريق العمل لمواجهة الأزمة، ومراعاة أن يكـون هنـاك أكثر من بديل لاسـتبدال الناطـق الرسـمي خلال فـترة الأزمة دون تعريض خطة الخروج من الأزمة لأية هـزات قد لا يحمد عقباها.

وأن لا ينسـى مديـر الجهـة المعنية في الأزمـة اختيـار الناطق الرسـمي من بين أكثر الأشـخاص قبولاً مـن قبل القطاعات المسـتهدفة من الخطة المعـدة للخروج من الأزمـة لأنه على عملية اختيار شخصـية الناطـق الرسـمي تتوقف النتائج السـلبية والإيجابية لعملية إدارة الأزمة.

ويأتـي دور العاملين في الجهـة المعنية في الأزمة ضـمن الخطة الموضـوعة رديفاً ومكمـلاً لعمل الناطق الرسـمي في حال لو أحسن فريق العمل مواجهة الأزمة، والعمل في أوساط العاملين في الجهة المعنية لإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم على مصائرهم التي تهددها الأزمة العابرة، أولاً، ومن ثم رسـم

دور واضح لهم في عملية الاتصال الجارية مع الأوساط الاجتماعية الذين هم جزءٌ منها والاستفادة من عملية نقلهم لراجع الصدى الإعلامي للبيانات والتصريحات التي يسوقها فريق العمل من خلال نشاطاته لمواجهة الأزمة والخروج منها وما يدور حول الجهة المعنية في الأزمة من شائعات وأقاويل لأن مصير الجهة المعنية في النهاية هو مصيرهم ومستقبلهم أيضاً وما يعنيها يعنيهم بشكل مباشر.

خاصة وأن من مهام العلاقات العامة لدى الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني على الدوام العمل على تعزيز الثقة بين الإدارة والعاملين في الجهة المعنية وتعزيز الثقة المتبادلة بين الجهة المعنية وجمهورها، ومضاعفة العمل خلال الأزمات التي يتعقد خلالها سلوك قيادة الجهة المعنية ومرد ذلك بعض العناصر التي أشار إليها المتخصص الأمريكي بوب كاريل وهي:

١- صعوبة تحديد أبعاد الأزمة لحظة وقوعها؛

٢- وصعوبة تحديد الجهات التي قد تطالها الأزمة؛

٣- وصعوبة تفسير أسباب حدوث الأزمة التي قد تطالهم في بعض الحالات حتى نهاية الأزمة؛

٤- واستمرار شعور الأوساط الاجتماعية التي تمسها الأزمة بالخطر؛

٥- وتضخيم الشعور بالخطر في الأوساط الاجتماعية المعنية بالأزمة من خلال انتظارهم للخبر اليقين الذي ينتظرونه؛

٦- واتخاذ القرارات بنشر أخبار تفرض نفسها من خلال الأزمة في حالة من التوتر الشديد؛

٧- وضرورة تقوية العوامل الانفعالية في سلوك من تمسهم الأزمة.

فيما يؤكد أكثرية خبراء العلاقات العامة على أن سلوك الإدارة خلال الأزمات يتحدد من الانغلاق أو الانفتاح الذي تنتهجه الإدارة المعنية ومن فهمها للبعد النظري للثقافة الجماهيرية ومدى تلبيتها لمطالب الأوساط الاجتماعية الداخلية والخارجية للجهة المعنية. والأولويات التي تضعها للاتصال بالأوساط الاجتماعية المعنية بالأزمة مركزياً وهامشياً، ومن الثوابت في مواجهة الأزمات:

١- أن الأوساط الاجتماعية تتناقل الخبر عن طريق قنوات الاتصال الشخصي بين الأفراد بشكل سريع حتى قبل نشره في وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية، مثال: وقوع انفجار في مصنع للكيماويات قريب من مناطق سكنية يسكنها العاملون في المصنع المذكور، أو وقوع كارثة في منجم تسكن أسر العاملين فيه بمنطقة قريبة من المنجم؛

٢- ميل البشر لتفسير مدى الأزمة وتأثيرها من منظورهم الشخصي والأخطار التي تهدد الحياة وكلها عوامل موضوعية أكثر منها ذاتية؛

٣- هيبة المصادر الحكومية التي هي أكثر تأثيراً من المصادر الأخرى على الأوساط الاجتماعية؛

٤- قياس جدية وحجم واتساع الأزمة من قبل الأوساط الاجتماعية، اعتماداً على مدى تغطية وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية لتداعيات الأزمة؛

٥- توفير الأخبار عن الأزمة عبر وسائل اتصال وإعلام سهلة الانتشار، للحد من الشائعات ومساعدة الأوساط الاجتماعية على تقدير الأوضاع بدقة.

ويبقى أن نقول ختاماً أن إدارة الجهة المعنية بالأزمة هي المسؤولة بالكامل عن التغلب عليها من خلال تقديرها لمواقف الجهات الأخرى من الأزمة، وعلى نجاحها في إدارة الأزمة والتغلب عليها، ويتوقف على مدى ثقة الآخرين بها، وعلى التعامل مع وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية.

آفاق المعرفة



المترجمون واختراع الأبجديات

ترجمة: د. ملكة أبيض ⊙

يولد الكائن الإنساني ويموت منذ أربعة ملايين عام تقريباً، ولكنه عرف الكتابة منذ أقل من ستة آلاف عام. ذلك أن الكتابة بدأت بشكل متواضع في بلاد ما بين النهرين لتلبية حاجات المحاسبة في الزراعة والتجارة. على أن الكتابة المسمارية لم تبق الشكل الوحيد للكتابة مدة طويلة. فقد انتشرت أشكال أخرى منها في مصر والصين. وفي كل مكان، بقيت هذه «الهبة السماوية» من اختصاص نخبة، طائفة أرستقراطية مقتدرة، فالأساطير

⊙ باحثة ومترجمة وأستاذة في جامعتي دمشق وصنعاء سابقاً.
العمل الفني: الفنان مطيع علي.

المصرية تعزو اختراع الكتابة للإله «توت»، مستشار الآلهة وكاتبها، إضافة إلى كونه «إله المعرفة، واللغات، والسحر». وكلمة «هيروغليف» تعني «نقشاً مقدساً».

ومع الكتابة وُلد التاريخ، ونشأت الترجمة. فقد اكتشف علماء الآثار مفردات «سومرية . إيبلاوية (نسبة إلى إيبلا)»، على ألواح من الفخار تعود إلى 4500 سنة (Dalnoky 1977). وهذه القوائم ثنائية اللغة تشهد على نشاط بعيد في مجال الترجمة. وسرعان ما غدت الكتابة الحامل المفضل للعقود التجارية، والتعاليم الدينية، والحقوق، والأدب.

كان الكتبة سادة اللغة، والتعليم، والترجمة في الحضارات القديمة. وكانوا يحتكرون الوظائف الإدارية، والعلوم الدينية والمدنية سواء بسواء. مما يعني، من دون شك، أنهم أسهموا في اختراع الكتابة، ولكن اسمهم ضاع في عتمات الأزمنة.

حوالي ألف عام قبل الميلاد، اخترع الفينيقيون الأبجدية، على الأرجح في بيبلوس (وهي الآن جبيل، شمالي بيروت). وهذا الاختراع يمثل ثورة حقيقية. فبفضل التجريد الأبجدي، أعني تسجيل الأصوات، صار يكفي لممارسة الكتابة معرفة ثلاثين حرفاً، بدلاً من استذكار مئات، بل ألوف أحياناً من الرموز أو الرسوم المعقدة. وكون الفينيقيين تجاراً وبحارة، جعل أبجديتهم تنتشر لدى الشعوب المحيطة بالبحر المتوسط. والأبجديات الآرامية، والعبرية، واليونانية، والقبطية، والعربية، تشتق جميعها من الفينيقية.

كان اليونانيون أول من فكر في تثبيت الحروف الصوتية بغية تسجيل جميع أصوات لغتهم خطياً بمنتهى الأمانة. وفي سبيل تحقيق ذلك استخدموا رموزاً تمثل حروفاً صامتة في الأبجدية الآرامية: y، O، E، A. أما حرف i فهو من اختراعهم. مثله مثل ألواح الشمع. وهذه الأبجدية اليونانية أعطت بدورها الأبجدية اللاتينية في القرن السابع ق. م.، بوساطة «الأترورية Etrusque» على الأرجح.

وينظر إلى ظهور الأبجدية على أنه بداية لديموقراطية المعرفة وتعميمها (1987 Jean).

يقدر علماء اللغة وجود أكثر من ستة آلاف لغة محكية حالياً على وجه الأرض. ولكن اللغات التي تملك تقليداً مكتوباً لا تزيد على عدة مئات. أضف إلى ذلك، أن الكتابات المحلية تنحسر لصالح الأبجدية اللاتينية، لأن علماء اللغة يعتمدونها، ثم يستخدمون علامات (توضع فوق الحرف أو

تحته) للدلالة على الأصوات المميزة للغاتهم المحلية.

وخلال الرحلة الطويلة لاختراع أشكال الكتابة، ليس من السهل دوماً تحديد الدور الذي أداه المترجمون بدقة. على أننا نعرف بعض الأسماء. وخلال هذا المقال نود التذكير ببعض المترجمين الذين أسهموا في وضع أبجديات لشعوبهم، وفيهم «ولفيلا Wulfilla» مخترع الأبجدية القوطية (القرن الرابع، بلغارية)، و«مسروب ماشتوتس Mesrop Machtots»، مخترع الأبجديات الأرمنية، والألبانية، والجيورجية (القرن الخامس، أرمينية)، والراهب «جيمس إيفانز James Evans» مخترع نظام الكتابة المقطعية «كري» (القرن التاسع عشر، كندا).

ولفيلا والتعليم الديني للقوط:

ولد ولفيلا نحو 311، في رومانية على الأرجح. وأجداده لأمه من نسل مساجين رومان مسيحيين، جلبهم القوط من كابادوكيا في النصف الثاني من القرن الثالث.

وجدير بالذكر أن القوط يشكلون الفرع الشرقي للشعوب الجرمانية التي استقرت منذ القرن الثاني في حوض نهر الفستولا، وعلى الساحل الشمالي للبحر الأسود. وقد استمروا في محاربة الإمبراطورية الرومانية حتى احتلال الويزيغوت، أو القوط الغربيين، لروما بقيادة زعيمهم ألاريك Alaric، وهدمهم لها عام (410).

هذه الظروف التاريخية تبين لماذا حصل ولفيلا على تربية مسيحية على الرغم من أنه عاش في وسط وثني. وحين بلغ الثلاثين، أصبح قارئاً خلال المراسم الدينية. وهذه الوظيفة كانت تشمل دراسة الكتاب المقدس، مما أهله بصورة مباشرة لأعماله القادمة في الترجمة. وحوالي عام 340، جرى رسمه أسقفاً على يد «أوسيب Eusebe» (نحو 260-340) الذي اعتنق المذهب الأرياني، وكان واحداً من أقوى الشخصيات تأثيراً في عصره.

وهكذا تم تكليف ولفيلا برعاية الجالية المسيحية التي كانت تعيش داخل شعب الويزيغوت، وتتألف بدرجة رئيسة من أحفاد السجناء المسيحيين الذين ينتمون للطبقات المحرومة. فمارس مهماته خلال سبع سنوات، وعمل على نشر المذهب الأرياني.

وعلى إثر ملاحقة موجهة ضد المسيحيين (عام 348) اجتاز ولفيلا الدانوب، يتبعه أنصاره، ولجأ إلى الجنوب، في الأرض الرومانية. هذه الهجرة أعطته لقب «موسى الجديد»، وأفضت به إلى الاستقرار بالقرب من نيكو بوليس، في المدينة الحالية (ترنوفو)

في بلغارية. فبقي فيها ثلاثة وثلاثين عاماً.

لقد أيقن ولفيلا أن ترجمة الكتاب المقدس هي الأداة التي لابد منها لينشر التعاليم المسيحية. وبدا له أن ذلك يقتضي بالضرورة اختراع أبجدية، فقد كانت القوطية لغة محكية فحسب.

وفي سبيل تسجيل الأصوات استعار ولفيلا حروفاً من اليونانية، واللاتينية، والكتابات الجرمانية القديمة (الرونية). وهنا لا يجب الخلط بين الحروف السبعة والعشرين لأبجدية ولفيلا والكتابة الألمانية القوطية وهي مجرد تحويل خطي للأبجدية اللاتينية.

بدأ ولفيلا يترجم الكتاب المقدس بمساعدة فريق من أعوانه. وهذه المهمة الضخمة شغلته طوال ولايته التي دامت أربعين عاماً. ونظراً لمعرفته بطبيعة القوط المحاربة، فقد أغفل ترجمة كتاب الملوك، لأنه خشي من أن تثير الأوصاف العديدة للمعارك أهواءهم الحربية. فقد كان مواطنوه، بحسب ما يرى، شديدي النزوع للحرب، والالتحاق بحملات السلب والنهب.

في هذه الترجمة، استند ولفيلا إلى النص اليوناني، واتبعه بدقة من حيث الكلمات والنحو. وكثيراً ما اضطر إلى اختراع كلمات جديدة في لغته. «.. وبهذه الترجمة، جعل ولفيلا نفسه مؤسساً لأدب قوطي، يمكن عن طريقه متابعة تطور اللغة الجرمانية خلال خمسة عشر قرناً.. ومن اللغة التي صممها، دخلت مفردات عديدة إلى جميع اللغات الجرمانية، كالهولاندية، والإنجليزية، والألمانية». (Van Hoof ،1990).

في عام 380 بادر الإمبراطور تيودوس الذي أعلن المسيحية ديناً للدولة إلى التشريع ضد الأريانية التي رفضها مجمع نيقية عام (325) بصفتها بدعة، على أنها بقيت تحظى بتسامح من الأباطرة. على أن هذا الإمبراطور صب اللعنة على أتباع هذا المذهب ووصفهم بالمارقين. فدُعي ولفيلا للدفاع عن معتقداته في القسطنطينية. ولكن أعضاء المجمع لم يسمحوا له بالكلام. بعدئذ أصابه المرض، وتوفي (عام 382 أو 383) عن عمر يناهز السبعين.

كتب الأسقف ولفيلا الكثير، ولاسيما حول الأريانية، ولكن قلة من وثائق ذلك العصر وصلت إلينا. ومن الشواهد النادرة للغة القوطية، لدينا مقطع من ترجمته للإنجيل وهو Codex Argenteus الشهير، الذي يعود إلى القرن السادس، على رقّ أحمر مع حروف مطلية بالفضة والذهب. هذه الوثيقة الثمينة محفوظة في مكتبة جامعة إبسالا (في السويد). وإنجيل ولفيلا يمثل أقدم وثيقة

بلغة جرمانية حظيت بقدر من الانتشار. وهذا العمل، كما يقول المختص (هيرفيغ ولغرام، 1988) أسهم في إلهاب الحماسة الدينية لدى المعتنقين الجدد للمسيحية، ونشر المذهب الآرياني بين القوط، والحفاظ على هويتهم الإثنية.

مسروب ماشتوتس، الوجه البارز في أرمينية:

تؤكد الكنيسة الأرمنية، منذ القديم، أصولها المرتبطة بالحواريين. ويبدو أن التبشير بالمسيحية قام على يد اثنين من حواريي المسيح الاثني عشر وهما: القديس بارتيلمي، وعلى الأخص القديس جود Jude.

وفي بداية القرن الرابع، وبدافع من غريغوار التنويري (نحو 240-326) اعتنقت المملكة المسيحية. وقد حصل التبني الرسمي للمسيحية في أرمينية ممثَّلاً بتعميد حوالي أربعة ملايين من المسيحيين خلال عدة أشهر (عام 314)، بعد تشريع مرسوم ميلانو بقليل؛ ذلك المرسوم الذي سمح الإمبراطوران الرومانيان كونستانتين وليسينيوس بموجبه باعتناق العقيدة المسيحية في الإمبراطورية، من دون أن يجعلاها العقيدة الرسمية لها.

ولم يتأخر القديس غريغوار في بناء كاتدرائية «ايتشميازين Etchmiadzine» على أساسات معبد وثني، فكانت الكاتدرائية المسيحية الأولى.

هذا التبني للمسيحية حدَّد مصير الأرمن: فموقعهم في مقدمة الغرب المسيحي، جعلهم يحملون شعوراً قوياً باستقلال معنوي، وإحساس عميق بوحدتهم، وحيوية عارمة على الصعيد الثقافي. ولكنهم عاشوا في الوقت نفسه في عزلة رهيبة، خلال معاناتهم ضغوطاً من الفرس، والعرب، والأتراك، على التوالي.

كان تعليم الكتاب المقدس يتم في أرمينية، في البداية، باليونانية والسريانية. وخلال الطقوس الدينية، كان هناك لجوء للترجمة الشفوية. وهاتان اللغتان، كانتا الوحيدتين اللتين تملكان كتابة. وكانتا لغة الإدارة العامة أيضاً. كما كانت الفهلوية تستخدم أحياناً. لذلك كان على لغة الكتابة بالضرورة أن تكون لغة ترجمة بشكل أساسي.

في تلك الحقبة الزمنية، كانت أرمينية تحت الاحتلال الفارسي. ولم يكن الفرس يحبذون انتشار الأحرف اليونانية في الأراضي الخاضعة لحكمهم لئلا تخدم مصالح بيزنطة. وكانت الكتابة السريانية الوحيدة التي تلقى قبولاً لديهم. كما أن استخدام اللغات الأجنبية في مجالات

الثقافة والإدارة يحمل نتائج خطيرة. من هنا كان إيجاد أبجدية أرمنية يفرض نفسه بشكل حاد.

وقد أسهم مسروب ماشتوتس (360-441)، خلال حكم فرام. جابوه(392-414) إسهاماً جوهرياً في الثقافة الأرمنية باختراع الألفباء الأرمنية، ما بين 392 و406.

يعود مسروب بأصله إلى هاتسيكاتس، في إقليم «تارون». وقد شغل في البداية بعض الوظائف الإدارية والحربية في المستشارية الملكية للأرساسيديين. كان على معرفة جيدة باللغات، وكان يتكلم اليونانية، والفارسية، والسريانية، إضافة إلى الأرمنية. ولما كان قد انخرط في حياة الرهبنة، فقد راح يتابع نشر المسيحية في ولاية استمرت فيها الوثنية، وهي ولاية سيونيك «كاراباخ حالياً»، وأنشأ فيها أحد أديرته الأولية. ثم وسّع تبشيره إلى مقاطعة «غوتا» شرقي ناخيشتيفان. ولكن كان يصعب عليه الوعظ بالأرمنية، لعدم وجود



ترجمة للكتاب المقدس بهذه اللغة. فاستشار بطريرك الكنيسة الأرمنية «ساهاك بارتيف» بهذا الصدد.

كانت فكرة إعطاء شكل كتابي للغة الأرمنية تلوح في الجو. وكان هناك أسقف سرياني باسم «دانييل» يملك وثائق غزيرة عن أبجديات عديدة، وكانت العناصر الآرامية تسيطر على إحداها. فبدأ ماشتوتس وساهاك بارتيف يُعلّمان هذه الأبجدية

لأطفال صغار. ولكن التجربة فشلت خلال سنتين: فهذا الأسلوب في الكتابة لا يجسد بدقة أصوات اللغة الوطنية. وهذا ما جعل مسروب ماشتوتس يتابع بحوثه في سورية، والرها، ثم في عامودة. وهناك أو في أنطاكية تمكن من إعطاء شكل كتابي لكل صوت محدد. ثم راح يحسّن رسم الحروف في سميساط (في تركيا الحالية) برفقة خبير يوناني بالخطوط يسمى هروبانوس (1973، Grousset). ولدى عودته إلى أرمينية، كان يملك جميع العناصر الضرورية لتشكيل أبجدية من ستة وثلاثين حرفاً، بإضافة حرفين نحو نهاية القرن الثاني عشر. وبذلك تم تكوين الأبجدية الأرمنية الكلاسيكية نهائياً.

لقد تبنى مسروب الطريقة اليونانية في تشكيل الحروف، ورسم الحروف الصوتية، واتجاه الكتابة من اليسار إلى اليمين بعكس السريانية واللغات السامية الأخرى.

إن تفاصيل هذه الاستعارات ما تزال موضع جدل، ولكن النظام الأرمني في جوهره الفبائي، ويوناني. إنه يوناني، جرت عليه إضافات، شأنه شأن القوطي أو السلافي. فكما أن النظام القوطي يوناني أضيفت إليه حروف لاتينية ورونية، فإن النظام الأرمني يوناني أضيفت إليه حروف سامية. (Peeters 1929).

إن أبجدية ماشتوتس أداة تتمتع بدقة صوتية جميلة: اثنان وعشرون رمزاً تقابل تماماً الحروف اليونانية، وأربعة عشر رمزاً تفيد في تسجيل الأصوات الخاصة باللغة الأرمنية.

ما إن حصل مسروب وساهاك بارتيف، وتلامذتهما على أبجدية، حتى بدأوا ترجمة الكتاب المقدس إلى الأرمنية. وفي سبيل الحصول على نصوص يونانية كاملة، أوفد ساهاك بارتيف مسروب والأسقف دينت إلى بلاط الإمبراطور تيودوز الثاني (في القسطنطينية). وبين 431 و435 أوفد ساهاك بارتيف ومسروب إلى الرها اثنين من تلامذتهما، وهما إزنيك وهو فسيب، ليعيدا ترجمة الكتب المقدسة من النصوص السريانية إلى الأرمنية. ثم اجتاز هذان الشخصان فيما بعد إلى الأراضي البيزنطية، حيث تعلما اليونانية، في سبيل الترجمة من هذه اللغة. كما أن مترجمين آخرين انضموا إلى إزنيك لتوسعة الفريق وهم: ليفون دوفاناند، وكوريون سكانشيلي الملقب بالرائع. وحين أتموا مهمتهم غادروا الإمبراطورية البيزنطية إلى الوطن الأم، وقد حملوا معهم نسخاً من الكتب المقدسة،

ونصوصاً للآباء، وقرارات مَجْمَعَيْ نيقية وإيفيز.

خلال ذلك كان ساهاك بارتيف ومسروب ماشتوتس قد ترجما أساسيات الكتب الكنسية استناداً إلى نسخ يونانية ناقصة. وحين وصلت النسخ المجلوبة من القسطنطينية أتيحت لهم إعادة النظر في محاولات الترجمة الأولى.

وقد أدت ترجمة الكتاب المقدس بشكل كامل إلى نشر التعليم وتبني الدين المسيحي نهائياً في أرمينية. وحين انتهت هذه المهمة، وضعت النخبة المتعلمة مشروعاً تعليمياً شديد الحداثة، يتمثل في تعليم كل أفراد الشعب بإنشاء شبكة من المدارس العامة. وبهذا العمل كان يرجى بناء هوية سياسية وثقافية قوية تسمح بمواجهة المحاولات التي كانت تبذل من طرف اليونان والفرس لتمثل الأرمن وهضمهم.

يشكل اختراع الأبجدية بداية العصر الذهبي للآداب الأرمنية. فقد أضيفت إلى ترجمة الكتب المقدسة ترجمة للمؤلفات الكبرى التي كانت تشكل الثقافة العالمية في التاريخ، والفلسفة، والرياضيات لمؤلفين مثل أرسطو، وأفلاطون، وزينون، وأوسيب كما تم تأليف آثار جديدة في جميع المجالات: التاريخ، والجغرافية، والرياضيات، والفلك، والكون، والطب. وبفضل ماسروب ماشتوتس، وساهاك بارتيف، كوّن الأرمن رأسمالاً فكرياً غنياً، وأسهموا إسهاماً ثقافياً أصيلاً في ثقافة الغرب والشرق.

وبحسب مقولة منقولة عن «كوريون»، يراها الباحث «جورج دوميزيل» جديرة بالثقة (Grausset 1973)، إن مسروب ماشتوتس، صمم بعد اختراعه الأبجدية الأرمنية، أبجدية أخرى لصالح الألبانيين. وهذه الأبجدية فقدت خلال فترة طويلة، ثم عثر عليها في مخطوط محفوظ في إيتشميادزين. كما يعزى لمسروب اختراع الأبجدية الجيوروجية، ولكن لا يوجد إجماع بهذا الصدد بين المؤرخين. ومن الممكن أن يكون مثال مسروب قد شجع الجيورجيين والألبانيين على إيجاد أبجدية وطنية لهم، دون الحاجة لأن يعزى هذا العمل إلى العالم الأرمني مسروب؛ كما فعل «كوريون»، وهو تلميذ مسروب ومؤرخ سيرة حياته، بسبب إعجابه الساذج بأستاذه (Dedeyan 1982).

بعد وفاة مسروب ماشتوتس عام 441 بقليل، كتب كوريون سيرة حياته. وهذه السيرة تمثل المؤلف الأول الكبير باللغة الأرمنية. وبسبب من إعجاب التلميذ الهائل بمعلمه، تحوّلت إلى تاريخ لقديس، ولا سيما

خلال وصف الكاتب وصول مسروب المظفر إلى كاتدرائية «فاكارشـابات»، التي تسـمى «ايتشـميادزين»، وهو يحمـل بيده ترجمته لكتاب «الأمثـال». ويقارن كوريون أسـتاذه المترجم بموسـى وهـو يهبط جبل سـيناء حاملاً ألواح القانون.

إن الحماسة الشعبية التي تحيط بمسروب ماشتوتس والأهمية المعطاة للموضوع الثقافي ما تزال تغذي المخيلة الشعبية الأرمنية مثل نبـع الماء المتدفـق. وهذا يتجسـد في عيد «التاركمانشـا» أي المترجمـين، وهـو عيد يترافق مع العودة المدرسـية السنوية، ويكرّم المترجمـين، والكتّـاب، والمعلمـين، وبكلمة واحدة، أولئك الذين يؤدون رسـالة النهوض بالأمة وتنشـئة الأجيـال الصـاعدة. وما تزال صور ماشـتوتس، وهو الرمز الوطني الحقيقي، وأبجديته تزين أغلفة العديد من المطبوعات المدرسية.

وفي كاتدرائيـة ايتشـميادزين، هنـاك قطعة سجاد جدارية صنعها الرسام غريغور خانجيان عام 1985، وهي تصـوّر بطريقة ملحمية كيفية تقديم الأبجدية في بلاد الملك فرام. شابوه. وفي عاصمة أرمينية «يريفان» يقف نصـب جليل لمسروب ماشـتوتس أمام المكتبة الوطنية «مادينا تاران» يحمل اسمه. ويحتفظ في هـذه المكتبة بأكـثر من عشرة آلاف مخطوط نادر تعدّ كنزاً وطنياً لا يقدر بثمن.

جيمس ايفانـز والهنـود «الكري» في كندا:

في مكان وزمان أقرب إلينا، عام 1840 في كنـدا، قام مبشر. مترجم آخر في ظروف مختلفة أشـد الاختـلاف، باخـتراع نظام للكتابة في سبيل دعم عمله الديني والتربوي لدى هنود الغرب الكندي. إنه راهب منهجي «Methodiste» اسـمه جيمس ايفانـز (1801-1846). وهـو إنجليزي الأصـل، هاجـر إلى كندا عام 1822، وبدأ حياته في العالم الجديد معلماً في قرية في ولاية أونتاريو الشرقية، وحين اعتنق المذهب المنهجي ذهب للتعليم في مدرسة لصغار الهنود عند بحيرة رايس، غير بعيد عن تورونتو.

كان محباً للغات، يتفهمها بشـكل جيد. «كانـت أذنـه مرهفة فيما يتعلـق باللغات، وموسيقيتها، ولفظها، وجعل ذلك اختصاصاً لـه». (Burwash 1911). من هنا فإنه لم يتأخر في تعلمه لغة «السوتو Le sauteux»، وتسجيلها بحروف لاتينية، وترجمتها. حتى إنـه فكّر في طباعة مَسْرد للكلمات الهندية. وبعد عام من دخوله سلك الرهبنة (1833)، نُقل الراهب الشـاب إلى إرسالية سانت كلير

في جنوب سارينا (أونتاريو) وهناك أحرز تقدماً كبيراً في معرفة اللغة المحلية.

وبناء على طلب المؤتمر الكندي للكنيسة المنهجية عام 1836، صمم نظاماً للتسجيل من اللغة السوتو باستخدام الاختزال الذي تعلمه في بلده الأصلي حيث كان يعمل في مجال «العطارة» ويتدرب على التجارة.

وفي العام التالي، سافر إلى نيويورك لطباعة مزامير ومستخلصات من الإنجيل ترجمها بنفسه، وكتيب صغير من تأليفه بعنوان: التهجئة والتفسير بالهندية (الكندية) والإنجليزية لاستخدامه في مدارس الإرسالية، ولمن يرغب في تحصيل معرفة بلسان الـ «أوجيبوي Ojibway».

اتخذ عمله التبشيري منعطفاً حاسماً عام 1840 إثر تعيينه ناظراً لمركز استراتيجي في «منزل النرويج» في الشمال الأقصى لبحيرة وينيبيغ (مانيتوبا). ذهب إلى هناك مع زوجته وابنته وثلاثة مبشرين آخرين، يعملون في نشر المسيحية بين الهنود الكري «Cris». وسريعاً ما تبين له أن عمله مع مجموعات من الهنود الرحَّل الذين يتنقلون داخل مساحة واسعة لا يمكن أن يتم بصورة مجدية دون دعم من الكتابة، وبرنامج للترجمة والطباعة.

لقد كتب يقول «كيف أستطيع التواصل مع هؤلاء الناس دون أن أتكلم لغتهم؟ إن الاتصال من خلال وسيط يشبه محاولة إيجاد طريق في غابة بوساطة ريشة». (Shiplay 1966). لذلك كان عليه، هو والهنود، التواصل من خلال الكتابة. ولكن معرفة الكتابة تحتاج إلى تعلم طويل، وجهد مستمر لا يستطيع بذله من بين هؤلاء الصيادين إلا قلة.

هذه الفكرة ألحت على إيفانز، حتى أضحت وسواساً له. وتساءل «لم لا نخترع لهم طريقة أخرى في تعلم القراءة أبسط من أبجديتنا القديمة التي يتطلب التمكن منها وقتاً طويلاً؟» (Young 1899). وخلال شهرين أنجز الأبجدية المقطعية «كري» على غرار تلك التي اخترعها للغة السوتو. فكل عمل يمكنه الاستمرار مع السكان الأصليين يقوم بالدرجة الأولى على اختراع نظام للكتابة يناسب لغتهم. ذلك أن الكتابة والترجمة تجعلان من الممكن نشر المعرفة، وتسهمان في إطلاق عملية تربية للجمهور، وهي مرحلة لابد منها في كل تقدم.

والذي يعطي قيمة كبرى لأبجدية جيمس إيفانز بساطتها المدهشة. فهي تقوم في الواقع على تسعة رموز (مثلثات، وزوايا، وأقواس، وعقفات أو كلاّبات إلخ..) وكل من هذه الرموز يمكن تمثيله في أربعة أشكال:

اتجاه إلى الأعلى، إلى الأسفل، إلى اليمين، إلى اليسار. هذه الرموز التسعة تكفي لتسجيل الأصوات الستة وثلاثين التي تتكون منها موسيقا لغة الكري. أضف إلى ذلك إشارات تشبه الحركات لتدل على الأحرف الصامتة في نهاية الكلمات.

يتميز نظام الكتابة هذا بخلوه من قواعد الإملاء والنحو، مما جعله يحرز نجاحاً فورياً. إذ يكفي لتلميذ لامع يوم واحد ليتعلمه. والواقع أن أحد السكان الأصليين الأذكياء، الذي تعلم الأبجدية في الصباح، كان قادراً على قراءة الإنجيل قبل مغيب الشمس في اليوم ذاته، وأن الآخرين لم يحتاجوا إلى أكثر من أسبوع في المتوسط ليعتادوا على الرموز ويتمكنوا من القراءة (Mclean 1890). وقد شعر الهنود الذين لم يسبق لهم الالتحاق بمدرسة ما، بالدهشة لاستطاعتهم تعلم القراءة في فترة قصيرة كهذه، دون أن يتطلب الأمر منهم جهداً طويلاً مضنياً. وهذا ما جعل «بروس بيل» 1977، يقول: «إن الأبجدية المقطعية للغة «الكري» للسيد إيفانز تعد اختراعاً عبقرياً». وهكذا لقب الراهب. المترجم «الرجل الذي يجعل لحاء شجر البتولا يتكلم»، لأنه كان يسجل رموز أبجديته على لحاء ذلك الشجر، نظراً لعدم توافر الورق لديه. وبدلاً من الحبر كان يستخدم الدخان الذي يغطي الجدران الداخلية للمدافئ.

على أن جيمس ايفانز لم يكفه اختراع أبجدية جديدة واستخدامها مع تلاميذه وخلال الطقوس الدينية، بل كان يريد طباعة ترجماته الخاصة وترجمات مساعديه: رجل الدين ويليام مايسون، وزوجته صوفيا توماس، وجون سنكلير، والهندي السوتو هنري ب. شتينهاور. وهذان الأخيران ترجما الكتاب المقدس إلى لغة (الكري) بين 1843 و1850. واهتمامه **الجديد** تمثل في صنع رموز متحركة. لقد أجرى محاولات عديدة ولكنها باءت بالفشل. ولكنه، بفضل إصراره على روح الإبداع لديه، استطاع خلال السنة الأولى التي أمضاها في منزل النرويج، طباعة سبعة كتيبات مستعيناً بحروف غير متقنة، مصنوعة من الرصاص المستخرج من أطراف علب الشاي. واستخدم الدخان المخلوط بزيت الأستروجين، بدلاً من الحبر. واستفاد في الطباعة من رافعة ذات براغي، يستخدمها صناع الجلود لإصلاح حزم الفرو. وعلى الرغم من هذه الوسائل البدائية، نجح هذا الـ «غوتنبرغ» الكندي بطبع مئات النسخ من ترجماته.

كان أول كتاب أنتجه على هذا النحو مطبوعاً على لحاء شجر البتولا. وكان مجلّداً

بجلد الأيّل، ومخيطاً بأوتار الحيوانات، والمطبوعتان الأكبر حجماً من هذه البداية البطولية للطباعة (الكري)، في المناطق المحرومة من خليج هدسون تتكوّنان من ست وعشرين صفحة، تضمان كتابين للمزامير.

وتمر خمس سنوات قبل أن تصل إليه من انجلترا مطبعة خشبية حقيقية عام 1845، ولكنها وصلت متأخرة. فإن جيمس ايفانز لم يعش طويلاً ليرى أبجديته المقطعية تنتشر عند الأقوام الأصليين في كندا، من خليج هدسون إلى الجبال الصخرية. يكفي أنه حرث، وأن آخرين سيحصدون.

ويبدو أن الحَدَث الذي أطلق نهايته الباكرة كان موت معلمه ومترجمه المفضل «توماس هاسال» الذي قتله صدفة بطلقة من بندقية صيد وهو يجتاز إحدى البحيرات. كما صعب عليه تحمل الكراهية المفتوحة التي كان يبديها له حاكم شركة خليج هدسون. فقد جعل منه عدواً لدوداً له باعتراضه القوي على عمل يوم الأحد؛ إضافة إلى الإشاعات عن سلوكه الأخلاقي، والتي كانت تؤثر فيه بعمق: فقد اتهم بأنه يقيم علاقات جنسية مع هنديات شابات كان يؤويهن عنده. ولدى التحقيق تبين أن هذه الإشاعات غير صحيحة. وهكذا تدهورت صحته، وكان يعاني من مشكلات في القلب والكلى. وحين استدعي للعودة إلى انجلترا، حصلت له نوبة قلبية، ومات على إثرها في 23 ك1 1846. ولا شك أنه كان سيكون سعيداً لو أمسك بيديه الكتاب المقدس الكامل الذي ترجمه، وطبعته الجمعية الوطنية الإنجليزية للكتاب المقدس، بعد وفاته بخمسة عشر عاماً.

إن الأحداث المأساوية التي أغرقت السنة الأخيرة من حياته بالظلمة، لا يمكن أن تغطي على أهم منجزاته وهي: اختراع كتابة مقطعية مناسبة كلياً لتسجيل اللغة «الكري». فقد انتشرت هذه الكتابة لدى المجتمعات الأصلية، إلى حد تبني المذاهب الدينية المنافسة لها، ومنها: الأنكليكان (جمعية الإرساليات الكنسية)، والكاثوليك (رهبنة مريم العذراء). كما تم تكييف الأبجدية المقطعية الكري مع لغة قبائل الإينويت Inuit في الشمال على يد جون هوردون وإ. والكينز. وهكذا تمكن إدموند بيرك من ترجمة عدة كتب من الإنجيل منذ 1876 إلى لغة الإينوكتيكوت.

ويشهد الاستخدام المستمر لنظام كتابة جيمس إيفانز حتى الآن، وبعد مرور أكثر من مئة وخمسين عاماً على الأهمية الاستثنائية لعمل المترجم.

تحدثنا في هذا المقال باختصار عن ثلاثة

مترجمين. مخترعين لأبجديات. فهؤلاء الذين يخترعون نظماً للكتابة يوسعون الحدود التي يمكن للمعارف أن تنتشر عبرها، وتقدم عناصر حضارية وقيماً جديدة. إنهم يتيحون نشوء آداب، والمحافظة على تراث ثقافي؛ ويبدأون نشر التعليم وديموقراطيته، وبذلك يفتحون أبواب التقدم الثقافي والاجتماعي والروحي.

صحيح أن الأبجدية كانت حاجة لم يستطع العديد من المبشرين تجنبها في عملهم لنشر الدين. ولكن استخدامها وإشاعتها تجاوز العمل الديني في جميع الأحوال. فالكتابة ليست هبة سماوية كما كان يعتقد خلال زمن طويل، ونحن نعرف أن الفضل فيها يعود إلى المترجمين في معظم الأحيان وهم بإنشائهم أنظمة للكتابة يقدمون إلى مجموعة بشرية، أو إلى شعب كامل، عماداً للتقدم، وإمكانية للنمو والتفتح عن طريق تطوير الحياة الفكرية.

ونحن نستطيع أن نطبق على ولفيلا، ومسروب ماشتوتس، وجميع مخترعي الأبجديات المجهولين، ما قاله الحاكم العام لكندا «اللورد دوفرين»(1836-1902) فيما يخص جيمس إيفانز: «... الرجل الذي اخترع هذه الأبجدية نعمة حظيت بها الإنسانية.. إن الأمة اعترفت بجدارة العديد من الأبطال، وكرّمتهم بلقب، أو بمعاش، أو بنصب، وهؤلاء لم يعطوا نصف ما أعطاه جيمس إيفانز لمواطنيه».

إنه تكريم «لحواري الشمال» يستحقه كل مترجم أعطى شكلاً مكتوباً للغة ما.

الهوامش

- Dalnoky, R (1977), «Une Bibliotheque d'ilya 4500 ans: Ebla, Science et vie, 716.
- Jean, G. (1987), L'Ecriture, memoire des Hommes, Paris, Gallimard.
- Van Hoof, H (1990), Traduction biblique et genese linguistique» Babel, 36.
- Wolfram, H. (1988), History of the Goths, Traduit par T. Y. Dunlop, Berkeley, University of California Press.
- Grausset, R. (1973), Histoire de L'Armenie des origines a 1071, Paris, Payot.
- Peeters, P. (1929), «Pour L'histoire de P'alphabet Armenien», Revue des etudes armeniennes, 9.

- Burwash, N. (1911), «The Gift to a Nation of Written language», Memoires de la societe royale du Canada, 3° serie, 52-.
- Shiplay, N. (1966), The James Evans story, Toronto, the Ryerson press.
- Young, E., R., (1899), «The Apostle of the North. Rev. James Evans, Londres, Marshall Brothers.

المرجع الرئيسي

- Delisle, J. & Woodworth J. (Eds), Les Traducteurs dans L'histoire; Les presses de L'universite d'ottawa, Edit. Unesco.



المراهقون بين الأسرة والمجتمع

د. محمد يحيى خراط ❁

تعريف المراهقة وخصائصها العامة:

- إن تحديدَ فترةِ المراهقةِ أمر يخضـعُ لكثيرٍ منَ العواملِ بعضُها وراثيٌّ وبعضُها جغرافيٌّ بيئيٌّ وبعضُها اقتصاديٌّ ومنها ثقافيٌّ...إلخ، ومع ذلك يمكنُ القـولُ بوجهٍ عـام إنَّ المراهقةَ مرحلةٌ من حياةِ الفـرد تمتدُّ من العمرِ ١٠- ١٨ سـنةً وهي تقابلُ فـترةَ التعليم الإعدادي والثانـوي في نظامنا التربوي، ومـن ناحيةٍ أُخرى فهي مرحلةٌ تقعُ بينَ مرحلةِ الطفولةِ والرشـدِ أي مرحلةٍ

❁ باحث ووزير سابق.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

انتقالية أشبه ما تكونُ بالجسر بين هاتين المرحلتين...! إذْ إنَّها تبدأ في نهاية الطفولة وتنتهي في بداية الرشد.

وهناك اختلافٌ واضحٌ في الأعمار فيما يخصُّ هذه المرحلة، فبعض المراهقين يبكرون في مراهقتهم أي يراهقونَ منذُ العاشرة، وبعضهم يتأخرون في مراهقتهم، وغالباً ما تظهرُ علاماتُ المراهقة في سن الثالثةَ عشرةَ أو الرابعةَ عشرة.

وعلى الرغمِ من أن النموَ عبرَ مراحل النموِ المختلفة عمليةٌ متصلةٌ مستمرةٌ متدرجةٌ فإنَّ مسارَ النموِ يكتسبُ مع بداية المراهقة معدلات أسرعَ وتغيرات أعمقَ ومظاهر أشدَّ وضوحاً، فمع بدايتِها يأخذُ الاتزانُ الجسميُّ والنفسيُّ بالاختلالِ النسبيين، وتطرأ تغيراتٌ عضويةٌ عميقةٌ تكسبُ الجسمَ بنيةً وقوةً متزايدةً وأشكالاً أكثرَ تميزاً وتأخذ عادات وأنماط السلوك الطفولية بالاختفاء وتبرز اهتماماتٌ وميولٌ جديدةٌ تشهدُ على وجود رغبة عند المراهق في توسيع أفق حياته وتزداد أحلامُ اليقظة عنده. ونظراً لما تتميزُ به مرحلةُ المراهقة من تغيرات مختلفة من حيث الشدة والسرعة والعمق والاتساع، وخصائص تكادُ تكونُ لصيقةً بها أكثرَ منْ غيرها من المراحل من بينها تمردُ المراهقين على والديهم وثورتُهم على مدرسيهم وعلى أشكالِ السلطةِ المختلفةِ، فقد اعتبرَ نفرٌ من العلماءِ أن المراهقةَ هي الميلادُ الثاني للفردِ وهي الميلادُ النفسي الفعلي له، كذات متفردة لذلك يتحدى المراهقُ طفولتَهُ بثقة مطلقة بذاته ويثورُ على عالمِ الكبارِ ويرفعُ رايةَ الاستقلالية.

الخصائصُ العامةُ لشخصيةِ المراهقِ:

- يكونُ المراهقُ عندَ بدايةِ المراهقة أشبهَ بالطفل منهُ بالراشد ذلك لأنهُ ما زالَ يلعبُ كثيراً ويركضُ ويقفزُ ويثيرُ الضجةَ هنا وهناك، وهوَ غيرُ جسورٍ وفي غايةِ النشاط وهو انفعاليٌّ في كلِّ ما يقولُ، ويصدرُ عنهُ نشاطٌ موزعٌ وأفكارٌ طائشةٌ وميولهُ واهتماماتُه غيرُ ثابتة، وليسَ من السهولةِ ترويضُ رغباته وكبحُ جماحِها، ولكنَّ هذا المظهرَ الخارجيَ للطفولةِ عندَ المراهقِ مظهرٌ خادعٌ، إذْ من السهلِ أنْ تكتشفَ أنَّ وراءهُ عملياتِ نموٍ معقدةٍ وعميقة تهيئُ لظهور مستوىً أو مستوياتٍ جديدةٍ وراقيةٍ من النمو، وهذا هو السببُ الذي يجعلُ المراهقَ ينضجُ بشكلٍ خاطفٍ نسبياً مع بقاءِ كثيرٍ من علاماتِ الطفولة لديه، ذلك لأنَّ عمليةَ النضجِ (الرشد) لا تظهرُ دوماً على السطحِ أو لا تظهرُ جليةً في السلوكِ الخارجيِّ.

وإنَّ كثرةَ وتنوعَ المكوناتِ السلوكية

عند المراهق وعدمَ انسجام هذه المكونات مع الخصائص المميزة لشخصية الطفل وسلوكه ودوره في المجتمع، تشيرُ إلى أن المراهق يبدأ بمغادرة الطفولة وبالتالي يسرعُ الخطى باتجاه المستقبل، وهنا تبرز سماتٌ وخصائصُ جيدةٌ يجب تنميتَها ورعايتَها وأخذَها بعين الاعتبار في عملية تربية المراهق. وفي حال عدم التقدير لأهمية هذه الاتجاهات الجديدة في النموّ في أثناء مرحلة المراهقة، فإن الجهودَ التربويةَ المتنوعةَ قد لا تؤدي الغرضَ المرجوَ منها وبالتالي قد يمرُّ نموُّ شخصية المراهق بمرحلة حرجة تصلُ حدَّ الأزمة أحياناً أو يمرُّ بصورة عشوائية بمرحلة هامة جداً من مراحل النمو. ويؤكد العلمُ الحديثُ أن مرحلة المراهقة هي منعطفٌ خطيرٌ في حياة الإنسان وهي مرحلةٌ عنيفةٌ من الناحية الانفعالية حيثُ تختلجُ في نفس المراهق ثوراتٌ تتميزُ بالعنف والانفعال.

- فالمراهقُ في تلك المرحلة يثورُ لأتفه الأسباب، وتتميزُ انفعالاتهُ بالتقلب وعدم الثبات، وهناك ميزةٌ أخرى تتصلُ بانفعالات المراهق وهي أنَّهُ إذا أُثير أو غضب لا يستطيعُ التحكمَ بالمظاهر الخارجية لحالته الانفعالية.

- ويعتقدُ علماءُ النفس أنَّ حساسيةَ المراهق الانفعاليةَ ترجعُ إلى عدم قدرته على الانسجام مع البيئة المتمثلة بالأسرة والمدرسة والمجتمع.

- ويفسرُ المراهقُ كلَّ مساعدة منْ قبل والديْه على أنَّها تدخلٌ في أموره وأنَّ القصدَ من هذا التدخل هو إساءةُ معاملته والتقليلُ من شأنه.

ويأخذُ بالاعتراض على سلوك والديه بأشكال متعددة منْ أهمها:

العنادُ والسلبيةُ وعدمُ الاستقرار والاتجاهُ إلى بيئات أخرى يجدُ منفذاً فيها للتعبير عن حريته المكبوتة. ومنَ الأمور التي تسببُ قلقَ المراهق واضطرابَهُ هي شعورهُ بأن الأسرةَ تطلبُ منْهُ تحمّلَ بعض المسؤوليات فهوَ في نظر والديه لمْ يعدْ طفلاً. فيُظهرُ المراهقُ نوعاً من التمرد نحوَ الوالدين وتمرداً آخرَ نحو مسؤوليته في المدرسة.

مشكلات المراهق الانفعالية:

١- المشكلات العاطفية: وتتناولُ علاقات المراهق مع الجنس الآخر، ويأتي الحبُّ في الطليعة كحاجة أساسية لتحقيق الذات والاستقرار العاطفيِّ.

والحبُّ يعني البحثَ عن الحنان والقبول والاتحاد معَ الآخرينَ.

ومن حالات الحب المطروحة عند الشباب نجد:

- الحبَّ الخائفَ والخجولَ وعدم الجرأة على المصارحة والتعبير، فالشابُّ يبقى متعلقاً لسنوات بفتاة دونَ أنْ يبوحَ لها بحبه وكذلكَ الأمرُ بالنسبة للفتاة.
- الزواجُ المبكرُ وسوءُ التفاهم والتكيف، فالفتاةُ يزوجها أهلُها لرجل غير مناسب لها كأنْ يكونَ أكبرَ سناً منها ويحرمونَها من متابعة الدراسة، وليسَ لها الحقُ في الاختيار وتقرير المصير.
- الحبُّ المأساويُ والذي ينتهي بالصدمة لأنَ البداية لم تكن سليمةً وغير قائمة على أسس واضحة فقدْ يتعلقُ الشابُّ بفتاة ما وفجأةً تتزوجُ بالرغم عنها من رجل آخرَ.
- الحبُّ الأفلاطونيُ: فقدْ يتعلقُ الشابُّ بفتاة مرَّت بالقرب منهُ أو أنّه يراها باستمرار في الطريق أو منَ النافذة ويكفي أنْ تبتسمَ لَهُ ليشعرَ بالفرح والسعادة.

وإنَّ هذه الحالات المطروحة تجدرُ الإشارةُ إليها عند فقدان الحبِّ والحماية داخلَ الأسرة، فعندما يرى المراهقُ حالات التوتر والاضطرابات داخلَ الأسرة يشعرُ بأن حظَّهُ منَ الحبِّ والرعاية الأبوية فُقدَ فيلجأُ إلى اتجاه آخرَ يمكنُ أن يحقق له هذا الحبَّ.

٢- المشكلات العائلية:

- إنَّ الكثيرَ منَ الأمراض النفسية حصيلةُ العائلة المريضة والمجتمع المريض فإذا كانت الصلةُ داخلَ الأسرة قائمةً على التذمر والخوف فإنَّ المراهقَ سيحملُ مرضَ الأهل منْ عدة أجيال ولا نعلمُ كيفَ سيواجهُ الحياةَ، ويتحملُ المسؤوليات. وعندئذ يشعرُ المراهقُ بالاضطهاد أيْ إنَّهُ شخصٌ غريبٌ عَنْ نفسه وعائلته ومجتمعه.

ومن المشكلات العائلية المطروحة:

- الشعورُ بالنبذ والاضطهاد كالفتاة التي تشعرُ بالفتور العاطفيِّ من جانب الأهل عندما تعاملُها أمُها كطفلة صغيرة.
- الشجارُ والسلوكُ العصابيُّ عندَ الأبوين وهذا الشجارُ يحوِّلُ المنزلَ إلى جحيم لا يُطاقُ.
- جوُّ العائلة المشحونُ بالتعقيد والذي يحاولُ الأهلُ من خلاله تدميرَ استقلالية ابنهم ويسحقونَ استقلاليتهُ وهويته ويريدونَ منه أنْ يبقى في مرحلة الخضوع والتبعية لسلطتهم.
- وفاةُ أحد الأبوين وخاصةً الأمُ ففي هذه الحالة يتكوّنُ فراغٌ عاطفيٌّ عندَ الأبناء وخاصةً في السنوات الأولى من حياة المراهق.
- الفقرُ وعجزُ الأهل بسبب تقدم



السنِ والمرضِ وهذه الحالاتُ تضعُ المراهقَ في وضعياتٍ قاسيةٍ، فهوَ يشعرُ بالخوفِ واليأسِ. وهذه الظروفُ مجتمعةً غالباً ما تنعكسُ على مردودِهِ وتحصيلِهِ الدراسيِّ.

- التزمتُ الأعمى الذي هو سلسلةٌ من التقاليدِ القاسيةِ بالنسبةِ للفتاةِ وهناك قسمٌ من الأهلِ يعارضونَ تعليمَ الفتاةِ وخاصةً في المراحلِ المتقدمةِ ولاسيما المرحلةَ الجامعيةَ.

٣- المشكلات الدراسية:

- ترتبطُ هذه المشاكلُ بطبيعةِ النظامِ التعليميِّ من جهةٍ، وبظروفِ الطالبِ النفسيةِ والعائليةِ من جهةٍ أخرى.

ومن أهم المشكلات المطروحة في هذا المجال:

- الصراعُ بينَ مستوى المأمولِ ومستوى الواقعِ، فالطالبُ يريدُ أن يدرسَ الطبَّ أو الصيدلةَ أو الهندسةَ ولكنَّ درجاتِه في الشهادةِ الثانويةِ لا تسمحُ لهُ بذلكَ. فينشأُ لديهِ شعورٌ بالخيبةِ واليأسِ، وهو بالتالي سوفَ يدرسُ فرعاً لا يتلاءمُ مع طموحاتِهِ ورغبتِهِ.

- الشرودُ وضعفُ الذاكرةِ وهيَ حالاتٌ شائعةٌ لدى الطلابِ وهذه الحالةُ آتيةٌ منَ الصراعِ النفسيِّ وتناقضِ الرغباتِ

والاهتمامات بالإضافة على عدم تلاؤم الظروف العائلية.

- وهناك الخوف المسبق من الرسوب وعدم التأكد من حصول الطالب على الدرجات المطلوبة التي تخوله دخول كلية معينة.

أيْ إنَّ تحصيل المعرفة عند الطلاب المراهقين لا يحقق لهم الشعور بالقوة والامتلاء والنمو. لأنَّ هذا التحصيل قائمٌ على عنصر الخوف والقلق. كالخوف من الرسوب والخوف من عدم القدرة على تأكيد الذات.

- الحرمانُ من متابعة الدراسة بسبب التزمت الأعمى وخاصة بالنسبة للفتاة أو بسبب الظروف العائلية الصعبة التي تعيشها الأسرةُ والتي تتمثل بـ (وفاة - فقر - مرض).

علاقات المراهقين بالمجتمع:

١- المراهق والأسرة:

- هناك أسرٌ تكونُ العلاقةُ بينَ أفرادها حميمةً إلى أقصى حَدٍّ. وفي هذه الأسرة يطرحُ الأبناءُ مطالبَ منطقيةً وجازمةً. ويبرزُ في تلكَ الحالِ توجهٌ مهمٌ جداً وهوَ أنَّ المراهقينَ يلعبون دورَ الريادة في طَرْحِ آراءٍ تتعلقُ بأمورِ الحياةِ المهمةِ ويسعونَ غالباً لتأكيدِ الذاتِ.

- وهناكَ أسرٌ تكونُ ميسورةَ الحالِ فهؤلاء يراقبونَ بدقةٍ سلوكَ أبنائهم ويسعونَ لممارسةِ تأثيرهم في حياةِ أبنائهم. ويتميزُ المراهقُ في تلكَ الحالِ باللباقةِ والتسامحِ لكنَّهم (المراهقون) ضعفاءُ تجاهَ مسألةِ تأكيدِ الذاتِ.

- وهناكَ أسرٌ تلجأُ إلى أساليب غير صحية وغير تربوية تتمثلُ بعدم احترام المراهقِ وعدم الثقة به ومراقبته مراقبةً شديدةً. إنَّ مثلَ هذا النضج يقودُ بالضرورةِ إلى المشاحنات مع الأهلِ. أيْ إنَّ موقعَ المراهقِ في الأسرةِ يتحددُ بالجوِّ المحيطِ به في هذه الأسرة.

٢- المراهق وزملاؤه:

- من واجبِ المراهقِ أن يحترمَ زملاءَه وألا يستغلهم لمصلحته وألا يفرضَ نفسهُ عليهم، وعليه أنْ يحترمَ الممتلكاتِ الشخصيةَ للآخرينَ وأنْ يتحملَ المسؤوليةَ ويسهمَ في مناقشاتِ الجماعةِ ومشروعاتها. وأنْ يكونَ لديه مجموعةٌ من الأصدقاءِ ولا تقتصرُ علاقاتُه عليهم وأن يتفادى التمييزَ بين الناسِ على أساسِ من الفروقِ المصطنعة. كما عليه أنْ يكونَ موضوعياً.

- وأنْ يواجهَ العداءَ بالتفكيرِ المنطقيِّ وأن يفهمَ الأسبابَ التي تدعو الغيرَ للتصرف بصورةٍ معينةٍ ومحددةٍ.

- وعليه أن يتحكمَ في انفعالاته وألاّ يخضعَ لأهوائه ونزعاته ورغباته في تسيير مسار حياته.

انحرافات المراهقين وأسبابها:

- إنَّ مجملَ شروط الحياة وما تنطوي عليه من صعوبات وما تجرُ إليه من إحباطات هيَ التي تقودُ المراهقَ وغيرَ المراهق إلى الانحرافات والجنوح، على أنَّ المراهقَ في السنِّ التي تبرزُ عندهُ إمكانياتٌ كبيرةٌ جسديةٌ وعقليةٌ تخرقُ النظامَ العامَّ.

- بهذا الصدد تشيرُ الدراساتُ إلى أنَّ نسبةَ المراهقينَ من المنحرفينَ والجانحينَ في بعض المجتمعات هيَ نسبةٌ مرتفعةٌ بالنسبة إلى مجموع السكان فقد بينت بعضُ الدراسات التي أجريتْ في الولايات المتحدة أن من ٤٠-٦٠٪ من نزلاء السجون تقلُّ أعمارُهم عن الخمس والعشرين سنةً.

أما الأسبابُ التي تدفعُ المراهقينَ للانحراف والجنوح فيمكن الإشارةُ إلى أهمها على النحو التالي:

١- رغبةُ المراهق للانفلات من رقابة المنزل والانخراط في عصابات الأحداث.

٢- رغبةُ المراهق في الانخراط في الخبرات الجديدة وسهولة دفعه إليها والتغرير به

٣- الإحباطاتُ المختلفةُ: الفقرُ وعدمُ توافر الموارد المالية لتلبية الحاجات الأساسية والثانوية

٤- الفشلُ الدراسيُ والبحثُ عن مواقف لتأكيد الذات

٥- التفككُ الأسريُ بمختلف أشكاله وصوره

٦- المنازعاتُ الاجتماعيةُ

٧- إنَّ المراهقَ بسبب خصائص شخصيته وطبعه، وتوجهاته وبُنيته التي لم تتبلورْ بعد (البنيةُ الأخلاقيةُ والاجتماعيةُ والمعرفيةُ) إضافةً إلى حرمانه من إشباع حاجاته الأساسية فإنَّ هذا الحرمانَ يشكلُ الدوافعَ الحقيقيةَ لكل انحراف وجنوح، ولهذا يجدرُ بنا أن نعملَ في البيت والمدرسة لمعرفة أسباب انحراف المراهقينَ أولاً، والعمل على تجنب هذا الانحراف.

بعضُ الأساليب غيرُ الصحيحة وغيرُ التربوية التي تتبعها بعضُ الأسر:

- عدمُ احترام شخصية المراهق ومراقبتُه مراقبةً شديدةً وعدمُ الثقة به. إنَّ مثلَ هذا النهج في مثل هذه الأسر يقودُ بالضرورة إلى مشاحنات مع الأهل (بصورة مباشرة أو مقتضبة) وتنقلبُ الأمورُ إلى ضدِّها فيما يتعلقُ بمواقف المراهقينَ مع آبائهم.

- إنَّ موقعَ المراهقِ في الأسرة يتحددُ لحدٍّ كبيرٍ «بالجو «المسيطر في الأسرة، فإذا شعرَ المراهقُ بحبِّ والديْه وأنه محاطٌ بالاهتمام البالغ والعنايةِ العفوية فإنَّ مثلَ هذا الجو «الانفعالي» يؤثرُ بشكلٍ إيجابي في موقفه منَ الأسرة، وإلى حدٍّ ما من الناسِ بصورة عامة.

- إنَّ ما يحدثُ بالأسرة في الظروف الحديثة هو تحطيمٌ للمواقع التقليدية فالأبُ لمْ يعدِ المصدرَ الاقتصاديَ الوحيدَ فالظروفُ الحديثةُ قدْ خفَفتْ من حِدةِ تأثيرِ هذا وقدْ يدفعُ الواقعُ الأمَ إلى المقامِ الأولِ، إضافةً إلى ذلك تبدلُ مفهوم السلطوية الوالدية في الأسرةِ وحلَّ محلَه مفهومُ شخصيةِ الوالدينِ.

- إنَّ المواقعَ في الأسرةِ تتبدلُ بفعلِ تغيرِ الظروفِ الاجتماعيةِ والنفسيةِ السائدةِ ويتغيرُ مع ذلكَ موقفُ الوالدين من المراهقينَ وبالعكس، إلاّ أنّ الضمانَ الوحيدَ، الذي يهدفُ إلى بناء شخصية متكاملة لابدَّ منْ أنْ يعتمدَ على الوسائل الحديثة بالاعتماد على التثقيف الصحيح لوالديِّ المراهقِ المُدعَّمِ بجهودِ المؤسساتِ التربوية العاملة بالمجتمع كافةً، ولابدَّ لنا أن نشيرَ إلى أنَّ الأسرةَ تبقى المجالَ الأهمَ والأقوى في طريقِ التربيةِ الصحيحةِ.

الاهتمامات المشتركة بين المراهق والأهل:

- يستمرُ المراهقُ بطلبِ النصحِ والمشورة من والديه في الوقتِ نفسه الذي يجهدُ فيه للاستقلالِ عنهم، وعلى الرغمِ منْ رغبةِ المراهقِ منْ تأكيدِ استقلاليته فإنهُ يبقى ساعياً إلى الراشدِ ليصارحَهُ همومَهُ وآمالَهُ ومشكلاته، ويبدو أنَّ الاستقلاليةَ الحرةَ تتكاملُ مع قدرةِ الدعم النفسيِّ من جانبِ الآخرين، وإنَّه لَمِنْ دواعي غبطةِ الوالدينِ أن يريا ابنهُما ينفتحُ بعيداً عنْهما انفتاحاً يحتفظُ بكثيرٍ منْ سماتِ الماضي.

فيسعدُ الوالدُ أن يرى طفلَ الأمسِ يطولُ بحيثُ تزدادُ قامةُ الشابِ عن قامةِ والدِه، وقدْ يسعدُ الوالدانِ على وجه الخصوصِ عندما يُلِحُّ ابنهما على تأكيدِ حقوقِه وامتيازاتِه وعلى أن يكون له صوتٌ مسموعٌ في الأمورِ الماليةِ للأسرةِ.

ولابدَّ منَ الإشارةِ إلى نزعةِ الناشئِ إلى تأكيدِ ذاته وهذا ما يبعثُ السرورَ في قلبِ الوالدِ الذي تتصفُ شخصيتهُ بواقعيةٍ تدفعهُ لتقبلِ مجرياتِ الحياةِ، إلا أنَّ بعضَ الأهلِ أو جميعهم أحياناً يشعرونَ بالضيقِ والقلقِ ويعجزونَ عن تقبلِ التغيراتِ الكبيرةِ في شخصيةِ ابنهم.

ماذا يحبُّ المراهقونَ أو يكرهونَ في أهلِهم ؟.

- لا تختلفُ الصفاتُ التي يحبها المراهقُ في والديه عن الصفاتِ التي أحبَّها فيهم في عمرٍ مبكرٍ فالمراهقُ يحب أن يتقبلَهُ والدهُ كما هوَ وأن يعاملَهُ بعدلٍ ويحترمَ شخصيتَهُ المستقلةَ، وعلى الرغم منْ تشعبِ اهتماماتِ المراهقِ خارجَ المنزلِ وتعددِ خططِهِ المستقبليةِ والخاصةِ فهوَ يتلهفُ إلى المناسباتِ التي يستطيعُ فيها أنْ يؤكدَ ولاءَهُ العائليَ، ويحققَهُ بشكلٍ مباشرٍ، كالمشاركةِ في الاحتفالاتِ العائليةِ وتبادلِ الهدايا مع أفرادِ الأسرةِ وغيرها.

إلاّ أنَّ المراهقَ قد يرفضُ أموراً كثيرةً في أهلِه. وقد أشارَ أحدُ الباحثينَ في دراستِهِ التي تتناولُ الصراعَ بينَ المراهقينَ وأمهاتهم إلى أن ٦٠٪ من المراهقينَ قد اعترضوا وكرهوا في الأم ما يلي:

١- تأنيبَها للولدِ لعدمِ مراعاته آدابَ المائدةِ.

٢- انتقادَها للعاداتِ الشخصيةِ.

٣- مقارنتَها أحدَ الأخوةِ ودعوتَه للتشبهِ به.

٤- متابعتَها نتائجِ امتحانِ ولدها وتوبيخَه بسببِ علاماتٍ منخفضةٍ.

٥- اعتراضَها على المسيراتِ الليليةِ مع الزملاءِ.

٦- تدخلَها في شؤونِ ولدِها الماليةِ.

٧- إكراهَها ولدَها على تناولِ أطعمةٍ لا يحبُها.

- هذا إضافةً إلى صراعاتٍ أخرى بصددِ تدخلِ الأمِ في اختيارِ مهنةِ الناشئِ وإصرارِها على متابعةِ دراستِه. ومن الطريفِ أنَّ تذمرَ الفتياتِ من الأمهاتِ فاقَ الفتيانَ.

وفي دراسةٍ ميدانيةٍ أُجريَتْ على عددٍ من المراهقينَ تبيّنَ أنَ الذكرَ هو الأصعبُ في المعاملةِ على اعتبارِ أنَّ المراهقَ يحاولُ أن يعرضَ رجولتَهُ. ويعتبرُ نفسَهُ قد أصبحَ في سنِّ المسؤوليةِ. بينما الفتاةُ المراهقةُ تميلُ إلى الهدوءِ.

وأمّا في المدرسةِ فَقَدْ تبينَ أنَّه ليسَ ثمةَ فروقٍ في الذكاءِ والتحصيلِ بينَ الذكورِ والإناثِ وأنَّ معيارَ التحصيلِ يعودُ إلى قوةِ الإرادةِ ودرجةِ الاجتهادِ التي يبذلها كلٌّ من الجنسيْنِ.

وتبينَ أيضاً أنَّه من الخطأ إبعادُ المراهقِ عن المجتمعِ وهو في عنفوانِ الشبابِ وأولِه بل يجبُ أن تكونَ الحريةُ التي سنمنحُهُ إياها مصحوبةً بوعيٍ وإرشادٍ من قبلِ الراشدِ.

وعندَ سؤالِ أحد المراهقينَ في سن ١٤ سنةً إلى أيِّ حدٍّ (مدى) يلعبُ دورُ الوالدين في حياتِهِ وكم هو أثرُ جماعةِ الأقرانِ في إحداثِ تغيرٍ في نمطِ حياتِه؟

أجابَ بـأن والديـه متسـلطان. حيث يفرضانِ عليه المذاكرةَ الطويلةَ و ليس عندَهُ أي وقتِ فراغٍ. وبالنسبةِ لرفاقِه يشددُ الأبوان عليه في اختيارِهم ولا يلتقي بهم إلا صدفةً أي إنهُ ليس لرفاقِه أيُّ أثرٍ في إحداثِ تغييرٍ في سلوكِ حياته.

الخاتمة:

- ممـا تَقَدَّمَ نلاحـظُ أهميـةَ مرحلةِ المراهقةِ في حياةِ الفردِ وبناءِ شخصيتِه التي تميزُهُ عن أيِّ إنسانٍ آخرَ، ولا يمكنُ أن تحلَّ المادةُ مكانَ العواطفِ أو تعوضَ شـيئاً منها، ولا العواطفُ المجردةُ من المادةِ تماماً.

- فالكلُ سلسـلةٌ متكاملـةٌ لا يمكنُ قطعهُا أو فصـلُ شـيءٍ منها عـن الآخر. ومما لاشك فيه أنَّ المواقع في الأسرةِ تتبدلُ بفعلِ تغييرِ الظروفِ الاجتماعيةِ – النفسيةِ السائدةِ.

ومـعَ ذلك يتغـيرُ موقـفُ الوالدَيْن من المراهقينَ وبالعكس إلاّ أنَّ الضـمان الوحيدَ الذي يؤكدُ بناءَ شخصـيةٍ متكاملةٍ، لابُدَّ أنْ يعتمدَ على الوسائلِ الحديثةِ بالاعتمادِ على التثقيفِ الوالديِّ التربويِّ الصـحيحِ المدعمِ بجهودِ المؤسساتِ التربويةِ العاملةِ في المجتمعِ كافةً، وتبقى الأسـرةُ المجالَ الأهمَّ والأقوى للسيرِ في طريقِ التربيةِ الصحيحةِ.

مما تَقَدَّمَ فإننا نرى:

١- يجبُ على الأسرةِ كبيئةٍ أولى محيطةٍ بالمراهــقِ أن تراقبَ هذا المراهــقِ مراقبةً صحيحةً بعيدةً عن أيِّ تسلطٍ أو قسوةٍ. وأنْ تفسـحَ له المجالَ للتعبيرِ عن مواهبِه وإثباتِ ذاتِه. والسـعي به ليثقَ بنفسه أولاً وبالأسرةِ ثانياً.

٢- يتوجبُ على المدرسـةِ أن تبتعد عن النقدِ الموجه للطلاب المراهقينَ كي يشـعرَ المراهــقُ بتبـادلِ شـعور الحـبِّ بينه وبين المدرسينَ والسعيِ لإزالةِ الخوف من نفسه.

٣- يتوجبُ علينا كآباء ومعلمينَ ألاّ نكبتَ العواطفَ والمشـاعر الموجودةَ لدى المراهقِ وأن نساعدهُ من أجلِ التعبيرِ عنها.

٤- علينـا أنْ نحترمَ هـذا المراهق وأن نثقَ بإمكاناته وأن يكون أسلوبُ التعاملِ معه قائماً على الحوارِ والمناقشةِ.

٥- أنْ نفسـح لـه المجـال للتعبيرِ عن مشـكلاتهِ وأن نسـاعدَهُ ونعلمَهُ طريقةَ حلِّ المشكلات.

٦- أنْ تكونَ الحريةُ الممنوحةُ للمراهقينَ مصحوبةً بوعي الآباءِ والمربينَ.

٧- على الآباء والمعلمينَ أن يعوا قضـيةً هامةً وهي أثرُ الأقرانِ على المراهقِ فعليهم أنْ يبعدوا المراهقَ عن رفاقِ السوء وأن يعتمدَ المراهقُ على نفســه في كثيرٍ من الأمورِ. كي يستطيعَ أن يتحملَ المسؤوليةَ.

آفاق المعرفة

حرب العملات..
إلى أين ستقود الاقتصاد العالمي؟

د. قحطان السيوفي ⊙

في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية المستمرة تسبب القطاع المالي وأيديولوجية السوق الحرة.. وكذلك حرب العملات والتخفيض التنافسي لقيمها، في دفع الاقتصاد العالمي إلى وضع حرج بل وخطير.. ومن الواضح اليوم أن انخراط العديد من دول العالم في جهود تنافسية لخفض قيمة عملاتها، دعماً للنمو الذي تقوده الصادرات، قد أدخل العالم في حرب عملات من أسبابها خلل هيكلي في النظام النقدي العالمي وخاصة نظام سعر الصرف.

⊙ وزير المالية الأسبق، خبير واستشاري في الاقتصاد المالي.

لقد صور وزير مالية البرازيل (جويدو مانتيجا) بشكل واضح روح العصر النقدية الحالية حين تحدث عن (حرب عملة) ظهرت ملامحها.. في ظل خلاف ثنائي بين الولايات المتحدة الأمريكية والصين حول سعر صرف العملة الصينية (الريمينبي).. ليتحول إلى جدل عام حول العملات وتدفقات رأس المال.. وشكا الوزير البرازيلي من حرب العملات هذه قائلاً: (إننا في حرب عملات عالمية تسبب إضعافاً عاماً للعملة، وهذا يشكل تهديداً لنا، لأنه يودي بقدراتنا التنافسية).

الواقع أنه وبعد أن شهدت العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة والصين هدوءاً نسبياً في صيف عام ٢٠١٠، عاد موضوع حرب العملات الصينية إلى الواجهة بقوة كبيرة كجزء أساسي من حرب العملات التي تدور رحاها ببرودة قاسية.. وتتنافس الدولتان إلى حد يكاد يؤثر على علاقاتهم السياسية، وتعتبر سياسة سعر الصرف التي تتبعها الصين، بالاستمرار بإبقاء سعر عملتها منخفضاً، من القضايا الرئيسية في الاقتصاد العالمي، وكانت ولا تزال الموضوع الأبرز في الاجتماعات والمؤتمرات الاقتصادية الدولية.

وقد استأثر موضوع العملات باهتمام خاص في الاجتماعات السنوية لصندوق النقد الدولي، وكانت الهيمنة لموضوع الدولار والريمينبي بالتحديد؛ فالدولار اعتبر ضعيفاً دون الحد، والريمينبي مفتقراً للمرونة.. وخلف ذلك سؤال كبير حول أفضل سبيل للإدارة التعديل الاقتصادي العالمي ويبدو هذا الأمر من الناحية الظاهرية أشبه بجدل بين الولايات المتحدة والصين لوحدهما.. لكن تداعيات هذا الموضوع الهام تتجاوز حدود هذين البلدين الكبيرين..

الواقع إن أسواق العملات تعيش وسط معركة يتم فيها إطلاق النار من القوى الكبرى طرفاها الرئيسيان الولايات المتحدة والصين، وذلك على خلفية طلب عالمي ضعيف، أما الآخرون فهم عالقون في وتحت مسار الطلقات، وقد تدخلت اليابان، سويسرا، وكذا كوريا الجنوبية وتايوان في محاولة أدت، حتى الآن، إلى نجاح متباين لضبط ارتفاع قيمة عملاتها، وثمة شائعات تتحدث أن تايلاند، أندونيسيا، سنغافورة ستتبع النهج نفسه، ويبدو أن مراكمة احتياطات مالية بالعملات الأجنبية تزيد عن المستويات اللازمة.. يعمل على زعزعة الاقتصاد العالمي وأيضاً اقتصاد البلد المعني.

وهكذا يبدو الاقتصاد العالمي وكأنه على

شفا مواجهة خطيرة بشأن أسعار الصرف وهذه المسألة الهامة تمتد ويتفاعل تأثيرها مع السياسة التجارية (مثلا مغازلة الولايات المتحدة لنزعة الحمائية) كما برزت مواقف تجاه تدفقات رأس المال (القيود الجديدة المفروضة من قبل البرازيل، كوريا الجنوبية، وتايلاند) وأيضاً ارتفاع مشاعر العداء والكراهية للأجانب.. من المسؤول عن إفلات الزمام إلى هذا الحد في هذه الحرب المفتوحة وما سيحدث لاحقاً؟؟

من الواضح أن خطر تصعيد حروب العملات، والحروب التجارية مستمر الآن إنها لعبة تمارسها جميع الدول، ولابد أن يخرج منها البعض خاسراً..

حدثان تاريخيان حول العملات

النظام النقدي العالمي الحالي هو نتيجة انهيار اتفاقية (بريتون وودز عام ١٩٧١) حيث تحولت بعض الدول إلى نظام سعر الصرف المعوّم وأصبح الطلب والعرض على العملة هو الذي يحدد سعر الصرف فيما استمرت بعض الدول في التشبث بسعر الصرف الثابت أي العملة محددة بقيمة ثابتة مع عملة أخرى كما هو حال الريال السعودي والدولار.. كما تحولت بعض الدول إلى نظام سلة العملات وهو أكثر مرونة، في عام ١٩٧١ فرض الرئيس الأمريكي نيكسون ضريبة إضافية على الواردات بنسبة ١٠٪ مع انتهاء قابلية تحويل الدولار إلى ذهب.

في عام ١٩٨٥ عقد اجتماع في نيويورك (فندق بلازا) بمشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا، اليابان، فرنسا وألمانيا الغربية وقد تم الاتفاق على الدفع باتجاه تخفيض الدولار الأمريكي.

هذان الحدثان التاريخيان عكسا يومها رغبة الولايات المتحدة في خفض قيمة الدولار اليوم لدى الولايات المتحدة نفس الرغبة لكن الأمر مختلف الآن.. اليوم محور الاهتمام هو الصين (القوة العالمية العظمى المقبلة). في عهد الرئيس الأمريكي نيكسون كان وزير ماليته يقول للأوروبيين (الدولار عملتنا لكنه مشكلتكم) اليوم الصينيون يرددون العبارة نفسها بالنسبة لعملتهم (الريمينبي) وفي غياب توافق حول تعديلات العملة فإننا نرى اليوم شكلاً من أشكال الحرب النقدية العالمية.. الصين تسعى إلى إحداث انكماش في الولايات المتحدة والولايات المتحدة تعمل لإحداث تضخم في الصين وكلا الطرفين يعتقدان أنهما على حق وبالتالي لم ينجح أي منهما في تحقيق هدفه لكن بقية دول العالم تعاني.. وعندما يتصارع الفيلة من المحتمل أن يذهب بعض المتفرجين ضحايا.

إن نظام سعر الصرف العالمي قائم في معظمه على اعتبار الدولار عملة احتياطي عالمية وهذا أحد أسباب الأزمة الاقتصادية لأن السياسة النقدية تحدد تبعاً للظروف الداخلية للاقتصاد الأمريكي التي لا تتناسب عادة مع ظروف بقية دول العالم وقد أدى ذلك إلى عدم استقرار العملات وتزايد الذبذبة فيما بينها إما بسبب العوامل الاقتصادية التي تحدد سعرها أو بسبب التدخلات الحكومية وصراع السياسات النقدية بين الحكومات وبالتالي فإن النظام النقدي القائم يسهم في خلق عدم التوازن المالي بين دول العالم.

في زمن يتصف بضعف الطلب، تتبنى الدول المصدرة لعملات الاحتياطي سياسة التوسع النقدي ويأتي الرد من الدول غير المصدرة بالتداخل في العملات بالمقابل هناك دول كالبرازيل ليست من الدول المصدرة لعملات الاحتياطي ولا تفضل أن تكون من المجموعة الثانية.. البرازيل هذه تجد عملتها تحلق ارتفاعاً.

ثلاث حقائق لها صلة بحرب العملات

١- بسبب الأزمة الاقتصادية الحالية تعاني الدول المتقدمة صناعياً من ضعف الطلب ولا يزال الناتج المحلي الإجمالي في هذه الدول ذات الدخل العالمي في النصف الثاني من عام ٢٠١٠ أقل بكثير منه قبل بداية الأزمة في عام ٢٠٠٨ ويتمثل ذلك في زيادة العرض وانخفاض معدل التضخم الأساسي إلى ما يقارب ١٪ في الولايات المتحدة ومنطقة اليورو. وهذا مؤشر على الانكماش وتتطلع هذه الدول إلى نمو تقوده الصادرات.

٢- حسب دراسات معهد التمويل الدولي في واشنطن فإن حجم التدفق الصافي للتمويل الخاص الخارجي في عام ٢٠١٠ باتجاه البلدان الناشئة سيكون ٧٤٦ مليار دولار وسيعوض ذلك جزئياً بتدفق خاص صافٍ في خارج من هذه البلدان بحجم ٥٦٦ مليار دولار ويتوقع أن يكون الرصيد الخارجي للبلدان الناشئة من دون تدخل رسمي فائضاً بحجم ٣٣٥ مليار دولار.

٣- في الفترة من ١٩٩٩ إلى تموز ٢٠٠٨ ارتفع حجم الاحتياطيات الرسمية في العالم من العملات الأجنبية من ١٦١٥ مليار دولار إلى ٧٥٣٤ مليار دولار وقد تم استنفاذ نسبة من هذه الاحتياطيات لدى بعض الدول.

مسؤولية الولايات المتحدة عن المخاطر التي يواجهها الاقتصاد العالمي

إن قدراً عظيماً من هذه المخاطر تتحمل مسؤوليته الولايات المتحدة لأسباب ثلاثة:

١- إن أغلب الأسواق الناشئة تمارس عليها ضغوط لحملها على الارتفاع عن طريق التدفقات المتباينة من رؤوس الأموال. فقد عرض على المستثمرين في البرازيل عائدات تقارب ١١٪ في حين لا تتجاوز النسبة المماثلة في الولايات المتحدة من ٢٪ إلى ٣٪ ويبدو هذا وكأنه رهان في اتجاه واحد ويتوقع أن تبقى أسعار الفائدة في الولايات المتحدة منخفضة إلى ما بعد الأزمة.

٢- يلاحظ تضخم العجز في الحساب الجاري للولايات المتحدة خلال الأعوام العشرة الماضية ويعود السبب الرئيسي لرغبة صناع القرار السياسي الأمريكي بزيادة الاستهلاك المحلي.. وهذا أدى إلى تراكم الفوائد لدى الأسواق الناشئة وخاصة الصين وقد كان المسؤولون الكبار في إدارة بوش الابن يعتبرون العجز في الحساب الجاري الأمريكي بمثابة هدية للعالم الخارجي وقد تبين أن سياسات خفض الضرائب لإصلاح الميزانية كانت مجرد وهم.

٣- صافي تدفق رأس المال يتحرك من الأسواق الناشئة إلى الولايات المتحدة مع وجود فائض في الحساب الجاري لدى الأولى وعجز لدى الثانية. لكن تدفق رأس المال الإجمالي يتحرك من الأسواق الناشئة عبر البنوك الضخمة المدعومة في الولايات المتحدة وأوروبة.. وهذه البنوك ستكون مستعدة دائماً لتحصد الإيجابيات في حين يتحمل دافعو الضرائب الجانب السلبي.

الولايات المتحدة غير مرتاحة

الولايات المتحدة غير مرتاحة للطريقة السلحفاتية التي ترفع بها الصين قيمة الريمنبي الذي فك ارتباطه بالدولار في حزيران ٢٠١٠ ويدرس الكونغرس الأمريكي فرض رسوم تعويضية على الواردات الصينية التي تعتبر مدعومة بشكل غير عادل من قبل الحكومة. إن فرض الرسوم الأمريكية هذه يعتبر نوعاً من الرد الصدامي لأن الصين تميل عادة إلى التعامل مع الهواجس الأمريكية خاصة سعر الصرف من خلال الأساليب الدبلوماسية الهادئة والبطيئة حيث بادرت إلى رفع قيمة الريمنبي ١٪ بعد زيارة كبير مستشاري أوباما إلى بكين في أيلول ٢٠١٠ وهذه النسبة تعادل نصف الزيادة الإجمالية للعملة الصينية منذ شهر حزيران ٢٠١٠.

إن فرض رسوم على الواردات الصينية يؤدي إلى نتائج عكسية لأن الرسوم هذه ستمنح الصين عذراً لوقف رفعها البطيء لقيمة عملتها الوطنية في وقت تتدخل دول أخرى كاليابان لإدارة سعر صرف عملتها ولاشك أن التدابير الأحادية هذه قد تشكل

حرباً تجارية وهذا ما لا يحتاجه الاقتصاد العالمي المأزوم أصلاً.

إن رسوم الاستيراد على الواردات الصينية ستؤثر بشكل طفيف على فوائض الصين التي تراكمت نتيجة لعوامل عديدة أهمها الأجور المنخفضة والمدخرات المرتفعة وبالتالي فإن الاختلالات ستبقى ونرى انعكاس ذلك على التعافي الاقتصادي العالمي خاصة الطلب العالمي الهش ولاسيما أن الاقتصاد الصيني مستمر في الإنفاق الضئيل.

التحديات التي تواجه فرض رسوم على الواردات الصينية

إن الإجراء الأحادي من جانب الولايات المتحدة تواجهه تحديات على الصعيد الداخلي: متاعب البطالة إضافة إلى تردد وعدم ارتياح الشركات الأمريكية حيال ذلك.. على الصعيد الخارجي: قد ترد الصين بالتخلي عن سندات الخزينة الأمريكية وهذا يؤدي إلى تراجع الدولار الأمريكي كما يضر بمصالح الصين نفسها.. وقد تبادر الصين إلى الامتناع عن التعاون مع الولايات المتحدة بشأن كوريا الشمالية وإيران وهذا إجراء سياسي.

إن أمريكا منقسمة ومترددة حيال موضوع الصين والدليل على ذلك قرار وزير الخزينة الأمريكية بتأجيل الإعلان عن تلاعب الصين بالعملة وأيضاً التشريع الضعيف الذي وافق عليه مجلس النواب الأمريكي والذي يؤثر على جزء صغير من الواردات الصينية.

الصين تتدخل

الصين تتدخل مباشرة في موضوع العملات وقد وصل حجم احتياطياتها الحالية أكثر من ٢٥٠٠ مليار دولار أي أكثر من ٥٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي للصين و٣٠٪ من الاحتياطيات العالمية وهذا يشكل دعماً هائلاً للصادرات الصينية بالمقابل يرى الأمريكيون أن الصين تعمل وفق سياسة (أفقر جارك) وترد الصين أن سياستها تتمثل في إفقار الجيران الأكثر ثراءً. الصين لديها مرونة في السياسات ولكن قيادتها ملتزمة بنموذج النمو الذي تقوده الصادرات المدعومة من خلال دعم سعر الصرف. وتتذكر الصين بقلق اتفاقية (بلازا) التي ألزمت الولايات المتحدة بموجبها اليابان برفع قيمة الين وما تلي ذلك من ركود مدمر في اليابان لذلك تبقى الصين حذرة جداً من مطالبة الولايات المتحدة بهذا الصدد..

الواقع أن الصين تتدخل وتقاوم الضغوط ورفع قيمة عملتها المحافظة على أداء صادراتها بإعطائها قدرة فائقة على المنافسة.

أمريكا دفعت اليابان للانتحار المالي في أواخر القرن الماضي

عندما طالبت الولايات المتحدة اليابان برفع سعر الين في منتصف ثمانينيات القرن الماضي دفعت باليابان إلى عقد ضائع من الركود والكساد واضعة يومها حداً لهيمنة اليابان الاقتصادية وكان ذلك نوعاً من الانتحار المالي لليابان وتسبب ذلك في ارتفاع أسعار الموجودات اليابانية وأضعف قدرة الصادرات اليابانية على المنافسة حيث اختارت اليابان يومها سياسة التوسع النقدي ودخلت اليابان في عقد من الانكماش في التسعينيات تحاول أمريكا اليوم تكرار التجربة مع الصين. بالمقابل الصين اليوم تعمل للاستفادة من تجربة أمريكا واليابان خوفاً من تعرضها لما تعرضت له اليابان وبالتالي تعمل الصين لتجنب الوقوع في كارثة إذا ما استجابت للضغوط الأمريكية برفع سريع لقيمة الريمينبي.

المشهد الاقتصادي والنقدي العالمي

يشير المشهد إلى وجود فوائض ضخمة لدى الصين وبعض دول آسيا والدول النفطية وعجز هائل في الميزان التجاري الأمريكي وبالتالي فإن:

- الدول التي أفرطت في الإنفاق والاستدانة حققت عجزاً كبيراً في الحساب الجاري للولايات المتحدة والبلدان الانكلوساكسونية مضطرة للإكثار من الادخار والإقلال من الإنفاق على الطلب المحلي، وخفض القيمة الرسمية والحقيقية لعملاتها.

- الدول التي أفرطت في الادخار وتكريس الفائض الصين وألمانيا تعمل بمقاومة أي ارتفاع اسمي لقيمة عملاتها ولا تميل إلى زيادة الإنفاق على الاستهلاك المحلي.

- في منطقة اليورو المشكلة تتفاقم؛ ألمانيا تملك فوائض ضخمة قادرة على التعايش مع يورو أقوى في حين لا تستطيع دول أخرى كإسبانيا وإيطاليا واليونان.. التعايش مع اليورو القوي وهذه الأخيرة مضطرة إلى خفض قيمة عملاتها بسبب العجز الداخلي الضخم حتى تتمكن من استعادة النمو في وقت يطلب منها تنفيذ إصلاحات مالية مؤلمة.

مشهد النيران في حرب العملات

- الصين تقاوم الضغوط الأمريكية والأوروبية لحملها على التسريع بالوتيرة البطيئة التي تتبناها لرفع قيمة عملتها مقابل الدولار والمحافظة على أداء صادراتها لتكون قادرة على المنافسة.. ومن أجل تنويع احتياطياتها بدأت الصين بشراء الين الياباني والوان الكوري الجنوبي مما

قد يلحق ضرراً بالقدرة التنافسية للعملتين الأخيرتين.

- بالمقابل ردت اليابان باستئناف التدخل في النقد الأجنبي لإضعاف الين بعد توقف دام سنوات وقد أثار إعلان بنك اليابان برنامجاً جديداً لشراء الموجودات أسئلة حول نوايا سوق الصرف اليابانية.

- ردت الولايات المتحدة بدفع بنك الاحتياطي الفدرالي لشراء كميات كبيرة من السندات الحكومية في إطار سياسة (التيسير الكمي) الذي يخفض أسعار الفائدة طويلة الأجل ويضعف قيمة العملة بشكل غير مباشر.. مما أثار مخاوف أوروبة والأسواق الناشئة واليابان رغم تظاهر الولايات المتحدة بعدم التدخل لإضعاف الدولار وبدلاً من تعاون الولايات المتحدة بخصوص تعديلات أسعار الصرف والحساب الخارجي فإنها تسعى إلى فرض إرادتها عن طريق المطبعة.

- يقوم بنك انكلترا وبنك اليابان بإجراءات مماثلة للاحتياطي الفدرالي الأمريكي مما يفرض المزيد من الضغوط على منطقة اليورو بالمقابل يخالف البنك المركزي الأوروبي هذه التوجهات تخوفاً على بلدان منطقة اليورو المتعثرة.. وخوفاً من التضخم أيضاً.

أين تقف الأسواق الناشئة

ما الذي سيحدث لعملات دول الأسواق الناشئة في حرب العملات هذه؟ إن هذه الدول لديها قلق شديد إزاء ارتفاع قيمة عملاتها لذلك فإنها تميل إلى التدخل بالقوة بفرض ضوابط على رأس المال ومنع الاتجاه الصاعد لأسعار الصرف ومثال ذلك البرازيل وتايلاند حيث لا ترغب هذه الدول الناشئة في زيادة قيمة عملتها مقابل عملة الصين وبشكل عام فإن الدول الناشئة وخاصة في أمريكا اللاتينية وآسيا مرشحة لتحمل خسائر كبيرة إذا لم يتم حل أزمة حرب العملات. ولا يمكن حل هذه المشكلة دون الأخذ بعين الاعتبار مصالح الدول الناشئة.

الخيارات أمام الدول المتقدمة الناشئة

ثمة خيارات ثلاثة:

١- أن تسمح الدول بارتفاع سعر صرف عملتها وبالتالي الإضرار بقدرتها التنافسية الخارجية.

٢- تدخل في أسواق العملات وبالتالي مراكمة مزيد من الدولارات وهذا أمر قد يهدد الاستقرار النقدي المحلي ويضر بالقدرة التنافسية الخارجية.

٣- الحد من رأس المال الداخلي بفرض الضرائب والقيود على حركة رأس المال.

تاريخياً كانت الحكومات تختار مزيجاً من الخيارات الثلاثة وقد يكون مفيداً اليوم الأخذ بذلك الملاحظ اليوم أن الصين تريد فرض تعديل انكماشي على الولايات المتحدة كما تفعل ألمانيا اليوم مع اليونان وهذا أمر يصعب تحقيقه وليس من مصلحة الصين ذلك كونها دائناً كبيراً للولايات المتحدة والانكماش في الاقتصاد الأمريكي يهدد بخطر وقوع العالم في ركود اقتصادي.

المشكلة

مشكلة حرب العملات أنه من غير الممكن أن تصبح عملات الدول ضعيفة في الوقت نفسه فإذا كانت احدى هذه العملات ضعيفة فمن المنطقي أن تكون عملة دول أخرى أقوى وعلى نحو مماثل لا تستطيع كل البلدان أن تحسن صافي صادراتها في الوقت نفسه لأن المجموع العالمي يساوي صفراً بمعنى إن حرب خفض العملات التي وجد العالم نفسه في غمارها تشكل لعبة يتساوى فيها المكسب والخسارة فالمكسب التي تحققه دولة هو في الواقع خسارة لدولة أخرى.

إمكانية التنسيق والتعاون الدولي

نتساءل هنا ألا يمكن إجراء المزيد من التنسيق العالمي لمعالجة التوجه الأحادي في قضايا الاقتصاد الكلي والعملات؟ يتطلب ذلك توفر شروط من أهمها تحولات داعمة في السياسات الرئيسية بما في ذلك مفاوضات بناءة لإعادة توازن أكبر اقتصاديات العالم والتوفيق بين الرؤى المختلفة للدول الفاعلة على الساحة الاقتصادية الدولية وخاصة دول مجموعة العشرين وعلى الرغم من تأكيد مجموعة العشرين في اجتماعها الأول في أواخر عام ٢٠٠٨ على أهمية التنسيق والتعاون إلا أن قوة الدفع في الوقت الراهن في ظل الافتقار إلى أرضية مشتركة بين بلدان الفوائض والعجوزان في العالم ولا نعتقد أن اجتماع قمة العشرين في الشهر الحالي في سيؤول سيقدم الكثير في هذا المجال. رغم أن الولايات المتحدة تسعى لحشد الدول الناشئة لرفع صوتها في قمة سيؤول ضد الصين.

الخطر على حرية التجارة

المراقبون يرون أن الصين بدأت تستنتج أنه لم يعد في مصلحتها استمرار التلاعب بنظام التجارة الحرة إلى ما لا نهاية كما يلاحظ تقبل بكين المفاجئ لفكرة واشنطن الداعية لفرض أرقام مستهدفة للفوائض التجارية وبالتالي فإن الاستمرار في السير على الطريق الحالي قد ينطوي على خطر الإطاحة بنظام حرية التجارة الذي خدم الصين بشكل ممتاز وربما تضطر الولايات المتحدة في ظل أوضاعها الاقتصادية

الداخلية الحرجة وخاصة ارتفاع البطالة باللجوء إلى إجراءات حمائية وهذا السيناريو يدعو الصين للتفكير ملياً في المستقبل.

السيناريو البديل

يبدو أن معظم دول العالم بدأت تفكر بالبحث عن بديل للنظام النقدي العالمي الحالي وقد تكون مجموعة قمة العشرين مكاناً مناسباً لمناقشة ذلك لكن الولايات المتحدة تعارض بشدة نظراً لما يشكله تغيير هذا النظام من ضياع من مكاسب التي تحققها أمريكا لكون الدولار عملة احتياطية عالمية بالمقابل هناك وجهة نظر تقول أنه إذا لم يعالج الموضوع فإن الأسواق ربما تعمل على التغيير لتخفيف المخاطر المترتبة نتيجة تذبذب قيمة العملات مقابل بعضها والتي تقود إلى حل غير كفئ للاقتصاد العالمي مع ما يترتب مع ذلك من تداعيات. في المحصلة تريد الولايات المتحدة لحرب العملات إحداث تضخم في بقية دول العالم مستفيدة دائماً من كونها تملك ذخيرة هائلة فلا حدود للدولارات التي يستطيع إصدارها الاحتياطي الفدرالي وآخرها الإعلان في بداية تشرين الثاني عن إصدار وضخ (٦٠٠) مليار دولار.

من يكسب حرب العملات

الواقع يشير إلى احتمالين: إما أن تنجح الولايات المتحدة في إحداث تضخم في بقية أرجاء العالم، أو ترتفع أسعار الصرف الرسمية في بقية أنحاء العالم، مقابل الدولار ومن الممكن أن يحدث ذلك نوعاً من الفوضى الشاملة وستضطر بعض الدول الناشئة التي لا تتمتع بحماية كافية كالبرازيل وجنوب أفريقيا مثلاً إلى التعديل في حين أن دولاً أخرى محمية بالضوابط على أسعار الصرف (الصين) ستكون قادرة على إدارة التعديل بصورة أفضل من غيرها أخيراً سيكون من الأفضل بالنسبة للجميع السعي والعمل بشكل تعاوني ومنسق وربما يتاح لمجموعة دول العشرين أن تعمل شيئاً ما في هذا الاتجاه خلال اجتماعاتها المقبلة ولكننا نرى أن هناك شكوكاً كثيرة حول إمكانية توفر الإرادة الجماعية لدول مجموعة العشرين التي وجدت لمرة واحدة في أول اجتماع في هذه المجموعة بعد بداية الأزمة المالية العالمية عام ٢٠٠٨ حيث كان الجميع تقريباً يداً واحدة أما الآن وعلى ضوء تباين الآراء بين دول مجموعة العشرين ومع معارضة الولايات المتحدة للإصلاحات المطلوبة وسعيها لجعل دول مجموعة العشرين تتصارع فيما بينها يخشى

من التداعيات المحتملة لسياسة الولايات المتحدة القائمة على تأجيج الخلافات بين الدول حول موضوع العملات.. ومعارضة إصلاح النظام النقدي العالمي وبالتالي فإن النتائج السلبية للإجراءات الأمريكية المضادة في حرب العملات قد تؤدي إلى زعزعة أسس الهندسة المالية والنقدية العالمية وإلى الإضرار بالمصالح الاقتصادية لكل دولة على حدة كما قال (مارتن وولف) في الفاينانشال تايمز بتاريخ ٢٠١٠/١٠/١٦ (إن الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي في سبيله إلى أن يلقهم جميعاً على المشنقة كلاً على حده). ولا نعتقد أن الولايات المتحدة قادرة على تحقيق رغباتها الحمقاء التي ذكرها مارتن وولف؛ لأنها أصلاً غير قادرة على كسب حرب العملات المستمرة هذه خاصة في ظل حالة العجز السياسي وخيبة الأمل التي تعيشها إدارة الرئيس الأمريكي أوباما اليوم بعد خسارتها انتخابات مجلس النواب النصفية وفي ضوء استمرار اعتلال الاقتصاد الأمريكي المأزوم، وتحديات الاقتصاد الآسيوي الناهض.

آفاق المعرفة



فشل المستقبليين

يوري إيميليانوف
ترجمة: عياد عيد ⊛

هل بالإمكان إلقاء نظرة على المستقبل؟

حاول الناس منذ قديم الزمان أن يلقوا نظرة إلى المســتقبل. ومنذ نهاية الخمســينيات وبداية الستينيات من القرن الماضي وضعت هذه العملية على أساس علمي: لقد ولد علم استقراء المستقبل «الفوتورولوجيا». وبدأت تظهر كتب المؤلفين المصــيتين الواحد تلو الآخر: ج. تومســون «المستقبل المتنبأ به» (١٩٥٨)، س. غيما «قرن الفضاء» (١٩٥٩). ف. باديه «نظرة إلى عام ٢٠٠٠»

⊛ مترجم سوري.
العمل الفني: الفنان شادي العيسمي.

(١٩٦٠). كما دار النقاش بين المشاركين في المؤتمرات الدولية في أمستردام وواشنطن وغيرهما من المراكز العالمية حول ما ستكون الحياة عليه في القرن الحادي والعشرين.

جرت إحدى الندوات، التي نوقشت فيها التنبؤات المستقبلية حول تطور العلم والتقنية والمجتمع البشري ككل، في مؤتمر الجمعية الفلكية الأمريكية، الذي انعقد في واشنطن في آذار ١٩٦٦. شارك في هذا المؤتمر علماء من شتى فروع العلوم، الاجتماعية منها والطبيعية، وكذلك مهندسون وخبراء ومنظمو إنتاج. نشرت مواد المؤتمر، ثم ترجمت في الاتحاد السوفييتي وصدرت في كتاب مستقل بعنوان «عصر الفضاء. تنبؤات للعام ٢٠٠١». وقد ترجم مؤلف هذه المقالة عدداً من فصول هذا الكتاب. وهو الآن، وبعد مرور أربعين عاماً ونيف، يجد لديه المقدرة، إذ راح يقلب صفحاته، على أن يقوّم إلى أي مدى كانت هذه التنبؤات صحيحة.

رداً على السؤال الذي طرحه نائب رئيس شركة «تيليداين» ج. كوزميتسكي: «كيف سيعمل أناس عام ٢٠٠١؟» أجاب هو نفسه: «سوف يطرح إنسان عام ٢٠٠١ مسائل الإدارة على الحواسيب ذات البرمجة الذاتية، التي سوف تتخذ القرارات بنفسها، وتتحكم بالإنتاج المؤتمت، بينما سيبقى للإنسان مهمة المراقبة. سوف تبلغ الإدارة مع حلول ذلك الوقت مستوى تجعل معه الإنسان المتحرر من الاجتماعات اللانهائية والأعمال اليومية الجارية، قادراً على تخصيص وقته من أجل وضع مبادئ جديدة للإدارة، تنتقي على أساسها منظومة اتخاذ القرار الآلية أفضل الحلول للمشكلة».

يقول السكرتير التنفيذي لوكالة ناسا إ. ك. ولش: «سوف تكون المنازل الحديثة كلها وكذلك غرف العمل مجهزة بجدران تلفزيونية ملونة... وفي بعض الأماكن المنفصلة من الكرة الأرضية سوف يكون ممكنا مراقبة الطقس. المطارات والمطارات الفضائية ستكون إحدى أكثر الأماكن صحية على الأرض إذ لن يكون فوقها غيوم أو ثلوج أو ضباب؛ ستسطع الشمس نهاراً هناك، وليلاً النجوم».

كان المشاركون في المؤتمر واثقين من أن الإنسان مع نهاية القرن العشرين سيحط على المريخ، وستبنى على القمر قاعدة ثابتة، وسيظهر في الفضاء حول الشمس ما يشبه نقاط الشرطة لمراقبة الحركة النشطة بين الكواكب.



لم يكتب ذلك كتاب الخيال العلمي بل اختصاصيون في شتى فروع العلم والتقنية في ذلك الوقت. لم تشك الغالبية العظمى من المشاركين في المؤتمر في أن: البشرية عام ٢٠٠١ ستسير واثقة على طريق التقدم. أكد ج. دورنباخر نائب رئيس قسم الأبحاث الاستشرافية وتصميم الصواريخ الموجهة والمنظومات الفضائية في شركة «دوغلاس كرافت»، على أن البشرية عام ١٩٨٥ سوف تحل بنجاح المعضلات التالية: «الاتصال المرئي. تحلية مياه البحر. تنبؤات الطقس الموثوقة. إدارة الموارد الطبيعية. التحكم الفاعل بنسب الولادة. وسائل النقل السريعة المؤتمتة».

التنبؤات المتحققة

لم تكن وعود المستقبليين كلها خائبة. فالمشاركون في النقاشات التي جرت في واشنطن عام ١٩٦٦ أصابوا في التنبؤ بأن «البث عبر الأقمار الصناعية سيصير السائد في العالم كله». كما أدركوا مسبقاً قيام التعاون بين رجال الفضاء السوفييت والأمريكيين الذي بدأ منتصف السبعينات، وانطلقوا من أن الصين ستصير «أحد الأعضاء الأساسيين في مجموعة الدول الفضائية». صور أحد المشاركين في المؤتمر، وهو إ. ك. ولش، الحياة عام ٢٠٠١ على النحو التالي: «إذا ما تحدثنا عن الاتصالات فإن كل إنسان سوف

يحصل إن أراد على جهاز إلكتروني خفيف مريح، يستطيع بمساعدته التحدث في أثناء سيره إلى أسرته وأصدقائه وزملائه، وربما إلى خصومه، إذا لم يفضلوا قطع الاتصال». قيل هذا قبل وقت طويل من ظهور الهواتف النقالة.

حدثت ثورة حقيقية في وسائل الاتصال ونقل المعلومات ومعالجتها. ونما عدد الحواسيب الشخصية بين عامي ١٩٩٧ و٢٠٠٧ فقط من ٣٢٥ مليوناً إلى ٨٠٨ ملايين، ونما عدد مستخدمي الإنترنت (بالملايين) من ١١٧ إلى ١٣٤٤.

تحققت كذلك سلسلة من التنبؤات الأخرى. فنمو الاقتصاد العالمي والتطور العلمي التقني مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين لا يقبلان الشك. وتطورت على نحو عاصف جميع أشكال وسائط النقل. فظهرت في الثمانينات القطارات عالية السرعة على سكة الحديد، وصارت تمخر البحار سفن ذات سعة أكبر، ونمت صناعة السيارات ست مرات في نصف قرن بين ١٩٥٠ و٢٠٠٠- من ١٠ ملايين سيارة إلى ٦٠ مليون سيارة. ازداد كذلك عدد السيارات فإذا كان عام ١٩٨٥ قد بلغ ٥٠٠ مليون سيارة فإنه سيتضاعف عام ٢٠١١ ليبلغ المليار. ونما حجم الطيران المدني والتجاري بدءاً من عام ١٩٥٠ ستين مرة.

وكما اعتقد المستقبليون فقد انتقل سكان العالم إلى المدن بسرعة. فازداد عدد سكان المدن في العالم بين عامي ١٩٥٠ و٢٠٠٠ ثلاث مرات ونصف. وبات القسم الأكبر من سكان الأرض منذ عام ٢٠٠٨ يعيشون في المدن. ازداد كذلك عدد المدن المليونيرية من ٧٧ مدينة عام ١٩٥٠ إلى ٤٥٩ مع حلول عام ٢٠٠٨. حيث يعيش في هذه المدن (٢٠٠٨) ٤٠٪ من المواطنين و٢٠٪ من سكان الكوكب.

نمت صناعة الطاقة الكهربائية العالمية بمقدار ٢,٩ مرة بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠٠، ونما الاستهلاك العالمي لحوامل الطاقة ٤,٦ مرات. فإذا كان استهلاك العالم من النفط عام ١٩٥٠ يقدر بـ ١٠ ملايين برميل في اليوم فإنه صار عام ٢٠٠٨ يقدر بـ ٨٨ مليون برميل، أي ازداد ٨,٨ مرات. ازداد كذلك حجم إنتاج الحبوب وإن كان على نحو أبطأ فبلغ بين عامي ١٩٥٠ و٢٠٠٠ ثلاث مرات، وازداد إنتاج السمك واللحوم ٥ مرات.

زاد متوسط الدخل السنوي لسكان الكوكب بين عام ١٩٥٠ وبداية القرن الحادي والعشرين ثلاث مرات. وانعكس

نمو الاستهلاك والتطور في الطب على طول عمر الناس، الذي ارتفع متوسطه على الكوكب من ٥٦ سنة عام ١٩٧٠ ليبلغ ٦٦ سنة عام ٢٠٠٠.

صارت راحة ملايين الناس أكثر تنوعاً وأمتع وأكثر رفاهية. حيث ازداد عدد السياح الدوليين في النصف الثاني من القرن العشرين ٢٨ مرة تقريباً، أما الدخل الناجم عن هذا النوع من الخدمات فازداد ٢٣٧ مرة.

تطورت على نحو سريع التقنيات المتقدمة، التي حلم العلماء بها في بداية القرن العشرين ومنتصفه. ابتكر في العشرينات الكاتب الخيالي تشابك كلمة «روبوت» (الإنسان الآلي)، ثم كتب عنها أكثر من مرة آزيك أزيموف. فإذا كانت الروبوتات في الستينيات تصنع في بعض المختبرات المتفرقة، ففي بداية القرن الواحد والعشرين وضعت أسس إنتاجها الصناعي. صممت في الولايات المتحدة الأمريكية الروبوتات الغواصة، وفي أستراليا الروبوتات التي تحلق صوف الغنم، وظهر في اليابان الروبوت الجيولوجي القادر على استكشاف المحيطات على عمق يصل إلى ٦٠٠٠متر.

وعلى الرغم من أن الفضاء لم تتم السيطرة عليه بالوتيرة التي حلموا بها في منتصف الستينيات فإن الدراسات الفضائية لها وزنها المحسوس.

تمكن علم البيولوجيا من الإحاطة بأسرار الوراثة. وكان ثمة منجزات في الطب. في ٢ كانون الأول من عام ١٩٦٧ أجرى الطبيب كريستيان برنارد في جنوب أفريقيا أول عملية نقل قلب في العالم. بينما يُجرى اليوم كل سنة ما يقارب الستة آلاف عملية مماثلة.

عام ١٩٩٠ أضاف موظفو آي بي إم بذرات الزينون (xenon) ثلاثة أحرف لتصير شعاراً لشركتهم. وبذلك بدأت التجارب في مجال النانوتكنولوجيا. بالمناسبة إن أحد أول من وصف إمكاناتها في القرن العشرين هو الكاتب السوفييتي بوريس جيتكوف، مؤلف الرواية الخيالية «الأيادي الميكروية». لكن بطل ن. س. ليسكوف الأعسر كان قد حدد بدقة منذ القرن التاسع عشر المعايير الضرورية للتكنولوجيا الميكروية: «قال: – لو كان ثمة مجهر يكبّر خمسة ملايين مرة، لرأيتم، من بعد إذنكم، .. على كل حدوة صغيرة وقد كتب أي معلم روسي قد صنعها» لذلك، ليس تشوبايس وفريقه بل الأعسر ورفاقه هم من يمكن عدهم أول نانوتكنولوجيين.

«الأمر على الورق أسهل...»

يخيــل للمــرء أن الإنجــازات المعاصرة تتوافق مع التصورات المستقبلية التي قيلت في واشنطن قبل أربعين عاماً. لكن كان ثمة إلى جانــب التنبؤات الصــحيحة في مؤتمر واشــنطن عــام ١٩٦٦ عدد أكــبر بكثير من التنبــؤات التي لم تتحقــق. فقد أعلن ممثل شركــة «أوتونيتيكس» ك. أ. إريكه واصــفا الحيــاة بعيني إنســان عــام ٢٠٠١ قائلاً: «كانــت الأهداف العظمى للحقبة الماضــية هي مكافحة الجوع والمرض والأمية والعمل العبــودي وظروف الحياة الســيئة. الآن قد تحققــت هذه الأهــداف». كان ممثل شركة «يونايتد إيركرافت» ويملي كوريت يأمل: «في منتصف ليلة ٣١ كانون الأول من عام ١٩٩٩ ربما ســنكون قادرين على الاستمتاع برؤية ألعــاب نارية هائلة من علــى المدار احتفالاً بالألفيــة الجديدة، والتي ســوف ترمز إلى التدمير السلمي للمخزون العالمي من السلاح النــووي». تبين أن إريكــه كان محقاً في أمر وحيد. فبما أن حلــول عام ٢٠٠٠ عدَّ على نحو خاطئ في الكثير مــن دول العالم بداية الألفية الجديدة فإن الألعاب النارية أطلقت في كل مــكان. غير أن المخــزون العالمي من السلاح الصــاروخي النووي لم يدمَّر بل ظل يتطور وينتشر على الكوكب.

حــل القرن الـ ٢١، ومع بدايته وضــعت مجموعة من خبراء هيئة الأمم المتحدة قائمة «بالأخطــار المعاصرة التي تهــدد البشرية»، أحصــي فيها: الفقر، الأمراضــ الوبائية، تراجع الوسط المحيط، الحروب بين الدول، الحــروب الأهلية، العنصريــة، وغيرها من الشرور (مثلاً، الاتجار بالنساء والأطفال من أجل الاستعباد الجنســي أو الاختطاف من أجل بيع الأعضاء البشرية)، أسلحة التدمير الشامل (انتشار الأسلحة النووية والبكتيرية والكيميائية)، الإرهــاب، الجريمة المنظمة العابــرة للقوميات. وخــلال العقد الأخير لم تنتفــي هــذه المخاطر بل ازدادت وصــار تعدادها أطول.

المشــكلة الأولى في القائمة هي الجوع. إن إنجازات العلــم والتقنية، والثروات التي تكونــت بعد مؤتمــر واشــنطن توزعت في العــالم على نحو غــير متســاوٍ. حالياً ١٠٪ من ســكان الأرض يمتلكون ٨٥٪ من ثروات العالم كافة. وبلغت حصــة ٥٠٪ من ســكان الأرضــ ١٪ فقط من تلك الثروات. تحولت المدن النامية بسرعة إلى مســارح للتباينات الاجتماعية الصارخة. أشارت موللي أوميرا شيهان مؤلفة تقرير «حال العالم عام ٢٠٠٧» إلى أن قرابة مليار من عدد ســكان المدن في الكوكب، البالغ عددهم ٣ مليارات، يعيشون

في أحياء قذرة خالية من المياه النظيفة والظروف الصحية والملائمة. ١،٦ مليون من سكان المدن يموتون سنوياً لأسباب متعلقة بعدم توافر الماء النظيف وقنوات الصرف الصحي والتمديدات الصحية.

ازداد خلل العقد المنصرم الفارق في مستوى العيش الرغيد بين سكان الدول الغنية والدول الفقيرة. يفوق دخل المواطن الأمريكي متوسط الحال دخل الأفغاني متوسط الحال بـ ٥٥ مرة.

الفقر يعني الجوع. جاء تقرير منظمة الأمم المتحدة حول مسائل الغذاء (فاو) عام ٢٠٠٨ على أن عدد الجائعين قد ازداد خلل نصف عام فقط بمقدار ٤٠٠ مليون شخص. ويموت في العالم سنوياً بسبب من الجوع أكثر من ٩ ملايين شخص.

وخلافاً لتوقعات المستقبليين جميعها مازال الناس في العالم يموتون حتى الآن بسبب من الأمراض الوبائية، التي بدأ الطب المعاصر يعالجها منذ زمن بعيد. يشير خبراء منظمة الصحة العالمية إلى أن ٢،١ مليون شخص في العالم ماتوا عام ٢٠٠٢ بسبب من أمراض كان بالإمكان تفاديها بوساطة اللقاحات.

لم يخطر في بال المستقبليين أن أمراضاً وبائية غير معروفة من قبل ستظهر في العالم، فقد بلغ عدد المتوفين بسبب من الإيدز ٢٣ مليون شخص بين عامي ١٩٨١ و٢٠٠٤.

انتشرت بسرعة على الأرض في العقد الأخير أمراض فيروسية أخرى، ما زال الناس غير قادرين على التعامل معها. بقي الكمون الوبائي لجميع أنواع التهابات الكبد المعروفة – A،B،C،D،E،G. واحتكاماً إلى معطيات منظمة الصحة العالمية فإن أنواعاً مختلفة من التهابات الكبد الفيروسية قد أصابت خلال السنوات الخمس الأخيرة قرابة ملياري إنسان.

ذكر تقرير هذه المنظمة أن «التهاب الكبد الفيروسي A في عقدنا قد تحول إلى وباء. وهذا يمكن أن يكون مرده إلى انخفاض المستوى الدفاعي (المناعي) العام للبشر».

ساءت حال الطبيعة. تختفي الغابات من العالم بسرعة. يشكل حجم قطع أشجار الغابات العام من ١٧ إلى ٢٥ مليون هكتار سنوياً، ولا يرمم من مجمل هذه المساحات إلا ٢٠٪ فقط. مع استمرار مثل هذه الوتائر فإن الغابات سوف تختفي عن الكوكب بعد ١٥٠ إلى ١٨٠ سنة. بيد أن قطع أشجار الغابات الاستوائية الأكثر أهمية يجري على نحو أسرع بكثير، ويظن الأخصائيون أن هذه الغابات ستختفي مع حلول عام ٢٠٤٠.

كذلك تدمر بنشاط أكبر موارد الأرض الباطنية. إذ يستخرج الإنسان سنوياً من باطن الأرض ما يقارب ٢٠٠ مليون طن من الثروات. انطلاقاً من موجودات الاحتياطيات المؤكدة فإن خام الحديد يجب أن يكفي ٦٤ سنة، والنحاس ٥٠ سنة، والنيكل ٦٧ سنة. ويُظنّ أن مخزون خام الرصاص والتوتياء، والقصدير والذهب والفضة والبلاتين سوف يختفي بعد ٢٠ إلى ٣٠ سنة. بعد ذلك ربما سيحل عصر «الجوع المعدني».

يشير خبير صناعة النفط إريك لوران قائلاً: «احتاجت مكامن النفط كي تتشكل إلى ٥٠٠ مليون سنة، وإلى أقل من مئة عام كي تتضب تقريباً. منذ الثمانينات يفوق استخراج النفط سنوياً بمرتين اكتشاف منابع جديدة. وستكون حياة النفط هي الأقصر من بين جميع الثروات الباطنية المستخرجة على الرغم من أننا نظن أن ازدهارنا سوف يستمر إلى الأبد من غير إيجاد البديل له. إن ازدهارنا المولود مع النفط سوف يختفي باختفائه».

بيد أن النقص الأكثر حدة الذي تعانيه البشرية ليس في المعادن، ولا في العناصر الأرضية النادرة، وليس حتى في مخزون الطاقة، وإنما في الماء. تؤكد وثائق هيئة الأمم المتحدة على أن باعتقاد ٢٠٠ عالم من ٥٠ بلداً، أن نقص الماء صار أحد أهم مشكلتين أساسيتين تقفان في وجه البشرية. ازداد خلال الخمسين سنة الأخيرة استخدام المياه في العالم ثلاث مرات. يعاني الآن ٢،٤ مليار إنسان على الكوكب صعوبات في الحصول على الماء من أجل الحاجات المعيشية، ويعاني ١،٢ مليار من عدم الحصول على ماء للشرب. وسوف يعيش ٤٠٪ من سكان الأرض عام ٢٠٢٥ في بلدان تعاني من نقص حاد في الماء.

إن تلك المقدرات المادية الهائلة التي بنتها البشرية من أجل تلبية حاجاتها لم تؤد فقط إلى تقليص احتياطيات الثروات الباطنية والغابات، بل أفسدت على نحو لا يستهان به جو الكوكب، والوسط المحيط. يكتب خبراء منظمة الصحة العالمية في سياق تفسيرهم للانتشار السريع لمرض الربو وغيره من الأنواع التحسسية: «التطور العاصف في العلم والتقنية والصناعات الكيميائية أدى إلى أن الإنسان خلال ٥٠ عاماً لا غير قد شكل وسطاً جديداً للعيش تشغل فيه مكاناً كبيراً المنتجات الكيميائية والتركيبية: كساء الشقق والسيارات والأثاث والأواني والملابس، والألبسة الداخلية والمنظفات، واللكر والدهانات والأدوية والكثير غيرها.

بيد أننا لم نستطع بيولوجياً التأقلم مع هذا الوسط الجديد خلل هذه الفترة القصيرة. لهذا السبب حدث هذا الانفجار الهائل في الأمراض التحسسية المختلفة، بما في ذلك ربو القصبات الهوائية». ازدادت كمية الإصابة بمرض ربو القصبات الهوائية في السنوات العشر الأخيرة ٥٠٪.

يفسر الخبراء نمو الأمراض الورمية بتراجع الوضع البيئي. فكما يشير مدير الوكالة الدولية لمنظمة الصحة العالمية المسؤولة عن دراسة السرطان بيتر بويل، فإن ما يقارب الـ ٢٥ مليون إنسان عانى من أمراض الأورام خلال عام ٢٠٠٠، مات منهم ٧ ملايين. ويمكن أن يصل العدد الكلي لهؤلاء المرضى مع حلول عام ٢٠٣٠ إلى ٧٥ مليون.

الوسط غير الملائم للحياة بالاقتران مع التغذية غير الصحية المنتشرة اليوم في العالم يولد نمواً في أنواع أخرى من الأمراض. ينمو سنوياً بمقدار ٥ إلى ٧٪ عدد مرضى السكري. يزداد كم أمراض الأوعية والقلب. يعلن رئيس الاتحاد الدولي لمرضى القلب فيليب بول ويلسون أن ١٧ مليون شخص يموتون الآن في العالم كل سنة بسبب من أمراض الأوعية والقلب. إن هذه الأمراض تتفاقم مع ازدياد عدم استقرار الطقس.

على الرغم من أن علماء بارزين في الطقس يشككون في نظرية «ارتفاع حرارة الأرض» إلا أنهم يلفتون الانتباه إلى حدوث تغيرات في الفترة الأخيرة في حركة الكتل الهوائية بسبب من تلوث الجو. التيارات الهوائية السائدة سابقاً من الغرب إلى الشرق استبدلت بها التيارات الشاقولية. بنتيجة ذلك غالباً ما صارت تُلحظ اقتحامات فجائية للهواء الدافئ من الجنوب، ما يؤدي إلى الحر الشديد صيفاً أو الشتاء الدافئ، وفي الوقت نفسه اقتحامات الهواء البارد من الشمال التي تؤدي إلى الصقيع الشديد وهطول الثلج الكثيف غير المعتاد شتاء. إن التغيرات الحادة في حركة الكتل الهوائية أدت إلى ازدياد الأعاصير والعواصف والأنواء وإلى حدوث الانهيارات الثلجية والانهدامات.

حرب ضد الذات

الحكايتان الخياليتان عن الجني الذي يفلت من القنينة ولا ينصاع للإنسان، وعن «الغول فرانكشتاين» المخلوق الاصطناعي الذي صار قاتل صانعه، تُذَكّران أكثر ما تذكران حين يتم اكتشاف عدم قدرة البشرية على التحكم بالثورات التكنولوجية التي تطلقها هي نفسها. لم ينماز القرن العشرين وحسب بالحربين العالميتين المدمرتين والمئات

من النزاعات المحلية التي أودت بحياة عشرات الملايين من الضحايا. لقد خاضت البشرية خلال القرن كله عدة حروب عالمية ضد نفسها.

إحدى تلك الحروب تحدث على طرقات السيارات. يموت كل عام مليون و٢٠٠ ألف إنسان ويتعرضن من ٢٠ حتى ٢٥ مليون شخص إلى جروح مختلفة. أكثر من ٤٠٪ من ميتات الحوادث الطرقية تصيب أناساً أعمارهم تقل عن ٢٥ سنة. وتقدر الخسائر السنوية العالمية الناجمة عنها بـ ٥٧٨ مليار دولار.

لا يقل عن ذلك عدد الناس في العالم الذين يقعون ضحية «حرب إنتاجية» أخرى. إن معايير السلامة الفنية المتبعة في الإنتاج تفقد قيمتها بسبب من الازدياد المستمر في سرعة الميكانيزمات المتحركة، وفاعلية المواد الكيماوية المستخدمة واستطاعة التيارات الكهربائية، وكذلك الإشعاعات الراديوية النشطة وغيرها من الإشعاعات. بالنتيجة يصير أي عطل غير ذي أهمية كبيرة في ميكانيزم إنتاجي معقد محفوفاً بالخطر على حياة العشرات، وأحياناً المئات، من عمال المؤسسة. ووفقاً لمعطيات منظمة العمل الدولية فإن ٢٧٠ مليون عامل يجدون أنفسهم كل عام ضحايا حوادث مؤسفة في أماكن الإنتاج ويسجل ما يقارب ١٦٠ مليون حادثة مرض مهني. ويموت كل عام نتيجة للحوادث المؤسفة والأمراض المهنية ٢ مليون شخص.

تمر خطوط جبهات الحروب العالمية غير المعلنة بالمنازل السكنية أيضاً، التي كانت في زمان ما حصوناً منيعة في وجه مخاطر العالم الخارجي. إن المنزل المعاصر الممتلئ بالعديد من وسائل الراحة المعيشية مليء في الوقت نفسه بالمصائد الخطرة التي يقضي بها الإنسان على صحته.

البشرية تخسر حربها ضد الجريمة. فالجريمة المنظمة متعددة المستويات على الكوكب تمتلك رساميل بقيمة ترليوني دولار.

شكلت الاكتشافات البارزة في الطب خلال العقود الأخيرة ظروفاً مناسبة من أجل نوع جديد من الجريمة. فصار ينمو بوتائر سريعة الاتجار بالأعضاء البشرية (الكلى، القلب، قرنيات العيون وما شابه ذلك). يحصل المانح لقاء الكلية الواحدة على ألف دولار أو ألفين، بينما تباع للمريض بـ ١٢٥ ألف دولار. وصارت الأنباء تزداد أكثر فأكثر عن قتل بعض الناس من أجل استخدام أعضائهم وبيعها.

يموت من جراء ذلك كل عام بين ٢٠٠

ألف و٣٠٠ ألف شخص في العالم. هذا يساوي عدد ضحايا قصف هيروشيما وناغازاكي.

لماذا أخطأ المستقبليون؟

ليس ثمة إمكان حتى لو باختصار لتعداد الأخطار كلها التي راحت تزداد على عتبة العقدين الأول والثاني من القرن الحادي والعشرين. وفي الوقت نفسه يبدو واضحاً أن الإنسان المعاصر يخفي بحرص أبعاد الكوارث التي تحدث في العالم. بدأتُ التعاطي مع عالم الإعلام في أعوام الحرب الوطنية العظمى حين كان يبدأ النهار بالأخبار الآتية من الجبهة ويترافق بالأحاديث عن الحرب القاسية. اليوم تخوض البشرية عدة حروب في وقت واحد. وما يطلعوننا عليه (وبالكثير من التفصيل) هو التقلبات في الحياة الأسرية لنجوم الشاشة، بوصفها مآس عالمية عظيمة. وإذا ما حدث في العالم تسونامي أو فيضانات أو أي أعمال إرهابية فإنهم يهدئوننا بالإعلان عن «عدم وجود روس بين الضحايا». إنهم يسعون كي لا يذكروننا كيف باءت بالفشل على نحو معيب التنبؤات المتفائلة العديدة بالمستقبل، التي قدمها أناس مرموقون.

واضح أن المخاطر الحالية التي تتهدد البشرية لم يستشرفها الكثيرون من المستقبليين في الستينات من القرن العشرين. فلماذا إذاً أخطأ عشرات الآلاف من العلماء والمهندسين وغيرهم من الخبراء الذين وضعوا حينذاك تنبؤاتهم المتفائلة ببداية القرن الحادي والعشرين المقبل؟ إذ كان اهتمامهم منصباً على التطور الاقتصادي والعلمي التقني العاصف لم يأخذوا بعين الاعتبار الاتجاهات الأخرى التي كانت تتناقض معه.

من غير الجائز القول إن المشاركين في النقاشات المستقبلوية جميعهم كانوا مصابين بالتفاؤل الأعمى. فقد تحدث المهندس المعماري الرئيسي في أثينا قسطنطين دوكسياديس عن عواقب التطور التقني بوضوح تام ومقنع في مداخلته في المؤتمر في واشنطن. لقد كان محقاً في قوله، بعد أن أشار إلى منجزات البشرية الهائلة في العلوم والتقنيات، إن «الإنسان قد تعرض للهزيمة في المدن»، واستنتج قانوناً مدهشاً: «كلما زادت سرعة وسائط النقل احتاج الإنسان إلى وقت أطول من أجل الوصول إلى مركز المدينة. كان الإنسان العادي في القرن الثامن عشر يحتاج إلى ١٠ دقائق كي يصل ماشياً إلى مركز المدينة لأن مساحة المدينة المتوسطة كانت تشكل ٢٠٠٠× ٢٠٠٠م. أضيف في القرن التاسع عشر إلى أسلوب التنقل على الأقدام سكة الحديد،

فصار الوصول إلى مركز المدينة يحتاج إلى ٢٠- ٢٥ دقيقة، ثم صار في القرن العشرين يحتاج إلى ٥٠ - ٦٠ دقيقة... لدينا سيارات تولد سرعات كبيرة. لكن ما الذي يحدث في الواقع؟ إننا نعبر نيويورك ولندن وباريس بسرعة متوسطة قدرها ١٥كم في الساعة، أي بسرعة عربة جر في بداية القرن. على هذا النحو فقد أصاب التطور التقنية، لكن المنظومة لا.. من وجهة نظر نفقات وقت الإنسان فإننا نسير إلى الوراء.. وهذا فشل تام في بنانا».

بيد أن الغالبية العظمى من مستقبليي الستينيات لم تكن تشك في أن العالم يتحرك إلى الأمام. هكذا تحديداً خيل للصيادين في قصة إدغار بو «السقوط في المالستريم»، الذين وجدوا أنفسهم مجروفين بالتيار قرب شواطئ النرويج. ولم يدركوا إلا فيما بعد أن زورقهم كان يمخر بسرعة قدماً على سطح دوامة مائية هائلة، وفي الوقت نفسه ينحدر أدنى فأدنى نحو قاع المحيط. أفلا تدور البشرية قدماً فقدماً في دائرة المعضلات غير المحلولة وهي تنحدر في الوقت نفسه نحو القاع.

إن مصير بلادنا في العقدين الأخيرين يدل على كيف يمكن السقوط في الهاوية على نحو غير ملحوظ. كتبت صحيفة «روسيا» المنسية اليوم نسياناً ناجحاً في عددها الصادر يوم ٣١ آب ١٩٩١: «إننا اليوم، نحن الروس جميعاً، نقف وكأننا على ذروة من ذرا سلسلة التاريخ الجبلية. تنهار الشمولية والإمبراطورية والأصنام المزروعة قسراً. وعلى الغصن الجديد تحدث عودة إلى طريق التطور الذي يستثني العنف ضد ما هو طبيعي، وإلى أحضان الدول المتحضرة». وفي كلمته في السنة الجديدة عشية عام ١٩٩٢ علل بوريس يلتسين الصعوبات التي وقفت آنذاك أمام البلاد بأن السنوات الأربع والسبعين السابقة قد قذفت روسيا كما يقال في «حفرة عميقة». لقد أكد المنتصرون في آب أن البلاد سوف تبدأ تحت قيادتهم نهضة سريعة.

لم يمض عشرون عاماً حتى بادر أحد الذين قادوا البلاد إلى الذرا البراقة، والمعترف به بوصفه مدير أعمال البيريسترويكا، الأكاديمي أ. غ. أغابينيان إلى الإقرار بغير حماسة في كتابه «الأزمة: مصائب روسيا وحظوظها» بأن: روسيا منذ بداية التسعينيات وحتى نهايتها سقطت في الحفرة ولم تخرج منها. ويؤكد هذا الأكاديمي أن روسيا خرجت من الحفرة بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٧. الأزمة

الحالية، كما يظن، دفعت روسـيا إلى الوراء علـى الأقل سـنتين أو ثـلاث. تحرك خلل هذه الأعوام الكثير مـن البلدان إلى الأمام بسرعة، وخصوصاً الصين. بنتيجة ذلك، إذا كان نصيب بلادنا بين عامي ١٩١٧ و١٩٨٥ من الإنتاج الصناعي العالمي قد نما من ٣٪ حتى ٢٠٪، فإن نصيب روسيا اليوم أقل من ٣٪ من الإنتاج الصـناعي العالمي. مئة عام تقريباً من كد شـعوب بلادنا رميت خارجاً بحجة مواكبة الحضارة العالمية.

إذ وجدنا أنفسـنا خلف قسـم كبير من بلدان الكرة الأرضـية، حصـدنا الكثير من مشـكلات الرأسـمالية المعاصرة وعلى نحو مضخَّم. ليس مصادفة أن الأزمة قد ضربت روسـيا بقوة خاصـة. قلَّ أن تجد في الدول الرأسمالية المتطورة هذا الفارق الشاسع في الأحوال المادية بين الأغنيـاء والفقراء كما هـو في بلادنا. تنمو في روسـيا نمواً سريعا الأمراضـ الوبائية التي تتماز بها دول العالم الفقيرة. لقد خرجت روسيا إلى الصدارة في العالم من حيث عدد الحوادث الطرقية والقتل والانتحار، ومستوى فساد الموظفين وتعاطي الكحول ووتائر نمو تعاطي المخدرات.

وربما يسـتحق الأمر الحديث عن هذا بتفصيل أكبر المرة القادمة.

آفاق المعرفة



دفاعاً عن سيغموند فرويد

عبد محمد بركو ❁

لم تؤثر نظرية فلسفية أو علمية في مختلف العلوم الإنسانية والتطبيقية، ولم يؤثر عالم في الفكر الإنساني المعاصر والثقافة العالمية والعلوم والآداب والفنون المختلفة، ولم تصبح نظرياته ثقافة عالمية سواء للنخب العلمية والفكرية أو للناس عامة مثلما فعل «سيغموند فرويد» هذا العالم الكبير الذي انتظره علم النفس لأكثر من قرن لكي يضعه في مصاف العلوم الحقيقية وينقله من أوهام العلاج بالتنويم المغناطيسي الذي ابتكره «مسمر» وحافظ

❁ ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

عليه «شاركو» و«برنهايم»، وسواهم من علماء النفس في القرنين الثامن عشر ومنتصف التاسع عشر.

لقد أضاف «فرويد» للحضارة الإنسانية ثقافة جديدة ونظريات جديدة وطُرق تفكير جديدة، مثلما أضاف إلى العلوم الإنسانية كافة والطب والآداب المختلفة والفنون التشكيلية والسينمائية والموسيقية آفاقاً جديدة من خلال نظرياته السيكولوجية المختلفة، وخاصة نظرياته في التحليل النفسي والشّخصية وميكانزمات الدِّفاع.

لقد أحدث «فرويد» ثورة علمية كبرى في علم النفس والطب النفسي على حدٍّ سواء، ومازال يتعلم نظرياته وتقنياته السيكولوجية والعلاجية مئات الألوف من الطلبة ويقدِّم الآلاف منهم رسائل الماجستير والدكتوراه في نظرياته، ويعالج بنظرياته وتطبيقاته العلاجية عشرات الآلاف من الأطباء النفسانيين، حيث ينتفع بعلمِه عشرات الملايين من الناس الذين يعانون من الاضطرابات النفسية البسيطة وسوء التكيف في أسرهم أو مجتمعاتهم والذين يعانون من أمراض عقلية ونفسية مزمنة.

وفضلاً عن ذلك كلّه ما زالت نظرياته تجذب آلاف الباحثين وعلماء النفس عبر العالم.

لقد أثر «فرويد» في حركة الثقافة العالمية والفكر الإنساني، كما أسلفت، وجعل علم النفس ثقافة شعبية بنظرياته السيكولوجية وأبحاثه، وأسهم في تعليم البشرية نمطاً جديداً من الثقافة والتفكير وأصبحت طريقته في التحليل النفسي مدرسة عالمية.

ميشال أونفري:

فلسفة الحقد على العظماء

بتُّ على قناعة تامة بأنّ الحقد على الأموات من العبقريات التي أغنت الحضارة الإنسانية مازال قائماً يستعرُ كجمر تحت الرماد في بعض النفوس المريضة. فالتاجر المفلس يبحث في دفاتره القديمة علّه يجد ديناً له بذمة أحد زبائنه القدامى، والكاتب الذي يتوقف عن الإبداع ويسأله الناس عن جديده يعمد إلى دفاتره القديمة علّه يجد نصاً لم يستهلكه، فيعمد إلى تنقيحه ونشره، كي يبرهن للناس أنّه مازال قائماً على رأس الإبداع (إن صحت العبارة).

وهذا بالضبط ما حدثَ مع الفيلسوف الفرنسي «ميشال أونفري» الذي قدَّم سيرة مفتراة و مكذوبة لإنجازات وحياة عالم النفس الكبير «سيغموند فرويد».

فلو سألنا أي طالب في المرحلة الثانوية في أي قارة أو في أي بلد على سطح كوكبنا:

من هو «سيغموند فرويد» لأجاب فوراً: عالم نفس كبير.

بينما لو سألنا: من هو «ميشال أونفري» لما عرفه أحد حتى أكثر أبناء بلده فرنسا، وهذا أحد أسرار حملته الحاقدة على عالم كبير أثرى الفكر الإنساني والثقافة الإنسانية وعلم النفس والطب النفسي على حدٍّ سواء، إنّه الحقد على الكبار والحسد من إنجازاتهم واستمرار أفكارهم ونظرياتهم وثبوت نجاحها وفائدتها بعد موتهم.

ولم يكتف «أونفري» بتشويه تاريخ هذا العالم الكبير بل عمد إلى الافتراء والكذب ومجانبة الصواب عندما اتهمه بالخرف!!! وهذا يعكس ما بنفسه من اهتزاز وضعف وخلل نفسي وأخلاقي.

إنّ أي إنسان عادي يعرف القليل من إنجازات «فرويد» يدرك أنّ من المستحيل على هذا العالم إلاّ أن يكون متمتعاً بطاقات وقدرات عقلية استثنائية، فكيف إذا كان مثقفاً أو عالماً يعرفُ أن «فرويد» أبدع مدرسته الجديدة في التحليل النفسي دون أن يستند إلى أي نظرية سابقة، حيث كان ثورة علمية كبرى نسفت معظم الاتجاهات والنظريات السابقة في علم النفس الذي كان يتخبط في العماء، وتختلط فيه الأوهام بالفلسفة!!!؟

علماً بأن هذا «العبقري الهمام» ليس من مجايلي «فرويد» الذي أبدع نظريته في التحليل النفسي وطرحها عام ١٨٦٩، وهذا بحدّ ذاته تعسف ضد الحقيقة والموضوعية.

لقد وقفَ أنصار الموضوعية من المثقفين والكتّاب الفرنسيين قبل علماء النفس في وجه هذا الكاتب الأعمى واستهجنوا مجانبته لحقيقة هذا العالم الكبير وإنجازاته التي وضعته في مصاف عظماء التاريخ، كما استنكروا الأسلوب «السوقي والشوارعي» الذي استخدمه «أونفري» بحق «فرويد» من شتائم وعبارات تحقيرية تنم عن شخصية مأزومة سيكولوجياً ومهزومة معرفياً، ومتخبطة فكريّاً، ولذلك يعلو صراخها لبناء مجدٍ كاذب على حساب هذا العالم الكبير، لكنه نسي أنّ محكمة التاريخ هي التي ستدينه، من خلال غربلتها الحقائق من الأكاذيب، وسيكون كتابه كأي تقليعة باريسية عابرة، بينما ستبقى نظريات «فرويد» تحظى سنوياً بآلاف الدِّراسات والأبحاث الجديدة التي يقوم بها الفرويديون الجدد، ويبقى آلاف المُعالجين بالتحليل النفسي يعالجون الملايين من الناس بنجاح منقطع النظير.

نعم إن معركةَ «أونفري» التي أعلنها على الحقيقة والأخلاق والأمانة العلمية قبل أن

يعلنها على «فرويد» هي معركة خاسرة سلفاً وستضرُّ به وتنزع عنه أيّ مصداقية وسترتدُّ نتائجها الوخيمة عليــه، لأنّها معركة ظالمة بسيفٍ خشبي وسهام من هواء!!

شخصية «أونفري» من خلال أقواله في ميزان التحليل النفسي الفرويدي

من خــلال قراءتي لشـذرات من أقوال «أونفــري» عن «فرويد» ونظرياته صُـدمت لكثرة البذاءات والشــتائم وإلقاء التهم على عواهنها، دون أي أدنى قدر من الموضــوعية والمسؤولية العلمية.

لقد عرفنا للأدباء والعلماء والفلاسـفة لغــة أدبية رفيعة في الكتابة، وسَـمْتاً خُلقياً راقياً لا يحيدون عنه، وخاصة في الردّ على خصومهم.

ومثلما كان الصراخ سـلاح الضــعفاء، فالشــتائم وخاصة الموجّهة إلى رجل في ذمة الله هي ضرب من ضروب الضــعف وعُقد النقص أيضاً.

ورحم الله «فرويد» الذي علّمنا في جملة ما علّمنا في التحليل النفسي أن «الإسقاط» وهو من ميكانزمات الدّفاع التي تستخدمه الأنا عندما تعجز عن حل صراعاتها الداخلية فتلجأ إلى التشويش اللاشعوري للواقع، حيث يُسقط المرء ما بداخله (أي ضعف «أونفري» ونقائصه وعقده التي خرجت عن سيطرته فأضحت سباباً وشــتائم)، حيث يسقط كل ذلك على الآخرين (فرويد).

هذه إحدى جوانب مشكلة «أونفري» أما الجانب الآخر من مشــكلته النفسية فيكمن في «عقدة النقص» التي تتضــح من كتاباته الحاقدة، حيث حاول «التعويض» عن نقصه المعرفي والإبداعي «بمحاولة نسف نظريات فرويد» لتضخيم ذاته تغطية لمشاعر نقصه على حســاب هذا العالم المبــدع. وربما يعبِّر عن ذلك بشكل أو بآخر المثل القائل: «خَالف تُعرف».

ويبــدو أنّ عصرنــا الراهــن، عصــر الفضائيات والإنترنت لم يعد يُنجب العباقرة، ولذلك لم يجد «أونفري» سوى أن يبني مجده الزائــف «قبل أن يموت» من خلال مهاجمة العباقــرة والنيل مــن إنجازاتهم، محاولاً أن يقرنَ اســمه بأســمائهم ناســياً أو متناسياً أنّ ما ســيبقى هو إنجازات هؤلاء العباقرة ونظرياتهم، وما ســيزول كفقاعةٍ صابون في حمّــام عابر هو هذه الكتب الصــفراء التي تتطفل باســتماتة انتحاريــة على نجاحات الآخريــن محاولــة «دون جدوى» وعلى نحوٍ مكشوف تسـلُّق قاماتهم العالية التي تُطول السّحاب..

ولكن هَيهَــات... هَيهَات... ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي



الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (سورة الرعد: الآية١٧).

وسنقدم فيما يلي لمحة مختصرة عن أهم إنجازات «فرويد» ونظرياته في مجال علم النفس والطب النفسي، وتأثيرها على العلوم الإنسانية والآداب والفنون المختلفة.

إنجازات «فرويد» ونظرياته في مجال علم النفس والطب النفسي

ساهمت نظريات فرويد بتقدم وتطور فروع علم النفس كافة، وعلى وجه الخصوص: علم النفس العام، علم نفس الشواذ، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس الإكلينيكي، وعلم نفس الشخصية، وعلم النفس العيادي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس المرضي، وعلم النفس التربوي، وعلم نفس الدوافع... إلخ.

يقول الدكتور «فيصل عباس» في كتابه «إشكالات المعالجة النفسية»: «قدّم فرويد نظاماً جديداً في تفسير نشأة الأمراض النفسية والعقلية، وافترض بأنّ الاضطرابات النفسية يمكن أن ترد إلى صراعات داخلية لاشعورية، وقوى تعمل داخل الشّخصية الإنسانية، قوى يتصارع بعضها مع بعضها الآخر، ويؤدي صراعها إلى تكون الأعراض المرضية».

ولعلّ الإنجاز الأبرز لـ«فرويد» في هذا مجال الطب النفسي (كما يقول الدكتور علي سعد وزير التربية): «هو نقله محور الاهتمام بالاضطراب النفسي من وجود خلل عضوي إلى التحليل النفسي».

كذلك لابدّ من الإشارة إلى أنّ هذا العالم الكبير وجّه ضربة قاضية إلى العلاج بالتنويم

المغناطيسي الذي كان متّبعاً منذ أيام الطبيب النمساوي مسمر، (١٧٨٠م) واستعاض عنه بطريقة (التداعي الحر).

نظرية «فرويد» في التحليل النفسي

أبدعَ فرويد نظرية التحليل النفسي التي لم تقتصر على المجالات التفسيرية والتشخيصية والعلاجية، بل تعدتها لتشمل ميادين علم النفس كافة، وتُستخدم في مختلف العلوم الإنسانية.

طوّر «سيغموند فرويد» أفكاره حول نظرية التحليل النفسي من خلال عمله مع المرضى العصابيين. فهو يرى أنّ اللاشعور هو مفتاح فهم الشخصية، فحياتنا تزخر بالضغوط والصراعات، وللحد منها فإننا نضع الخبرات المؤلمة والمزعجة في اللاشعور. وقد تتكشف هذه الخبرات على شكل هفوات اللسان أو زلاته، وقد يظهر في الأحلام تمثيل لاشعوري للصراع والضغوط الحياتية التي يكون من المؤلم التعامل معها بصورة شعورية.

والأحلام هامة لأنها تحمل دلالات رمزية، جنسية أو عدوانية، وتحتل الغريزة الجنسية مكان الصدارة في تأثيرها على السلوك اللاحق.

شبّه فرويد الشخصية بجبل الثلج، بحيث يقع معظمها تحت مستوى الشعور تماماً، كما أنّ الجزء الأكبر من جبل الثلج يقع تحت مستوى سطح الماء، تتكون الشخصية من ثلاثة مكونات هي: الهو. يتكون الهو من الغرائز (الجنس والعدوان) وهو مصدر الطاقة النفسية. والهو لاشعوري، ولا يتصل بالواقع، وهو أول مكوِّن ينمو في الشخصية. يعمل الهو وفق مبدأ اللذة وتجنب الألم.

وعندما يدرك الأطفال متطلبات الواقع والمعيقات التي تحول دون إشباع اللذة، يتشكل المكوِّن الآخر للشخصية (وهو الأنا). يتعلق الأنا بمتطلبات الواقع، فهو يحاول أن يجلب اللذة للمرء وفق معايير المجتمع.

وبخلاف الهو الذي يقع كليّاً في اللاشعور، فإنّ الأنا يكون شعوريّاً بصورة جزئية وهو المكوِّن النفسي للشخصية والجهاز التنفيذي لها الذي يتخذ القرارات العقلانية، ويؤدي الوظائف العقلية العليا. أما المكوِّن الثالث للشخصية فهو الأنا الأعلى، وهو المكوِّن الأخلاقي لها. ويضم الأنا المثالية والضمير. ويعمل الأنا الأعلى على كبح دوافع الهو، الأمر الذي يقتضي أن توفّق الأنا بين دوافع الهو ومتطلبات الأنا الأعلى وحل الصراعات بينهما، وقد تعجز الأنا عن حل الصراع، فتستدعي عدداً من الاستراتيجيات التي تسمّى «ميكانزمات الدِّفاع» لحل الصراع والحدّ من القلق عن طريق التشويه

اللاشعوري للواقع، وهذه الميكانزمات هي: -الكبت، التبرير، الإبدال، التسامي، الإسقاط، تكوين رد الفعل المنعكس، الإنكار، النكوص.

أثر فرويد على علم النفس

أثّر فرويد على مئات العلماء الكبار في علم النفس عبرَ أجيال متعاقبة، وأصبحوا يعرفون بالفرويديين الجدد، ومن أشهرهم: أدلر، يونغ، هورني، فروم، ارستن جونز، كارل ابراهام، وسواهم من العلماء الذين أثروا نظرياته بالبحث والتجريب والتطوير.

أثر فرويد في العلوم الإنسانية

أثّرت نظريات فرويد السيكولوجية، ولاسيما نظريته في التحليل النفسي على مختلف العلوم الإنسانية كالفلسفة والتربية وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، حيث تدخلت في صميم المفاهيم والنظريات الفلسفية والاجتماعية.

أثر فرويد في الآداب المختلفة

تأثرت الأنواع الأدبية المختلفة بنظريات فرويد السيكولوجية، وكانت أكثر المدارس الأدبية تأثراً بها هي السوريالية، فمنذ بياناتها الأولى ظهر كتّاب وشعراء هذه المدرسة أكثر تأثراً بالتحليل النفسي وديناميات الشعور وانفلاشات الحلم.

وظهر ذلك التأثير جلياً في كتابات أندريه برتون وأندريه جيد وتريستان تزارا، وسواهم. وما زالت تتواصل آلاف التجارب الشعرية البارزة في هذا المجال، ومنها على سبيل المثال في وطننا العربي تجربة الشاعر أسعد الجبوري والشاعر شوقي أبي شقرا، وسواهما.

ومثلما كان الأثر جليّاً في الشعر، كان كذلك في المسرح (مسرح اللامعقول) والرواية والقصة القصيرة (توظيف التداعي الحر).

أثر فرويد في الفن التشكيلي

قبل ظهور نظرية «فرويد» في دور اللاشعور والحلم في فعاليات النفس البشرية، كان الفنّ التشكيلي مقيداً ضمن مدارسه المعروفة، كالتعبيرية والواقعية والتكعيبية.. إلخ.

وهكذا كان التحليل النفسي ونظرية اللاشعور ثورة في الفنّ التشكيلي بالقدر نفسه الذي كانت فيه ثورة في علم النفس فكراً وتنظيراً وممارسة عيادية، حيث أطلق العنان لمخيلات عشرات الفنانين لرسم أحلامهم واللا شعورهم.. فظهرت السوريالية والدادائية والوحشية وما بعد الحداثة.

لقد أثرى «فرويد» الفنّ التشكيلي وساهمت نظرياته السيكولوجية ببلورة مدارس

فنية جديدة وظهور عمالقة في مجال الفنّ التشكيلي كالفنان «سلفادور دالي» والفنان «بول كلي» وسواهما.

وقد اعترف «دالي» بأثر نظريات فرويد على فنّه التشكيلي، حيث رسم اللاشعور، وتدفقات الحلم أشكالاً وألواناً تسيل من السماوات وتتدلى من فوق الأشجار والطاولات.. إلخ.

أثر فرويد في مجال السينما

أثّرت نظريات فرويد السيكولوجية في السينما، فظهرت منذ ثلاثينيات القرن الماضي مجموعة من الأفلام السوريالية، منها على سبيل المثال لا الحصر فلم «كلب أندلسي» لـ «لويس بونويل».

وما زالت عشرات الأفلام السينمائية تتوالى سنوياً عبر العالم تقدم رسالة الفنّ السينمائي متأثرة بالتحليل النفسي وغرائبيات اللاشعور بمضامين جديدة تقدم المتعة والمعرفة النفسية للمشاهد من خلال طرح بعض الأمراض النفسية وطرق معالجتها بالتحليل النفسي.

وقد تأثرت بذلك السينما العربية أيضاً.

إحالات

١- سعد، د. علي: علم الشذوذ النفسي، جامعة دمشق ١٩٩٣.

٢- مجموعة مؤلفين: علم النفس العام، دار المسيرة، ط٢، الأردن ٢٠٠٨م.

آفاق المعرفة



وظيفة التركيب النحوي في قصيد الشعر العربي

قدور قطاوي لخضر ⊛

إن الحديث عن التركيب النحوي وعن دوره في القصيدة الشعرية يجعلنا نبحث في علائقية القوانين النحوية بالأصوات العربية في شكلها الموسيقي الذي يتضح بوضوح فيما ينتاب هذه الأصوات في حال وحداتها الإفرادية إذا نظرنا من منظور أن الصرف نحو، وما ينتابها في حالاتها التركيبية.

ويعد عبد القاهر الجرجاني من العلماء السابقين إلى الاهتمام بوظائف التراكيب النحوية في النظم والشعر. والواقف على كتابه دلائل الإعجاز،

⊛ أستاذ مساعد بكلية الآداب واللغات بجامعة حسيبة بن بوعلي، الجزائر.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

وأسرار البلاغة يجده يبين عن هذه الوظائف في الشعر العربي، فقد رد آراء الزاهدين في رواية الشعر والتعامل معه لمعرفة الإعجاز فقد ذكر أن الذي ذم الشعر وزهد فيه لا يخلو من أمور ثلاثة «أحدها أن يكون رفضه له وذمه إياه من أجل ما يجده فيه من هزل، أو سخف، وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة، والثاني أن يذمه؛ لأنه موزون مقفى ويرى هذا بمجرده عيبا يقتضي الزهد فيه والتنزه عنه. والثالث أن يتعلق بأحوال الشعراء، وأنها غير جميلة في الأكثر، ويقول: قد ذموا في التنزيل، أيٌّ كان من هذه رأيا له، فهو في ذلك على خطأ ظاهر، وغلط فاحش، وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر، وبالضد مما جاء به الأثر، وصح به الخبر»[1].

وأثناء رده وقفنا على مزية الشعر في المحافظة على التراكيب النحوية التي تمت بصلة للعربية لأنه، أي: الشعر كلام ولو كان يرد الشعر لكان يرد أي كلام، ولأصبح من كان أبكما أو أخرسا أو عييا هو أفضل من البليغ الفصيح.

كما يعالج عبد القاهر القضية من وجهة الحكم الشرعي لمن عول عليه في الزهد في رواية الشعر فيرى أن راوي الشعر ما هو إلا حاك، وأنه ليس على الحاكي أي عيب ما لم يرد نصرة باطل أو يسوء مسلما، كما يستدل على أن الله تعالى قد حكى كلام الكفار على ما فيه من بهتان وكفر ونفاق وباطل، هذا جانب ما نجده لجلة علماء المسلمين في مؤلفاتهم من الاستشهاد بالشعر لشرح غريب وبالقرآن الكريم على ما فيها أحيانا من الكلام القبيح والفاحش وما كانوا يرون ذلك عيبا لأنهم اعتبروا القصد النبيل المنوط بالتراكيب اللغوية والنحوية.

وساق عبد القاهر الجرجاني أدلة نقلية قوية على أن الرسول . صلى الله عليه وسلم . لم يهمل الاهتمام بالشعر فقد كان يسمع القصائد من شعراء المسلمين كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير ويصرح بأن روح القدس يعين حسانا على قول الشعر[2] خلافا لما كانت تعتقده العرب من إعانة الشيطان الشاعر فيرون أن لكل شيطان شاعر، ولا يبعد ذلك مع ما أشار إليه القرآن من أن شياطين الجن قد توحي لشياطين الإنس أحيانا زخرف القول غررا. فما كان في الباطل فمنها وممّا كان في الخير فقد يكون من إعانة الملك.

مصطلح التركيب

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن مصطلح التركيب ألفينا الشريف الجرجاني يعرفه بقوله: «جمع الحروف البسيطة ونظمها

لتكون كلمة»[3]. كما نجده يعرفه تعريفا آخر فيقول: «التركيب كالترتيب لكن ليس لبعض أجزائه نسبة إلى بعض تقدما وتأخرا»[4].

والذي يفهم من التعريفين أن مجرى الحديث يدل على تركيب المفرد في المصطلح النحوي الذي تجتمع فيه مجموعة من الأصوات التي تؤدي دلالة متواضع عليها في اللغة بالمعنى المفرد.

بين مصطلح التأليف والتنظيم والتركيب والترتيب والتنضيد

نجد الكفوي يتعرض بشكل أوضح لمصطلح التركيب ويفرق بينه وبين المصطلحات التي لها به علاقة وهي التأليف والتنظيم والترتيب، والتنضيد، فيقول: «التأليف: هو جمع الأشياء المتناسبة من الألفة، وهو حقيقة في الأجسام، ومجاز في الحروف. والتنظيم: من نظم الجواهر، وفيه جودة التركب والتأليف بالنسبة إلى الحروف لتصير كلمات، والتنظيم بالنسبة إلى الكلمات لتصير جملا والتركيب: ضم الأشياء مؤتلفة كانت أولا، مرتبة الوضع أولا، فالمركب أعم من المؤلف والمرتب مطلقا، والترتيب: أعم مطلقا من التنضيد؛ لأن الترتيب عبارة عن وقوع بعض الأجسام فوق بعض والتنضيد: عبارة عن وقوع بعضها فوق بعض على سبيل التماس اللازم لعدم الخلاء»[5]. فنلاحظ أن التركيب عند الكفوي يجمع التأليف والترتيب والتنضيد، والتنظيم يحتوي على التركيب، ليتبين لنا قيمة التركيب في تنظيم النص الأدبي الذي يصبح في شكل نظم علما بأن مصطلح التنظيم هو مصدر للفعل نظم على وزن فعل المضعف العين المزيد وأصله نظم يَنْظِمُ نَظْمًا، قال الفيروز آبادي: «ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما ونظّمه ألّفه جمعه في سلك فانتظم وانتظم»[6].

فأنت ترى الجامع بين التنظيم والنظم، والتركيب هو أهم الأسس في هذا البناء الراقي الذي نسميه نظم الشعر، فإذا وصفنا التركيب بالنحوي صار الأمر يتعلق بالصناعة النحوية التي أسست من سليقة العرب في كلامها والشعر من أرقى ما تركته لنا العرب من مدونتها التي كانت شفاهية لدى الرواة كما كانت صحفا تكتب ويحتفظ بها علماء مأمونون على القرآن الكريم وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى العلم عامة.

التركيب النحوي وما يترتب عليه من دلالة.

إن التركيب النحوي الذي تترتب عليه دلالات داخل سياق النص تتحكم فيها الأحكام كما يرى ذلك الكفوي لما كان بشأن شرح مصطلح التفسير فقال: «علم

يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبة ومعانيها التركيبية»(٧).

لقد اهتم علماء العربية بالتركيب النحوي في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر وسنقتصر على ما له علاقة بالشعر العربي ونكتفي بتناول أبيات من الشواهد الشعرية التي درس فيها علماؤنا التركيب النحوي.

أمثلة من وظيفة التراكيب النحوية في الشعر العربي

١ . تكرار كأنما ومعموليها في قصيد الشعر

من ذلك ما رواه عبد القاهر الجرجاني لعلي بن محمد بن جعفر(٨)

دمن كأن رياضها
تكسين أعلام المطارف
وكأنما غدرانها
عشور من مصاحف
وكأنما أنوارها
تهتز في نكباء عاصف
طرر الوصائف يلتقيـ
ـن بها إلى طرر الوصائف
وكأن لمع بروقها
في الجو أسياف المثاقب

وإنما جاء عبد القاهر بهذه الأبيات من أجل البيت الأخير الذي استشهد به في تشبيههم لمعان البرق بالسيوف، ولكننا نجده يعلق على علاقة البيت بما قبله بقوله: «المقصود البيت الأخير؛ ولكن البيت إذا قطع عن القطعة كن كالكعاب تفرد عن الأتراب، فيظهر فيها ذل الاغتراب، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين، وأملا بالزين منها إذا أفردت عن النظائر، وبدت فذة للناظر»(٩).

فنحن نرى نظرة عبد القاهر الجرجاني إلى الصورة الكاملة التي صورها الشاعر لمشهد من مشاهد الطبيعة الجامع بين ما في الدمنة من رياض وغدران وأنوار، ولمع بروق وبين أعلام المطارف واهتزاز في نكباء العواصف، وأسياف المثاقب.

لكن ثمة أمر آخر نلاحظه وهو هذا التكرار الذي نلمسه في الناسخ كأن الذي تكرر في تركيبه مع معموليه الاسم والخبر أربع مرات في صدر أربعة أبيات ألا يستحق هذا منا أن نقف عند هذا التناظر الهندسي داخل القصيد، تناظر صوتي إيقاعي من حيث الموسيقى، وتناظر يظهر في الرسم الخاص بتأليف الكلمات، وتركيب الجمل



المكــررة التي جعلت رائد نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني يجد من السماجة بمكان عزل البيت الأخير عن سابقيه.

٢ . عــدم صــلاحية وقوع الاســم موقع الفعل

ومن الأمثلة التي نجده في الشعر العربي مــا تعرض لــه عبد القاهــر الجرجاني في قصــيدة للأعشــى بعنوان يداك بلغت اثنين وســتين بيتا، ووقف عبد القاهر عنــد البيتــين الواحد والخمســين والثاني والخمسين وهما قول الأعشى[١٠]:

لَـقَـدْ لاَحَــتْ عُـيُـونٌ كَـثِـيــرَةٌ
إلى ضَـوْءِ نَـارٍ في يَـفَـاعٍ تَحَـرَّقُ
تُـشَبُّ لِـمَـقْـرُورَيْـنِ يَصْطَلِيَانِـهَا
وَبَـاتَ عَلَى الـنَّـارِ الـنَّـدَى والمُحَلَّقُ

فيقـول: «معلوم أنه لو قيل: إلى ضـوء نار مُتَحَرِّقَةٍ لنبا عنه الطبع وأنكرته النفس ثـم لا يكـون ذاك النبـو وذاك الإنكار من أجل القافية وأنها تفسـد به بل من جهة أنه لا يشـبه الغرض ولا يليق بالحال... وذاك لأن المعنـى في بيت الأعشـى على أن هناك مُوقدا يتجدد منه الإلهاب والإشـعال حالا فحالا وإذا قيل متحرقة كان المعنى أن هناك نارا قد ثبتت لها وفيها هذه الصـفة وجرى مجرى أن يقال: إلى ضوء نار عظيمة. في أنه لا يفيد فعلا يفعل»[١١].

فنلاحظ هنــا في هذا المركـب البياني

الوصفي أنه اعتمد في الجزء الثاني منه وهو الصفة التعبير بالفعل الذي يناسب التجدد؛ لأن الفعل وقع جزءا بعد جزء وهو المناسب في اشتعال النار والتهابها، ألا ترى أن النار تبدأ بالوري الذي يخرجه الزناد، ثم تشيع وتثقب بما يقويها، ثم يقال: حضأتها لتلتهب وأرشأتها، ثم سخوتها، ثم أججتها فإذا اشتد تأججها فهي جَاحِمَةٌ. وكل هذا الذي نجده عند فقهاء اللغة[١٢] يقوي ما ذكره عبد القاهر الجرجاني في التعبير بالفعل تحرق عوضا عن التعبير بمحرقة.

٣ . عدم صلاحية وقوع الاسم موقع الفعل

ومثاله قول الشاعر

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا
لكن يمر عليها وهو منطلق

فيعلق على هذا البيت عبد القاهر الجرجاني فيقول: «هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: يمر عليها وهو ينطلق لم يحسن»[١٣].

وذلك أنه صفة ثابتة في لإثبات الكرم ونسبته إلى نفسه أو قومه، فجاء بهذا التركيب الإسنادي من المبتدأ والخبر الذي أدى وظيفة الحالية لأن جملة وهو منطلق في محل نصب حال من العائد على الدينار المضروب في (يمر). واكتفى عبد القاهر بتبيان هذه الرؤية الجمالية بتدبر قوله تعالى ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾(١٤) فقال: «فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا وأن قولنا كلبهم يبسط ذراعيه لا يؤدي الغرض، وليس ذلك إلا؛ لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت، ويقتضي الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى حدث شيئا فشيئا. ولا فرق بين (وكلبهم باسط) وبين وكلبهم واحد مثلا في أنك لا تثبت مزاولة ولا تجعل الكلب يفعل شيئا ؛ بل تثبته بصفة هو عليها فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب»[١٥].

فكلما كان حديثنا عن هيئة ثابتة وجب علينا استخدام تراكيب الأسماء والعكس استخدام الفعل في الصفات المتجددة، هذه التراكيب التي نجدها في القرآن الكريم كما مر وما رأيناه في الشعر العربي الذي أدى دورا بارزا في المحافظة على اللغة العربية وهي تؤدي وظيفتها التواصلية من خلال إتقان الشاعر للتراكيب النحوية داخل سياق النص الإبداعي الأدبي.

ونكتفي بما قدمنا ونشكركم على كرم المتابعة مع العفو عن زلات البحث العلمي فقلما يسلم فرس من كبوة وعالم من هفوة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون والحمد لله رب العالمين).

الهوامش

١- دلائل الإعجاز، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م،ص ٩.

٢- المصدر نفسه، ص ١٣.

٣- كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م،ص ٥٦.

٤- المصدر نفسه، ص ٥٦.

٥- الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م، ص ٢٨٨.

٦- القاموس المحيط ١٨٢/٤ مادة نظم.

٧- الكليات، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م، ص ٢٦٠.

٨- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت . لبنان، ط٢، من دون تاريخ، ص ١٧٩.

٩- أسرار البلاغة تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت . لبنان، ط٢ ومن دون ذكر تاريخ الطبع. ص ١٧٩

١٠- شرح ديوان الأعشى لحنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان، ط١/١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م، ص ٢٣٦ . وانظر دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م، ص ١٣٥، والتراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر لعبد الفتاح لاشين، د. صالح بلعيد، ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر، ط١/١٩٩٤م، ص ٩٨ .

١١- دلائل الإعجاز، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م، ص ١٣٥ و١٣٦.

١٢- يراجع كتاب فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، من دون طبعة وتاريخ، ص ١٩٩ و٢٠٠.

١٣- دلائل الإعجاز، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م، ص ١٣٤.

١٤- الكهف ١٨.

١٥- دلائل الإعجاز، تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م، ص ١٣٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- أسرار البلاغة في علم البيان تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق السيد محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت . لبنان، ط٢ ومن دون ذكر تاريخ الطبع.

٢- التراكيب النحوية وسياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني د صالح بلعيد، ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر، ط١/١٩٩٤م.

٣- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مع بيان مصطلحات القاموس للشيخ نصر الهوريني، دار الجيل بيروت، وتم طبعه في شركة مكتبة، ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر في يوم الخميس ٢٨ شعبان١٣٧١هـ . ٢٢ مايو ١٩٥٢م. ومن دون ذكر الطبعة.

٤- الكليات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسني الكفوي، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان، ١٤١٩هـ . ١٩٩٨م.

٥- دلائل الإعجاز في علم المعاني تأليف عبد القاهر الجرجاني تحقيق السيد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ط١٤٠١هـ . ١٩٨١م.

٦- شرح ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، د. حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان، ط١/١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م.

٧- فقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي(٤٣٠هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت . لبنان، ومن دون ذكر سنة الطبع، والطبعة.

٨- كتاب التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥.

آفاق المعرفة



سراب العقل

محمود هاشم محمد الكحيل ٭

المقدمة:

ميز الخالق الإنسان بالعقل وجعل طريقة استعماله مصدر قيمة صاحبه. والبشر وإن جعلوا من الخير معياراً للتمييز والتفضيل فقد ينال الكثير منهم مرتبة غير مشرفة لكن الإنسان قادر على تبديل نهجه في الحياة كأن يصبح الشرير خيراً والعكس بالعكس صحيح وهذا لا يحصل إلا بآلية العقل التي ميزت الإنسان عن جميع المخلوقات ومنحته القدرة على ذلك.

٭ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان وليد الحسيني.

إن فائدة وقوة العقل تتناسب طرداً مع قدرته على رؤية مالا تراه العين ولا تدركه الحواس وعكس الحال يعني اقتراب الإنسان من البهيمية حيث تتولى الغريزة والحواس مهمات الحياة كافة ونحن إن قارنا بين قوة الجسد الإنساني وقوة جثة الحيوان ستكون المقارنة ليست لصالح الإنسان، بمعنى أن السيادة من حيث القوة الجسمية للأقوى لكن نعمة العقل هي التي أخلت بهذه الموازين لصالح الإنسان. أما الإنسان الذي لا يستطيع تمييز نوعية الملكات التي تتحكم فيه فإنه سيكون تحت رحمة الملكة الأقوى ولكن أليس من الخير أن لا تكون طبيباً بدلاً من أن تكون طبيباً فاشلاً وكذلك حال العقل إذا كان خادماً للنفس الشريرة فإن أداءه سيكون فائقاً لسوء استخدامه ولو أن العقل خلقه الله في حيوان لحكم على الكائنات الحية بالانقراض وانتهت غاية الله من خلق الحياة على كوكب الأرض ولابد من أن يكون قد تأكد لنا أن العقل يرضخ حكماً للإدارة الآدمية مما يعني أن مسؤوليتنا مباشرة عن كل ما ينجم عنا من أفكار وأفعال، ولعلنا بذلك ندرك أن طريقة تشكل العقل تتم بالشكل التدريجي عبر جمع معلومات تبدأ منذ بدء حياة الجنين وتنتهي بالموت أي إن الإنسان لا يمتلك من خارج ما تعرف عليه أي شيء آخر وكل ما لم يتعرف عليه العقل ذاتياً يكون منقولاً أو متناقلاً كالقصص والأساطير والرسالات السماوية وعلى العالم أن يتخلى عن الأحكام المسبقة كي يستنبط وجوده وقيمه ومفاهيمه لكن العقل وإن بلغ قمة مجده جودةً واقتداراً وأداءً فإنه خاضع للتراجع بسبب مرض يصيبه من جراء صدمات نفسية عنيفة أو تعاطي مخدرات وغير ذلك وهذا يؤكد لنا أن العقل ليس آلة للخير والشر بل هو مرشدنا إلى الوسائل الفضلى التي تصل بنا إلى ما نريد الوصول إليه بأمور نفسية بحتة مثل (الحب، البغض، الهوى، الأنا، الطمع، الحقد، الحسد وغير ذلك الكثير من الغرائز النفسية البحتة) وبذلك يتبدى لنا أن العقل هو القائد الأعلى للإنسان وما من أمة سمت أو تخلفت أو انهارت إلا بعقول أبنائها ومن هذه المقدمة تبدأ جولتنا في سراب العقل.

سراب العقل هل يعني اقتناعه بما رآه العقل أو وصل إليه من غير أن يدري أن الذي تعرف عليه ليس أكثر من شيء تشبَّه بما يريد إدراكه أو وهم لا يمتلك من الصحة أو المصداقية أي شيء على الإطلاق، إنها حالة شديدة الشبه بالخدع وإن لم نعرف أو نتعرف على شخصية المخادع.

الصورة الأولى في ملفات العقل هي عادةً الأكثر تأثيراً والتي قد يصعب تبديلها بما هو حقاً أفضل منها، وخير مثال على هذا القول ما لاقاه الرسل خلال دعوتهم الناس للتخلي عن «آلهتهم» التي لم تكن سوى حجارة لا خير فيها، وطلبهم تشذيب العقل والإيمان بالإله الحقيقي خالق الكون، وعلى الرغم من وضوح الفكرة وسذاجة ما كانوا يعتقدون به؛ لم يتمكن العقل من الموافقة عليها ولا تقبلها بل والأغرب من هذا أنه سخر منها.



إن الترتيب الزمني لولوج الصور المختلفة في تضاريس العقل بقدر ما تعني التقبل الأول لها. فقد نرى الكثير من الفتيات الجميلات، غير أن القلب قد لا يميل إلا لواحدة يصعب عليه تبديلها حتى ولو بأفضل منها. لهذا فإن تعامل الإنسان مع الفكر فيه مسحة من الهوى، إن استهوى فكرة انبرى مدافعاً عنها يرفض تبديلها ولو بأفضل منها، لا لشيء إلا لعجزه عن الإدراك بأن الأخرى هي حقاً الأفضل، أي وكأن العقل أصيب بالعمى فعجز عن الرؤية، وهنا يظهر السراب ويختفي الماء، حينئذ تحتاج المسائل لبذل جهد إضافي ونية خالصة بعد التوصل بالعقل لحالة المرونة التي يستطيع من خلالها رؤية الحقائق بعيداً عن الحجاب الذي كان يفصله عنها.

أزمة العقل، تعني سوء ترشيد هذه الملكة لما خلقت لأجله، الأمر الذي يسوقنا بالشكل

الحتمي للحالة التي سـميت بسراب العقل، فما وصـل طالب السراب إلى الماء، وإن كل مسـعى من هـذا القبيل لا يعني مضـيعة الوقت فحسب بل سـوق النفس عن جهالة إلى الإعياء، ربما والسقوط أو حتى الفناء... إنها عملية استنزاف للقوة على تنوعها.

لا يمتلك الإنسان أية أداة للتقدم والرقي غير العقل، وما ترقـت أمة من أمم الأرض إلا بجودة عقـول أهلها، ووجود العقل بحد ذاته ليس مبرراً لبلوغ هذا المبتغى، بل الأهم من الوجود هو النوعية، فالعقول المشوهة أو المكبلة بعقد نفسية وتقاليد بالية ونقص في المعرفـة والخبرة قد تكـون أداة تخلف أكثر منها وسيلة رقي وتقدم، لهذا نقول إن العقل الجيـد هو الآلـة الوحيدة التي تسـاعدنا على الرقي والتقدم، وإهماله يقودنا لعكس ذلك.

كل الأمم قاطبـة تمر في فترات متباينة من حيـث التحضر أو التخلف، تتناوب هذه عليها تناوب الفصول على مدار السنة، غير أنها قد تصحو بدافع الحاجة والألم، فتصنع لنفسـها واقعاً جديداً يخلصها من الماضي الـرديء، أكان الأمـر مـن خـلال الأقلام الحـرة، أو طرائق متنوعـة، لكننا كعرب لم نتمكن خلال تاريخنا من الصحوة والعلو إلا في حقبة تاريخية واحدة هي ظهور الإسلام الذي امتد بطيـف القوة والعزة حتى بداية انحدار الدولة العباسية، لنعيش وحتى هذه اللحظة تحـت رحمة الغـرب أو تغزو أمةٌ ما أراضـينا لنعيش لسـنوات أو حتى قرون تحت أمرتهـا، أو تتحكم بنـا الأمم القوية بحـدة أنيابها ولو من غـير احتلال مباشر، فتفرضـ علينا كل ما تريـد، ونحن لا نرى أمامنا خياراً آخر غـير الطاعة، في الوقت الذي نتعامل فيما بيننـا بطرائق بعيدة كل البعد عـن العقلانية والمنطق، بـل وأحياناً بطرائق تنبثق من حالات نفسـية مشـوهة أو حتـى مريضـة، وكأن كل الذي عانيناه لم يشكل بعد الحافز الكافي لتبديل هذا الواقع والانتقال إلى أفضل منه.

ولابد من تأمل العلل والأسـباب، خاصة وأن الحدث حصل في أرضنا وشعبنا ولم يكن بالغريب عنا، وهنا يكون مدى الاستفادة من دروسـه في أفضل حال، وبهذه الطريقة من التأمل والدراسة قد نستطيع البعد عن حالة السراب والضياع والوهم التي لم نتمكن حتى اليوم من التخلص أو الخروج منها.

كمـا أن علـة النهوض تكمـن في نقاط عدة:

١- وجـود البيئة الاجتماعية المشـبعة بالجهـل والتخلف التي تحتـاج للتغيير، أي المواتية والقابلة لتقبل أي فكر إصلاحي.

٢- حداثة الفكر وشدة بريق محتواه، خاصة ما يعني الانقلاب الجذري على كل المفاهيم السابقة التي تعارف أهل الجاهلية عليها، الأمر الذي جاء عليهم مجيء الصاعقة أو الزلزال بكل ما يترافق مثل هذا الحدث أو التحول العنيف من إثارة للفكر والمشاعر خاصة منها الحمية والحماس.

٣- انطلاق الفكر ككيان موحد متجانس غير مشتت، ليمتد كضوء الشمس ويسود الجميع.

٤- انطلاق الإنسان ككيان فكري متكامل، الأمر الذي تتمناه الأغلبية التي تعيش حالة مناقضة للعقل والعدل والأخلاق.

٥- صدق الإيمان والإخلاص بطريقة إنسانية أخلاقية عادلة بعيدة كل البعد عن المصلحة الشخصية.

غير أننا لو دققنا بذلك لأدركنا أن العلة لا تكمن بكل تأكيد في الجوهر والمفاهيم، فالشمس تشع نورها بذات الفاعلية والتأثير، نورها لا يتبدل إلا إذا حجبناه خاصة هنا لايمكن ولا يجوز اتهام الشمس أو شعاعها، وإنما يجب البحث عن علة القصور والخطأ الكامن فيمن يتعاطى مع نورها ودفئها.

وحينما يدخل العقل السراب يصبح عاجزاً عن استيعاب حتى البديهيات، وهنا يكون التيه قد بلغ حدوده القصوى.

وللمزيد من التوضيح نسوق بعض علل التعثر وحسب الأولوية أخذاً بالأساسيات دون التطرق للتشعبات وبعيداً عن الدراسات النظرية.

١- الجهل بقيمة المفاهيم أو الأسس الخاصة ومنها الاجتماعية والسياسية، وهذه النقطة بالتحديد هي من أخطر ما تعانيه الشعوب المتخلفة، لتكون هذه الأمم أشبه بالهنود الحمر حين كانوا يبادلون الذهب بحلى مزيفة صنعت من الصفيح والمعدن الرخيص، جلبها الغزاة الأول للقارة الأمريكية معهم، وذلك لمجرد أن لها بريقاً أو رنيناً، بمعنى أن الكثير من القيم العامة لا تحظى ربما ولا حتى بالقليل من الاهتمام من قبل العديد من ذوي النفوذ أو السلطة في هذه الشعوب، ذلك لأن مفهوم ومعنى الحرية والديمقراطية الذي يشكل قدس الأقداس في بوتقة المفاهيم العامة مشوه لا يلم به وأهل النفوذ يعجزون بالبداهة عن التعامل معه أو الاستفادة منه، إنهم ينظرون إليه من نافذة ضيقة، بل وربما من نافذة أخرى غير تلك التي تخص النظر إليه، وكأنهم لا يدرون أن الإنسان لا يصلح إلا بالحرية، بمعنى أن العقل وتطور العلوم والتحضر والعيش في ظل دولة يسودها قانون لا يتأتى بعقول وسواعد العبيد، وأن

الإنســان المحـــروم من الحريـــة عاجز كلياً عـــن الابتكار أو التطور، وهـــو إن ولد ونما في مثل هذا المجتمـــع -أي مجتمع العبيد- فســيكون حكماً مشوهاً في تركيبته النفسية والعقلية، والســيد الذي يتحكم بهذه الأمة لا يحكــم بالتالي دولة يعيش بها بشر بل من أشـباه البشر، بعد أن تم تشويههم في بنيتهم النفســية والأخلاقية والسلوكية حيث تشيع الانهزامية والنفاق ويسود الفساد.

هذا مــا يخص قيمــة المفاهيم العامة، والأمر إن دل على شــيء فإنه يدل على شح وضحالة مميزة للعقل الجاهل بهذه المفاهيم وبمــا يمكنهــا أن تفعله في الانســان كفرد وأيضــاً في الأمة والدولــة وما يمكن لها أن تفعله خاصة بما يعني التطور والتقدم، لكن هناك الكثير من سـوء الفهم لقيمة الشــيء وأهميته وممــا يخص حياتنا الشخصــية وفهمنــا للمســائل الحياتية علــى تنوعها، وهذه إن دلت على شــيء فإنما تدل أيضــاً على الجهل وسوء الفهم.

٢- فقدان الحس بالأولويات، الأمر الذي يعنــي أن الأمة إذ تتعامل مع ملفات متنوعة وبغض النظر عن صحتها أو بطلانها تفتقر لملكــة التعرف علــى الأولويات، ولتوضــيح المعنى نقــول؛ إن الدول المتخلفة التي تعاني اليوم من الإشــكاليات في حــين أن الأولوية والصــواب يكمنان في التوحد حتى لو أدّى للكثير من الخســارات، فهــذه الطريقة من التعامل هي الوحيدة التي تنفع وتثمر، ولئن كان يوم الإثمار متأخراً بعض الشيء، فذلك خير من انعدام الثمر.

إن المواقف تتناســب مع قيمــة وأهلية من يتخذهــا، ومن يفتقر للنبل والأصــالة لن يتمكن أن يكون نبيلاً ولا أصــيلاً، ففاقد الشيء لا يعطيه، إن المواقف العظيمة تحتاج لرجال، وويل لأمة قل الرجال بين ذكورها.

إن الأولويــة اليــوم وغــداً ودائماً هي للعلوم التطبيقية والثروة والقوة، أي للفيزياء والكيمياء والصــناعة والتجارة وغيرها مما يمنحنا حصــانة تحول دون غزو لصــوص الارض لبيوتنا، أما الخلافات العقائدية أو التنور العقائدي وغيره فهذا أمر نســتطيع السعي فيه لكن في مرتبة ثانية تالية للأولى التي يتعلق وجودنا بها.

٣- ضعف الإرادة وقلة الطموح الساعي لعزة الأمــة ورفعتها، بمعنى أن الأغلبية من أفراد الأمة وأهم عناصرها من يمتلك زمام السلطة أو المسؤولية يفتقرون للطموح الذي يدفع الأمة باتجــاه العزة والمجد، والأغلبية الساحقة من هؤلاء ولخور هممهم وضحالة مقدرتهم وعلمهم يسخرون كل جهودهم بل وجهود غيرهم لمصالحهم الشخصية، بحيث

تبقى المصلحة العامة في منأى عن السعي والقصد، أي افتقار الأمة أو والأصح من هذا افتقار مراكز القيادة والمسؤولية للرجال الأكفاء.

٤- عدم التفريق فيما بين الوسيلة والغاية، بمعنى أن الكثير منا يناضل بل وربما يموت لأجل الوسيلة في حين تبقى الغاية في معزل، كلنا يعرف أننا إن سعينا فإنما نسعى بوسيلة؛ لكن الأمر يكون هو الغاية، فالوسيلة التي لا توصلنا لغاياتنا لا قيمة لها البتة حتى وإن ارتدت كل الحلل الجميلة، والوسيلة من غير غاية تبقى مجرد مضيعة للوقت والجهد. وخير مثال على ذلك هو تعاطينا مع العقائد على تنوعها، حيث يسعى كل طرف لإثبات صحة وأفضلية عقيدته على بقية العقائد.

٥- تشتت الجهود في اتجاهات متنوعة متباينة غالباً ما تكون متضاربة، بحيث يتحول مسار الجهد العام من جهد مركز على غاية أو استراتيجية واضحة محددة، إلى تركيز للجهود باتجاه أصحاب التوجهات الأخرى، بحيث تشعر الأمة أنها تبذل جهداً غايتها منه هو التقدم والرفعة، غير أن الحقيقة هي أن هذه الجهود تذهب كلها في مهب الريح، هذا إن لم تتسبب بتفاقم تخلف الأمة. وخير مثال على ذلك؛ أن العديد ممن يرفضون الدين يبذلون جهوداً مركزة موجهة لمحاربته بشتى الوسائل وتحت ذرائع متنوعة أهمها الإرهاب والتزمت والتشتت الطائفي والتخلف، في الوقت نفسه فإن المتدينين ممن يلقبون أنفسهم بالعلمانيين، والمتدينين أنفسهم يبذلون جهوداً متنوعة الشدة في محاربتهم بعضهم بعضاً، بمعنى أن أبناء التوجه أو المعتقد الواحد يتصارعون فيما بينهم.

إن من الحكمة والعقل أن لا ننساق خلف الغرائز غير المنضبطة من غير إعمال للعقل. لأن أزمة أمتنا في سوء ترشيد واستعمال العقل، وليست أبداً في العقائد أو المبادئ، فالجاهل المتخلف وأياً كان انتماؤه العقائدي سيعطي النتائج نفسها، لهذا لم تتمكن أية فئة من فئات المجتمع وعلى الرغم من تباين وتنوع معتقداتها من تحقيق أي شيء يميز هذه عن تلك، وإن القول بأفضلية حزب على آخر وبما يخص السياسة وسدة الحكم قولٌ بعيدٌ عن المنطق والواقع، ذلك لأن العلة لا تكمن في نصوص العقيدة وأفكارها بل في الإنسان، لهذا نرى الأمة وعلى الرغم من تناوب سادتها وما يحملونه من أفكار وعقائد لم تعط أي ثمر مميز، ذلك لأنهم لم يهتموا بالإنسان وما يحمله في شخصيته وجوهره، بل نظروا لما يتوجب عليه تحقيقه.

وكيـف تتمكـن سـيارة لا وقـود فيها من السـير؟. العلة تكمن إذاً في جهل الإنسـان -أي المواطن- وتخلفه وليسـت فيما يحمله مـن فكر عقائدي، والجهل هو علة تشـويه الدين أو غيره من العقائد وتحويل مسـارها إلى عكسـ مـا رمـت إليه، لهـذا نرى من المؤمنين بأية عقيـدة كانت من يضرب بهم المثل لحسـن سلوكهم، ومنهم من هو عالة لا على الأمة بل وعلى نفسـه وأهله أيضاً، من هنا نرى لزوم تطوير العقل بشتى الوسائل، من غير ذلك سيكون هذا عاجزاً عن تحقيق أي شيء نتمنى بلوغه.

إن العقـول الضـحلة الواهنة هي تلك التي تنظر للأمر دون رؤية الجوهر، كما أن جل خلافاتنا وتعثر مسـيرتها يكمن في أننا لم نسـتطع التخلي عن العصـبية والتعصب للـرأي والمعتقد، وأننا بحكـم معاناة القهر التي نعانيها عبر قـرون طالت لم نتثقف إلا بعقليـة الفرض والقهـر، أي إننا نريد قهر الطرف الآخر وفرض ما نراه كاملاً بالشكل المتصـلب المتحجر. قـد تلتقي حتى بمن لا يوافق على نشر العلم والثقافة أو القضـاء على الفقـر إلا من خلال تشريعات علمانية أو دينية، في حـين أن تلبية هذه الغاية هي المهم وليس الإطار الذي ترسم فيه، بل ومن العقول المتحجرة من يرفضها.

الأمة التي تحجرت عقـول أبنائها هي أمة غير قابلة للتطور والتقدم، لا شـيء إلا لأن هذه «العقول» تسـببت لنفسها بشلل تام لأطرافها الأربعة، والمشـلول غير قادر على التقدم ولا حتى على الحركة، كل ما يستطيع فعله هو الكلام، وهل الكلام من غير فعل لا ينفع في شيء؟

إن الافتقار للإخلاص والأمانة يسـبب للأمة الإحبـاط، والجمود العقلي والتقوقع حول المصالح الضيقة الآنية ليكون مثل هذا الوضـع بداية عطش النبتة الذي إن استمر فستقتلها وتموت من قبل أن تعرف الإثمار. ووجود حاشـية وبطانة فاسـدة، أو مفتقرة للأهليـة والكفاءة، مثل هـذه البطانة تكون عادة مضـرة للجميع من غير اسـتثناء وإن اختلف توقيت الضـرر، أي إنها مؤذية، وإن اللجـوء إليها لا ينم عن حكمة ولا بعد نظر لأنها ستكون مَهلَكاً لمن وضعها قبل غيره.

وإن الناس إن تساووا في الحقوق العامة والخاصـة، غير أنهم غير متسـاويين لا في النوايـا ولا في العقـول، فالفوارق فيما بين البشر متباينة كثيراً، بل وكثيراً جداً، لتصـل المراتب التي تميز الأبالسة من الملائكة. من هنا نرى أن انتقاء البطانة سـيحدد مسيرة وصورة النظام أو الحكم، بل ويرسم مستقبل الأمة أو الدول، وما علت أمة إلا بعلو عقول أبنائها الذين يسوقون الخير لها.

الخاتمة:

إن النتيجة التي نخرج بها من هذا العرض الوجيز تتمثل في أن العقل يتيه أحياناً عن الهدف عندما لا يقصد هدفه بواقعية وحكمة وذكاء، وسراب العقل شديد الشبه بالخداع، كدعوة الرسل الناس للتخلي عن عبادة الأوثان وكذلك ميل القلب لجميلة واحدة رغم عديد الجميلات، أو الدفاع عن فكرة رغم وجود أفضل منها، إنه العجز عن إدراك الحقائق دون حجاب، وبالتالي فإن ذلك يشكل أزمة من أزمات العقل الناجمة عن سوء ترشيده وهذا مؤداه سوق النفس إلى إعياء واستنزاف الجهد الإنساني وبالتالي فإن سراب العقل يؤكد لنا أن العقل السليم هو أداة تقدم ورقي والعقل المشوه المكبل بالعقد النفسية والتقاليد البالية والتدجين ونقص المعرفة والخبرة.. هو أداة تخلف، أما صحوة الأمة فكانت في حقبة ظهور الإسلام حيث نهضت الأمة ببيئتها الاجتماعية وانقلابها على مفاهيم أهل الجاهلية وتنامي المنهج العقلي الأخلاقي الإنساني والابتعاد عن الشخصنة والأنانية وساد هذا النمط في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز أيضاً أما العقائد السامية فإنها تصبح عبثاً عندما تكبل بقيود التعثر وخيبة الأمل ودخول العقل في حقول السراب بحيث يصبح العقل عاجزاً عن استيعاب حتى البديهيات ويسود الجهل وتختل القيم وذلك سبب تعثر الأمم والشعوب وفقدان الحس بالأولويات المتكاملة مع الصواب والمواقف المتناسبة وقيمة وأهلية متخذها، وضعف الإدارة وقلة الطموح بسبب غلبة المصالح الشخصية وتدني الكفاءة وعدم التفريق بين الوسيلة والغاية وتشتت الجهود تحت ذرائع التزمت والطائفية والتخلف والجهل وتضخم الأنا وشيوع الرشوة ونهب المال (عام أو خاص) والعصبية والتعصب، للرأي والمعتقد وعدم رؤية الجوهر والاعتماد على الأقوال وكل ذلك يؤكد لنا بجلاء أن أزمة الفكر وسراب العقل عند الجاهل والمتخلف واحدة وأن الناس غير متساويين لا في النوايا ولا في العقول ولن تنهض أمة إلا بعلو قيم عقول نخبها وحتى لا يسيطر الفكر المتوحش والخام على الفكر العلمي النهضوي لأن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة ما الصالح المنشود.

آفاق المعرفة



أسرار أول أبجدية

فينيقيا

ترجمة: محمد الدنيا ○

كيف ومن اخترعها؟ لا يوجد سوى قليل جداً من الآثار للإجابة بشكل كامل على السؤال. عثر على أجزاء منها في مرتفعات سيناء ثم في مكان غير بعيد عن نهر النيل، ولكن من المؤكد أنها كانت لغة من شاطئ «المشرق»: بدايات اللغة الفينيقية واللغات السامية المجاورة.

مثّل اختراع الكتابة الأبجدية، في الألفية الثانية قبل الميلاد، بالنسبة لحضارات البحر المتوسط، والثقافات الأوروبية، الغربية والشرق أوسطية

○ مترجم سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

التي انحدرت منها، منعطفاً ثقافياً: قفزة نوعية حقيقية في عملية طويلة كانت قد شهدت تطور الكتابة من دون انقطاع منذ ظهورها في الشرق الأوسط قبل ذلك بنحو ألفي سنة...

إذا سعينا إلى تحديد ما يميز الكتابة الأبجدية عن أنماط الكتابة الأخرى، يمكن أن نقع على أربع سمات.

أولاً، هي كتابة لا تستند إلى معنى النص بل إلى الإنجاز الصوتي (التلفّظي): تنسخ متواليةً من الأصوات اللغوية. تدوّن إذاً لغةً خاصة، بخلاف الكتابة الصينية مثلاً، التي ترتبط كل علامة فيها بفكرة، بمفهوم أو معنى.

ثانياً، تفترض الكتابة الأبجدية تحليلاً متقدماً للغة، تفكيكاً لأصوات اللغة إلى فونيمات(وحدات لفظية)phonèmes،بما في ذلك الحروف الصوامت consonnes التي هي تجريدات لأنها وكما يدل عليها اسمها لا يمكن أن تلفَظ بمفردها. عدا ذلك، هذه الفونيمات البسيطة وحدها تدوَّن، باستثناء أنماط علامات أخرى مثل المصنِّفات classificateurs (التي تدل على أن الكلمة التالية تشير إلى إنسان، إله، شيء خشبي...)، وأدوات التحديد النحوية. أخيراً، تستخدم هذه الكتابة عدداً صغيراً من العلامات: من ٢٠ إلى ٤٠ وفقاً لثراء اللغة التلفّظي. هذه المنظومة إذاً سهلة الاكتساب والاستذكار احتمالاً. وستغدو، في الحضارات الغربية، محركَ الانتشار الواسع لاستخدام الكتابة والقراءة، المسمى بكل حق «الأبجدة» alphabétisation (تعليم القراءة والكتابة لمن ليس لديه ألفبائية معينة من غير المتعلمين).

يستحيل بالتأكيد تتبع التطور التاريخي الذي أفضى إلى اختراع هذه المنظومة الجديدة، ولا حتى تحديد موضع ظهورها بشكل دقيق. يمكننا على الأكثر أن نستغرق في بضع تأملات حول أقدم الأدلة المعروفة. كان قد عثر على الأدلة في هضبة «سرابيت الخادم» جنوب غرب سيناء. هذا المكان غني بأكاسيد النحاس، وقد استثمره المصريون منذ الدولة الوسطى من أجل الحصول على الفيروز. وحيث أن هذه المنطقة الصحراوية غير مواتية كثيراً للاستقرار، فقد كانوا ينظمون حملات سنوية قوامها عمال مناجم وبعض الموظفين الاختصاصيين. كانت المنشآت الثابتة، التي استكشفها علماء الآثار، مصغرة إلى أقصى حد ممكن: مناجم طبعاً، ومعبد بشكل خاص مكرس للإلاهة «حتحور»، حامية الفيروز.

ضم هذا الموقع، مثلما أظهرته التنقيبات

الآثاريـــة، عدداً كبيراً مـــن النقوش الأثرية، المصريـــة في معظمها. لوحظ مع ذلك، منذ نهايـــة القرن التاســـع عشر، أن بعضـــاً من هـــذه التســـجيلات، المنقوشـــة في غالبيتها على جدران صـــخرية عند أطراف عدد من المناجـــم أو في مداخلها، ينتمي إلى منظومة كتابيـــة مختلفـــة، مع عـــدد من الإشـــارات الأصـــغر حجماً. وإذ لم يعـــرف أحد مع أية منظومة تتوافق هذه النقوش، فقد ســـمّوها «الســـينائية البدئية» protosinaïtique. كان من المناسب في الواقع تمييزها عن نقوش البدو الرحل المحفورة على الجدران بالكتابة النبطية، وهـــي أحدث زمناً بكثير، وقد عثر عليها منذ زمن طويل في أنحاء عدة من شبه جزيرة سيناء، وأطلق عليها وصف «النقوش السينائية».

تأويـــل

في عـــام ١٩١٦، قدم عالم الآثار المصرية القديمة «أ. غاردينر» A. Gardiner أول تفســـير لهذه الكتابة الجديـــدة. لقد أمكن أن تُقرأ على تمثال «أبو الهول» صـــغير عثر عليه في المعبـــد، وكذلك علـــى تمثال كتلي وجد بجواره، متواليةً من ٥ علامات. أوحى «غاردينر»، مســـتنداً إلى معنى نقش مصري موجود على تمثال «أبو الهول» الصغير نفسه، مفـــادُه «محبـــوب حتحور، ســـيدة الفيروز»، بأنـــه قد ميز فيه الحـــروف LT،LB، التي ترجمها «إلى الســـيدة (بعلة)»، هذا التركيب التعبيري الذي يضم حرف الجر L «إلى، من أجـــل»، وLT،B (بعلة) مؤنث L،B، al،Ba (بعل)، «ســـيد». مُيِّزت أيضـــاً على الجانب الآخـــر من تمثـــال «أبو الهول» نفســـه وفي مكان آخر متوالية LT‘(B) M‘HB، التي يمكن ترجمتها «محبوبُ)اســـم المفعول من الفعل ’HB» حبَّ / أحبَّ) «الســـيدة». نقرأ أيضـــاً الكلمةَ TNT»، «هِبة»، وأيضـــاً في بعض الأحيـــان كلمات ذات الجذر NQB، «نقْب»، وهذا ليس مدهشاً كثيراً ضمن سياق المناجم.

أفضـــت قراءة هـــذا التعبير البســـيط، الذي كان تأويله مقبولاً على نطاق واسع في الوسط العلمي، إلى نتائج هامة. أولاً، تسجّل كل علامة حرفاً صـــامتاً. يعني ذلك أن هذه الكتابـــة كتابة أبجدية من النمط الســـاميّ. كانت الكلمتان المصادَفتان تحتمان أن تكون هـــذه اللغة علـــى نحو أدق لغةً من شـــاطئ «المشـــرق»، «طليعة» اللغـــة الفينيقية ولغات أخرى من المنطقة. بدت المنظومة مكيفة مع اللغـــة: في اللغات الســـاميّة، كالعربية مثلاً، الســـمة الدلالية يحملها جـــذرٌ كلمة، ثلاثيُّ الأحـــرف الصـــامتة عمومـــاً، ويتحقق عبر شكل نحويّ معيّن، المعنى الدقيق، بسابقات

ولاحقـات والأحرف المتحركة. فمن «كتبَ»، نصـيغ كلمة «كتاب»، و «كُتُـب»، و«كاتِب»، و«مكتـب»، و«كاتَب»، و«كتَّـب». تتيح كتابة الحروف الصـوامت وحدها فهـم النص، وهذا غير ممكن في لغات أخرى، كالفرنسية مثلاً.

ALEPH، BÊT... (آلف، بيت...)

شـكلُ علامـاتِ التسـجيلاتِ الأثرية السـيناثية البدئية، وهي عبارة عن سلسلة حروف كتابة تصـويرية، مـوح جداً كذلك. وهكذا، فإن الحرف ، يـؤدّى بعلامة تتخذ شـكل رأس بقريّ. إلا أن الحرف الأول من الكلمة هو الذي يشـير إلى الثور في اللغات السامية، خصوصاً في الشمال الغربي.

توجد أمثلة أخرى حول العلاقة نفسـها بين شكل العلامة وشيء يبدأ اسمه بالحرف الذي يشير إليه. للحرف B شكل تخطيطي لمخطـط منـزل، يقـال bêt («بيـت») في الفينيقية. أصـبح الحرف bêt في اليونانية beta. يصوِّر الحرف، على شكل عين، توجد فيهـا حدقة أحياناً. تقـال ayn، («عيْن»)، الكلمة التي تشـير تحديداً إلى العين. وهذا هو أحد الحروف الصوامت التي لم يستعملها الإغريق، والتي استخدموها من أجل تدوين الحروف الصـوائت. يبدو بذلـك أنهم قد وضعوا سجل العلامات الأبجدية الأولى بأن انتقوا، بالنسـبة لكل حرف صـامت، كلمةً يكـون هذا الحرف الصـامت حرفَها الأول وحيث يمثل الشيءُ الذي يشير إليه الحرفُ المعني. ذاك هو نظـام «الاقتطاع الهجائي» acrophonie.

لم تخضـع النقوش الأثرية السـيناثية البدئية (٣١ نقشـاً تقريباً تشـتمل على ٣ إلى ٥٠ علامة) لتفسير مشترك، رغم مرور أكثر من قـرن على محـاولات تأويلها. كما أن العلامات نفسـها ليست جميعها مميزة بشكل مؤكد. يبقى معظم النتائج التي يمكن استخلاصـها منها حول أصل الأبجدية في باب الخبرة.

هناك مسـألة نوقشت كثيراً: تاريخ هذه الكتابات المنقوشـة. كانـت هذه المناجم قد استثمرت من جانب المصريين خلال فترتين طويلتين: الدولة الوسطى، في بداية الألفية الثانيـة قبل الميلاد، والدولـة الحديثة بين ١٥٠٠ إلى ١٢٠٠ تقريبـاً قبـل الميلاد. وإذا عرفنا أن عمالاً ساميين من منطقة «المشرق» كانوا يعملون دائماً في مناجم الفراعنة، فإن من السـهل أن ننسـب إليهم هذه الحروف المكتوبة بشـكل غير متقن كثيراً. إلا أن هذا الأمر لم يتح مع ذلك الجزم حول ما إذا كانت تنتمي إلى هذه الفترة أو الأخرى. ونظراً لأن جـدران المناجم لم تقدم أدلـة كرونولوجية،



فقد جرت محاولات للاستناد إلى أسلوب نحت «أبو الهول» الصغير. ولكن لم يكن هذا الأخير كلاسيكياً كثيراً وأعاد عدد من الاختصاصيين بالفن المصري تاريخه إلى الدولة الوسطى تارة وإلى الدولة الحديثة تارة أخرى.

مع ذلك، من المشكوك فيه، في ذلك الزمن، القريب إلى حد ما على الأرجح من فترة اختراع المنظومة الأبجدية، أن يكون عمال مناجم يعملون في خدمة الفرعون قد تعلموها. كان يمكن أن يوجد بين الساميين الموجودين في «سرابيت الخادم» شخصيات من مستوى أكثر أهمية تدير شؤون العمال. يؤكد ذلك ذِكْرٌ لـ «أمير من رتونو retenou» في أحد النقوش المصرية، وكلمة «رتونو» كانت تشير إلى «المشرق». يبدو من الأرجح أن هذه النقوش، قليلةَ العدد جداً، تدل على مرور حملة أرسلها أحد الأمراء الساميين للحصول على الفيروز، لفترة لم يكن المصريون يترددون فيها إلى سيناء كثيراً. في هذه الحال، يمكن أن نعيد تاريخ هذه النقوش إلى «الفترة المتوسطة» الثانية من تاريخ مصر، أي، مع هامش شك واسع، إلى نحو ١٦٠٠ ق.م.

قرب الأقصر

يجب طبعاً أن لا نفسر هذا التاريخ على أنه تاريخ اختراع الكتابة. موقع «سرابيت الخادم» أكثر قسوة ووعورة من أن يكون ملائماً لمثل هذا الاختراع. أفضى استعمال تعبير «الكتابة السينائية البدئية»، هذه التسمية غير الدقيقة كثيراً، إلى نتائج متسرعة..

ما اكتشف بعد ذلك، في بدايات هذا القرن، ساهم في إيضاح الأمور، عندما عثر باحثون أمريكيون على نقشين آخرين، من النمط نفسه دون أدنى ريب، في مصر، بوادي الحول، على مسافة ٨٠كم تقريباً من الأقصر. أعلن عن الاكتشاف بطريقة مثيرة في الصحف الإخبارية اليومية. قالوا إنها أقدم من الأبجدية بقرنين. تطلّب تأكيدهم الإثبات، لم يكن هناك منشور علمي، ولا أحد يعرف إلى ماذا استندوا كي يؤرخوا نقوشاً على جدار صخري في واد كان مكان عبور طوال تاريخ مصر ويضم تسجيلات كثيرة من العصور كلها. لا يمكن أن ننكر مع ذلك أن نقوش وادي الحول تُظهر بوضوح أنها ليست كتابة لها علاقة بسيناء.

تأخذنا هذه النقوش ليس بعيداً عن النيل، ومن المؤكد أن هذه الكتابة الأبجدية الأولى هي الأقرب إلى الحروف الهيروغليفية المصرية من حيث الكتابة بالصور. ذلك أن مبتكرها /مبتكريها أخذ/ أخذوا من مخزون رموز منقوشة وليس من نموذج رافديني مسماري، أو استلهموا من حروف هيروغليفية حثية أو من كتابات كريتية. فضلاً عن ذلك، وكما الكتابة المصرية، لا تدوّن الأبجدية السامية سوى الحروف الصوامت. من هنا الفكرة، المؤكَّدة غالباً، أن ساميين ثنائيي اللغة ويعرفون الكتابة المصرية جيداً هم من ابتكر الكتابة الأبجدية.

مع ذلك، رأينا أن منطق هذه المنظومة ساميٌّ خالص. كانت الكتابة المصرية تتمتع منذ وقت مضى برصيد كامل من الإشارات أحادية الحروف الصوامت. كانت هذه الأخيرة، في الوقت نفسه الذي استخدمت فيه لنسخ الأسماء الأجنبية، مستخدَمةً بشكل خاص كمكمِّلات لفظية لكلمات كاملة، بهدف تأمين حسن القراءة. نظرياً، كان من الممكن عزلها لتكوين كتابة أبجدية محضة، وهو ما لم يفعله المصريون قط. إلا أن هذه العلامات ليست هي التي استأنفها مبتكرو الأبجدية السامية، أو ليس بالقيمة نفسها على كل حال. وهكذا، فإن الكتابة المصرية تميز الأفعى ذات القرن، مشاراً إليها بالعلامة F، والكوبرا، المشار إليها بالحرف ج. وفي الأبجدية السامية، عثر على أفعى واحدة مرسومة على شكل حرف النون. والنون المصرية مشار إليها على شكل خيط مائي بسيط، هذا الشكل الذي عثر عليه في الأبجدية السامية كتدوين لحرف الميم، الحرف الأول من «ماء». إذا كان رسم العلامات يشبه رسم الحروف الهيروغليفية المصرية، فإن المنظومة نفسها خاصة بالسامية.

لا نلمس إذاً عملية الاختراع نفسه، وتاريخه، ومكانه. من المحتمل أن لا تكون النقوش السينائية الأولى قد ظهرت بعد وقت طويل من تأليف المنظومة: لا يظهر في الإشارات مزيد من التطور، والتخطيط قياساً إلى الكتابة التصويرية pictogramme. أما من حيث المكان، فإن الأمر يخص بالضرورة موقعاً كانت الكتابات الهيروغليفية فيه مرئية بوضوح. يمكن أن يعني ذلك مصر، بل أيضاً شاطئ «المشرق»، أو «بيبلوس» («جبيل») التي كانت لها علاقات وثيقة بمصر منذ بداية الألفية الثالثة. لكن ذلك كله يبقى حتى الآن مجهولاً من دون شك.

بقايا رافدينية

الآثار الأحدث للكتابة الألفبائية التصويرية من الألفية الثانية نادرة ومبعثرة. عثر على بعض المنقوشات الكتابية، التي تتضمن كلٌّ منها عدداً صغيراً من الحروف، في فلسطين ضمن سياقات آثارية ممكنة التأريخ أو على آنية خزفية يمكن أن ننسبها إلى عصر البرونز الأوسط أو الحديث. فضلاً عن ذلك، هذه المنقوشات الكتابية، القصيرة بدرجة يتعذر معها فك رموزها، قليلة العدد جداً ولا تتيح هامشاً كافياً لرسم تطور الأبجدية قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. هل ذلك لأن حوامل الكتابة المستخدمة كانت مصنوعة من مواد قابلة للتلف (البردي، الجلد)؟. على كل حال، لم يكن للأبجدية من دون شك سوى استعمال محلي، مثل اللغة. في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كان ملوك «المشرق» يكتبون للفرعون باللغات المسمارية الرافدينية وباللغة الأكادية، التي كان استعمالها عالمياً. جرى تكييفٌ للكتابة الأبجدية مع اللغات المسمارية في شمال الشاطئ السوري خلال الفترة نفسها: من أجل تسجيل لغتهم المحلية، كان كتبة أوغاريت يستعملون أبجدية من ٣٠ علامة تتشكل من مسامير مخططة على ألواح صلصالية عثر على مئات منها. ربما كان استيراد البردي في هذه المنطقة الواقعة تحت الهيمنة السياسية الحثية مكلفاً جداً أو صعباً. ومن الواضح أن الثقافة الرافدينية كانت سائدة. إلا أن هذه المحاولة كانت عابرة واختفت الأبجدية المسمارية مع مدينة أوغاريت خلال غزوات «شعوب البحر» نحو ١١٨٠ق.م.

من جانبها، تطورت الأبجدية التصويرية وأصبحت أشكالها أكثر تخطيطاً. لكن الشكل الأساسي للحرف استمر غالباً. شهدت ذروة تطورها في بلدان «المشرق» عند بداية الألفية الأولى قبل الميلاد. ومنذ القرن العاشر – التاسع، انتشرت في المدن الفينيقية، التي

ستصــدرها إلى متاجرها في حوض البحر المتوسط، بما في ذلك فلسطين وما وراء نهر الأردن والدول الكنعانية السورية. بعد ذلك بوقت قصـير، اقتبسـها الإغريق وكيفوها، مسـتخدمين علامات غير مفيدة للمنظومة الصـواتية phonologique اليونانية من أجل تدوين حروفهم الصوائت voyelles.

طرحت مسـألة الحروف الصوائت هذه نفسـها أيضـاً على كتبة الشرق الأوسـط الغربي السـامي شيئاً فشيئاً. من المؤكد كما رأينا أن الحروف الصوامت هي التي تحمل معنى بشـكل رئيسـي في اللغات السـامية وتتشـكل الغالبيـة العظمى مـن الكلمات من خلال جذر ثلاثي الحروف الصـوامت يعطي المعنى الأساسي. لكن تدوين الحروف الصـوامت وحدها هو مصـدر التباسات: وهكذا، لا يتيح التمييز، غالباً، فيما إذا كان اسـمٌ أو فعلٌ هو بالمفرد أم بالجمع ولا يميز بين بعض الأشـكال اللفظية. تبقى الكتابة الأبجدية إذاً ناقصة. وكان الكتبة الآراميون أول من جهد لإيجاد حل، خصوصاً بالنسبة لتدوين الحروف الصوائت الطويلة، الملائم جداً في السامية.

آفاق المعرفة



أدبُ أن تكون محرِّرًا في مجلة

فاضل السباعي ٭

الجريدة:

ظهرت الجريدة اليومية أول ما ظهرت في أوروبة -حسب المصادر التاريخية- قبل القرن السابع عشر، وكان ظهورها في هولندا وألمانية والبندقيّة، ثمّ انتشرت في معظم بلدان العالم، وظهرت في العالم العربي قبيل منتصف القرن التاسع عشر في عهد محمد علي باشا، وعلى وجه التحديد في عام ١٨٢٨، باسم «الوقائع المصرية»، ناطقةً باسم الحكومة، تنقل الأخبار

٭ أديب وقاص وروائي سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

وتتضمّن المقالات، وممّن أسهم في تحريرها في القرن التاسع عشر رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق والشيخ محمد عبده. ثمّ ما لبث أن ظهرت «الجرائد» في بيروت والأستانة، ومرة أخرى في القاهرة وسواها من المدن العربية والعثمانية.

ويقول الأسدي م. خير الدين في موسوعته إنّ «أقدم جريدة في العالم جريدة صينيّة اسمها «باكين» صدرت سنة ٩١١ ق.م. ولا تزال تصدر»، ولم يذكر مصدره.

والجريدة مطبوعةٌ دورية تصدر عادةً كلّ يوم، وتنقل إلى قرائها الأخبار والأحداث الطارئة لإيقافهم على ما يَجدّ في العالم من تطوّرات سياسية، مقدّمةً لهم الأخبار من اجتماعية واقتصادية ورياضية وأدبية، فضلاً عن التعليقات التي يكتبها المتخصّصون عارضين آراءهم فيما يحدث في العالم.

والجريدة -كما في «لسان العرب»- سَعَفَةٌ (غصنٌ) من سَعَف النخل، طويلةٌ رطبةٌ ويابسة، وهي من النخلة كالقضيب من الشجرة. وكان العرب يجرّدونها من خُوصها ويعالجونها ويتّخذونها للكتابة، مثل كتابتهم في الرَّقّ (الجلد). وفي الحديث الشريف أنّ القرآن كُتب في جرائد.

والشدياق هو الذي أطلق على الدوريّة اليوميّة اسم «الجريدة»، وسُمّيت أيضا «الصحيفة».

المجلّة:

ولحقت بالجريدة المجلّة.

والمصطلح من العربية: المجلّة «الصحيفة فيها الحكمة» (جَلّ يَجِلّ: أسَنّ واحتَنَك). وقد سمّى العثمانيون كتابَ الأحكام الشرعية «أحكام المجلّة»، هذه التي ظلّ العمل بها جاريًا في سورية حتى صدور القانون المدني عام ١٩٤٩ في عهد حسني الزعيم.

وتصدر المجلة أسبوعيةً (كمجلة «أبيض وأسود»)، أو شهرية (مجلة «المعرفة»)، أو فصلية، كلّ ثلاثة أشهر («التراث العربي»)، وقد تصدر كلّ ستة أشهر («المجلة العربية للثقافة»، عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم-أليكسو، تونس)، أو كلّ سنة («مجلة تاريخ العلوم العربية»، عن معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، وهي «نصف سنوية» ولكنها في الواقع تصدر كلّ سنة أو كلما توفّر لها من المادة ما يشكّل عددًا)، وقد رأيت مجلةً تحوّلت من «نصف سنوية» إلى أن تصدر كلّ أربعة أشهر («مجلة اتحاد الجامعات العربية للتربية وعلم النفس»، عن كلية التربية بجامعة دمشق).

وتنشر المجلة المقالات والدراسات والبحوث في شتى الموضوعات، وقد



تتخصّص في علم أو أدب أو فنّ من هذه كلّها، ويغلب أن تكون في هذه الأحوال فصلية («الحياة التشكيلية»، «الآداب العالمية»). وتتميّز نصوص المجلات بالجهد والإتقان، وفي شكلها قد تتّخذ حجم كتاب عادي (كمجلة «الباحثون») أو أن تكون كبيرة الصفحات («جريدة الفنون»، الكويت، فهي مجلة شهرية وإن تسمّت جريدة)، وقد تكون في حجم وسط بينهما (مجلة «الموقف الأدبي»).

تليين مفاصل اللغة:

وقد كان من شأن الجريدة والمجلة أنهما عملتا على تنشيط الفنون الأدبية الحديثة، وخاصة الرواية والقصة والمقالة، وكانت عاملاً «في تليين مفاصل اللغة العربية لتؤدّي المعاني الحضارية على أيسر سبيل»، كما يقول جبور عبدالنور في «المعجم الأدبي»، إلاّ أنّ اللغة تنحدر فيهما أحيانًا حتى ليُقال «لغة جرائد»!

وكان في سورية، منتصف القرن العشرين، كثيرٌ من الجرائد، ولم يكن فيها من المجلات الثقافية إلاّ دوريةٌ ثقافية تصدر أسبوعيةً بدمشق على هيئة جريدة اسمها «النّقّاد» (١٩٥٠-١٩٦٣)، يجد فيها الكُتّاب واحتهم ويمارسون سجالاتهم، إلاّ مَن اتّجه إلى ما وراء الحدود -وإني واحدٌ من هؤلاء- في لبنان ومصر، حيث كان هناك كثيرٌ من المجلات. وأما اليوم فإنّ سورية تُضاهي بمجلاتها ما يصدر في لبنان ومصر والخليج والمغرب العربي. وأما الجرائد، فإنها ثلاث بالعاصمة اليوم، أضاف إليها القطاعُ الخاص رابعةً تتمتّع بالرواج.

صفات يتحلّى بها «المحرّر»:

وفي الدور المتنامي للدوريات الصحفية، نحبّ أن نقف عند مسألة نراها على درجة من الأهمية، وهي الدور الذي يؤدّيه «المسؤولون» الثقافيون فيها، من رئيس تحرير، ومدير تحرير (الذي يسمّى أيضا: أمين تحرير أو سكرتيرًا)، إلى رئيس القسم الثقافي في الجريدة، ومحرّرين، نختزل تسميتهم جميعًا بمصطلح «المحرّر»، ولا نعني بطبيعة الحال ذلك الذي يتعاطى العمل في الدورية بصفة محرّر عادي. وقد قلنا: محرّرًا في «مجلة» ونحن نقصد المجلة والجريدة كلتيهما.

ونرى أنّ على المحرّر أن يستجمع في شخصيته الأدبية والإدارية صفات، أولها الثقافة مقرونةً بالذائقة الأدبية، وبعد ذلك، أو قبله، أن يكون نزيهًا في تقويمه النصوص، ومتمتّعًا بالحصافة، والحصيف -في المعجمات- مَن استحكم عقلُه وجاد رأيُه... ومن أين نأتي بمن يتحلّى بهذه الصفات كلها؟

الذائقة، ترفدها النزاهة:

والذائقة الأدبية عند المحرّر هي التي تؤهّله للحكم على المادة الأدبية الواردة إليه من مستكتَب أو من مُبادر، فلا يتجاوز الجيدَ ساهيًا عمّا فيه من جهد وإبداع، مقدّمًا عليه الأقلَّ جودةً، فإن فعل ذلك عن عمد فقد خانته النزاهة أو هو خانها، ممّا يعود بالضرر على الدورية التي نصَّبتْه قيِّما.

وينبغي أن يكون المحرّر صريحًا في مواجهته الأقلام التي لا يرى نتاجها جديرًا بالنشر، فلا يتحرّج ولا يُغمغم، ويمكنه التعلُّل بأنّ النصّ -مثلاً- موفّق فيما رمى إليه، «إلاّ أنّ نشره في مجلتنا، يا أستاذ، لا يتناسب مع كذا وكذا... من الأمور!».

وفي هذا المجال عرفت محرّرًا (هو بالأحرى رئيس تحرير مجلة) عمليًّا وحركيًّا، إذا قدّمتَ إليه المادة الأدبية لم يتلكّأ في النظر فيها، وربما قرأها على الفور وأعلمك، وقد رأيت المجلة على عهده تزداد ازدهارًا، وتنتظم صدورًا حتى إنها تنزل إلى المكتبات قبيل موعدها. وظلّ شانئوه يأخذون عليه ما ليس فيه!

وممّا يَعيب النزاهةَ، أو يُغَيِّبها، أن يعمد المحرّر إلى تقديم نصٍّ يكون غير جدير، والسبب أنّ صاحبه من «أصحابه»، وتكون البليّة أعظم إذا كان في النصّ تهجُّمٌ على أحدهم ممّا يَشفي غليلاً عنده، فينشره تشفِّيًا، فتكون الإساءة مضاعفةً: للدورية التي يعمل فيها وللشخص الكاتب المستهدَف.

وربّ محرّر «يُغري الكُتّابَ بعضَهم ببعض!»:

وفي سبيل الترويج للمجلة، قد يلجأ المحرّر إلى استكتاب أقلام، مفسحًا لها المجال للنيل من قامات أدبية وإثارة «معارك» وتسجيل «سجالات» كسبًا للانتشار. قبل أربعين من الأعوام استمعتُ إلى كاتبة كبيرة تتحدّث فتقول إنها تعرف من أمر محرّر كان «يُغري الكُتّاب بعضَهم ببعض»، فيُرَوِّج ويتفرَّج!

هذا ويدخل في باب التحيُّز أن يُسرف المحرّر في تقريظ كتاب صدر، ويستنفر لذلك الأقلام مدحًا ورفعا. أرى ذلك يجرح «صدقيّة» المجلة، إلاّ أن يكون الكتاب يُعَدّ «وثبةً» في دنيا التأليف.

وأمّا إذا اتفق أنّ كاتبًا دأب على الكتابة في دوريّة، بموجب عقد استكتاب خطيٍّ أو شفويّ، فليس مستحسنًا أن ينقطع عن الكتابة فيها مرةً واحدة، أكان انقطاعه من تلقاء نفسه أم بفعل المحرّر. إنّ ذلك يُثير خواطر القرّاء، الذين يذهبون إلى أنّ الانقطاع «قطيعة» بين الكاتب والدورية، وليس هذا في صالح أيّهما (أن يبدو الكاتب وكأنه «موقوفٌ عن العمل»، أو يظهر أنّ المحرّر «مزاجيُّ» الطبع!)، إلاّ إذا أُشير إلى السبب الداعي للانقطاع، لسفر الكاتب أو انتهاء مدة الاستكتاب، أو غير ذلك.

تقطيع أوصال:

ونرى أنه لا بأس في أن يعمد المحرّر، في الجرائد اليومية التي يحكمها حَيِّزٌ في الصفحة المعنيّة، إلى أن يحذف جزءًا من هذه المقالة أو تلك، إحكامًا للصفحة، على ألاّ يُضيِّع معنى وأن يصل ما انقطع بين ما هو قبل وبعد.

وربما كان في المحرّر مكرٌ يبلغ به -عند الاضطرار إلى نشر ما لا يريد- أن يعمد إلى تقطيع أوصال المقالة، كأن يُبعثر أوراقها، فتظهر في الدورية أولُها في الأخير وهكذا... وعند تلقيه الاحتجاج يحتجّ بأنّ هذا كان «خطأ غير مقصود!». ومن يُكذّبه؟ ذلك ما وقع لي في ردٍّ كتبته في حقّ ناقد كان له في المجلة أصحاب. إنّ في هذا الفعل غِشًّا يُداني النصبَ والاحتيال.

وقد «يلعب» المحرّر في جزء من المقالة قصد حَرْفِ معنًى أراده الكاتب. وقع لي أني استجبت لسؤالٍ وجّهه محرّرٌ إلى عدد من الكتّاب: «هل أنصفك النقد؟». وكان متوقَّعًا أنّ اعتداد الكتّاب بما تخطّه أيديهم سوف يجعلهم يرفعون أصواتهم بالشكوى من النقد ومن النقّاد جميعًا. من ناحيتي خَفَضْت الصوت دون أن أكتمه، ولكنني أضفت شكوى أخرى من الإعلام الذي يتراءى له أن «يُعَتِّم» أحيانًا، وجعلت العنوان: «النقد..

والإعلام أيضـا!»، فجاء المحـرّر -ظنًّا منه أنه يُخفِّف الوطأة عن المؤسسة التي ينتمي إليها- فحـذف النقطتين(..)، وحذف كلمة «أيضا» وما تبعها من إشارة تعجُّب(!)، فجاء العنوان مفتقدًا الإيحـاء الذي رُمَّتُه وحلّت محله ركاكة: «النقد والإعلام». ولم أحاول - علم الله- أن أسأل صديقي المحرّر ما فعل، فالجواب أعرفه!

بعد سنة انتظار!

ورأيت مرةً محرّرًا يَمُنُّ على روائيّ معروف أنه أجاز نشر مقابلة له، مستوفاة، في المجلة التي يرأسها (ذلك في العام ١٩٧١م)!

هذا المحـرّر حجز قصـةً لي -أعُدُّها مـن عيون ما كتبت- مـدةً كان خلالها يَعِد ويُماطل ويُسَوِّف شـهرًا بعد شهر... إلى أن فاجـأني، بعد عام كامل، بقوله إنّ القصـة «طويلة» -وإنهـا لكذلك- ولكنّ الأغرب هو تذرُّعه بأنّ الجديد في إبداع القصـة اليوم أن تكون في حدود صفحة، أو نصف صفحة، أو ربع!

فبعثت بقصـتي إلى مجلة وراء الحدود، فبادرت إلى نشرها مصحوبةً بثلاث لوحات رُسمت لها . عنوان القصة «العينان في الأفق الشرقي»، ضمّها فيما بعد كتابي «حزن حتى الموت»، الـذي تُرجمت طبعتـه الرابعة إلى الفرنسية وصدر في باريس خريف ٢٠٠٢م.

وبعد ... هل أقول إنّ مَن يشـغل وظيفة «محرِّر»، بالمفهوم الذي أشرتُ إليه أعلاه، في القطـاع الخاص هو أقلّ وقوعًا في المحاذير منه في القطاع العام؟

أعزّائي! ليس يَضيرني الظنُّ بأني كتبت هذه المقالة لأندِّد، والصحيح: لأجلو علاقةً في دنيا المثقفين قد علاها صدأ الأيام.

آفاق المعرفة



السخرية وروح الدعابة عند خير الدين الزركلي

د. محمد رضوان الداية ⊙

حين يذكر اســم: خير الدين الزركلي، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن كتابه الكبير (الأعلام) الذي خلّد اسم مؤلفاته من جهة، وصار، في حياتنا الفكرية المعاصــرة، عنواناً على طــراز من التأليف في كتب التراجــم من جهة ثانية، وبقي نهجاً مقترناً باسمه، مسجلاً له.

علــى أن للزركلي مجالات أُخَر برع فيها أيضــاً: من كتابه التاريخ ونظم

⊙ أديب وناقد وأستاذ جامعي سوري.

العمل الفني: الفنان وليد الحسيني.

الشعر، وإنّ أوّل ما عَرف الناسُ خير الدين الزركلي كان من جهة الشعر، فقد أبدع في ذلك، وأضاف إلى شعره مزيّةً عظيمة بتسخيره للحركة العربية، والثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي؛ ولقضية فلسطين مشاركاً شعراءها، وسائر المخلصين لها.

وبحسب ما في الديوان، فإن الزركلي وقّع قصائده في دمشق، وبيروت، والقدس، ونابلس، وعمّان، ومكة المكرمة، والطائف، وبعلبك، وفاس، وطنجة، والرباط، واستانبول، وأثينا، وباريس.

وطبع ديوان الزركلي أوّل مرة سنة ١٩٢٥ في عزّ انطلاق الثورة السورية الكبرى، ثمّ أضاف الزركلي إلى ما في ديوانه القديم ما نظمه بعد ذلك وهيّأه للطبع، وأجرى عليه التعديلات (من حذف وتلطيف كما قال في مقدمة الديوان) ولكنه طُبِع بعد وفاته، سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.[١]

والزركلي كما ترجم لنفسه في (هذه هي سيرتي)[٢] هو: خير الدين بن محمود بن علي بن فارس الزركلي (بكسر الزاي المشددة، والراء). ولد سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م، لأبوين من دمشق من أصل كردي، وكانت لوالده تجارةٌ في بيروت؛ فكانت ولادته فيها.

درس في دمشق، وتخرّج في المدرسة الهاشمية، وأصدر - على صغره - مجلة الأصمعيّ لنكهتها العربية. وانتقل إلى بيروت فأتم دراسته في الكلية العلمانية (اللاييك) وعاد إلى دمشق قبل الحرب الأولى. وأصدر سنة ١٩١٨ مجلة لسان العرب التي أُقفلت، وشارك في مجلة أخرى. وكان على نيّة طباعة ديوانه: (عبث الشباب) لكنه احترق، وضاع. ولم يأسف الزركلي لضياعه.[٣]

وغادر الزركلي دمشق صبيحة اليوم التالي لموقعة ميسلون، إلى فلسطين، فمصر، فالحجاز (سنة ١٩٢٠). وصدر حكم فرنسي غيابي بإعدامه وصودرت ممتلكاته.

وتجنّس بالجنسية العربية في الحجاز، وسمّي مفتشاً عاماً للمعارف في عمّان، فرئيساً لديوان الحكومة ١٩٢١ - ١٩٢٣.

وقرر الفرنسيون وقف تنفيذ حكم الإعدام، فزار دمشق ١٩٢٣ وقصد إلى مصر، وأنشأ مطبعةً بعد أن انتقل بأسرته إلى هناك.

وسنة الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥

أذاع الفرنسيون حكماً ثانياً بإعدامه. وباع المطبعة ١٩٢٧ بعد أن ساءت صحته بسبب العمل فيها.

- ولما قامت المملكة العربية السعودية عُدّ الزركلي في رعاياها.

- وذهب إلى القدس سنة ١٩٣٠ وأصدر: (الحياة) التي عطلتها السلطة الإنجليزية في فلسطين، وجريدة أخرى صدر منها عدد واحد في (يافا) في الوقت الذي عين مستشاراً للوكالة (المفوضية) السعودية في مصر. وعاد الزركلي إلى القاهرة.

- وكان الزركلي في جملة المندوبين السعوديين لإنشاء الجامعة العربية، ومثّل المملكة في ندوات ومؤتمرات، وراوح العمل بين وزارة الخارجية في جدّة، وجامعة الدول العربية في القاهرة منذ ١٩٤٦. وصار مندوباً للجامعة بصفة وزير مفوض ومندوب دائم سنة ١٩٥١. ثم عيّن سفيراً ومندوباً ممتازاً ١٩٥٧ في المغرب.

- وقام برحلات رسمية، وشخصية في مهام دبلوماسية، وثقافية.

- وضمّ إلى مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٣٠، وإلى مجمع القاهرة ١٩٤٦.

- وسجل رحلاته إلى سنة ١٩٢٣ في كتاب: ما رأيت وما سمعت، وأصدر (عامان في عمّان) الأول منه سنة ١٩٢٥، والأعلام في طبعته الأولى في ٣ أجزاء منذ ١٩٢٧ والثانية في ١٠ مجلدات، والثالثة في ٨ مجلدات ضخمة؛ وماجدولين والشاعر وهي قصة شعرية صغيرة.

- إلى كتب أخرى أعدها للنشر.

* * *

لقد تشكلت شخصية الزركلي الثقافية في الجانب العربي من الكتب المخطوطة التي زخرت بها المكتبة الظاهرية، والمطبوعة، وفي الجانب الغربيّ من دراسات ومطالعات متعددة، وتشبّع بالروح العربيّ الإسلامي، وحثّ على حب العروبة (وهو الكردي الأصل كما سبق ملخصاً بقلمه). وقد علم التاريخ العربي مدّة في مدرسة اللاييك في بيروت، وكان الرجل، كما وصفه الدكتور سامي الدهان[4] «منذ نشأته يعمل لتراث العرب وتاريخهم وأمجادهم في نثر وشعر». وتعرّض الزركلي لمضايقات الرّقباء من أصحاب نزعة التتريك، وإلى ما هو أشدّ أيام الاحتلال الفرنسي لسورية. ولكنّه واجه

تلك المواقف بقوّة وجرأة، وسخّر أدبه (نثراً وشعراً) لتلك المعركة، وأصابه من جرّاء ذلك عناء وعَنَتٌ واغتراب احتمله، واحتسب ذلك في سبيل أمته ووطنه.

* * *

ذكر الدهان في دراسته عن الزركلي بروز الجانب السياسي في شعره، وسبْقه زملاءه شعراء الشام آنذاك في هذا الجانب (مثل خليل مردم بك، وشفيق جبري، ومحمد البزم، وبدوي الجبل)، قال وهو يتناول شعره الوطني والسياسي: «إن هذا الشعر الوطني الذي كان يرسله الشاعر هو أقرب إلى السياسة من شعر زملائه، وذلك لأن الزركلي اختلط بهؤلاء الحكام في عمان وفي مكة...»(٥) وأقول إن هذا الجانب قد استمر في تنقلاته بين العواصم العربية وأدائه مهماته السياسية والدبلوماسية، ومتابعاته الأحداث على امتداد الأرض العربية قبل ظهور دولة العدو، وبعد ذلك أيضاً.

هذا الوعي للأحداث، والموقف القديم في ترجمة انفعاله بها وحميته للدفاع عن العرب وقضاياهم استمر هاجساً في نفس الشاعر وقلبه، وإن خفَتَ صوت الشاعر، وقل نتاجُ شعره منذ انشغل بكتاب الأعلام، وانغمس في الأعمال الإدارية والدبلوماسية، والاجتماعات المطولة والأسفار.

حين لخّص د.الدهان تقويمه لخصائص الزركلي في شعره نوّه بـ «براعته في الصّياغة العربية، وتحليقه في موسيقا اللفظ، وصحة التعبير، ورشاقة التصوير، وخفّة الظل»(٦).

وعبارة «خفة الظل» في تقويم الدهان للزركلي تنقلني إلى عبارة لصديق آخر(٧) للزركلي هو الأستاذ زكريا زعيتر، في وصف صديقه الشاعر، قال: «وخير الدين: كظيم غيظ، ورحيب صدر، لطيف شفيف، إلا إذا مُسّت كرامته فما الرعد الهدّار، وما العاصف المؤار».

ثم أقول: إن خفة الظل التي ذكرها د.الدهان، والأوصاف المجتمعة المتلاحقة من كظم الغيظ، ورحابة الصدر، واللطف، والشفافية حين التقت في وجدان الشاعر مع ظواهر لا يأنس بها الشاعر أو هو ينكرها، أو يعدّها من الأخطاء الفادحة (على الصعيدين الشخصي والوطني) حدا به إلى أن يفرغ شحنة الغيظ أو الغضب، أو الاستهجان، وما شابه ذلك بأساليب متعددة



تجنّباً للعبارة الجارحة المواجهة لصاحبها؛ نستثني من ذلك مواجهته للاستعمار الفرنسي والتآمر الصهيوني وما ماثله في الوطن العربي، فقد كان صريحاً مباشراً شديداً.

وهذه الأساليب يلتقي فيها السخرية، والتّهكم، والدعابة بحسب القضايا التي يعالجها، وما يلائمها من أنواع الكلام والتعبير والتصوير.

❁ ❁ ❁

ولم أجد في من تَرْجَم لحياة الزركلي، أو كتب عن شعره بحثاً أو دراسة مَنْ توقّفَ عند هذه العناصر: السخرية، والتّهكم، والدعابة (التي تجيء أحياناً دعابةً قويةً).

ولم أجد من التفت إليها التفاتاً قاصداً في تصوير شخصيته، وتلمّس جوانبها المختلفة.

ويمكن أن نجعل هذه العناصر في مستويين:

أحدهما: الدعابة، وإشاعة روح النكتة، واللقطة البارعة، وهي عادةً ما تكون قصيرةً سريعة؛

والثاني: مستوى السخرية والتهكم؛ وهذا يصدر عن موقف سياسي أو حياتيّ عام.

وقد أشار الزركلي مرّةً إلى عنصر السخرية في شعره في قطعة عنوانها: «رُتب وألقاب»، قدم لها بقوله: تنافس الناس في لقب الباشا والبيك والأفندي». ثم استطرد إلى الشعر فقال:

قال مَنْ فاتَتْهُمْ سُخريتي

بالذي قد مجّدُوا من رُتَبِ

ما الذي ندعُو به «صاحبنا»؟

قلتُ: «خيرٌ» إنّما اسمي لقَبي!

جَنِّبوا سَمعِيَ ألقابكم

ليس لي في لقبٍ من أربِ!

ويبدو أن بعض من كانوا حول الشاعر سألوه عن اللقب الذي يفضّله لينادى به، فاختار اسمه: (خير). إنّه يسخر من الألقاب لأنها بلا شك، لا تضيف إلى حقيقة الرجل شيئاً، وتعطي الشخصية نفَجاً[8] كاذباً.

❁ ❁ ❁

توجه الزركلي إلى أفراد أو جماعات في المجتمع رأى فيهم صفات مرذولة، لا تتّفق والسلوك السوي السليم، ومن ذلك الغدر الذي يناقض الوفاء، وضرب مثلاً – من المألوف المشهور – بوفاء الكلب، وغدر الإنسان. فقال ص١٠٧:

الكلب أرغدُ عيشةً

فمن ثرى وأحبُّ حالا!

ألِفَ المذلّةَ فاستَرا ...

حَ فلا شعورَ ولا ملالا

وتراه يدفع عن ذويـ

ـهِ أذى المُخاصِمِ، والنَّكالا

خُصَّ الوفاء به وثو

باً في الطّوارئ واحتمالا

وأرى الكثير من الورى

حرموا به هذي الخصالا

والشعر ينظر إلى كتاب صغير لكاتب قديم يدعى ابن المَرْزُبان سمّاه: «فضل الكلاب على كثيرٍ ممن لبس الثياب»[9]. فذلك قول الشاعر: «وأرى الكثير من الورى حُرموا ... » وأهم خصال الكلب الوفاء الذي غاب عن أولئك المذمومين من الشاعر.

- وعالج موضوع الكذب الذي كان فاشياً، كما يقول الشاعر، وختم قطعته القصيرة بتهكم قويّ (ص١٥٥) وقرر في القطعة أن الكذب داءٌ لا ينجو منه أحد!!..

أرى الكذب اعتاد الأنام ورودهُ

فليس لحيٍّ عن موارده دَرْءُ

تأصّل داءً في النفوس فما امرُؤٌ

بناجٍ، ولا منه لذي مقولٍ بُرْءُ

وفي الناس أقوامٌ يجيدون بَرْءَهُ

فينجيهُمُ من عاره ذلك البَرْءُ

وربَّ امرئٍ إن فاهَ بالمَيْنِ لم يجد

من الناس إلا قائلاً: صَدَقَ المَرْءُ!

وهذا غريبٌ، لكن الشاعر يجعله في الناس كالحقيقة!

- ويأخذ التهكم إلى قضية القُبح والجمال، فيقول (ص١٤٦): زرتُ الدكتور سعيد عودة[١٠] في داره بحيفا، وتركتُ له بطاقةً عليها:

يا طبيباً فَضلُهُ ما
بيننا مُشتهرُ!
إنَّ مَنْ تخدمنا
عندك فيها نظرٌ
ليس يدري الناس أُنْـ
ـثى هذه أم ذكرُ!

وهي دعابةٌ، ولكنّ حشوها سخريةٌ لاذعة!

- وقال في قطعة أُخرى (ص١٤٧):

تمايلت ضاحكةً
غانيةٌ رَصَدْتُها
لَما بدا لي وَجْهُها
أسفْتُ إذ شهدْتُها!
ونظرةٍ صوّبْتُها
ونظرةٍ صَعّدْتُها
لو استعاد ناظرٌ
نظرته استعدتها!

كان المنظر حسناً أو مقبولاً من تلك المنظور إليها (المرصودة). فلما رأى الشاعر وجهها، وكان قبيحاً أسف على ما كان، وتمنى لو كانت النظرةُ إذا نظرها الإنسان يمكن أن تُستَرد، إذن لاستردّ هو نظرته إليها؛ لشدّة قبحها وسوء أثر ذلك فيه!.. والفكرة مبتكرة لم يُسبق الشاعر إليها.

- وهذه امرأة كانت تنقّبُ وجهها، عبلةً ضخمة الجسم، مخضوبة الكفين، ومنظرها الخارجي حسن كما يقول، فلما أسفرت كان الأمر مختلفاً ... (ص٦٣)

وعبلةٍ مسدلة النّقابِ
بدت تصيد شُرّد الألبابِ
تشمير والكفّا من الخضابِ
كالوَرسِ والأنْمُلُ كالعنَابِ
أبصرتُها فما جعلتُ دابي
إلا ارتقاب العَجبِ العُجابِ
وحسَرَتْ عن بلقعٍ ويبابِ
في طلعة كصورة الغرابِ
قلت لها ادخلي وراء الباب
أما قرأت آية الحجابِ؟!..

والصُّور المتلاحقة تتنازل تدريجياً من الظاهر المستور إلى القبيح الخفي...

والقطعة كأنها قصة قصيرة تجري في اتجاهٍ معين، ولا يلبث الشاعر أن يغيّر المجرى بمفاجأةٍ قوية...

- وقف الزركلي عند البخل والبخلاء، وهذه قطعة تذكّر بأشعار العصور السالفة في رصد هذه الظاهرة والتهكم على أصحابها، وفيها كلام على ناسٍ من مدينةٍ حذف اسمها، ورمز له باسم (رِبْدَة)، وقال (ص٤٦):

وجوهٌ بربدة مُرْبَدَةٌ
بها كلحٌ بارزٌ للعيانْ
يسمّون ضيفهم نازلاً
ووقع النوازل لا يستهانْ
كأن ملاعق طرّاقهم
حرابٌ بأكبادهم لا الجفانْ
هرير الكلاب بها منذرٌ
محاولَ بل الصدى بالطعانْ
إذا شئت قتل بني «ربدةٍ»
فحسْبُكَ تذكيرهُ بالخُوانْ!

وهذا تهكّم يخفي هجاءً فهؤلاء وجوههم فيها عبوس شديد، ويسمّون الضّيف نازلاً لكن مجيئه إليهم هو من النّوازل (النّكبات). والملاعق في يد الضيوف - لو نالوا عندهم ضيافة- ليست ملاعق تنزل في الأقدار والقدور، ولكنها كالحراب في أكبادهم.

وإذا حاول أحد الضيوف شربة ماء نبحته كلابهم (لأنها لم تتعود على الضيوف والزوار، فالقوم بخلاء)، ويكفي لكي تقتل واحداً من هؤلاء المذمومين أن تذكر أمامه اسم: فائدة الطعام!!..

وقد استعار الزركلي صوراً بدوية لأداء الفكرة، إمّا استلهاماً لما عُرِف عن العرب من كلام (نثريّ وشعريّ) في الجود والبخل، وإمّا لأنّ المذكورين في القصيدة من بيئة ريفيّة أو بدوية.

- ويدخل التهكم في بعض شعره تحت عنوان (المفارقة)، وهي لا تخرج عن التهكّم المرّ، ولكنها تبنى على العبارات التي تظهر الضدّين أو الوجهين من المسألة، وتعتمد على «المقطوعة» التي تكون في بيتين أو ثلاثة، وقد تزيد على ذلك كقوله (ص٢٥٧):

قل للطبيب وقد رأيت خبَالهُ
طبُّ المفاصل غير طبِّ الأنْفُس
ابدأ برأسك فانتزع أقذاءه
ثم التفت لترى خبايا الأرْؤسِ!

والطبيب يكون هو المشكلة إذا كان في ما يمارسه في حاجة إلى طبيب!

- وفي منظومة (ص١١٩) قصة فتاة في أول الصبا، جاء عجوز لخطبتها، وأبواها يحدثانها في الموضوع:

يستشيران فتاة الدلّ في سحر المقالْ
عن خطيب جاء يسعى وهو ذو جاه ومالْ
وله سبعون عاماً وهنا كان الجدالْ!

❁ ❁ ❁

وقد اتّكأ الزركلي على السخرية والتهكم في قصائده الوطنية والسياسية، والديوان الذي بين أيدينا خلو من الأسماء، وكلام الشاعر على قضايا، وظواهر، ومشكلات، لها علاقة بالوطن: على انفتاحه في بلاد الشام خاصة وفي غيرها من الأقطار والبلدان.

- ومن ذلك أبيات من قصيدة ذكر فيها ابن العلقمي (الوزير العباسي الذي اتفق مع هولاكو سرّاً) وابن مُلجم (قاتل سيدنا علي رضي الله عنه)، قال يشكو حال الوطن من أشباه ابن العلقمي وابن ملجم:

مَنْ لِلوطنِ
قد تقسّما
كلّ آكلٍ
فاغرٌ فما
في يد العدا اعتلّ وارتمى!

- ومن شعر أنشده سنة ١٩٥٤ ولعله يخص فلسطين (ص١٣٢):

هانت على الناس مقاديرُنا
واستصغروا ما نحن نستكبرْ
تلطمنا في كلّ يوم يدٌ
ونحن نلتجُّ ونستنكرُ!

- ومن السخرية المُرّة التي تشبه ما يُعرف في عالم السينما والمسرح بـ (الكوميديا السوداء) قول الزركلي (ص٣١٣):

عقد الجمع ندوةً للأحاديـ
ـثِ وتروي أسمارها السُّمّارُ
ما الكراسي كما تراها كباراً
إنّما الجالسون فيها صغارُ!

وفي القطعة أيضاً صورة كاريكاتورية ضاحكة مضحكة!

- ودون أن يسمّي تحدّث عن خلع أحدهم من وظيفته أو مقامه، وكان متهكّماً ساخراً معاً:

صُرفتْ عن الرياسة وهي أهلٌ

لغير مريدها ملهاً ومَرْعى

فإن وجعتْ فيك نفسٌ

فخلع الضرس أوجع منك خلعا

- واقتطع من قصيدة نظمها سنة ١٩١٨ أربعة أبيات فأثبتها في الديوان وحذف الباقي، ذكر فيها مصيبة الأمة بعد الحرب العالمية الأولى في اقتطاع بلدانها وتوزيعها على دول أوروبة لقمة سائغة، وكان وعد بلفور قد انكشف بعد الثورة الفلسطينية سنة ١٩١٧ وصار الأمر واضحاً لكل ذي عينين في أحوال البلاد من أدناها إلى أقصاها!...

ذهبت طرابلسٌ وتونسُ قبلها

والمغرب والأقصى تَغَوَّلَه العِدَا

واجتاحَ بغدادَ القضاءُ فحلّها

شيبٌ تخالُ الشيخَ منهم أمردا

متنطّسون كأنما أكبادهم

من طينةٍ طبعت حصىً أو قرمدا

إن تجْرِ في عرقٍ دمٌ فعروقهم

حملتْ دماً متكاثفاً متجمّداً..

يظن كل واحد في هؤلاء الذين تضيع البلاد على أيديهم أو في زمانهم أنّه الطبيب المداوي لأحوال الأمة، ولكنّهم جميعاً - عند الشاعر- لا يحمون البلاد ولا العباد، قلوبهم قاسية، وعقولهم ضعيفة!

وبعض أشعار خير الدين الزركلي تخرجُ من ظلال التهكم والسخرية لتدخل في ظلال الاعتبار بحوادث الزمان، والملمحان ظاهران في تلك الأشعار واضحان. ومن ذلك ما أورده تحت عنوان «فَلك الحوادث...»[١١]:

المهرجانُ يُقامُ بيـ

ـنَ يديكَ تلو المهرجانْ

والزهرُ يُنثرُ في طريـ

ـقك من رياحينِ الجِنانْ

ولك الأكفُّ مصفّقا

تٌ في التنائي والتداني...

إلى أن يقول :

فلكُ الحوادثِ دائرٌ

هل كنتَ منهُ في ضمانِ؟!

لقد كان عنصر التهكم، والسخرية، والنزعة إلى بث الدعابة في تقديري جزءاً من معالم شخصية خير الدين الزركلي، والعبارة التي قيلت فيه لإيضاح هذا الجانب

قليلة جداً كقول زكريا زعيتر في بحثه عن الزركلي(١٢) «لطيف شفيف».

وانشغل الأدباء والنقاد الذين ترجموا له، ودرسوا شعره بالجانب الوطني في الشعر، فقد كان الزركلي شاعر الثورة السورية، وفصّلوا في ذلك؛ وصرفهم هذا الجانب عن الاستبحار في جوانب شعره الأخرى، ولم يلتفتوا إلى هذا الذي نتحدث عنه في هذا البحث.

والشعر الذي قدّمتُ نماذج منه، ونبّهت عليه في هذا المجال، يكشف عن نزعة الشاعر الأصيلة في حياته، وفي شعره إلى الدعابة؛ واستخدامه السخرية والتهكم في أغراض من شعره، يكمل بها مقاصده، وخصوصاً في نقد أخطاء (أو مساوئ) بعض الشخصيات السياسية. وقد أشرت إلى إغفاله أسمائهم، فقد كان سياسياً ودبلوماسياً، ولا بدّ من الاكتفاء بالتلميح دون التصريح.

وهذا الاتجاه في النقد الاجتماعي والسياسي وفّر له إبداء رأيه، والتنفيس عن ضيقه، ووضع علامات الاتهام بالتضييع والإفساد، والتبعيّة للغريب على تلك الشخصيات، ثم إنه شفى غليله بالكثير من عبارات التهكم والسخرية اللاذعة، المرّة أحياناً.

ونحا الزركلي في نقده اللاذع (الذي هو في حقيقته نوع من الهجاء) نحو مذهب الشعراء الذين إذا هجوا اشتدّوا في الهجاء، ولكن في ألفاظ وعبارات عفيفة صادقة(١٣)، والذي كان يقال له: هجو الأشراف.

واعتمد الزركلي على الإشارة واللمحة - غالباً - دون الإطالة والتفصيل، فقد كان لا يطيل في الكلام الذي يورد فيه «نكتة» أو طُرفة، أو يكون فيه موقف تهكمي، وربما أطال في مجال السخرية، التي يعتمد عليها في قضايا يطول فيها الكلام عادةً؛ كالذي يتعلق بالسياسة والسياسيين.

الهوامش

١- صدر عن مؤسسة الرسالة - بيروت.

٢- وردت في كتاب (علم الأعلام) - دون ناشر - دون تاريخ - وفيه الكلمات والبحوث التي أُلقيت في حفل تأبينه في النادي العربي بدمشق.

٣- ولكن أحد دارسي شعر الزركلي د. الدهان أسف لضياعه، لأنه كان يقدم للدارس والقارئ الخطوات الأولى للشاعر، وبواكير شعره، وبدايات رؤاه المختلفة ... إلخ - انظر الشعراء الأعلام في سورية: ١٤٦ - ١٤٧.

٤- الشعراء الأعلام في سورية - دار الأنوار - بيروت ١٩٦٨، ص:١٤٦.
٥- الشعراء الأعلام في سورية، ص١٦٠.
٦- المرجع السابق، ص١٦٢. وقد تحدّث الدكتور الدهان في كتابه المذكور عن لقائه الزركلي حين كان الدهان في المغرب أستاذاً في كلية الآداب بالرباط، وقال: إنه شهد ولادة الديوان الكبير، وحظي منه بنسخة خطية أقام عليها دراسته (ص:١٥١).
٧- علم الأعلام، ص٣٥.
٨- نفج: نَفَجَ فلان: فخر بما ليس عنده، ولا فيه. (والعامّة تقول: نفش).
٩- وقد طبع مرات كثيرة!
١٠- طبيب سوري من المجاهدين، حكم بالإعدام، وكان صديقاً لخير الدين الزركلي، وأقاما في فلسطين معاً مدةً. عاد بعد العفو إلى سورية، وسكن بلدته (دوما) واشتغل في العمل الوطني والسياسة، ومارس مهنة الطب إلى قبيل وفاته.
١١- ديوان الزركلي، ص٣٢٤.
١٢- علم الأعلام، ص٣٥.
١٣- نقل ابن رشيق في العمدة (بتحقيق د.محمد قرقزان) ج،ص٢: ٨٢٤ عن خلف الأحمر «أشدّ الهجاء أعفه وأصدقه».

آفاق المعرفة



دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية

زهير عزت شحرور ©

إن الحديث عن دور وسائل الإعلام في نشر اللغة العربية متشعب وواسع، لكن لابد قبيل الدخول إلى هذا الموضوع وتفصيلاته من التأكيد على أهمية اللغة بوجه عام، وعلاقة أية لغة بالاتصال الإنساني.

فاللغة: وحسب التعريف الشائع هي المرآة التي تعكس الفكر، أو الوسيلة التي يتم بها التعبير عن الأفكار وتبادلها، فالعالم اللغوي (هنري سويت) يرى أنها التعبير عن الفكر عن طريق الأصوات اللغوية، وكان ابن جني ت٣٩٢هـ

© موجه اللغة العربية في اللاذقية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

قد رأى - في الخصائص - أنها أصواتٌ يعبّر كلّ قوم بها عن حاجاته.

ويعرفها العالم اللغوي (سابير) في كتابه اللغة: (بأنها وسيلة لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التي يستخدمها الفرد باختياره.).[1]

فما العلاقة بين اللغة العربية والإعلام الذي يتولّى نشرها؟ فاللغة تعد سمة من سمات الإنسان الاجتماعي التي بها يتميّز دون غيره من الكائنات الأخرى الموجودة في الطبيعة. وهي وسيلته إلى كل ما أنجزه من تراث، وأبدعه ويبدعه من حضارة. فباللغة تمايزت المجتمعات البشرية وبها تعارضت وتواصلت، وتتعاظم وظيفة اللغات وأهميتها يوماً بعد يوم مع التقدم البشري في الحضارة المعاصرة، حضارة الاتصال والمواصلة، حتى أضحى دورها يفوق كل دور جوهري كان لها في السابق. فالكلمة اليوم أكثر سيولة وأبعد مساراً عن طريق وسائل الاتصال الإلكترونية عبر الفضاء، وعبر الأقمار الاصطناعية.[2]

واللغة ليست رموزاً فقط، وليست مواصفات فنية وحسب، بل هي إلى جانب ذلك، منهج فكر، وطريقة نظر، وأسلوب تصوّر، هي رؤية متكاملة، تمدّها خبرة حضارية متفردة ويرفدها تكوين نفسي مميّز.

فالذي يتكلم لغة، هو في واقع الأمر يفكر بها، فهي في كيانها تحمل تجارب أهلها وحكمتهم وخبرتهم وفلسفتهم وبصيرتهم.[2]

والعربية هي من بين اللغات لغة عتيدة، ولغة حضارة، ولغة حيّة، هي لغة القرآن الكريم ووعاء العقيدة الإسلامية. ثم هي أداة الفكر العلمي في مرحلة ازدهاره «العصر الوسيط العربي الإسلامي»، فكانت لغة العلماء في العالم على مدى قرون ولغة الثقافة الخصبة المتنوعة، والفن الإنساني المبدع.

وقد تمكنت بفضل خصائصها أن تصبح لغة الإعلام اليوم باستعمالها أداةً للتبليغ عبر مختلف القنوات الإعلامية المكتوبة منها والمرئية والمسموعة على حد سواء، مع الإشارة إلى دورها الإيجابي الذي أدته وسائل الإعلام في تقريب الهوة بين العامية والفصحى.[3]

وعلى الرغم من هذا الدور الإيجابي الذي قامت به على مستوى الاستعمال اللغوي في أجهزة الإعلام فقد اعترضتها عوائق من أهمها: وجود الأمية بنسب

مرتفعة في البلدان العربية وبأرقام مختلفة، ومحدودية توزيع الصحف والكتب وغيرها من الوسائل المكتوبة لجهل الكثيرين بالقراءة، ولضعف التغطية الإذاعية والإعلامية وعدم شموليتها بعض المناطق العربية والتي بدأت بالتراجع بعد انتشار الصحون اللاقطة. وقد لعبت الإذاعة الصوتية دوراً إيجابياً في نشر الفصحى بين المستمعين العرب في كل مكان من الأرض العربية، كما استطاعت بعض برامج التلفزيون الموجهة إلى الأطفال الصغار تقريب الفصحى إلى ألسنتهم فيسرت عليهم التعامل بها فيما بينهم، وساعدت أجهزة الإعلام والاتصال في تحقيق التقارب بين مستويات التعبير اللغوية الثلاثة التي يمكن ملاحظتها في المجتمع العربي:

أما المستوى الأول فهو التذوق الفني والجمالي للأدب والفن، والمستوى الثاني العلمي النظري والتجريبي المستخدم في العلوم، والمستوى الثالث الاجتماعي المستخدم في الصحافة وأجهزة الاتصال بوجه عام.

والشواهد تثبت أن اللغة هي أقوى العوامل التي تجمع الناطقين بها، وهي أعظم قوة من القوى التي تجعل من الإنسان كائنا اجتماعياً، ذلك أن اتصال الناس ببعضهم في المجتمع البشري لا يتيسر حصوله بغيرها، وإن وجود لغة مشتركة بين الأفراد في أية أمة من شأنه أن يكون رمزاً ثابتاً فريداً لتضامن الناطقين بها.

فاللغة هي أحد العناصر الضرورية لبقاء المجتمع وتماسكه، فوحدة الأهداف والمبادئ تدعو إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال، وعناصر الوجود تتجسد في لفظ واحد مشترك يدل على هذا الشيء، أو الفعل، وبذلك يلعب اللفظ اللغوي دوره كمركز مشترك متفق عليه بين أفراد المجتمع كافة.[4]

فاللغة الإعلامية أهم مظهر للمحافظة على كيان المجتمع، فوحدة الأهداف والمبادئ تدعو إلى البحث عن دلالة شاملة للأشياء والأفعال، وعناصر الوجود المختلفة تتجسد في لفظ واحد مشترك سيدل على هذا الشيء، أو ذاك الفعل.

فما حقيقة المستوى العملي العادي للغة الإعلام الذي يشكل أحد مستويات التعبير اللغوي القائمة؟ إن هذه المستويات جميعها تحدد من حيث تقاربها مدى سلامة المجتمع من ناحية، ومستوى ضعفه فكرياً من جهة أخرى.

إن الفـرد في المجتمع المتكامل السليم، والمجتمـع المنحـل المريض هـو في تقارب المستويات اللغوية في المجتمع الأول وتباعدها في الآخـر. وإن تقـارب مسـتويات التعبير اللغوي دليل على تجانس المجتمع، وتوازن طبقاتـه وحيويـة ثقافته، ومن ثـم تكامله وسـلامته العقلية. فمن الثابت أن العصور التي يسـود فيها نوع من التآلف أو التعادل بين المستويات العلمية والأدبية والعملية هي في الغالـب حقب تاريخية تتصـف بالرقي والازدهـار، ولكن إذا كان المسـتوى اللغوي بعيـداً البعد كله عن الآخـر فهو دليل على التفـاوت الفكـري والمعـرفي بـين طبقات المجتمـع، مما يـؤدي إلى حالة من التدهور والتراجع والانحلال.

ويرى اللغويون أن لغة الصحافة والإعلام قد حققت الحالة التعادلية بين الخصائص اللغوية وبين شـعبية الصـحافة بالبساطة والسهولة والصـحة، وبالابتعاد عن العامية في اللفظ، والسوقية في الفكر.(٥)

وتـبرز مسـألة الفصـحى والعاميـة بوصفهما من أهم القضايا في علم الإعلام اللغوي في تحقيق الوظيفة التعادلية في اللغة بين الفصـحى وتأثرها بالعوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية والجغرافية، وبالتالي ظهور ما يسـمى باللهجة العامية التي تبدو تحدياً مـن تحديات لغة الإعـلام العربي، وقـد رأى عباس محمود العقـاد: (أن أحد أسباب التشـعب وظهور اللهجات كان أمراً مثيراً ولافتاً في العصـور الماضـية، ولم تكن إلى جانـب هذه الإثـارة أسـباب للتوحيد والتقريب تضارعها في القوة والتأثير، ولكن هذه الأسـباب توافرت في العصر الحاضر بعد شـيوع الصـحافة والإذاعة والصـور المتحركة، وقـد تحقق من أثر هذا التقريب أن غدت العربية الفصيحة قريبة الفهم لغير المتعلمين، وقد دخلت في الفصـحى أيضـاً مفردات نافعة من ألفاظ الحضـارة يمكن إجراؤهـا مجرى المفردات الفصـحى بغير تعديل، أو ببعض من التعديل).(٦)

لقد نهضت وسائل الإعلام الجماهيري بمهمة تعميـم اللغة العربية الفصـحى لما لها من تأثـير في التعبير والتوجيه والإقناع، وخاصـة الوسائل المسـموعة والمرئية التي تعتمد اللغة المنطوقـة في هذا الزمن الذي تلـوح في أفقه نذر إضـعاف اللغـة العربية الفصيحة.

إن صـورة التأثـير السريع علـى آلاف وملايين الإرادات الفردية وجمعها في إرادة

واحـدة هي إرادة الأمة سـوف يكون محتماً أن تثير هـذه الحقيقة أقصـى قدر ممكن من الاهتمام بالاتصـال الإلكـتروني، ولعلَّ هـذا الهدف هو في طليعـة الأهداف التي ينبغـي على وسـائل الإعـلام أن تعمل من أجل تحقيقه، وهو يندرج في إطار دق ناقوس الخطر تجاه التحديـات التي تحدق بالأمة العربية، وإرثها الحضاري والثقافي بالرهان على قدرة اللغة العربية على الاسـتمرارية والبقاء.

وحين نخص التلفزيون كوسيلة إعلامية ودعائية مهمـة في إطار تعميم الفصـحى بوصفه من أكثر وسائل الاتصال الجماهيري انتشاراً وديمقراطية كونه يحظى بالاهتمام من قبل معظم شرائح المجتمع، ويملك القدرة الخارقـة للوصـول إلى الخلية الأساسـية في البنـاء الاجتماعـي وهي الأسـرة، ولأن البث التلفزيوني يتمتـع بقدرات تكنولوجية عالية قادرة على اختراق الحواجز وتخطّي الحدود القطرية، كمـا أن الكلمة المنطوقة والصورة المتحركة من العوامل المساعدة في قدرة التلفزيون علـى تحقيق مفهوم الخبر الاجتماعي كونه يعمل على ثلاثة اتجاهات مؤثرة:

- الاتجاه العلمي التربوي في نشر المعارف والمعلومات.

- الاتجاه المعـرفي؟ تكوين وجهات نظر حول مجمل المعارف.

- الاتجاه التنبؤي وهو توقع لما سيحدث في المستقبل.

ووفـق هـذه الوظيفـة التي يقـوم بها التلفزيون والإذاعة في نشر الفصحى بمرونة ويسر... الأمر الـذي أدى إلى أقلمة سريعة للعالم الدائم التغير.

وإن التركيز على أهمية تعميم الفصحى لينبثق من الشعور والإدراك الواعي لحقيقة مفادها: أن العالم أجمع - نظراً لمكانة الدور العربي الإيجابي والبناء في عملية التواصل الحضـاري - يخاطبنـا بلغتنـا العربيـة الفصـيحة، وليـس باللهجة السـودانية أو المغربية مثلاً.

فالعربيـة تحتـل المرتبـة الثالثـة من اللغات المسـتخدمة في الإذاعـات الأجنبية بعد الإنكليزية والفرنسـية. إذ تستخدم ما يقارب السـبعين محطة إذاعية أجنبية اللغة العربية، وللنهوض برسـالة الإعلام اللغوية لابد من تكوين الإعلاميين تكويناً يستند إلى تنميـة قدراتهم على التفكير المتزن، وتكوين



الاتجاهات والقيم، واتخاذ القرار المناسب.

إن اعتماد وسائل الإعلام للعربية الفصيحة في عملية الاتصال الجماهيري وتضييق الخناق على اللهجات المحلية، وعدم الخلط بين الفصحى والعامية، يستند إلى إرث حضاري زاهر رفد الحضارات الإنسانية الأخرى بعلومه واكتشافه، إضافة إلى سمة البيان والفصاحة التي تتحلى بهما اللغة العربية، وحسب تعبير المستشرق (جب): لعل خير ما أسدته الآداب العربية الإسلامية لآداب أوروبة أنها أثرت بثقافتها وفكرها في شعر ونثر العصور الوسطى. ولم يذكر هذا المستشرق تأسيسات الفيلسوف ابن رشد للفلسفة العقلية في أوروبة القروسطوية وهي تعيش تحت هيمنة اللاهوت الدوغمائي.

إن الإعلام بعد إفادته من الأقمار الصناعية التي حولت العالم إلى قرية صغيرة بات يترك آثاراً سلبية وإيجابية على مجمل الحياة العامة وبخاصة[٣] في الدول النامية، لذلك ينبغي على وسائل الإعلام العربي أن تسعى إلى مؤالفة العامية للفصحى وتذويبها فيها، واعتبار اللغة الفصحى لغة له، أما العامية فهي لغة الجهل، وذات تأثير بالغ في تجزئة الأمة العربية وضعفها.

وقد أبدى الإعلاميون خلال المؤتمرات التي عقدت في أرجاء الوطن العربي حرصهم على الاهتمام بلغة الإعلام واتفقوا على جملة من التوصيات في هذا المضمار:

- وقف المد الإعلامي العامي، والارتقاء عن التداول الإعلامي الاستهلاكي للغة، لأن فلسفة الحياة والناس لا تعني الهبوط إلى ركاكة التعبير.

- الحد من ازدواجية اللغة داخل البيئة التعليمية وخارجها.

- العناية بتعزيز مهارات العاملين في وسائل الإعلام المرئي والمسموع للتحدث بالفصحى الميسرة، وتنمية مهاراتهم في هذا الاتجاه.

- التصدي لطغيان اللهجات العامية، والاستعلامات العامية والأجنبية المتفشية في أقطار الوطن العربي.

فالإعلام هو التعبير الصادق عن عقلية الجماهير وروحها وميولها في تكوين وتطوير الوعي الاجتماعي بهدف تشكيل النوعية الاجتماعية، والنفسية لمعتقدات الناس، ووجهات نظرهم بحيث تلبي رغبات ومتطلبات المجتمع الحديث. فالمفهوم الأساسي في العمل الإعلامي هو الخبر الجماهيري الموجه إلى شرائح المجتمع كافة، بحيث يساعد على تفهم المشاكل الاجتماعية العامة وكيفية معالجتها، والعمل على تكوين رأي عام موحد تجاه المسائل الحيوية. لذلك يطلق على المؤسسة الاجتماعية التي تسمى الإعلام (السلطة الرابعة).

ونظراً لأهمية الدور البالغ للإعلام يفترض أن تكون له لغته الخاصة والمعبرة التي تكتسب المرونة واليسر وفي هذا المجال يقول عالم اللغة (أوتو جسبرس). للتعبير في اللغة مزايا عديدة لكن المثل الأعلى للغة يظهر في مستقبلها لا في ماضيها، فاللغة هي صورة انعكاسية لواقع المجتمع وظروفه وتعبير عن ثقافته وعاداته وتقاليده.

إن العلاقة بين التغيرات الاجتماعية الكبيرة والتطور اللغوي من الأمور التي لاحظها اللغويون المعاصرون، وفي هذا يقولون: إن وراء الثورة اللغوية في فرنسا تختبئ الثورة الفرنسية فلغة الأدب الفرنسي هي لغة الفلسفة لعصر الأنوار الذي فصل بين عالمي: العصور الوسطى والعصور الحديثة، ولا سيما لغة من هيّأ للثورة البورجوازية الفرنسية ١٧٨٩ - جان جاك روسو، فولتير، مونتسيكو. لأن معنى

التوسع في حقوق المواطن، هو توسع في محو الأمية، وانتشار المعرفة، ولغة الصحافة المعاصرة ليست إلا تطوراً لمراحل لغوية سابقة مرت بها الصحافة العربية، وهي استجابة لتطور الآلات المستخدمة في استقبال الأخبار وإرسالها وطبع الصحف وتوزيعها، ولذلك تمثل الصحافة إحدى الأدوات الأساسية للإعلام بما تؤديه من دور في تكوين الرأي العام وبلورته ودفعه إلى القراءة والتأثير فيه، وفي هذا المجال يقول نابليون: (إن أربع جرائد تستطيع أن تلحق الهزيمة بالعدو أكثر من جيش قوامه مئة ألف). ويرى (ماكلوهان): إن الصحافة ضرورية لإثارة الشعور القومي، فالصحافة هي النموذج البصري الذي ينتزع الناس من المحلية والقبلية والذي يتمثل دورها بالتطوير والتجديد في مجال ابتكار الألفاظ والنعوت والصفات الجديدة بحيث تضفي على اللغة قوة في مفرداتها وزيادة دلالاتها ومعانيها، وإضفاء صفة البساطة والوضوح والسلامة والتأكيد والإيجاز والانتصار على اللغة العامية.(٧)

إن البساطة مرغوب بها في كتابة الموضوعات الموجهة إلى الجماهير الواسعة ولكي تتحقق تلك البساطة لابد من الابتعاد عن بعض أشكال البديع والزخرفة اللفظية ونبذ السجع والجناس في لغة الصحافة والإعلام بوجه عام، وكذلك إقالة أنماط مرحلتي المماليك والعثمانيين وتجلياتهما في متون النهضة.

فمن النعوت الجديدة والصفات التي صنعتها الصحافة مثل: الدعاية السوداء – الغيرة الصفراء – الليلة الحمراء – الحقيقة الصارخة..... إلخ. وتعتبر الترجمة عن اللغات الأجنبية التي يعتمد عليها في مجال التجديد والتي يستخدمها الصحفيون، وقد تستخدم طرق الاشتقاق الذي يؤدي إلى إغناء اللغة عن طريق توسيع الدلالات وتحميلها من المعاني ما لم تكن تحمله من قبل. فمن المعايير التي تهتم بها لغة الصحافة. عدم الإكثار من استخدام الصفات والتخلي عن أدوات التعريف التي لا لزوم لها بما فيها ظروف الزمان والمكان والانتقال من أدوات الربط المباشرة كالحروف المختصة إلى أساليب الارتباط غير الصريحة واعتماد القارئ كبنية رابطة لخطة القراءة. فلغة الاتصال المعاصرة التي تستعملها وسائل الإعلام العربي ممثلة في الخبر والمقال

الصحفي والحديث والتقرير والمقابلة الإذاعية والتلفزيونية نرى أنها لغة مباشرة تصل إلى الهدف الذي تقصده بطريقة فردية متجنبة اختيار الإيحاءات الجمالية والفنية، وهي أيضاً تتخلى بالتدريج عن العبارات المقتبسة والأنماط المحفوظة المتوارثة التي لم تعد تلائم روح العصر. ومن هنا كانت اللغة الإعلامية تؤثر أن تقول: عرض البحث بدلاً من عُرض على بساط البحث، وقاتل بدلاً من خاض غمار القتال، واشتد القتال بدلاً من حمي وطيس القتال، وانتهت الحرب بدلاً من وضعت الحرب أوزارها، وتقول أيضاً شبت نار في القرية بدلاً شبت النار في القرية. كما تجنح إلى الاستغناء عن لغة ربط الكلمات، فتؤثر أن تقول: قال في حديثه بدلاً من وقد قال في حديثه.

وتميل لغة الإعلام إلى الجمل القصيرة عوضاً عن الجمل الطويلة فتقول: استغرقت المناقشة نحو ساعتين بدلاً من استغرقت المناقشة مدة تقرب من ساعتين.

بعد هذا العرض عن دور وسائل الإعلام بأشكالها الرئيسة، يجدر بنا الحديث عن دور الصحافة العربية التي كانت أولى وسائل الإعلام ظهوراً في العالم العربي، وهي التي أدت وتؤدي دوراً مهماً في نشر الوعي الاجتماعي، وقد تعددت عثرات اللغة الصحفية، وكثرت كبواتها وجنت أحياناً على الفصحى، ومن أهم هذه العثرات: غزو الألفاظ العامية لأسطر الصحف والمجلات وقلما تسلم صحيفة أو مجلة من ذلك، وهذا من أفظع ما جنته الصحافة على الفصحى. وقد استخدمت بعض الصحف صفحات كاملة يومية لنشر القصائد العامية وتمجيد شعرائها حتى صار أدب العامية أقرب طريق للوصول إلى الشهرة. وقد حمل الأديب مصطفى صادق الرافعي منذ نصف قرن حملة شعواء على الصحافة التي تأخذ بالعامية ورأى أن أكثر ما تنشره الصحف هو صناعة احتطاب الكلام، وقد بطل التعب إلا تعب التفتيش والحمل، فلم تعد هناك صناعة نفيسة في وشي الكلام، ولا طبع موسيقي في نظم اللغة، ولا طريقة فكرية في سبك المعاني.[٨]

كما تمتلئ صفحات الجرائد والمجلات بالإعلانات التي تصاغ بالعامية، وكذلك النشرات الإرشادية وأغلب مجلات الأطفال، ومن العثرات أيضاً التي تقع فيها الجرائد

والمجلات شيوع اللحن والأخطاء النحوية، والأساليب اللغوية الركيكة على صفحاتها، ويرجع السبب في ذلك إلى ضعف إلمام المحررين بقواعد النحو والسرعة، وعدم الاعتناء بالأساليب اللغوية السليمة، وهناك ما يسمى في عالم الصحافة بالقوالب الجاهزة التي تصب فيها المادة الصحفية، وهذا ما نراه في كتابة خبر معين في كثير من الصحف وبطرائق متشابهة، وأن بعضاً منهم يستخدم ألفاظاً ومفردات أجنبية على الرغم من وجود لفظ عربي مقابل لها، وينشر إعلانات باللغة الإنكليزية أو الفرنسية أو سواهما.

ومن التحديات التي تواجه الإعلام العربي حرب اللهجات المستعمرة بين الإذاعات والفضائيات العربية، والتنافس المحموم لحيازة الريادة لنشر عامية هذه الإذاعة أو تلك الفضائية بين أكبر عدد من المستمعين أو المشاهدين، وقد نما هذا التلوث اللغوي بظهور المسلسلات والأفلام، وتطور هذا الأمر إلى برامج التراث والإعلانات وإلى البرامج الحوارية والعلمية أحياناً، ولا بد من الإشارة هنا إلى منافذ العامية في الإذاعة والتلفزيون التي تظهر لدى المذيعين والمذيعات، فأكثرهم لا يحسنون صياغة جملة فصيحة، وأخطر المنافذ البرامج الموجهة للأطفال التي ترسّخ العامية في نفوس النشء، وهي في مرحلة يتشوقون فيها للمعرفة، ويسهل تأثرهم بما حولهم، وإن جولة واحدة في أحد المنتديات في الشبكة العنكبوتية لتصيب المرء بالذهول من شدة التراجع اللغوي الذي تشكو منه هذه المنتديات وتلك المواقع. فالفئة العمرية التي ترتاد تلك المواقع تتراوح في أغلب الأحيان بين سن العشرين إلى الثلاثين وحتى الأربعين. ومن الحلول المقترحة للقضاء على هذه الظاهرة الملوثة للغة وما تحمله من قيم:

- محاربة العامية في الصحف والمجلات والقنوات.

- التوعية الإعلامية بأهمية اللغة العربية وذلك بطريقة تلائم عصرنا.

بعد ذلك كله يحق لنا أن نتساءل نحن المعنيين بالمسألة اللغوية هل ينبغي أن يقتصر الاهتمام بهذا الموضوع على الجانب الاحتفالي «طقوس تمكين العربية» الذي لا يخلو من فائدة؟

إن المجتمع العربي يعاني نقصاً معرفياً

مركباً وهذا ما أشار إليه بعض المفكرين العرب ومنهم المفكر العربي نبيل علي في كتابه العقل العربي ومجتمع المعرفة يرى جهلاً في المعرفة وجهلاً باللغة، وهناك أسباب عدة وراء هذا الجهل بالمعرفة، ما بين فلسفية واجتماعية ونفسية ومعلوماتية، وقصور في الأسس النظرية والوسائل العملية، فهو يرى: (أن أحد أهم أسبابها في رأيه الجهل باللغة صنيعة المعرفة وصانعتها، فمع كل الإنجازات التي تحققت في مجال اللغة خلال القرن الماضي، فإن اللغز اللغوي مازال يحتفظ بكثير من أسراره خصوصاً في إشكالية المعنى وهو بداهة ذو صلة بالمعرفة وكما هو معروف فقد حيرت إشكالية المعنى ومازالت الفلاسفة والعلماء والمناطقة)[٩] ويضيف أن اللغة هي منظومة قوامها ثلاثة عناصر رئيسة هي نظام القواعد، والمعجم ومجالات استخدامها أو توظيفها، ونحن نعاني قصوراً شديداً على هذه الجبهات الثلاث، فالتنظير للعربية قد شغله ظاهر اللغة عن الغوص في باطنها. وهو في أغلبه تنظير طابعه تلقيني يكتفي بتجميع حالات الاطراد والشذوذ، ويخلو من أي مسعى إلى تفسير السلوك اللغوي على ضوء العلم التجريبي الحديث.

ومن المفيد في نهاية هذا البحث أن أورد بعضاً مما قاله المفكر اللغوي د. عبد السلام المسدّي من مقالة له بعنوان «كيف تموت اللغة؟»:

(تموت اللغة بالهلاك الجماعي للناطقين بها كما حدث في العصور البدائية وفي بعض العصور الحديثة، وإذا كانت الحفريات قد تمكنت من العثور على جثتها المحشورة في الألواح أو في أدوات العيش كشواهد القبور، وهي في أحسن الأحوال تصبح وثيقة لتسليط الأضواء على زمن الناطقين بها، وفي الموت اللغوي فناء بيولوجي للإنسان، قد يتخذ الاحتضار البطيء وذلك عن طريق انحسار لنفوذ أصحابها وتلاشيهم، إما تلاشياً مطلقاً، أو مسخاً يطول هويتهم).[١٠]

وعندي أن اللغة تنمو وتزدهر ولا خوف عليها من اللهجات العامية، فاللهجات موجودة في معظم اللغات الحية، فالعربية -رغم ما قيل ويقال- تعيش عصراً جديداً من التعايش مع الإنتاج المعرفي العالمي - رغم تقصير أبنائها في ترجمة المصطلح ولا سيما في العلوم الدقيقة- كما أن الدوريات القطرية والقومية تقرّب المسافة بين العاميات والفصحى، وأما وسائل الإعلام

المرئية فإنها تخلق جواً جديداً من التعايش بين شطري العالم العربي: المشرق والمغرب، وكذلك تنقل الفصحى من القواميس إلى اللغة المعيشة المتداولة القادرة على التوصيل بين مستويات أبناء العربية، وإننا نرى أن الدعوة إلى تعليم اللغات الأجنبية الحية وتعلمها لا يغض من شأن العربية، بل على العكس فإن في هذا إثراً للغة تحب الأحياء، فلقد ازداد النطق بالفصحى بعد الثورة الإعلامية في العقدين الأخيرين بنسبة ٦٠٪، لكن تعلم اللغة الأجنبية يجب ألا يكون على أساس من الإزاحة والإحلال، إنما على مبدأ الإغناء والإثراء.

الهوامش

١- سابير عالم لغوي أمريكي، راجع كتاب عبد الرحمن أيوب اللغة والتطور، ص ١٦٠.
٢- اللغة العربية والإعلام- إنتاج اللغة الإعلامية، د. محمد العمر دمشق ٢٠٠٣-٢٠٠٤.
٣- العلاقة بين التفكير واللغة طلعت منصور، الكتاب السنوي الخامس والأربعون ١٩٧٥.
٤- د. السيد أحمد مصطفى- العلاقة بين الصحافة واللغة، مجلة الصحافة العربية- بنغازي- ليبيا عدد ٢٧،١٩٩٠.
٥- جورج ماكلوهن- لغوي سياسي كندي صاحب نظرية الاتصال الاجتماعي.
٦- أورد العقاد هذا الرأي في (اللغة الشاعرة) ص ٣٦٨- أشتات المعاني- ص ١٠٠-١٠١.
٧- مصدر رأي إنتاج اللغة الإعلامية محمد العمر، مصدر سابق.
٨- الرأي لمصطفى صادق الرافعي وقد كرر هذا في غير موضع من كتبه، تحت راية القرآن- من وحي القلم.
٩- نبيل علي- العقل العربي ومجتمع المعرفة- عدد ٣٦٩، ٢٠٠٩- سلسلة عالم المعرفة الكويتية.
١٠- مجلة العربي الكويتية- وجهاً لوجه.

حوار العدد

علي فرزات:
بالكاريكاتير أضحك العالم

إعـــداد : عادل أبو شنب

حوار العدد



علي فرزات:
بالكاريكاتير أضحك العالم

إعداد: عادل أبو شنب

موهوب ضحك على العالم وأضحكه.. بالكاريكاتير. إنه الصديق علي فرزات الذي عايشته ردحاً من الزمن، ثم أصدر «الدومري» التي توقفت، فظننت أنه انطفأ، لكن ظني لم يكن صائباً، فقد استمر يبدع كاريكاتورياً، ويحصد الجوائز العالمية، وأخيراً أقام معرضاً دائماً لأعماله في دمشق، وعن طريق معرضه الدائم جددت الصحبة معه، فرأيت فيه فولاذاً لا يلين، يقف إلى جانب الناس المسحوقين، يصور همومهم بالكاريكاتير.

⊛⊛ أديب وقاص سوري

إنه ليسعدني أن أقدم على صفحات معرفة هذا العدد الكاريكاتوريست العالمي الفنان الصديق علي فرزات.

❁ ❁ ❁

بين عدة مدن..

- أول سؤال وجهته إليه هو السؤال التقليدي: المولد والدراسة والنشأة، فكيف أجاب؟

• الولادة في حماة والمنشأ. كانت الدراسة الابتدائية والإعدادية في حماة ثم توزعت الدراسة بين المحافظات بحكم عمل والدي بين حلب وعفرين والمعرة ثم في دمشق.

منذ الصغر تعلقت بالكاريكاتير

- وكان سؤالي التالي: من التقى بمن، أنت أم الكاريكاتير، فأجاب:

• الكاريكاتير هو الذي التقى بي، وأخذني إلى عوالمه لأنه وجد عندي المناخ المناسب، وفي الخامسة من عمري بدأت أؤلف الحكايات والقصص الساخرة- الناقدة خلال تخيلات وصور غير مرسومة مستخدماً العبارات التي كانت تتم عن روح ساخرة قبل الرسم وعندما كبرت وجدت أن هذه الأفكار الساخرة يناسبها فن الكاريكاتير المعتمد على الرسم. فالرسم كان وسيلة لتوصيل أفكاري إلى العامة من خلال الصحف فيما بعد.

بدايتي الحقيقية للرسم: أذكر أنني عندما كنت في السنوات الإعدادية وتحديداً في الصف السادس تمرنت بأساتذتي وأصدقائي وأشقائي فعندما أريد أن أنتقص من شخص بسبب مشكلة ما كنت أسخر منه برسمه بشكل كاريكاتوري، وهذا ما سبب لي أحياناً طرداً من المدارس لإثارة الشغب الضاحك للطلاب عندما ينظرون إلى بعض الأساتذة المرسومين وكانوا يعتبرون ذلك عرقلة لسير الدروس. ثم جربت أن أرسل أول كاريكاتير لجريدة الأيام التي كانت تصدر في دمشق لصاحبها نصوح بابيل وكان عمري حوالي ١٢ سنة. دُهشت عندما وجدت الكاريكاتير الذي أرسلته إلى الجريدة منشوراً على الصفحة الأولى تحت المانشيت مباشرة.. وفوجئت أيضاً عندما وردتني رسالة من صاحب الجريدة يدعوني بها إلى التعاون معه ظناً منه بأني راشد بالغ من أصحاب الخبرة في الرسم، هذه كانت بداياتي في رسم الكاريكاتير.

الأفكار ثم الرسومات

- وسألته كيف يحصل على الأفكار، أجاب:

• بالنسبة للعمل اليومي أنا لا أرسم بشكل يومي إجمالاً.. لدي مخزون من الأفكار أسجلها على قصاصات من الأوراق

إلى حين تنفيذها ثم أقوم برسومات أرسلها تباعاً إلى بعض الصحف والمجلات إلى حين ورود أفكار جديدة ليس لها توقيت وليس لها برنامج تأتي كما الوحي بالإلهام وهذا الإلهام ليس له قاعدة أو برنامج ربما تندرج تحت قائمة الجينات الوراثية.

وهذا الأمر ينقذني من طواحين الصحافة التي تستهلك الإنسان الصحفي أو الفنان إذا ما كان ينشر بشكل يومي. الأمر الذي يجعله عرضة لاستهلاكه من قبل الجمهور وستطحنه مسننات المطابع اليومية. هذا من ناحية أما من ناحية أخرى بالنسبة للرقابة فقد وجدت أن اللجوء إلى الرمز في رسوماتي خير وسيلة للتحايل على الرقابة التي تأخذ بالأمور المباشرة مثل الكتابة أو الإشارة إلى أشخاص أو المواضيع هذا ما يترك مجالاً للرقابة بوضع يدها على الموضوع «الرسم» كمستمسك أما في طريقتي فهي أشبه بالمثل القائل «اللي فيه مسلّة بتنخزه» فهي تتناول الممارسات اللاإنسانية وقضايا الحياة بشكل عام لذلك فهي تنطبق على كل مكان وزمان وأشخاص لكنها ليست لزمان أو مكان أو أشخاص معينين.

توقفت الدومري

- وسألت: لماذا توقفت جريدتك الدومري؟

• الدومري توقفت بقرار والذي بموجبه أغلقت جريدة الدومري كوننا خالفنا القوانين والتوجهات الإعلامية ولامسنا الخطوط الحمراء من دون أن يكون للقرار شرح لما ورد عن قضايا مطروحة تبين أسباب الإغلاق. هذا الأمر جاء تتويجاً لسنتين ونصف من المتاعب والضغوط التي مورست.

اشترك في ثلاثين معرضاً

- وسألته عن المعارض التي اشترك فيها في العالم، فقال:

• اشتركت في معارض كثيرة حوالي ثلاثين معرضاً في أنحاء العالم منها ما هو مشترك مع فنانين محترمين ومنها معارض فردية أقيمت في أمريكا وأوروبة وآسية وأفريقية ثم تم اختياري ضمن لجان التحكيم في المعارض المشتركة لتحديد الجوائز وخلال مسيرتي الفنية الطويلة من بداية الثمانينات وحتى الآن حصلت على العديد من الجوائز الدولية العربية والأجنبية وتم تكريمي في سويسرا عام ١٩٩٤ بمدينة مورج كواحد من ضمن خمسة رسامين الأفضل في العالم في المواضيع الإنسانية وحصلت على أهم الجوائز عام ٢٠٠٣ في العالم بعد جائزة نوبل مباشرة للأعمال الإنسانية وهي جائزة الأمير كلاوس الهولندية وهذه الجائزة توزع على الأشخاص الذين ساهموا في خدمة

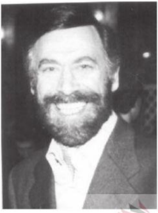
الإنسانية باختصاصاتهم المختلفة العلمية والطبية والفنية والأدبية وإلى ما شابه ذلك. ويتم اختيار عشرة أشخاص عادة لتوزيع الجوائز عليهم. كما أن الولايات المتحدة في عام ١٩٩٦ دعتني لزيارة خمس ولايات من قبيل اهتمامهم بأعمالي وتعريف المؤسسات الفنية بنشاطاتي وتعريفي بأهم الرسامين هناك والمؤسسات الفنية بما فيها مؤسسة والت ديزني وزيارة مقر صحف ومجلات مثل نيويورك تايمز وواشنطن بوست والتقائي بصالات عرض لأهم فناني الولايات المتحدة في نيويورك.

- وسألته عن معرضه الدائم، فقال:

• تضم صالتي حوالي ٧٥ عملاً فنياً منفذاً بتواريخ مختلفة إلى جانبها أيضاً أعمال لها علاقة بالغرافيك وأيضاً هذه الصالة ضمن أشكال أخرى لتطبيقات من الكاريكاتير والغرافيك على مواد واستخدامات إنسانية ومنزلية الأمر الذي سيجعل من الكاريكاتير موزعاً بين الناس في بيوتهم ومكاتبهم وفي الشارع بطباعة الرسومات التي تحمل أفكاري على فناجين وتيشرتات ومفارش طاولات وستائر ووسائد وأمور أخرى مختلفة منها الإكسسوارات.

- وسألته عن الكاريكاتير كنقد، فأجاب:

• فن الكاريكاتير إذا كان المقصود به



النقد من خلال وسائل الإعلام فهو لا شك في تراجع كبير كون الصحافة إجمالاً الخاصة والرسمية تخضع لقوانين وضوابط ومقاييس مختلفة عن السابق إذا قارناها بالصحافة الوطنية التي كانت تنشر في الماضي وتحديداً في الخمسينات. أما الآن فقد تحول الرسام الموهوب صاحب الأفكار الجيدة إلى أداة منفذة لأفكار رئيس التحرير أو المدير العام النابعة من القوانين الصارمة.

- ووجهت إليه سؤالاً عن إعادة رسوم الكاريكاتير، فأجاب:

• إن طبيعة أعمالي الذهنية ليس لها زمان أو مكان كأغاني فيروز مثلاً تتألق في كل مرة تنشر لما تحمله من أبعاد فكرية وإنسانية

وفنية فهل يمكن أن نقول لقد سمعنا أغنية فيروز في الشهر الماضي ولا يمكن أن نسمعها الآن كذلك الأمر ينطبق على قصائد شعرية ونصوص أدبية وروايات وقصص فالقيمة التي تحملها رسوماتي خاصة لها صفة الديمومة والاستنتاجات الفكرية المختلفة في كل مرة يراها المتلقي كونها لا تتأطر ضمن مناسبة يومية أو رسمية أو شخصية.

معهد لتعليم الكاريكاتير

- وسألته ما إذا كان يمكننا تحويل معرضه الدائم إلى معهد لتعليم فن الكاريكاتير.. أجاب:

• فكرت في الأمر أن أحول قسماً من الصالة إلى معهد لتعليم فن الكاريكاتير غير أن هناك أسباباً موضوعية لا تساعد على ذلك من حيث مساحة المكان ربما هذه الخطوة سنقوم بها لاحقاً إلا أنني أوجه بعض الموهوبين من خلال اللقاءات الشخصية أو بوساطة الإيميلات عبر موقعي على الإنترنت.

- وأجاب على سؤالٍ لي بما يلي:

• أنا لم أبتعد عن الصحف، لكن الصحف لا تستوعب أعمالي فقد أرسلت بمجموعة رسوم إلى أحد الصحف الرسمية بطلب منها وعندما أرسلت لهم ذلك اعتذروا عن نشرها بسبب أنها ناقدة وساخرة إلى درجة قد تسبب إحراجات مع الآخرين فسؤالك يمكن أن يوجه إليهم وليس لي.

- وكان جوابه على سؤالي الأخير:

• بالنسبة لإعادة جريدة الدومري لاأعتقد أن قانون المطبوعات الحالي يترك خياراً بإعادتها. والطريف بالأمر أنه سألني مرة الصحفي عبد الغني العطري -رحمه الله- قال لي: هل قرأت قانون المطبوعات يا علي عندما أصدرت الدومري؟ فقلت له: لا. فقال: هذا هو السبب الذي جعل من جريدتك الدومري مغامرة لفتت الأنظار. وعندما رجعت إلى قانون المطبوعات بعد ذلك قلت في نفسي والله لو أني قرأته قبل إصدار الجريدة لترددت في ذلك.

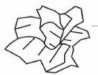
❁ ❁ ❁

كان هذا لقاء استثنائياً، بكل معنى الكلمة، وأنا منذ زمن طويل أحببت أن ألتقي بالفنان الكاريكاتوريست المبدع علي فرزات، وأحاوره، وقد سنحت لي الفرصة اليوم، ومع أن هذا الحوار قد سقطت منه أجزاء، بالضرورة، فقد بقي في حالة أعتز بها، لأنها مكنتني من الاقتراب أكثر من صديق أحبه وأحترمه، وأثمن آراءه.

ليت جميع أفراد الجيل الذي التحق بالصحافة كان بمتانة وصلابة هذا الرجل، لكأنني أرى فيه امتداداً للجيل الذي أمثل.



متابعات



متابعات



صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ⊙

الدوحة تكرم مترجمي ابن بطوطة:

كـرّم المؤتمر الـدولي عن الرحالة العرب والمسـلمين الذي استضـافته الدوحة مترجمي رحلة الرحالة العربي الأشـهر شمس الدين محمد بن عبد اللّه الطنجي الشهير بابن بطوطة.

كما كرّم المؤتمر كلاً من الكاتب السوداني صديق المجتبى ومن المغرب وزير الثقافة الأسبق محمد الأشعري وعبد الهادي التازي «٨٩ عاماً» المؤرخ البارز

⊙ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

المتخصص في علم ابن بطوطة إضافة إلى الرحالة والمخرج البريطاني تيم ماكنتوش-سميث المقيم في اليمن منذ ٢٠ عاماً والذي شارك في المؤتمر بفيلم تسجيلي يتقصى فيه رحلة ابن بطوطة من المغرب إلى الهند.

وقدّم الدكتور حمد بن عبد العزيز الكواري وزير الثقافة والفنون والتراث في قطر للمكرمين تمثالاً من البرونز لابن بطوطة صممه النحات السوري المقيم في غرناطة عاصم الباشا، وشارك في فعاليات هذا المؤتمر الذي حمل عنوان «العرب بين البحر والصحراء» قرابة ٨٥ باحثاً من الباحثين العرب والأجانب المهتمين بأدب الرحلة العربية في ألف عام، وعقد المؤتمر بالتعاون بين «الحي الثقافي» في الدوحة و«المركز العربي للأدب الجغرافي- ارتياد الآفاق» الذي يديره الشاعر السوري نوري الجراح.

وقرأ الجراح توصيات المؤتمر وتضمنت تأسيس مركز لأدب الرحلة في «الحي الثقافي» بالدوحة بالتنسيق مع «المركز العربي للأدب الجغرافي» يحمل اسم «ابن ماجد» البحار والجغرافي المنتمي إلى الجزيرة العربية وإقامة متحف لتراث رحلات العرب في البحر والصحراء وإدراج أدب الرحلة ضمن تخصصات جامعة قطر وغيرها من الجامعات العربية والاهتمام بالدراسات عن الملاحة العربية والإسلامية عبر العصور في عالم المحيطات والبحار.

ووزعت في الحفل جوائز ابن بطوطة لأدب الرحلة في مجالات «تحقيق الرحلات» و«الدراسات في أدب الرحلة» و«الرحلة المعاصرة» و«اليوميات» التي فاز بها الجزائريون سميرة انساعد وعلاوي وبورايو عبد الحفيظ وعبد الناصر خلاف والمغاربة نزيهة الجابري وعبد القادر سعود وعبد الحفيظ ملوكي والمصريان عمرو عبد العزيز منير وسعد القرش والسعودي عبد العزيز بن حميد الحميد والعراقي وارد بدر السالم واليمني عبد الله السريحي والسوري المقيم في غرناطة عاصم الباشا. يشار إلى أن رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ترجمت إلى حوالي ٥٠ لغة آخرها الصينية وقام بها لي قوانجبين رئيس مركز ابن بطوطة لخدمة الترجمة والبحوث وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي كرمه المؤتمر مع المترجمين الإيراني محمد علي موحد والتركي عبد السعيد آيقوت.[1]

اتحاد الأدباء يكرم عدداً من شخصياته ويمنح جوائز مسابقة المهرجان:

كرم اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين في حفل اختتام دورة مهرجانه السادسة مجموعة من شخصيات الأدب والشعر الاعتبارية في موريتانيا حيث وزعت عليهم شهادات تقدير، وشمل التكريم عبد الله السالم ولد المعلى وزير الثقافة الأسبق، ومحمد الحافظ ولد أحمدو، وأحمد فال ولد أحمدو الحسن، وبونه بن أعمرلي وشخصيات أخرى.

وتمّ في حفل اختتام المهرجان تقديم جوائز مسابقة الاتحاد حول «المقاومة الوطنية والاستقلال» التي تأتي ضمن فعاليات نسخته الحالية من المهرجان وقد شملت المسابقة ميادين: الشعر العربي الفصيح، والحساني، والبولاري، والسونونكي، والألفي، وفي القصة القصيرة، والبحث العلمي.

وقد فاز بالجائزة للشعر الفصيح مناصفة: كل من الشاعرين محمدو ولد أحمدو الملقب النابغة وإدوم ولد بلمساك، وفاز بالجائزة الثانية - الشاعر لمرابط ولد دياه، أما الثالثة فكانت من نصيب الشاعر محمد لمين ولد محمد عبد الله.

وفي مجال الشعر الشعبي فقد فاز بالجائزة الأولى محمد لمين ولد أحمد دي، وبالجائزة الثانية أحمد ولج محمد ولد اب، وبالجائزة الثالثة محمد نوح ولد محمد فاضل.

أما على صعيد مسابقة الشعر البولاري، فقد فاز بالجائزة الأولى محمد سيدي اندونكو، وبالجائزة الثانية فاطمة عبد الله ديوب، وبالجائزة الثالثة جالو سيد ممدو.

وذهبت الجائزة الأولى في مسابقة الشعر السونونكي إلى كمرا جاجي، والثانية إلى لانسانا موسى، بينما كانت الثالثة لباكاري سيد.

وفي مجال مسابقة الشعر الولفي فقد كان الفوز بالجائزة الأولى من نصيب مودو كي، وفاز بالجائزة الثانية موسى فاليلي، وبالثالثة الحاج كي.

وتوزعت جوائز القصة القصيرة بين الطيب ولد صالح للجائزة الأولى، والمختار السالم ولد محمد محفوظ والولي ولد سيد هيبه ٢٠٠٠٠٠ مناصفة للجائزة الثانية، والثالثة لمحمد عمر ولد اباه.

وأخيراً فقد كانت جوائز مسابقة البحث العلمي على الترتيب الآتي: لشيخ ولد سيد عبدالله، والتقي ولد الشيخ، ومحمد لمين ولد لكويري، ورافق فعاليات حفل توزيع الجوائز قراءات شعرية وقصصية.[٢]

الفقيه في ندوة عن أدب السيرة الذاتية:

استضاف المنتدى الثقافي العربي ببريطانيا الكاتب الليبي أحمد إبراهيم الفقيه في ندوة حول أدب السيرة الذاتية أدارها رئيس المنتدى الدكتور رمضان بن زير.

وتحدث الدكتور الفقيه خلال الندوة عن أدب السيرة الذاتية الذي قدمه على أنه أدب قديم يسمى اعترافا، مبيناً الفروق بين قواعد كتابة السيرة الذاتية في الغرب والعالم العربي حيث أن الدارس الباحث لقواعد كتابتها في الغرب يجد كتبا يعود إليها ويستفيد منها ومناهج واضحة، لكن في العالم العربي هذا النوع من الكتابات نادر ويعتمد فقط على ما رجع في الذاكرة.

وشرح الكاتب خلال الندوة أنواع السير الذاتية، مبينا أن هناك سيرة فكرية وهي التي يعكس صاحبها أفكاره، وهناك سيرة أحداث وهي التي تكون عبارة عن تدوين للأحداث التي وقعت حسب تسلسل زماني، وأكد أنه أراد أن تجمع سيرته الذاتية بين أحداث وتأملات خاصة إذا كانت تحمل دلالات، مبينا أنه اطلع على كتب كثيرة من هذا النوع في السيرة الذاتية وكانت قراءتها ممتعة توازي متعة قراءة كتب الأدب والخيال، وتطرق الفقيه إلى الفرق بين الرواية التي تعتمد على الخيال، والسيرة الذاتية التي تتنوع أساليبها، فهناك من يجعلها وسيلة لرحلة مع الأنا المتضخمة، وهناك من يجعلها إعادة اختراع لحياته مثلما يفعل السياسيون، وحتى الأدوار السياسية في حياتهم يحولونها إلى إيجابية مثلما فعل بوش.

وبين الدكتور الفقيه أن السيرة الذاتية بالنسبة له هي محاولة للقبض على الزمن الهارب، فهي شهادة لصاحبها على ما شهده جيله في منطقته، وتحدث في هذا الإطار عن تجربته الشخصية وكيف أنه حضر في قريته الطبخ على الفرن العربي التقليدي، والحرث باستعمال الدواب، وإضاءة المنزل بالفنار وكيف أنه شهد دخول الكهرباء والتلفزيون، والماء والحرث بالجرار، وغيرها من الأدوات العصرية.

وبيّن الكاتب الليبي أن ما عاشه بالمعاينة والممارسة والتجربة يمثل دافعا ومبررا أمام نفسه للكتابة، وعلى حد تعبيره «إنه نوع من الإحساس بتدارك الوقت وتسجيل ما لم يرو الجيل الذي بعدنا»، لافتاً إلى أن السيرة الذاتية تفتح مجالات قد لا تتيحها الرواية، فهناك أحداث في الحياة لا تستوعبها القصيدة أو المسرحية أو الرواية، مشيراً إلى

أهمية السيرة الذاتية بالنسبة للمؤرخ الذي قد يستفيد منها كمرجع للبحث مع الحذر طبعا وعدم التسليم بما جاء فيها ،فهي عبارة عن مصدر وشهادة وليست تاريخا.

وعن سيرته الذاتية التي بدأ بكتابتها بين الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه أنها ستنقسم لجزأين كبيرين يدور الأول في محيطه الشخصي، ويتعرض الجزء الثاني لحياته المهنية التي كانت زاخرة بعلاقات وصداقات مع أسماء لمعت في سماء الأدب العربي. (٣)

تونس تحتفل بمئوية الجموسي:

في إطار الاحتفال الوطني بمئوية الفنان التونسي محمد الجموسي، صدر مؤلف جديد بعنوان «محمد الجموسي: من الذاكرة الحية للموسيقى التونسية المعاصرة» للدكتور الأسعد الزواري، بهدف تعميق النظر في الرصيد الموسيقي لهذا الفنان باعتباره منارة من منارات الحقل الموسيقي التونسي وجزءا من الذاكرة الحية للثقافة التونسية المعاصرة التي ساهمت في إثرائها تجربة الفنان الراحل كمطرب وملحن وعازف وشاعر ومنتج لبرامج إذاعية.

ويبرز هذا الكتاب مميزات التجربة الموسيقية للفنان «محمد الجموسي»، التي نهلت من عدة ثقافات متوسطية انطلاقا من تونس ثم المغرب والجزائر ومصر وفرنسا وأفرزت إنتاجا موسيقيا تونسيا يعج بنفائس من ثقافات متوسطية متنوعة ساهمت في إثراء المخزون الموسيقي التونسي وطبعته بطابع خاص لما اشتملت عليه من خصوصيات وتوجهات ورؤى حديثة للفنان الراحل.

وفي مقدمته قال مؤلف الكتاب: إنه لا يمكن بالتأكيد تصنيف موسيقى «محمد الجموسي» ضمن نمط المألوف التونسي بل إنها حصيلة تجربة ذاتية تجمع بين أنماط مختلفة وثقافات متباعدة، ليبرز في الأخير مدى نجاح الجموسي في التعبير عن محيطه وفكره وفلسفته من خلال الأغنية بكل مكوناتها من شعر ولحن وإيقاع ومقامات، إضافة إلى إبراز خصوصيات التلحين والخيارات التعبيرية العامة التي اعتمدها «الجموسي» في مسيرته الإبداعية. (٤)

عدن بوابة اليمن الحضارية:

نظمت جامعة عدن ندوة علمية بعنوان: عدن بوابة اليمن الحضارية، وذلك بمشاركة لفيف واسع من باحثين يمثلون جامعات عدن وصنعاء وذمار وتعز، ووزارة الاتصالات وتقنية المعلومات، وبعض البلدان العربية كالعراق وليبيا.

وتهدف الندوة إلى تأكيد أهمية الحفاظ على الموروث الأثري والحضاري والثقافي

لعـدن، وتوثيق معالمها الأثرية والحضـارية والثقافية وتأصـيل الدراسات عنها لتقديم رؤيـة دقيقـة حـول توظيفها في مضـمار التنميـة، والعمـل على الترويـج الإعلامي لآثارها وموروثها الثقافي والحضاري وتنمية الوعي بها.

وناقشـت النـدوة ثلاثة محـاور علمية تركزت حـول الآثار القديمة والإسـلامية، والإشـكاليات البحثية ذات الصـلة بالآثار القديمـة والإسـلامية في عـدن ومحيطها المكاني ذات العلاقة، و«معالم عدن ووظائفها الحضـارية والثقافية» و«العمـران والهوية المعماريـة»، ومسـائل النمـو العمـراني والخصائص المعمارية الهندسية التي تتميز بها عدن والعوامل المؤثرة فيها.

وفي هذا الإطار ناقشت اللجنة الخاصة بتنفيـذ مشـاريع البنية التحتيـة الثقافية لمدينـة تريم عاصـمة الثقافة الإسـلامية، مسـتوى تنفيذ المشـاريع الثقافية للمدينة، والتـي تشـمل صـيانة وترميم وتحسـين واجهات القصور الأثرية والتاريخية وبعض المساجد القديمة والساحات العامة والقلاع والحصـون التاريخية في المدينة فضلاً عن اسـتكمال الترميمات الجارية بقصر الرناد التاريخي، وغيرها من القصـور التاريخية الطينيـة التـي تزخر بها المدينـة بما يبرز خصوصيتها الحضـارية الثقافية، ويعكس مكانة المدينة التاريخية بصـفتها عاصـمة للثقافة الإسلامية. (٥)

احتفاء بالتراث الصحراوي المغربي:

اختتمـت أيام موسـم طانطان للتراث الشفهي اللامادي للإنسـانية، الذي اختار لدورته السـابعة هذا العام شـعار «الموروث الثقـافي اللامادي بين الأصـالة وتحديات العولمة».

وبهذه المناسـبة صرح الدكتور بن سـالم حميش، وزيـر الثقافة في الحكومة المغربية بأن موسـم طانطـان الثقافي والسـياحي الذي يحتفي بالإنسـان ويثمن قيم التلاقي: يعتبر تكريمـاً للتراث الصـحراوي المغربي الذي تم ترسـيمه من طـرف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة؛ اليونيسكو، تراثا لاماديا للإنسـانية، وأضاف أن موسم طانطان يندرج ضمن الخيارات الديمقراطية والتحديث الذي اعتمدتـه المملكة المغربية بتصميم متواصل، مسجلا أن إدراك المعاني الحضـارية والإنسانية والبيئية تعني الترفع عن النعرات الأنانية والصراعات السياسية والأيديولوجيـة، وهذا من شـأنه أن يجعل العالم فضـاء للمحبة والأخوة والسلام وبناء التنمية المستدامة والشاملة.

من جانبه وصـف وزير الاتصال الناطق

الرسمي باسم الحكومة المغربية خالد الناصري، موسم طانطان بـ «معلمة ليست ذات بعد ثقافي وسياسي فقط، بل أيضا ذات بعد حضاري بكل معنى الكلمة، فضلا عن كونها محملة بالكثير من الدلالات والمعاني لاسيما في هذا الظرف، الذي نبين فيه للجميع، ما نحن في حاجة إلى أن نؤكده، في مواجهة بعض التقلبات الإعلامية»، مشيراً إلى أن موسم طانطان «محمل بهذه الدلالة التي تجعلنا نؤكد افتخارنا واعتزازنا بالعطاء الصحراوي والثقافة الصحراوية التي ساهمت في إغناء الحضارة وصرح الأمة المغربية»، مضيفا ان ضيوف الموسم الذين أتوا من كل بقاع العالم إلى جانب الحضور الدبلوماسي المكثف «له دلالة قوية، وذلك انطلاقا من أمر بديهي مفاده أن قدومهم يبرهن على كونهم يتعاملون مع المغرب بكيفية عفوية وصادقة وبطريقة تتسم بالصداقة التي يعتز بها المغرب». [1]

الليبيون ومعابد الأقصر:

اعتبر الأستاذ الليبي عبد الرؤوف المناعي مؤلف كتاب «اكتشف ليبيا» أن النقوش في معابد الأقصر ووادي الملوك بمصر لا تدل على أن هذه الحضارة لسكان مستقرين، مؤكدا أنه عرف بعد مقارنتها بنقوش مشابهة، على جدران المعابد والكهوف في ليبيا وخاصة في أكاكوس وإمساك ووادي ماخندوش، أنها لسكان مهاجرين من ليبيا، مؤكداً أنه التزم في كتابه منهجا علميا، مبتعدا في الوقت نفسه عن المنهج الغربي في مسعى لـ«تخليص الموروث الحضاري الليبي مما علق به من شوائب ومن نصوص جنائزية ووثنية».

وتوزع الكتاب، الذي صدر باللغة الإنجليزية إلى عدة فصول، كل فصل خصص لمجال معين، والبداية كانت بإعطاء نبذة عن ليبيا وجغرافيتها والمناخ، ثم النباتات والحياة البرية وبعدها الطيور ثم السكان.

وركز المؤلف في كتابه على بعض الأعلام والمؤرخين من مدن وقرى وجبال ليبيا، ومن بينهم القاضي عبد الجبار السرتي من مدينة سرت وكان قاضي القضاة في القيروان، وكذلك الإمام سحنون عند رجوعه من زيارة ليبيا إلى بلاده تونس، والذي لما سُئل عن أهل طرابلس، قال: «إني رأيت بطرابلس رجالا لم أر أفضل منهم»، وكذلك ابن حوقل والبكري.

وقال بعض الباحثين الذين اطلعوا على الكتاب: إنه يعد دليلا سياحيا وتاريخيا وجغرافيا لكامل التراب الليبي، أعده المؤلف بعد رحلة سنوات جاب فيها مدنا وقرى وصحاري وجبالا ليبية، لجمع المعلومات من

مصدرها الأصلي ونقل تاريخ وحضارة ليبيا للعالم. (٧)

صدور كتاب الزرع لليوناني قسطوس بن اسكولستيكه:

صدر عن المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» «كتاب الزرع» من تحقيق وتقديم بوراوي الطرابلسي، ويقع في ٣٢٤ صفحة من القطع المتوسط.

وحول هذا الكتاب يقول الدكتور عبد الوهاب بوحديبة رئيس المجمع أنه كتاب جليل القدر وأهم ميزة يمتاز بها «كتاب الزرع»، إذ لا يفتأ القارئ يستفيد متشوقا أو يستعجب مستغربا. وإضافة إلى هذه الميزة، لا بدّ من التنبيه إلى قيمة الكتاب التاريخية والحضارية من جهة، وإلى قيمته اللغوية والاصطلاحية من جهة أخرى.

ويشير محقق هذا الكتاب بوراوي الطرابلسي بأن طرافة هذا الكتاب تهم المؤرخ كما تهم عالم المصطلح على السواء فالكتاب غنيّ بعديد المصطلحات اليونانيّة والسريانيّة والفهلوية تحتاج كما يقول توفيق فهد إلى رهط من المختصين في نواح عدّة.

ويتوزع الكتاب إلى اثني عشر جزءاً وإلى مجموعة أبواب تتناول علوم القدامى في شتى مجالات الزراعة، وتطرّق إلى الفصول والبروج، والأراضي وخصائصها والفلاحة وأعمالها.

وهذا المصنف غنيّ بالمعلومات في مجال الفلاحة الريفيّة، وكان يعرف عند الهيلينيّين باسم الغيويونيكس وهي كلمة يونانيّة تعني مجموع المعارف المتعلقة بخدمة الأرض قبل أن يترجم إلى العربية بعنوان «كتاب الفلاحة» أو «كتاب الزراعة» وهما لفظان واردان في المخطوطات التي اعتمدها المحقق ومؤلف هذا الكتاب هو على الأرجح كاسينوس باسوس سكولستيكوس اليوناني الأصل عاش في نهاية القرن السادس الميلادي وقد حرف اسمه في كتب التراجم العربية، فذكر باسم قسطوس بن اسكور سكينة وإن الأخبار في شأنه قليلة فلا يعرف عنه سوى المعلومات النزرة التي تفيد أنه كان كاتبا ومهندسا فلاحيا.

وكتابه الموسوم بكتاب الفلاحة أو «كتاب الزراعة» الذي حققه وقدّم له الأستاذ بوراوي الطرابلسي في نشرة علميّة ممتازة يطلعنا على الصعوبات والمزالق التي حفت بجمع هذا الكتاب وإخراجه وهو يعتبر رغم صغر حجمه - دائرة معارف جمة الفوائد، غزيرة المعلومات عن الفلاحة وعن حياة الريف في العصور القديمة.

ويعالج المؤلّف في هذا الكتاب جوانب

متعددة من غراسة الزيتون وغراسة الأشجار بأنواعها وتشذيبها كما يتناول جملة من الأعشاب الشذيّة والطبيّة في أسلوب سهل ممتع، إلى جانب ما احتواه الكتاب من نصائح وفوائد في مجال الفلاحة وخدمة البساتين، وتربية النحل والحيوانات الأليفة.(٨)

تطاوين.. قطب السياحة الصحراوية بتونس:

تعتبر منطقة الجنوب الشرقي التونسي التي تضم ولاية تطاوين فضاء لصحراء شاسعة مرت عليها قبائل عديدة وقوافل تجارية طيلة قرون ماضية، وتتميز بآثارها الخالدة على امتداد الحقب التاريخية السحيقة، وتعد مدينة تطاوين التي يعني اسمها «العيون» مركز هذه المنطقة وتتميز بتنوع تضاريسها، وتنتشر في أرجائها «متاحف طبيعية» تمكن زوارها من رؤية الماضي بعيون الحاضر. وترجع أشكال الحياة البشرية في المنطقة إلى عهود غابرة وتدل على ذلك عديد المواقع الأثرية التي تم اكتشافها في قلب الصحراء مثل «تيرت، عين الدوك، الدويرات وغمراسن» حيث تم العثور على مغارات تم استعمالها من قبل من سكنوا هناك قبل الميلاد.

وتعد المنطقة غنية بالمعالم الأثرية التي ترجع إلى العهود البونيقية كما عرفت تطاوين الحضارة الرومانية حيث أنشأ فيها الرومان عدة منشآت ذات صبغة دفاعية منها الحصون بأحجام مختلفة، أهمها حصن تلالت وحصن رمادة وحصن الفطناسية إضافة إلى تحصينات ومنشآت زراعية وسدود ومواجل وفسقيات مازالت آثارها منتشرة في كامل المنطقة. وتحفل تطاوين بتحصينات تعود إلى فترة الفتح الإسلامي الذي أدخل البلاد في فترة رخاء ورفاهية. وعلى قمم الجبال بنى البربر قراهم متميزين بنمط حياة خاص أملته الظروف المناخية، ومن أشهر هذه القرى «شنني والدويرات»، المعروفة بمساكنها المحفورة داخل الجبل وأسطورة «النيام السبع» أو ما يعرف هنا بـ«الرقود السبع». وحسب الأسطورة التي يتداولها الناس في المنطقة فإن «الرقود السبع» هم أصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم.

وهنالك أيضاً تقع قرية الدويرات المشهورة بمسجدها ومناظرها الطبيعية الجميلة وتشكل سلسلة جبال الظاهر بالجنوب التونسي النافذة الوحيدة التي تطل على التراكيب الجيولوجية التي تغطيها رمال الصحراء وتعتبر الطبقات الصخرية المكونة لهذه السلسلة شاهداً على

ميلاد محيط «التيتس» منذ أواخر الحقب الجيولوجية الأولى «٢٦٠ مليون سنة».

وتدعو المنطقة زوارها لرحلة «جيولوجية» في ذاكرة الأرض لاكتشاف أهم ثلاثة مواقع خلدها الزمان هنا: سهل بني غدير أو بقايا بحر «التيتس» والحواجز «الجوراسية» لوادي الزعفران وأخيرا جبل ميتر أو منتزه «الديناصورات». ففي مدخل مدينة غمراسن، وفي إحدى السهول العديدة المنتشرة والمكونة من الرسوبات من العصر الجوراسي الأعلى، موقع يحتوي على حيوانات متحجرة كانت تحيا عندما كان البحر يغمر هذا الربوع منذ «١٥٠» مليون سنة وكان المناخ المداري يوفر كل شروط العيش والتكاثر لهذه الحيوانات البحرية لتكون بهذه الوفرة وهذا التنوع. ويعد سهل بني غدير متحفاً مفتوحاً في الهواء الطلق يبرز قدرة الإنسان في التحكم بالطبيعة والتغلب على قساوتها باعتماده الفلاحة مصدرا للرزق.

كما تكونت في وادي الزعفران العديد من الحواجز الصخرية من المرجان أساسا وهي لا تزال ظاهرة في طبقات الحجارة الصلبة التي بني منها قصر الحدادة، وبناءات أخرى على الضفة الشمالية لوادي الزعفران على سفح الطريق الرابط بين غمراسن وبني خداش. ويذكر هذا المشهد بجزر «البهاماس».

وعند خاتمة الطريق الملتوية الذي يصل إلى جبل ميتر وعلى أعلى قمة هذا الجبل تم العثور على بقايا هذه الزواحف الضخمة وكذلك بقايا تماسيح وسلاحف وأسماك. كلها كانت تعيش منذ «١٠٠» مليون سنة في سهول غندوانة الشاسعة والتي كانت تشقها أنهار عديدة وتغطيها غابات كثيفة كما تدل على ذلك جذوع الأشجار المتحجرة. وما تزال الحفريات والأبحاث متواصلة في المنطقة وهي تكشف كل يوم عن أسرار هذا العالم المفقود.

وعلى بعد «٤٠ كلم» من تطاوين هيئت الصحراء بمحمية طبيعية تعد شاهدا على قدرة الإنسان في التغلب على قساوة المناخ الصحراوي. فكانت محمية «عين دكوك» الرئة التي تتنفس منها مدن المنطقة وهي تمتد على مساحة «٥٧٤٠ هكتارا» ومهمتها الحفاظ على المحيط وحماية الوسط الطبيعي إضافة إلى تكوين فضاء للبحوث حول المناطق القاحلة والحفاظ على التوازن الطبيعي وبعث مناطق خضراء ومراكز ترفيه وبعض الوحدات السياحية. كما تلعب المحمية دورا هاما في الحفاظ على الثروة النباتية والحيوانية الصحراوية.

وتفتخر تطاوين وما جاورها من مدن بصناعاتها التقليدية الغنية بأنواعها وأشكالها وأشهرها المنسوجات البدوية ذات التقنية الأفقية وهي من الحاجات الأساسية للرحل مثل «الخيمة» أما منسوجات القرى الجبلية فهي ذات تقنية عمودية مثل «الكليم، البخنوق، التعجيرة» وهي تستخدم لتأثيث المنزل ولباس المرأة. وتزيد المنسوجات جمالا ورونقا التطريزات والأشكال البربرية التي تزينها.

وتشهد المنطقة عديد التظاهرات والمهرجانات الثقافية إلى جانب المهرجان الدولي للقصور الصحراوية ويعد مهرجان الألعاب الشعبية ببني مهيرة من أهمها وهو ينتظم في منطقة بني مهيرة ٤٠ كلم إلى الشرق من تطاوين في شهر أبريل من كل عام وتقدم فيه جميع الألعاب التي اندثرت أو التي انحسرت ممارستها بحكم التطور الذي عرفته البلاد.

تمثل القصور الصحراوية في الجنوب التونسي أهم الثروات السياحية وتعد مثالاً على عراقة فن المعمار وتفرده وقد كان البربر أول من أقاموا هذه القصور حين اضطروا للالتجاء لرؤوس الجبال هربا من حملة بني هلال وبنوا قراهم وبيوتهم فوق قمم الجبال، حيث يوجد اليوم أكثر من ١٥٠ قصراً في تلك المنطقة، مازالت ماثلة للعيان وبعضها أعيد ترميمه واستغل لأغراض سياحية واقتصادية فقصر حدادة أصبح فندقا يأتيه السياح الأجانب من كل صوب نظراً لخصوصيته وطبيعة بنائه الفريدة.

ويعد المهرجان الدولي للقصور الصحراوية أهم مناسبة ثقافية بالمنطقة وهو تظاهرة تلتئم في شهر مارس/ آذار من كل سنة وتدوم ثلاثة أيام، تعرف بعادات وتقاليد أبناء الجنوب التونسي. ويقوم السياح خلال أيام المهرجان بجولات سياحية عديدة تمكنهم من الاطلاع على مخزون تطاوين وما حولها من مدن وقرى. ويستمتع السياح بمشاهدة ما تحفل به المنطقة من معمار فريد متميز. [٩]

أغاني أم كلثوم في لوحات فنية:

صدر للفنان التشكيلي العراقي المقيم في بريطانيا علي حسين الودي كتاب «أغاني أم كلثوم في لوحات فنية»، مزج فيه بين قصائد وكلمات أغاني أم كلثوم، وبين الفن التشكيلي، من خلال ٣٠ لوحة فنية ملونة للفنان الودي تضمنها الكتاب.

وتناول المؤلف في كتابه حياة أم كلثوم، أو «فاطمة إبراهيم البلتاجي» وهو اسمها الحقيقي، عبر ميلادها ونشأتها، ونزوحها إلى القاهرة، ثم انطلاقتها الفنية، ومراحل

تاريخهـا الفنـي الطويل، وكـذا إنجازاتها والجوائز والأوسـمة التي نالتها، ثم كلمات ٣٠ من أشـهر أغنياتها، مترجمة إلى العديد من اللغات الأجنبيـة من بينها: الإنجليزية، السويدية، إضافة إلى النوت الموسيقية لبعض هذه الأغنيات.

وقد أشـار الـودي إلى دوافع ومكنونات وجدانيـة كانت وراء فكرة تخصيصـه هذا الكتـاب لحيـاة أم كلثـوم ورحلتهـا الفنية والإبداعية، والتي شكلت كما قال في دواخله عوالم كانت تحلق به عاليًا في فضـاء الروح، فـكان كتابه في سـياق هذا الشـعور وفاء واعترافًا بمـا لفن أم كلثوم مـن أثر وتأثير على ذائقته التشكيلية والموسيقية.

وعـن الكتاب قـال الناقـد والإكاديمي الأستاذ الدكتور عبد الرضا عليّ: «أغاني أم كلثوم التي جسّـدها الفنان عليّ الوديّ على نحوِ لوحاتٍ تشكيلية، لم تكن محاولة لمجاراة معنى الشـعر المغنى فحسـب، إنما أضفى عليها ما أضـفاه من رؤاه الرمزية الفلسفية عند تلقيه الكلمة الموسـقة لحنيًا، فحاول أن يُظهر المسـكوت عنه فيما وراء الشـعر واللحـن والأداء، فعكسـت لوحاتـه ما كان يـدور في وعيه ولا وعيه من حوارٍ فلسـفي كوّنهُ توحّدُ الكلام بالصوت الذي عشقه منذ صباه، وردده مع ذاته دائمًا في مرسمه، وحلّه وترحالـه، فلا غرو إذاً أن يجد القارئ أكثر من متعة في كتاب علـيّ الوديّ كما وجدنا، فهو كتاب ممتع مميز في لوحاته التشـكيلية الرمزية، وقيمته الفنية، وأمانته المرجعية».

وعلي حسين الودي هو فنان تشكيلي من مواليد بغداد بالعراق عـام ١٩٤٧م. ويقيم حاليًـا في بريطانيا، شـارك في العديد من معارض الفنون التشكيلية، كما أقام معارضه الشخصـية في كل مـن: العـراق وأمـيركا والسويد وبريطانيا، ونال عددا من الدراسات والشهادات في الفنون التشكيلية.(١٠)

قضاء إسبانيا يدين كاميلو خوسيه:

أصـدر القضاء الإسـباني حكماً نهائياً يديـن الروائي الإسـباني الراحـل، الفائز بجائـزة نوبـل، كاميلـو خوسـيه ثيلا في القضية التي رفعتها الكاتبة ماريا دل كارمن فوروموسـو متهمة ثيلا بالسرقة الأدبية من إحدى رواياتها.

وكانت الروائية الإسبانية قد لجأت إلى القضـاء لإثبات وقوع سرقة أدبية من ثيلا في روايته «صليب سـان أندريس» التي فاز بها بجائزة بلانيتا عـام ١٩٩٤، من روايتها «كارمـن، كارميلا، كارمينيـا» التي تقدمت بها أيضـا إلى نفس الجائزة. ورأت محكمة برشـلونة أن هناك أدلة ظاهرة تثبت وقوع جنحة ضد الملكية الفكرية.

واستندت القاضية على دليلين، الأول أن رواية فورموسو قد سلمت إلى إدارة الجائزة قبل نحو شهرين من تقدم ثيلا بروايته المتهمة، والثاني أن تقرير الخبير، الذي أعده لويس إيثكييردو، أستاذ الأدب الإسباني بجامعة برشلونة، توصل إلى أنه حدث نسخ، ولو بشكل جزئي، من العمل الأصلي في رواية ثيلا الفائزة. ورأت القاضية، بناء على ذلك، أن رواية أديب نوبل تحتوى على «العديد من التشابهات» مع رواية فورموسو، وأن ثيلا حول رواية فورموسو إلى عمل مختلف جمالياً، ووضع لها طابعه الخاص، وفاز بالجائزة نفسها.

يشار إلى أن كاميلو خوسيه ثيلا هو أديب وشاعر إسباني ولد عام ١٩١٦، وكان كاتباً مثيراً للجدل في حياته، وحتى بعد وفاته سنة ٢٠٠٢، وهو على الرغم من إصداره ما يقرب من مئة أثر أدبي إلا أنه متهم بسرقة إحدى الروايات التي أوصلته إلى المحكمة، فقد ادّعت كارمن فورموسو أنه سرق روايتها «كارمن، كارميلا، كارمينا» ونشرها تحت عنوان «صليب سان أنريس»، مات ولا تزال القضية مفتوحة.

حاز خوسيه ثيلا على جائزة نوبل سنة ١٩٨٩، وعلى جائزة ثربانتس ١٩٩٥، التي تعد أشهر وأهم جائزة إسبانية، ولكنه وقبل الفوز بها وصفها قائلاً: «إذا لم يمنحوني جائزة ثربانتس فهذا يدخل ضمن التقاليد الإسبانية، مثلما يقتل آل كنيدي في أمريكا... إنها جائزة مغطاة بالفضلات».

وإلى جانب الرواية كتب ثيلا في القصة والشعر والمقال الأدبي والدراسات وأدب الرحلات، وفي مقدمة ذلك «رحلة إلى القرية» ويعني بها القرية التي استقر بها في أيامه الأخيرة، وتقع على تخوم العاصمة مدريد، وتستمد اسمها من اللغة العربية.

وكانت وزيرة الثقافة الإسبانية بيلار ديل كاستيو صرحت عند وفاة ثيلا بقولها: «فقدنا من يمكن أن نصفه بأبرز كتاب إسبانيا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، مؤكدة على حرية الفكر لدى ثيلا، والتي جعلته يهجر السائد سواء في الأسلوب الأدبي أو الاتجاه السياسي، بينما قالت الأكاديمية السويدية عند منحها ثيلا جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٩ إنها تمنح الجائزة «لأبرز شخصية في التجديد الأدبي الإسباني خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية»، ومارس ثيلا عدة أنواع أدبية مثل الشعر والمقالة إلى جانب الرواية».(١١)

فنون عصر الميجي في كتاب:

أصدر مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث كتاباً جديداً

بعنوان: «الفن والإبداع» ترجمته ميسون جحا وضم صورا فوتوغرافية يابانية من عصر ميجي والمعروضة في متحف الفنون الجميلة في بوسطن، فضلا عن مقالات بأقلام سباستيان دوبسون وآن نيشيمورا وفريدريك أ. شارف، وهم نقاد فنانون متميزون.

تناول الكتاب الحياة في اليابان قبل وصول الإمبراطور ميجي للسلطة في منتصف القرن التاسع عشر، وإجرائه إصلاحات أخرجت هذا البلد من عزلته النسبية إلى الانفتاح على الآخر والتفاعل مع العالم أجمع، كما يضم الكتاب نبذة عن عمليات البناء والتحديث التي شهدتها اليابان عقب تعديل الدستور في عهد ميجي.

ويتحدث الكتاب عن تطور صناعة التصوير في اليابان في مدينة يوكوهاما، التي لعبت دوراً كبيراً في احتضان المصورين الأجانب بوصفها أكبر ميناء ياباني حينها، ويستعرض الكتاب مسيرة أشهر المصورين الأجانب في القرن التاسع عشر، والذين بني على أكتافهم مجد هذه الصناعة وتطورها، كما يعود الفضل إليهم في تعليم اليابانيين سر هذه الصناعة الفنية حتى أتقنوها، وانطبق عليهم القول المأثور «رب تلميذ فاق أستاذه»، يحفل الكتاب بصور فوتوغرافية رائعة لونها بأيديهم رسامون وفنانون يابانيون ممن عرفوا بإخلاصهم في العمل وإتقانهم مهنتهم.

وقد صدر الكتاب بنسخته الإنجليزية عن متحف بوسطن للفنون الجميلة، وهو متحف شهير افتتح في تموز ١٨٧٦، في الذكرى المئوية الأولى لتأسيس الولايات المتحدة الأمريكية. وقد بني المتحف في ساحة كوبلي، وكان يضم حينها ٥٦٠٠ عمل فني، ثم توسع المتحف وأضيفت إليه أعمال فنية وتحف قيمة، وتضاعف عدد زواره، وفي وقت لاحق نقل المتحف إلى مقره الحالي في شارع هانتينجتون في بوسطن.[١٢]

إحالات

١- موقع العرب أونلاين WW.ARABONLINE.CO.

٢- وكالة الأخبار الموريتانية WWW.ALAKHBAR.INFO.

٣- وكالة الأنباء التونسية WWW.AKHBAR.TN.

٤- وكالة الأنباء اليمنية «سبأ»

WWW.SABANEWS.GOV.YA.

٥- وكالة المغرب العربي للأنباء

WWW.MAP.CO.MA.

٦- وكالة الأنباء الليبية «جاما»

WWW. JAMAHIRIYANEWS.COM.

٧- شبكة المعلومات العربية المحيط

WWW.MOHEET.COM.

٨- موقع القناة

WWW.ALQANAT.COM.

٩- موقع نسيج

WWW.NASEEJ.COM.

١٠- موقع ألف ياء

WWW.ALEFYAA.COM.

١١- موقع ميدل ايست أن لاين

WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

كتاب الشهر



التقاليد الشامية في الديار الأندلسية

عرض وتقديم : محمد سليمان حسن ۞

لم يكن «عبد الرحمن الداخل» ليدخل بلاد الأندلس تاركاً وراءه بلاد الشام. ولم يكن ليدخل رجالات الإسلام بقرآنهم فقط، بل دخلوا بعقولهم وقلوبهم وجميع موروثهم. وأينما حل الجميع من العرب والمسلمين، قدموا لأهل البلاد التي دخلوها ماعرفوه وعاشوه في بلادهم. فكانت بلاد الشام في الأندلس. وهذا ما يسمى «حوار الحضارات» أم «المثاقفة المعرفية» أم «نحن والآخر» إلى غير ذلك من التسميات. هذا الكتاب يجول في هذا المضمار من وجهة نظر صاحبه. كتاب تحت عنوان «التقاليد الشامية في الديار

۞ باحث سوري.

الأندلسـية» لمؤلفه الباحث المؤرخ والدارس لـتراث أمتـه العربية والإسـلامية الدكتور «محمد رضـوان الداية». الكتاب صادر عن «دار الفكر» بدمشـق للعـام /٢٠١٠/ ويقع في /١٢٥/ صـفحة من القطع الكبير. نقدّم عرضـاً له بما يتسـق والمعطيـات المعرفية للكتاب.

* * *

-١-

عـرّف مجمـع اللغـة العربيـة كلمـة (التقاليد) بأنها: العادات المتوارثة التي يقلد فيها الخلف السـلف. وتستخدم الكلمة في مجال التراث الشعبي، والحياة الاجتماعية. وتسـتخدم في العموم وفي الخصـوص. من ذلـك كتـاب إدوارد لـين المعنـون (عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم). أو خاصـة كما في كتب: الحمامات والجوامع والأسبلة وأعياد الميـلاد. وقد وردت عبارة (التقاليد الشـامية) في عدد من الدراسات الأندلسية مثل:/ ليفي بروفنسال وغيره.

-٢-

أمـر العلاقة بين الشـام والأندلس كان على الدوام خاصاً جداً:

١- فقد استطاع شريد ناج من سيوف العباسـيين أن يصـل إلى المغرب ومنها إلى الأندلـس، وأن يجد من الأنصـار ما أعانه على إقامة الدولة الأموية هو «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان» والملقب «عبد الرحمن الداخل».

٢- قضـى معظم عمره في تأسـيس الدولة الجديدة على المحبة والسـلام. وكم كان يـود أن يلتقـي المشـرق بالمغـرب عبر أوروبة.

٣- أرسى دعائم الدولة الجديدة على الرسوم المشرقية الشامية.

٤- نقـل البيئـة الشـامية إلى البيئة الأندلسية.

٥- نقل عناصر التزيين المعماري الفني من دمشق إلى الأندلس.

٦- كثرة عدد (الشـوام) في الأندلس، وخاصة المرحلة الأولى من حياة الإسلام في الأندلس.

-٣-

وهذه التقاليد الشـامية التـي انتقلت من الشـام إلى الأندلس تشـربُ من موارد متعددة:

١- كانـت الشـام في ظلال حضـارة جديـدة وليـدة ذات خصـائص متميـزة، اسـتطاع أبناؤها أن يجعلوا لأنفسـهم معالم

حضارة تتسق مع معالم الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس.

٢- كان البعد الجغرافي الهائل الذي يفصل الشام عن بلاد الأندلس يذكي في نفوس الواصلين الحنين ويثير الشجن. ثم إن الناس أنسوا بالمجتمع الجديد، واستقروا، وتم الزواج فيما بين أطيافهم.

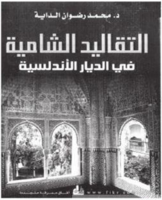
٣- كانت الأندلس بالقياس إلى الوافدين عليها كالأرض البكر. فزرعوها بما جادت به قريحتهم وحملته عقولهم.

٤- كان لعبد الرحمن الداخل أثر مهم في هذا الوصل المتين بين الشام والأندلس. فهو في قمة السلطة ويطمح إلى نموذج دمشقي في الأندلس.

٥- الاتصال الطويل والعميق بين الأندلس والشام خاصة جعل من حركة التجارة والتلاقح الفكري ما ساعد على بناء الدولة الإسلامية في الأندلس.

-٤-

وعلى مر التاريخ تمّ الربط بين بلاد الشام والأندلس. من ذلك ما نقله «المقري» في «نفح الطيب»: «الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وتراباً، وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً وحيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم..».



وقال «البكري الأندلسي»: «الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها، هندية في عطرها..».

حتى أن المستشرق الفرنسي «بروفنسال» يقول: «وينبغي أن لا ننسى أن الأمويين بإسبانية كانوا من سلالة سورية..».

-٥-

كان عبد الرحمن بن معاوية من القلّة التي أفلتت من سيوف المسودة العباسية الذين عملوا على استئصال بني أمية.. وكانت الأندلس تعاني من العزلة بعد نهاية الدولة الأموية وإغفال الدولة العباسية، فعمل عبد الرحمن الداخل على بناء دولته، وتنظيم المجتمع فيها، وعلى تشجيع التقاليد

الشرقية في الأندلس. وقد قسم الأندلس إلى (أكوار) على النسق الشرقي، ولم يغير في السياسة الاقتصادية. وكان يعتمد نظام الإدارة في الوزارة. واهتمامه بالعمران إذ أنشأ الجامع الأموي في قرطبة. لقد كان إنشاء دولة بني مروان الجديدة في الأندلس إحياء ونقلاً للدولة من الشام في المشرق إلى الأندلس في المغرب.

-٦-

إمام أهل الشام في الفقه هو إمام أهل الأندلس. كان الأوزاعي إمام أهل الشام بإجماع المؤرخين، وكذا في بلاد الأندلس.. وكان الأوزاعي عالماً عاملاً يطبق العلم والعمل.. وعلّل بعض المؤرخين سيادة مذهب الأوزاعي في الأندلس إلى:

١- أن الحياة الدينية في الأندلس كانت متأثرة ببلاد الشام، وفيها سيادة المذهب الأوزاعي.

٢- تتلمذ عدد من الأندلسيين للإمام مالك في المدينة ونقلوا مذهبه إلى الأندلس.

٣- إن عقلية أهل الأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث. ولهذا اعتمدوا على مذهب الأوزاعي.

-٧-

معروف، مشهور عناية الدولة الأموية باللغة العربية، والإصلاحات التي جرت في أيامهم على ترتيب الحروف الهجائية وإعجامها معروفة. وقد عربت الدولة الأموية الدواوين، وأكثر خلفاء بني أمية نظم الشعر. وقد انتقلت هذه التقاليد اللغوية، من الشام إلى الأندلس. حتى إن المستعربين كانوا يؤثرون استعمال لغة العرب، وأسماءهم وأزياءهم ويجتهدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي حياتهم. لقد كان تعريب الأندلس عاملاً مهماً في شد الأواصر وتنمية العلاقات بين أفراد المجتمع الأندلسي الذي تعددت فيه الأعراق والأديان واللهجات المحلية واللغات. وفي الكتب الأندلسية المفقودة مؤلفات وضعت في تواريخ بني أمية، وتراجم رجالهم، وأخرى في أسفارهم المختارة، وأخبارهم. وكان فيما انتقل مع عبد الرحمن الداخل، والأسرة الأموية من المشرق إلى الأندلس أسماء أجدادهم وكناهم. إنها تبين جانباً من جوانب الارتباط المتداخل العناصر: نفسياً وعاطفياً ووجدانياً، وإخلاصاً للنسب وإحياء لذكريات الخالدين السابقين.

-٨-

تبين الدراسات ولع خلفاء بني أمية في حركة العمران فاستحدث معاوية دار الخلافة. وعمّر الوليد المسجد الأموي، وقصر الحير الشرقي والغربي لهشام بن عبد الملك. واشتهر في مباني الأمويين بالشام: رصافة هشام. وكذا الأمر في بلاد الأندلس. فقد بنوا المسجد الجامع في قرطبة، والمرية مدينة الخليفة عبد الرحمن الناصر. والمنكب المدينة الأولى التي نزل بها عبد الرحمن الداخل ومنها دخل إلى الأندلس. وبلد الوليد وهي المدينة التي توفي فيها كريستوف كولومبوس البحارة البرتغالي الشهير.

-٩-

بعد رحلته العلمية التي قام بها الأستاذ سعيد الأفغاني -رحمه الله- إلى إسبانيا طفق يقول: «تشعر وكأنك تجول في القيمرية أو سوق ساروجة، أو في القنوات.. وكأن السكان هناك ومساكنهم القديمة أحياء دمشقية، وسكان دمشقيون لا يخطئك منهم شيء اللهم إلا اللغة..». لقد كانت العناصر البشرية في الأندلس متنوعة من حيث الجنس والعقيدة والثقافة. ومن خلال هذا الخليط، وائتلاف معظم عناصره، كان الطابع العام للسكان يظهر السمات المشرقية في التكوين الفيزيولوجي والكرم الأصيل وشهامة التعامل، والتمسك بالعادات والتقاليد، وحب الموسيقا والغناء.

-١٠-

كان عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ من أمراء بني أمية في الأندلس داراً للطراز. في مدينة قرطبة، وفيها كانت تنسج ثياب الأمراء والخلفاء. وهو الذي استكمل فخامة الملك بالأندلس، ويتحدث واشنطن ايرفنج عن روعة الخطوط والنقوش في قاعة الأختين في قصر الحمراء. وقد اشتهرت الأندلس بصناعات دمشقية عدة: السيوف الدمشقية، الحلي والمعادن الثمينة، والصناعات النسيجية، صناعة الحرير. وكانت راية الأندلسيين بيضاء اللون. عكس المسودة العباسية.

-١١-

لو أتيح لك أن تزور المسجد الأموي في قرطبة، لرأيت في صحن الجامع شجرات دمشقية باسقة من البرتقال والنارنج. واتسعت دائرة النباتات والأشجار التي انتقلت من الشام إلى الأندلس: المشمش

والليمون والتين والنخيل. وللنخل في ذاكرة عبد الرحمن الداخل الكثير مما يذكره ببلاده قائلاً:

يا نخل أنت غريبة مثلي
في الغرب نائية عن الأهل
فابكي وهل تبكي مكبسة
عجماء لم تطبع على خبل؟
لو أنها تبكي إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلها
بغضي بني العباس عن أهلي!

-١٢-

ونختم عرضنا هذا بنص شعري لأمير الشعراء أحمد شوقي بعنوان «صقر قريش: عبد الرحمن الداخل».

أين يا واحد مروان علم
من دعاك الصقر سماء عقاب
راية صرفها الفرد العلم
عن وجوه النصر تصريف النقاب
كنت إن جردت سيفاً أو قلم
أبت الألباب أو دنت الرقاب
ما رأى الناس سواه علما
لم يُرَم في لجة أو يبس
أعلى ركن السماك أدّعما
وتغطى بجناح القدس؟
قصرك المنية من قرطبة
فيه واروك ولله المصير
صدف حط على جوهرة
بيد أن الدهر نباش بصير
لم يدع ظلاً لقصر المنية
وكذا عمر الأمانيّ قصير!
كنت صقراً قرشياً علما
ما على الصقر إذا لم يُرْمَس
إن تسل أين قبور العظما
فعلى الأفواه أو في الأنفس.



الثقافـة المعـلّبة؟!

رئيس التحرير

أصارحكم القول بأنني كتبت عن موضوع «التاريخ الثقافي» أكثر من مرة، وها أنا أعود إليه لأنني أرى فيه جوانب كثيرة لم تأخذ حقها من البحث والدراسة، ولأنه لا يزال يلعب دوراً مهماً في تشكيل الفكر العربي المعاصر، ويفرض نفسه على المشكلات التي نعاني منها في عالم المتغيّرات المتسارعة ونظام «القرية الكونية» وازدياد الفردية، وانعزال الفرد عن ثقافته القومية وعن هموم وطنه الثقافية..

الثقافة مثلها، مثل التاريخ، عملية متصلة الحلقات، باعتبارها مستمرة ومتوارثة، وثمة علاقة عضوية بين الثقافة والتاريخ السياسي، فالإبداع الثقافي في كل مجالاته يتأثر بالوضع السياسي السائد في المجتمع وعلاقة المثقفين بالسلطة ونظرة السلطة إلى دور الثقافة وهامش الحرية المتاح للمثقفين والمبدعين في التعبير عن أفكارهم وآرائهم بالنسبة للأوضاع العامة، فالثقافة في بعض معانيها نتاج وحصيلة هذه الأوضاع وتسجيل لها في الوقت ذاته سواء أكان هذا التسجيل صريحاً أم رمزياً، ولكي نفهم الإبداع الثقافي في شتى صوره ومجالاته فإن الأمر يقتضي الإحاطة بالظروف والأوضاع والملابسات التي لازمت إنتاجه، مما يستدعي الرجوع إلى التاريخ السياسي، ومن هنا تكمن أهمية إتاحة وتوفير الوثائق للباحثين والدارسين ليستطيعوا التعرّف على تفاصيل الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية..

الدراسات التي كتبت حول هذا الموضوع كثيرة، وأكثرها تطالب بضرورة الاعتراف بحق التفكير والتعبير عن الفكر بشتى الوسائل الممكنة، ووضع أسس واضحة لفهم التراث العربي، بعد فهمه وتحديثه وكشف مافيه من جوانب القوة والضعف، ومعرفة كيف أفلحت الثقافة الغربية في تحقيق ما وصلت إليه من تقدم وارتقاء.. عسى أن يكون في ذلك بعض ما يساعدنا على أن نقوم بمثله بالنسبة للثقافة العربية، وبالتالي بالنسبة للهوية الثقافية العربية، بل وبالنسبة للكيان العربي ذاته..

حين ننظر إلى الثقافة العربية المعاصرة، نجد أن مكوناتها الرئيسة قد تأثرت في السنوات القليلة الماضية، بشكل واضح بثقافة العولمة فاللغة الإنكليزية حققت توسعاً هائلاً على حساب اللغة العربية، وقد أصبحت لغتنا -بكل أسف- في غربة عن كثير من العلوم المعاصرة، (الطب- الحاسوب- الهندسة..) بل وحتى بعض العلوم الإنسانية، مما يبين حجم التعرّية التي أصابت هذا المكوّن الرئيس من مكونات الهوية العربية، أما المكونات الأخرى للثقافة، فيكفي أن نلاحظ حجم التأثير على العادات والأطعمة والألبسة ووسائل الاتصال بكل أنواعها وأشكالها، كما أن مظاهر التهجين في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والفنية

والثقافية، أصبحت سمة أساسية في حياة الناس، وهذا بطبيعة الحال كان له أثره الكبير في طرق التفكير ومرتكزات الهوية العربية.. وهكذا يتم بصورة متسارعة تعميم قانون السوق على الثقافة وموادها التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى سلعة كبقية السلع، ويتم إلحاق ميادين الثقافة والفن والرياضة والموسيقى والمسرح والتراث بنظام «السوق المعمم» أي بقانون العرض والطلب، فالسمة العامة الجديدة للعصر الحالي حسب تعبير أحد العلماء هي: «التسليع المعمم للكلمات والأشياء، للأجسام والأرواح، للطبيعة والثقافة» وهكذا أصبحت الثقافة في زمن العولمة، بضاعة خاضعة للعرض والطلب، كبقية البضائع الاستهلاكية.. لقد تخلّت عن دورها ومضمونها وأهدافها وغاياتها النبيلة، السامية، للثقافة المعلّبة المستوردة من ركام الأسواق الاستهلاكية، ومخلفات البضائع الكاسدة، وتحوّلت من شيء نقرؤه ونسمعه إلى شيء نستخدمه ونستهلكه!! وهنا تكمن المشكلة..

مـن كـــروم الجمـــال

اللوحة: الشوق واللقاء - الفنانة: خلود السباعي



تمثل هذه اللوحة، المرحلة التي تشتغل عليها الفنانة التشكيلية خلود السباعي الدارسة للفن في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، والمتخرجة فيها أواخر ثمانينيات القرن الماضي.

للفنانة السباعي تجربة فنيّة لافتة، قدمتها عبر عدد من المعارض الفردية والجماعيّة، تتسم بالجمع بين التجريد والتشخيص. فلوحتها بشكل عام، تحمل وليمة من الألوان والأشكال، بعضها يحمل دلالات مباشرة (إنسانيّة ومعماريّة وطبيعيّة) وبعضها الآخر يقتصر على مفردة، بشكل محدد، ولون محدد، تستدعي وجودها، الحالة التعبيريّة العامة المنوطة بعناصر اللوحة ومفرداتها وأشكالها، وتالياً بتكوينها الذي يصعب تحديد هيكليته، لأنه يشغل كامل مساحة اللوحة، وهو تكوين يعكس الثقافة البصريّة الحداثيّة للفنانة السباعي، ويعكس في الوقت نفسه، براعتها في استحضار كل هذه الأشكال والألوان والعناصر، وتوزيعها المتقن والمعبّـر، فوق سطح اللوحة.

توفّق الفنانة خلود السباعي في لوحتها (الشوق واللقاء) المنشورة أعلاه، بين محمولات لونيّة وعنصراتيّة ودلاليّة عديدة، قامت بتوزيعها، بطريقة لافتة، خلصتها من زحمتها وضغطها على عين المتلقي، عندما وازنت بين الكتلة والفراغ، الأمر الذي أراح الأشكال، وخفف إلى حد كبير، من وقعها (الشكلي واللوني) الشديد. كما أن تنويعها بطريقة رصف هذه العناصر ومعالجتها (مساحة مؤطرة، مساحة حرة) وتعمدها استحضار العفويّة والتلقائيّة، أثناء قيامها بذلك، منح لوحتها التوازن المطلوب بين ما تحفظه الذاكرة من تجارب الآخرين، وبين أحاسيسها أثناء اجتراح فعل الإبداع، الأمر الذي قادها إلى خلق لوحة لاتكتفي بمغازلة البصر، بل وتتحرش بالبصيرة!!.

د. محمود شاهين